رواية

أليف شافاك

قواعد العِشق الأربعون

ترجمة: محمد درويش

مكتبة

دار الآداب

قواعد العشق الأربعون

قواعد العشق الأربعون

أليف شافاك/ روائيّة تركيّة

الطبعة الرابعة عشرة عام 2018
ISBN 978-9953-89-257-3

حقوق الطبع محفوظة

The Forty Rules of love

by Elif Shafak

Copyright © 2010 Elif Shafak

http://www.elifshafak.com

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123 - 11.
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

t.me/read4lead

أليف شافاك

قواعد العشق الأربعون

ترجمة محمّد درويش

رواية

دار الآداب ـ بيروت

مقدّمة المترجم

أليف شافاك
والرواية المتعدّدة الثقافات

في عالم متعدّد الثقافات، صراعاته المجتمعيّة أشدّ شراسة من الصراعات الدوليّة، كلّ طائفه فيه تمحق من يخالفها من بقيّة المذاهب والطوائف بقوّة السلاح تارة وبقوّة الخرافة والأسطورة والميثولوجيا تارة أخرى، يصبح الماضي جزءًا من الحاضر الكئيب، بل يهيمن عليه في محاولة لرسم مستقبل لا يستند إلى أصالة فكريّة أو إبداع ثقافي متميّز، ويغدو الحاضر كابوسًا مقيتًا ومرعبًا يخرج الإنسان المعاصر من عصرانيّته ويدفع به إلى ظلاميّة أشدّ من ظلاميّة العصور الوسطى، تجرّد الإنسان من فكره، ومن عقله، ومن عواطفه وقبل هذا كلّه من حبّه للآخر.

وقد تنبّه الروائيّون، على اختلاف جنسيّاتهم، في العقود القليلة الماضية إلى هذه الحقائق وبدأت كتاباتهم تنشقّ عن كتابات الأدب الكلاسيكي أو الرومانسي أو الواقعي (بمختلف أشكاله الاشتراكي والسحري وما بعد الكولونيالي، إلخ) التي لم تعد قادرة على تمثيل إنسان القرن الحادي والعشرين بكلّ همومه وإحباطاته التي ما عادت فرديّة بل جماعيّة، تؤثّر فيه وفي الجماعة التي تُحيط به قدر ما تؤثّر في إقليمه وعالمه اللامحدود.

من هنا تأتي أهمّيّة ما تقدّمه أليف شافاك الروائيّة التركيّة المولودة في ستراسبورغ الفرنسيّة العام ١٩٧١ وتكتب أعمالها الروائيّة باللغتين التركيّة والإنكليزيّة وتترجمها دور النشر العالميّة إلى أكثر من ثلاثين لغه حتى أصبحت كتبها الأكثر مبيعًا في الدول الأوروبيّة. فهي من ناحية أولى تسعى إلى تقديم رؤية معاصرة لما لحق بالمرأة، مستفيدة من تجارب روائيّة وغير روائيّة، معاصرة وغير معاصرة، لعدد كبير من المبدعات في الشأن الأدبي، مثل دوريس لسنغ وزيلدا فيتزجيرالد وسيلفا بلاث وجورج إليوت ولويزا ماي الكوت وغيرهنّ.

رؤيتها الفكريّة المعاصرة تستند إلى حدّ كبير إلى ما هو سياسي وفلسفي وأدبي واجتماعي في آن واحد. فوالدها هو الفيلسوف نوري بيلجين ووالدتها الدبلوماسيّة شافاك أتايمان، أخذت أليف اسمها الثاني من اسم والدتها الأوّل شافاك (والتي تعني بالعربيّة شفق كما ذكرت أليف في إحدى المقابلات الأدبيّة). وإذا كان الوالدان قد انفصلا ولها من العمر سنة واحدة لا غير، فإنّ أثر تربيتها بغياب والدها أثّر فيها تأثيرًا كبيرًا، أقلّه على الصعيد الكتابي والأدبي. وإذا كانت قد أمضت سنوات مراهقتها في مدريد وفيلادلفيا فإنّها عادت لتسكن مرّة أخرى في تركيا، لاسيّما اسطنبول، فضلاً عن بوسطن وميشيغان وأريزونا ولندن. ويبدو أنّ لمدينة اسطنبول أكبر الأثر في كتاباتها، بل هي المحور الأساس الذي تدور في فلكه معظم أدبيّاتها. وهي ترى أنّ اسطنبول تساعد المرء على أن يفهم منها غريزيًا، لا عقليًا، أنّ الشرق والغرب ليسا سوى أفكار متخيّلة. وقد أوضحت رأيها هذا في مقالة نُشرت بمجلّة التايم قائلة إنّ الشرق والغرب ليسا كالماء والنفط لأنهما يمتزجان أساسًا. وفي مدينة اسطنبول يمتزج الشرق والغرب امتزاجًا حقيقيًا وقويًا ومتّصلاً.

في تركيا أكملت دراستها في جامعة الشرق الأوسط التقنيّة وحازت منها شهادة الماجستير في الدراسات النسويّة والدكتوراه في العلوم السياسيّة وحازت رسالتها عن (التصوّف الإسلامي وفهم الزمان فهمًا دائريًا) جائزة قيّمة من معهد علماء الاجتماع. وكانت وما تزال تواصل الكتابة بانتظام في عدد من الصحف والمجلّات العالميّة مثل الغارديان اللندنيّة واللوموند

الفرنسيّة وبرلينر زايتونغ الألمانيّة ونيويورك تايمز وول ستريت جورنال والواشنطون بوست والتايم الأميركيّة.

أولى رواياتها «الصوفي» التي نالت عنها جائزة جلال الدين الرومي في ١٩٩٨ بوصفها أفضل عمل عن الأدب الصوفي في تركيا. أمّا روايتها الثانية «مرايا المدينة» فهي عن التصوّف الإسلامي واليهودي في القرن السابع عشر.

وجاءت روايتها الثالثة «نظرة محدّقة» لتنال عنها جائزة اتّحاد الأدباء الاتراك في العام ٢٠٠٠، وصدر لها بعد ذلك رواية «قصر البرغوث» التي أصبحت أفضل الكتب مبيعًا في تركيا، أعقبها كتاب يضمّ مجموعة من المقالات عن الأدب والثقافه والجنس والانغلاق الثقافي. وفي العام ٢٠٠٤ صدر للكاتبة أوّل رواية تكتبها بالإنكليزيّة بعنوان «قدّيس الحماقات الأولى»، وجاءت بعد ذلك روايتها الثانية بالإنكليزيّة بعنوان «لقيطة اسطنبول» التي أصبحت أكثر الكتب مبيعًا في تركيا العام ٢٠٠٦ وتسبّبت في إقامة دعوى قضائيّة عليها بتهمة الإساءة إلى القوميّة التركيّة وفق المادّة ٣٠١ من قانون العقوبات التركي وذلك على لسان إحدى شخصيّات الرواية عند الإشاره إلى موت مئات الآلاف من الأرمن في العام ١٩١٥ ووصف ذلك الموت بأنّه إبادة جماعيّة. لكن هيئة القضاء أفرجت عن الكاتبة لعدم كفاية الأدلّة وتجنّبت بذلك عقوبة السجن لثلاث سنوات في حال إدانتها.

وتنتقل الروائيّة من السياسة إلى الدين وإلى حقوق المرأة والحبّ، وهي الموضوعات المثيرة للجدل التي خاضت فيها وقدّمتها بتقنيّة روائيّة يحسدها عليها كبار المؤلّفين الروائيّين. درست الصوفيّة دراسة مستفيضة وهي في العشرين من عمرها فتأثّرت بها تأثّرًا كبيرًا، لا على صعيد السلوك السطحي والخارجي، بل على صعيد الفكر والرؤية وقالت عنها «كلّ ما قرأ المرء قراءة مفصّلة في موضوع الصوفيّة، تعيّن عليه أن يصغي أكثر فأكثر للآخر. لقد أثّرت فيّ الصوفيّة تأثيرًا روحيًّا وعاطفيًّا، وعندما كنت أصغر سنًّا لم يكن يهمّني أمر العالم ولا فهمه. كلّ ما فكّرت فيه يومئذ هو تغييره بمساعدة ثلاثة عوامل هي: النزعة النسويّة والفكرة العدميّة والحركة البيئيّة.

لكن كلّما تعمّقت في قراءة الصوفيّة وجدتني جاهلة أكثر من ذي قبل، وهذا ما ترمي إليه الصوفيّة تمامًا: إنّها تجعلك تمحو ما تعرفه وما أنت متأكّد منه، لتبدأ التفكير من جديد ولكنّ التفكير في هذه المرّة لا يستند إلى العقل بل إلى القلب».

وعلى هذا الأساس انتقلت للكتابة عن الصوفيّة في روايتها «أربعون قاعده للحبّ» التي مزجت فيها بين قراءة الماضي المتجسّد في شخصيّة جلال الدين الرومي وشمس التبريزي، والحاضر المتمثّل بشخصيّة إيلّا ربّة البيت الأميركيّة التي تفتقر إلى الحبّ بعد عقدين من الزواج بطبيب أسنان منهمك في ملذّاته قدر انهماكه في عمله، إن على الصعيد المهني أو الغرامي. ولكن هل في وسع ربّة البيت هذه أن تعوّض عن حرمانها من الحبّ بقراءة مخطوطة رواية موازية تتحدّث عن زمن شنمس التبريزي وجلال الدين الرومي؟ وهل تجد الأحداث المتنقّلة بين بغداد والأناضول معوّضًا عن فراغها الروحي في منزلها في حيّ نورثهامبتون الراقي؟

هذا الهاجس في تنوّع الأمكنة له جذوره في تنوّع الأمكنه التي شهدتها الروائيّة. فقد تنقّلت كما أشرنا سابقًا بين مدن متنوّعة الأعراق والأجناس والشعوب، ومتعدّدة الثقافات والبنى الفكريّة والأيديولوجيّة. فإذا كانت الولادة في ستراسبورغ بفرنسا، فإنّ الطفولة والمراهقة كانتا أساسًا في مدريد وفي عمان وفي كولون بألمانيا أمّا سنوات عمرها في الثلاثينيّات فكانت في الولايات المتّحدة، في بوسطن أوّلاً، ثم في ميشيغان وأريزونا. وإذا كان جزء من نشأتها في ولاية فلوريدا، كما تقول، فإنّ مدرستها الداخليّة كانت في الاباما وعاشت مدّة من الزمن متنقّلة بين مدينتين: تاكسون واسطنبول، مدينتان على طرفي نقيض، الأولى أميركيّة غارقة في هدوئها وسكونها وشدّة تنظيمها، وإن كانت الصحراء التي تُحيط بها هي التي خلبت لبّها، والثانية تركيّة لا تعرف طعم الراحه أو الهدوء بملايينها العشرة. فإذا ما تاقت إلى الصخب والعنفوان ذهبت إلى اسطنبول، وإذا ما اشتاقت إلى الهدوء والسكينة عادت إلى تاكسون. هي الروائيّة، إذًا نفس بشريّة لا يستقرّ لها حال، ولا يستقرّ بها مقام، تسعى إلى الجمع بين الضدّين قدر ما تستطيع، وإن كانت قد استقرّت في العاصمة البريطانيّة لندن

منذ عامين، ولا ندري مقامها في هذه المدينة أسيستمرّ أم لا، علمًا أنّها ذكرت مرّة أنّها معجبة بالمدينة لأنّ الناس تتحدّث في شوارع لندن بما يزيد على ثلاثمئة لغة اليوم، وأنّ تفاعل الناس فيها أكثر من أيّ تفاعل آخر وجدته في أيّ مدينة أخرى.

لكلّ لغة، كما تقول أليف، تعقيداتها ومتاهاتها وإيقاعاتها. وهي سعيدة باكتشافها الإمكانات التي تنطوي عليها كلّ لغة. والكتابة بأكثر من لغة، كما هو حالها، ينطوي على تحدّيات جمّة، لغويّة ووجوديّة، وعلى الروائي أن يكتشف صوته الأدبي عندما يكتب بلغه ثانية، يكتشفه من جديد. لكنّ الصعوبات التي تتمظهر في انتقال الروائيّة من لغة إلى لغة تبعث على رضاها لأنّها مفتونة باللغه بمعناها المجرّد، على حدّ تعبيرها. وتقارن نفسها بالصوفي المسلم الذي يعشق الحروف والكلمات وترى أنّ اللغة ليست أداة، ولا تجد نفسها خارجها، بل ترى فيها قارّة جديدة ينبغي استكشافها بما فيها من برارٍ وجبال وهضاب وحقول ومناظر طبيعيّة. واللغة في مفهومها الروائي تجعلها إنسانًا مختلفًا عندما تنتقل من لغة إلى أخرى.

وفي قضيّة العلاقات التركيّة الأرمنيّة، تجد أليف أنّ تركيا مغرمة في توجّهها نحو المستقبل في محاولة لقطع كلّ جذورها بالماضي. وإذا كانت محاولة التوجّه نحو المستقبل قد جعلت الشعب التركي بالغ الحيويّة فإنّه في الوقت نفسه بحاجة إلى النضج الذي لا يمكنه أن يتحقّق إلّا بإدامة الصلة بالماضي العريق الذي عاشته البلاد.

أمّا بخصوص أرمينيا فإنّ الروائيّة ترى في تشبّث الأرمن بالماضي تشبّثًا مستميتًا عقبة كأداء أمام تطوّر بلادهم لأنّ مثل هذا التشبّث الأعمى، كما تسمّيه، يحول دون رؤية الواقع الراهن بما فيه من إيجابيّات ومتغيّرات. ولهذا تجدها تدعو كلًّا من الأتراك والأرمن إلى نسيان الماضي الموغل في القدم والعادات من أجل بناء عالم جديد تسوده المحبّة وروح التفاني وقبول الآخر، فتجدها منهمكة منذ زمن غير قصير في قراءة مؤلّفات الصوفيّين الكبار الذين تساموا بمفاهيمهم عن الحبّ منذ عصور غابرة، وجاء اهتمامها بجلال الدين الرومي وشمس التبريزي متوّجًا

هذه القراءات ومتجسّدًا في رائعتها «قواعد العشق الأربعون» التي عزّزت من شهرتها الأدبيّة على نطاق عالمي، وبيع منها أكثر من نصف مليون نسخة حال صدور طبعتها الأميركيّة في شباط ٢٠١٠ وطبعتها الإنكليزيّة عن دار نشر بنغوين في حزيران ٢٠١٠.

الدكتور محمد درويش

بغداد ٢٠١٢

تمهيد

تحمل بين أصابعك قطعة حجر ترمي بها في الماء. وقد لا تكون مشاهدة الأثر سهلة، إذ سوف يتموّج الماء في النقطة التي تكسر فيها قطعة الحجر سطحه ويتناثر تناثرًا مكتومًا بسبب تدفّق النهر المحيط به. هذا كلّ ما هناك.

ارمِ بقطعة حجر في بحيرة ولكن تأثيرها لن يكون مرئيًّا فحسب، بل سيستمرّ مدّة أطول لأنّها تُثير اضطراب المياه الساكنة، مكوّنةً حلقة دائريّة في المكان الذي تضرب فيه تلك القطعة الماء. وفي لمح البصر تتضاعف تلك الحلقة حلقتين وثلاث حلقات، ولكن يمضي وقت طويل حتى تتّسع الموجات التي يحدثها سقوط ذلك الحجر وتغدو ملاحظتها ممكنة على امتداد سطح الماء الذي يعكس الصورة كالمرآة. ولا تتوقّف الحلقات الدائريّة وتتلاشى إلّا عند وصولها الشاطئ.

ولكن إذا ما ضربت قطعة حجر نهرًا، فإنّ النهر سوف يعدّها على أنّها ليست سوى فوضى أخرى تصادفه في مجراه المضطرب أساسًا.

أمّا إذا ضربت قطعة الحجر بحيرة من البحيرات فإنّ تلك البحيرة لن تعود إلى وضعها السابق أبدًا.

كانت حياة إيلّا روبنشتاين على مدى أربعين سنة مياه راكدة ـ سلسلة ممكن التنبّوء بها من العادات والحاجات والخيارات. وعلى الرّغم من أنّ حياتها كانت رتيبة واعتياديّة من مختلف الأوجه، فلم تجدها مرهقة. ففي غضون السنوات العشرين المنصرمة، كانت كلّ رغبة تتملّكها، وكلّ من

تتعرّف عليه من الأصدقاء، وكلّ قرار تصنعه إنّما كان يترشّح بوساطة زوجها. فقد كان زوجها طبيب أسنان ناجحًا، ثابر في عمله وجنى ثروة طائلة. وكانت تدرك دومًا أنّهما، هو وهي، لا يرتبطان ارتباطًا عميقًا، ولكنّها فكّرت أنّ الارتباط العاطفي لا ينبغي أن يكون بالضرورة ارتباطًا له الأولويّة في قائمة أيّ شخصين متزوّجين، وبخاصّة في حالة رجل وامرأة مضى على زواجهما زمن طويل. فثمّة أشياء أكثر أهمّيّة من العاطفة والحبّ في الزواج، كالتفاهم والمودّة والرحمة فضلاً عن تلك الصفة الإلٰهيّة التي يمكن المرء أن يتحلّى بها وهي المغفرة. إنّ الحبّ ثانوي إذا ما قُورن بكلّ تلك الأشياء إلّا إذا عاش المرء في الروايات والأشرطة السينمائيّة الرومانسيّة حيث يبدو الأبطال دومًا أكبر حجمًا من الحياة ولا يقلّ حبّهم عن مستوى الأسطورة.

كان أولاد إيلّا في قمّة أولويّاتها: ابنة جميلة تُدعى جانيت تدرس في إحدى الكلّيّات وتوأمان في سنّ المراهقة: أورلي وآفي، فضلاً عن كلب صيد ذهبي اللون في الثانية عشرة من عمره يُدعى سبيريت، كان رفيق إيلّا في نزهاتها سيرًا على الأقدام في أوقات الصباح وأكثر أصحابها إثارة للبهجة منذ أن كان صغيرًا. أمّا اليوم، فقد شاخ وازداد وزنه وأُصيب بالصمّ التامّ والعمى تقريبًا، ودنا من أجله ولكن إيلّا فضّلت التفكير بأنّه سيعيش إلى الأبد. مرّة أخرى، هكذا كانت طبيعتها. فهي لم تواجه موت أيّ شيء سواء كان ذلك الشيء عادة أو مرحلة أو زواجًا، حتى عندما كانت النهاية أمامها مباشرة، واضحة لا مفرّ منها.

عاش آل روبنشتاين في مدينة نورثهامبتون بولاية ماساشوسيتس، في بيت رحيب يعود إلى العصر الفكتوري، وكان بحاجة إلى بعض الترميمات ولكنّه ظلّ محتفظًا بقدر كبير من الأبّهة، بغرف نومه الخمس وحمّاماته الثلاثة وأرضيّاته البرّاقة المصنوعة من الخشب الصلد، ومرآبه الذي يتّسع لثلاث سيّارات وأبوابه الفرنسيّة، والأهمّ من كلّ شيء، جاكوزي في الهواء الطلق، وكانت لديهم وثيقة تأمين على الحياة وأخرى على السيّارة وخطط تخصّ الإحالة إلى التعاقد وخطط تتصل بمدّخرات الكلّيّة وحساب مصرفي مشترك فضلاً عن المنزل الذي كانوا يسكنون فيه وشقّتين فاخرتين الأولى

في مدينة بوسطن والثانية في رود ايلاند. لقد ثابرت هي وديڤيد مثابرة لا حدود لها لتحقيق كلّ هذه الأشياء: بيت واسع مملوء بضجيج الأطفال وأثاث أنيق. أمّا الرائحة المنبعثة من الفطائر البيتيّة فقد تبدو مبتذلة عند بعض الناس، إلّا أنّها كانت تمثّل لهم صورة عن حياة مثاليّة، لقد شيّد الاثنان زواجهما فوق هذه الرؤية المشتركة وحقّقا معظم أحلامهما إن لم يكن كلّها.

وفي عيد ڤالنتاين الأخير قدّم لها زوجها قطعة من الماس تمثّل قلبًا بارزًا وبطاقة كُتب عليها:

إلى عزيزتي إيلّا،

المرأة ذات السلوك الهادئ والقلب الكريم والصبر الذي يشبه صبر قدّيس. شكرًا لك لأنّك قبلت بي كما أنا. شكرًا لك لأنّك زوجتي.

المخلص

ديفيد

لم تعترف إيلّا بهذا أمام ديڤيد ولكنّها عندما قرأت هذه الكلمات شعرت كأنّها تقرأ نعيًا، وفكّرت: هذه هي العبارة التي سيكتبونها عنّي غداة وفاتي. وإذا ما كانوا أوفياء فربّما سيضيفون إلى تلك العبارة ما يأتي:

لقد افتقرت إيلّا التي بنت حياتها كلّها من حول زوجها وأولادها إلى أيّ أساليب تبقيها على قيد الحياة وتساعدها في التعامل مع صعوبات الحياة بمفردها. إنّها ليست من النمط الذي يضرب بالحذر والتحفّظ عرض الحائط، حتى إنّ تبديل نوع قهوتها اليوميّة يمثّل جهدًا كبيرًا.

لهذا كلّه لم يتمكّن أحد، بما فيهم إيلّا نفسها، من تفسير ما الذي كان يحدث عندما قدّمت طلبًا للطلاق في خريف عام ٢٠٠٨ بعد مضي عشرين سنة على الزواج.

t.me/read4lead

* * *

لكنْ ثمّة سبب: الحبّ.

فهما لم يعيشا في البلدة نفسها، ولا حتى في القارّة نفسها. فالاثنان لم تفصلهما أميال فحسب، بل كانا مختلفين اختلاف الليل والنهار،

أسلوب حياتيهما متباين تباينًا يجعل كلّ واحد منهما لا يطيق وجود الآخر كما يبدو. وأُغرم أحدهما بالآخر ولكن حدث ما حدث، حدث كلّ شيء بسرعة، بسرعة فائقة لم تترك مجالاً لإيلّا كي تُدرك ما الذي كان يحدث وأن تأخذ جانب الحيطة والحذر، إن كان في وسع أحد أن يأخذ الحذر والحيطة ضدّ الحبّ.

دَهَمَ الحبّ إيلّا بغتة وعلى نحو عنيف كأنّ قطعة حجر جاءت من مكان مجهول وضربت بركة حياتها الهادئة.

إيلّا

نورثهامبتون ١٧، أيّار ٢٠٠٨

كانت العصافير تغرّد خارج نافذة مطبخها في ذلك النهار المنعش من نهارات الربيع. وفي ما بعد استعادت إيلّا المشهد في ذهنها مرّات ومرّات حتى لاح كأنّه لحظة متّصلة ما تزال تحدث في مكان بعيد عنها في الكون بدلاً من أن يكون جزءًا من ماضيها.

ها هم هناك، يتحلّقون حول المائدة ويتناولون غداء عائليًّا متأخّرًا ما بعد ظهر أحد أيّام السبت. كان زوجها يملأ طبقه بأفخاذ الدجاج المقليّة المفضّلة لديه. وكان آفي يلعب بسكّينته وشوكته كأنّ كلّ واحدة منهما عصا طبل في حين كانت توأمه أورزلي تحسب كم لقمة من الطعام في وسعها أن تأكلها حتى لا تفسد حميتها المؤلّفة من ٦٥٠ سعرة في اليوم الواحد. أمّا جانيت التي كانت في مرحلتها الجامعيّة الأولى في كلّيّة ماونت هوليوك القريبة، فقد بدت غارقة في أفكارها وهي تضع قطعة من الجبن بالقشدة فوق شريحة خبز أخرى. جلست حول المائدة الخالة أستير التي كانت قد توقّفت لإيصال قالب من الكعكة المرخّمة التي اشتهرت بصنعها ومكثت لتناول طعام الغداء. كان يتعيّن على إيلّا أن تنجز الكثير من الأعمال بعدئذ ولكنّها لم تكن مستعدّة لمغادرة المائدة لأنّ الأسرة لم تحظ مؤخّرًا بفرصة لتناول وجبات الطعام معًا، فرأت في هذه المناسبة فرصة ذهبيّة أمام الجميع كي يلتمّ شملهم من جديد.

وبغتة سأل ديڤيد:

ـ هل نقلت إيلّا إليك يا أستير الخبر السارّ؟ لقد عثرت على وظيفة جيّدة.

على الرّغم من أنّ إيلّا تخرّجت من الجامعة وحصلت على شهادة في الأدب الإنكليزي وكانت تهوى الروايات، فلم تمارس شيئًا من تخصّصها بعد أن أنهت دراستها في الكلّيّة باستثناء تحرير بعض الموادّ القصيرة لبعض المجلّات النسائيّة، وارتياد عدد قليل من نوادي الكتّاب، وفي بعض الأحيان كتابة مراجعات كتب لبعض الصحف المحلّيّة. هذا كلّ ما هنالك. وكانت قد مرّت بمرحلة تطلّعت فيها إلى أن تصبح ناقدة كتب بارزة ولكنّها بكلّ بساطة رضخت لحقيقة مفادها أنّ الحياة جرفتها إلى مكان آخر، وحوّلتها إلى ربّة بيت مكافحة لها ثلاثة أطفال ومسؤوليّات بيتيّة لا أول لها ولا آخر.

لكنّها لم تتذمّر من هذه الأشياء وبقيت منشغلة انشغالاً كافيًا بوصفها أُمًّا وزوجة ورفيقة كلب ومدبّرة منزل، ولم تكن مضطرّة إلى أنّ تصبح مورد رزق الأسرة وفوق كلّ تلك المسؤوليّات. وعلى الرّغم من أنّ صديقاتها في كلّيّة سمث لم يستحسنّ خيارها، فقد رضيت بأن تكون أُمًّا تلازم بيتها وتشعر بالامتنان لأنّها هي وزوجها تمكّنا من تحمّل كلّ شيء، فضلاً عن ذلك فإنّها لم تتخلّ عن ولعها بالكتب وما زالت تنظر إلى نفسها على أنها قارئة نهمة.

قبل بضعة أعوام، بدأت الأمور تتغيّر. فقد كبر الأطفال وأوضحوا أنّهم ليسوا بحاجة إليها كما في السابق. ولمّا أدركت أنّ لديها الكثير من أوقات الفراغ، وأنّها لا تعرف أحدًا كي تمضي كلّ تلك الأوقات معه، فكّرت في البحث عن وظيفة وشجّعها ديڤيد ولكن على الرّغم من أنهما ظلّا طويلاً يتجاذبان أطراف الحديث عن ذلك الموضوع، فقلّما انتهزت الفرص التي واتتها وعندما انتهزت الفرص وجدت أنّ أرباب العمل من أصحاب الشأن كانوا يفضّلون من هي أصغر سنًّا منها وأكثر تجربة. لهذا السبب تخلّصت من الموضوع برمّته خشية أن تواجه الرفض مرّة تلو الأخرى.

ولكن على الرّغم من كلّ ذلك، تلاشت كلّ عقبة صادفتها في العثور

على وظيفة طوال تلك السنوات على نحو مفاجئ في شهر أيّار ٢٠٠٨. فقبل أسبوعين من حلول عيد ميلادها الأربعين وجدت نفسها تعمل لمصلحة دار نشر أدبيّة مقرّها في بوسطن. وكان زوجها هو الذي عثر على تلك الوظيفة بوساطة أحد زبائنه ـ أو ربّما بوساطة إحدى خليلاته.

أسرعت إيلّا موضحة الآن:

ـ آه، إنّها ليست وظيفة عظيمة الشأن. كلّ ما هناك هو أنّني قارئة غير متفرّغة لإحدى دور النشر الأدبيّة.

لكنّ ديڤيد بدا مصمّمًا على عدم السماح لها بالانتقاص من وظيفتها الجديدة، فشجّعها ووكزها برفق وقال:

ـ هيّا، قولي لهم إنّها دار نشر مشهورة.

وعندما رفضت الكلام والموافقة على ما قاله، وجد نفسه يتّفق وإيّاها من صميم قلبه.

ـ إنّها دار نشر ممتازة يا أستير. ينبغي لك رؤية بقيّة المساعدين! فتيان وفتيات تخرّجوا توًّا من أرقى الكلّيّات. أمّا إيلّا فهي المرأة الوحيدة التي تعود إلى العمل بعد أن ظلّت ربّة بيت سنوات طويلة. والآن، ألا يعني هذا أنّها امرأة متميّزة؟

فكّرت إيلّا في أعماقها إن كان زوجها شعر بأنّه مذنب بسبب إبعادها عن أيّ عمل، أو ربّما كان يخدعها ـ فهذان هما التفسيران الوحيدان اللذان في وسعها التفكير فيهما بعد أن شاهدته مبالغًا في حماسته.

أنهى ديڤيد كلامه وهو ما يزال مبتسمًا قائلاً:

ـ هذا ما أسمّيه مناكدة. كلّنا نفتخر بها.

قالت أستير بصوت عاطفي بدا كأنّ إيلّا قد غادرت المائدة ومضت في سبيلها:

ـ إنّها نعمة، في كلّ الأوقات.

نظر إليها الحاضرون نظرة ملؤها الحبّ، ولم يعلّق آفي أيّ تعليق ساخر في حين بدت أورلي للحظة من الزمان وهي مهتمّة بشيء آخر غير مظهرها. أجبرت إيلّا نفسها على التعبير عن شكرها لهذه اللحظة المليئة

بالحنان ولكنّها شعرت بإرهاق تامّ يستبدّ بها ولم تكن قد شعرت بمثله من قبل. وتوسّلت في سرّها أن يغيّر أحدهم دفّة الحديث.

لا بدّ أنّ أكبر بناتها جانيت سمعت توسّلها لأنّها سرعان ما تدخّلت في الحديث قائلة:

ـ لديّ أخبار سارّة أيضًا.

استدارت الرؤوس نحوها وومضت الوجوه متألّقة وقالت جانيت:

ـ قرّرنا أنا وسكوت أن نتزوّج. آه، إنّني أعرف ماذا ستقولون أيّها البشر! إنّنا لم نكمل دراستنا الجامعيّة بعد وما أشبه، ولكن يتعيّن عليكم أن تفهموا أنّني وهو على أهبّة الاستعداد للخطوة التالية الكبيرة.

خيّم صمت مربك على مائدة المطبخ في حين تبخّر ذلك الدفء الذي كان يشيع بينهم قبل لحظة لا أكثر. تبادل آفي وأورلي نظرات تنمّ عن عدم الفهم أو الاهتمام بينما تجمّدت أستير وهي تمسك بإحكام كأس عصير التفّاح، أمّا ديفيد فوضع شوكته جانبًا كأنّه لم تبق لديه أيّ شهيّة، ونظر شزرًا إلى جانيت بعينيه البنيّتين الفاتحتين اللتين تغضنّتا من زاويتيهما بسبب ابتسامه. على أيّة حال غابت الابتسامة الآن وتهدّل فمه كأنّه تجرّع مقدارًا كبيرًا من الخلّ.

قالت جانيت بصوت يشوبه الأنين:

ـ هائل! توقّعت أن تشاركوني سعادتي ولكنّكم تعاملوني دون اكتراث بدلاً من ذلك.

قال ديفيد معلّقًا كأنّ جانيت لم تدرك ما تفوّهت به وأنّها بحاجة إلى من يخبرها:

ـ قلت إنّك مقبلة على الزواج.

ـ أعرف يا أبي أنّ الموضوع يبدو سابقًا لأوانه إلى حدّ ما، ولكنّ سكوت اقترح على الزواج قبل أيّام فأجبت بالإيجاب.

سألت إيلّا:

ـ لكن لماذا؟

خمّنت إيلّا من النظرة التي ألقتها عليها جانيت أنّ سؤالها لم يكن من

النمط الذي كانت تتوقّعه ابنتها. كانت تفضّل أن يكون السؤال: «متى؟» أو «كيف؟» وفي كلتا الحالتين كان ذلك يعني أنّ في وسعها البدء بشراء ثوب زفافها. أمّا السؤال بكلمة «لماذا» فتلك قضيّة مختلفة تمامًا لأنّه فأجأها مفاجأة تامّة.

قالت جانيت بنبرة تنمّ عن الكياسة واللطف إلى حدّ ما:

ـ أعتقد لأنّني أحبّه.

ألحّت إيلّا في السؤال:

ـ أعني يا عزيزتي لِمَ هذه العجلة؟ أأنت حامل أو ما أشبه؟

انتفضت أستير في كرسيّها صارمة الوجه وبدا عليها الألم واضحًا، فتناولت حبّة مضادّة للحموضة من جيبها وبدأت تلوكها.

قال آفي ضاحكًا:

ـ سوف أصبح خالاً.

أمسكت إيلّا بيد جانيت وضغطت عليها برفق وقالت:

ـ في وسعك دومًا أن تخبريني بالحقيقة. أنت تعرفين ذلك. صحيح؟ سنقف إلى جانبك مهما كانت القضيّة.

ردّت جانيت بنزق وهي تجذب يدها بعيدًا:

ـ هلّا توقّفت عن هذا الكلام يا أمّاه من فضلك. ليس للأمر أيّ علاقة بالحمل. إنّك تثيرين ارتباكي.

أجابت إيلّا بهدوء وإن كانت تجد الهدوء في الآونة الأخيرة صعب التحقيق أكثر فأكثر:

ـ إنّي أحاول مساعدتك لا غير.

ـ تعنين بإهانتي، يبدو أنّ الطريقة الوحيدة التي في وسعك مشاهدتي فيها أنا وسكوت ونحن نقبل على الزواج هي في أنّه قضى وطره منّي! ألا تفكّرين بأنّني أريد الزواج بهذا الفتى لأنّني مغرمة به؟ لقد مضت ثمانية أشهر ونحن نلتقي معًا.

دفع هذا الكلام إيلّا إلى السخرية، فقالت:

ـ آه، نعم ، كان في استطاعتك معرفة شخصيّة الإنسان في ثمانية

أشهر! لقد مرّ على زواجي بأبيك زهاء عشرين سنة ولكنّنا لا نستطيع حتى الادّعاء بأنّ أحدنا يعرف كلّ شيء عن الآخر. ثمانية أشهر لا شيء في أيّة علاقة.

قال آفي مبتسمًا:

ـ لقد قضى الله ستّة أيّام في خلق الكون كلّه.

لكنّ النظرات الباردة التي ألقاها عليه الحاضرون من حول المائدة أرغمته على التزام الصمت من جديد.

لاحظ ديفيد التوتّر المتصاعد، فثبّت عينيه على ابنته الكبرى وقطّب جبينه مفكّرًا وقال بغتة:

ـ يا عزيزتي! إنّ ما تحاول والدتك قوله هو أنّ اللقاء شيء والزواج شيء آخر.

فسألت جانيت:

ـ لكن أتظنّ يا أبي أنّنا سنظلّ نلتقي إلى ما لا نهاية؟

أمّا إيلّا فقالت متنهّدة:

ـ لنكن صريحين وإيّاك. كنّا نتوقّع منك أنّ تجدي لك شخصًا أفضل منه، فأنت أصغر بكثير من أن تتورّطي في أيّ علاقة جادّة.

ردّت جانيت بصوت بارد يصعب فهمه:

ـ أتدرين ما الذي يدور ببالي يا أمّاه؟ إنّني أعتقد أنّك تُسقطين مخاوفك عليّ، لكن إذا كنت قد تزوّجت وأنت في مقتبل الشباب ورُزقت طفلةً عندما كنت في مثل سنّي، فإنّ هذا لا يعني أنّني سأرتكب الغلطة نفسها.

تورّد وجه إيلّا وكأنّها تلقّت صفعة، وتذكّرت من أعماقها ذلك الحمل الصعب الذي نجم عنه ولادة جانيت قبل أوانها. فقد أنهكتها الطفلة في رضاعتها وفي بداية مشيها، واستنزفت كلّ طاقتها، وهذا هو السبب الذي دفعها إلى الانتظار ست سنوات قبل أن تحمل ثانية.

قال ديفيد بحذر مجرّبًا استراتيجيّة أخرى:

ـ كنّا سعداء يا حبيبتي عندما بدأت تلتقين سكوت، فهو شابّ لطيف.

لكن من يدري ما الذي ستفكّرين به بعد التخرّج؟ وقد تختلف الأدوار اختلافًا شديدًا.

أومأت جانيت إيماءة صغيرة تنمّ عمّا هو أكثر قليلاً من الرضا المزعوم. ثم قالت:

ـ هل السبب هو أنّ سكوت ليس يهوديًا؟

أدار ديڤيد عينيه غير مصدّق، إذ كان يفتخر دومًا بأنّه أب مثقّف، منفتح العقل، يتجنّب إبداء الملاحظات السلبيّة عن العرق أو الدين أو الجنس في البيت.

لكن جانيت بدت قلقة فالتفتت إلى أمّها وسألت:

ـ هلّا نظرت إلى عينيّ وأخبرتني بأنّك سوف تبدين الاعتراضات نفسها لو كان سكوت شابًّا يهوديًا يُدعى هارون؟

كان صوت جانيت تشوبه المرارة والسخرية، فخشيت إيلّا أن يكون ما هو أكثر من هذا يفور في أعماق ابنتها.

ـ سأكون في منتهى الصراحة وإياك يا حبيبتي حتى لو لم يعجبك ذلك. أعرف جيّدًا روعة الصبا وروعة العشق. أعرف هذا، صدّقيني ولكنّ الزواج بشخص له جذور مختلفة مغامرة كبيرة. ونريد بصفتنا أبويك أن نكون متأكّدين أنّك تفعلين الشيء الصحيح.

ـ وكيف تعرفان أنّ ما هو صحيح لكما هو صحيح لي؟

فاجأ السؤال إيلّا قليلاً، فتنهّدت وفركت جبينها كأنّها توشك أن يدهمها ألم الشقيقة.

ـ إنّني أحبّه يا أمّي. أتفهمين هذا؟ أتتذكّرين هذه الكلمة من مكان ما؟ إنّه يجعل فؤادي ينبض بسرعة أكبر. إنّني لا استطيع العيش من دونه.

سمعت إيلّا نفسها وهي تضحك ضحكة خافتة. لم يكن هدفها أن تسخر من مشاعر ابنتها. لا، أبدًا، لكن ربّما هكذا بدت ضحكتها الخافتة. وشعرت بتوتّر شديد لأسباب تجهلها. سبق أن تشاجرت وجانيت، مئات المرّات، لكنّها أحسّت اليوم كأنّها تتشاجر بخصوص شيء آخر، شيء أكبر.

ردّت جانيت ردًّا سريعًا ينمّ عن حضور البديهة، تشوبه مسحة من الاحتقار:

ـ آه، امنحيني فرصة! توقّفي عن أحلام اليقظة وكوني واقعيّة. إنّك غاية في. . .

وهنا تحوّلت عينا إيلّا باتّجاه النافذة وهي تبحث عن كلمة مؤثّرة حتى نطقت بها:

ـ الرومانسيّة!

فسألت جانيت كأنّها تلقّت إهانة.

ـ ما الخطأ إن كنت رومانسيّة؟

فكّرت إيلّا متسائلة: حقًّا، ما الخطأ في الرومانسيّة؟ منذ متى وهي منزعجة بسبب الرومانسيّة؟ ولمّا عجزت عن العثور على الإجابة العالقة في حافّات ذهنها استرسلت قائلة:

ـ بالله عليك يا حبيبتي، في أيّ قرن أنت تعيشين. افهمي هذا الكلام: إنّ النساء لا يتزوّجن بالرجال الذين يغرمن بهم. فعندما يجدّ الجدّ، يخترن الرجل الذي سيصبح أبًا صالحًا وزوجًا يُعتمد عليه. ما الحبّ إلّا شعور لذيذ يأتي ليتبخّر سريعًا.

عندما فرغت إيلّا من كلامها التفتت إلى زوجها. كأنّ ديڤيد قد شدّ على يديه ببطء كأنّهما في ماء ونظر إليها كأنّه لم يرها من قبل.

قالت جانيت:

ـ أعرف السبب الذي يدفعك إلى مثل هذا التصرّف. إنّك تغارين من سعادتي ومن شبابي. إنّك تريدين أن تجعلي منّي ربّة بيت تعسة. إنّك تريدين أن أصبح مثلك يا أمّي.

شعرت إيلّا بإحساس غريب يغوص في أعماقها كأنّ صخرة هائلة تجثم فوقها. أتُراها ربّة بيت تعسة؟ أم في خريف العمر أسيرة زواج فاشل؟ أهكذا ينظر إليها أبناؤها. وزوجها أيضًا؟ وماذا عن الأصدقاء والجيران؟ وبغتة راودها شعور بأنّ كلّ الذين من حولها يرثون لحالها سرًّا، وكانت شكوكها مبعث ألم عظيم لها، فشهقت.

قال ديڤيد وهو يلتفت نحو جانيت وقد علت وجهه تكشيرة:

ـ ينبغي لك أن تعتذري من والدتك:

ـ لا بأس. إنّني لا أريد أيّ اعتذار.

نظرت جانيت إلى أمّها نظرة ماكرة ذات مغزى وعلى حين غرّة دفعت كرسيّها إلى الوراء ورمت بمنديل المائدة جانبًا وخرجت من المطبخ. وبعد دقيقة واحدة خرجت أورلي وآفي بصمت إمّا تضامنًا مع شقيقتهما الكبرى أو لأنّهما سئما كلّ هذا الكلام الخاصّ بالبالغين، ثم خرجت أستير وهي تغمغم معتذرة اعتذارًا بائسًا وتلوك بقوّة آخر حبّة مضادّة للحموضة.

بقي ديڤيد وإيلّا حول المنضدة، يخيّم ارتباك يشوبه التوتّر على الهواء الذي يفصل بينهما. تألّمت إيلّا لاضطرارها إلى مواجهة هذا الفراغ الذي كان كلّ واحد منهما يعلم أن لا صلة له بجانيت أو بأيّ ولد آخر من أولادهما.

أمسك ديڤيد بالشوكة التي كان قد وضعها جانبًا ونظر إليها مليًّا.

ـ هل ينبغي لي إذًا الاستنتاج بأنّك لم تتزوّجي بالرجل الذي أحببت؟

ـ آه أرجوك، ليس هذا ما كنت أعنيه.

قال ديڤيد وهو لا يزال يكلّم الشوكة:

ـ ما الذي كنت تعنين إذًا؟ اعتقدت أنّك كنت مغرمة بي عندما تزوّجنا.

قالت إيلّا:

ـ كنت مغرمة بك.

ولم تفلح في منع نفسها من أن تضيف:

ـ سابقًا.

فسأل ديڤيد دون أن تعبّر سحنته عن أيّ شعور:

ـ إذًا متى فقدت حبّك لي؟

نظرت إيلّا إلى زوجها نظرة ملؤها الدهشه كأنّها شخص لم يسبق له رؤية وجهها وها هو الآن يحمل مرآة أمام وجهها. هل فقدت حبّها له؟ إنّه سؤال لم توجّهه إلى نفسها قطّ. أرادت أن تجيب لكنّها افتقرت إلى

الكلمات أكثر ممّا افتقرت إلى الإرادة. وفي أعماقها كانت تُدرك جيّدًا أنّ عليهما أن ينشغلا بنفسيهما وليس بأولادهما. لكنّهما بدلاً من ذلك، فعلا الشيء الذي يتفوّقان في فعله إلى أبعد الحدود وهو السماح للأيّام بأن تنقضي وأن تسيطر عليهما الرتابة وأن يأخذ الزمان مجراه في خدر لا مفرّ منه.

بدأت تبكي بعد أن عجزت عن الحيلولة دون انزياح هذا الكمّ من الحزن المتواصل الذي بات، دون أن تدري، جزءًا لا يتجزّأ من هويّتها. أشاح ديڤيد بوجهه الحزين جانبًا. كانا يعلمان كم كان يكره مشاهدتها وهي تبكي تمامًا مثلما كانت تكره البكاء أمامه، ولحسن الحظّ رنّ الهاتف فأنقذهما.

التقط ديڤيد سمّاعة الهاتف وقال:

ـ هلو... نعم، إنّها هنا. لحظة من فضلك.

تمالكت إيلّا نفسها واستجمعت رباطة جأشها وتكلّمت بصوت مرتفع باذلة جهدها كي تبدو في أطيب حال.

ـ نعم، هذه أنا إيلّا.

فتناهى صوت امرأة شابّة وهي تقول:

ـ مرحبًا. هذه أنا ميشيل، آسفة لإزعاجك في عطلة نهاية الأسبوع. الحقّ أنّ ستيف طلب منّي أن أتّصل بك ولكنّني نسيت. هل سنحت لك الفرصة للبدء بقراءة المخطوطة؟

تنهّدت إيلّا بعد أن تذكّرت توًّا المهمّة التي كانت تنتظرها.

ـ آه.

كان أوّل واجب طلبته منها دار النشر الأدبيّة هو قراءة رواية لمؤلّف أوروبي مغمور على أن تكتب بعد ذلك تقريرًا مفصّلاً عنها.

كذبت إيلّا قائلة:

ـ قولي له ألّا يقلق، لقد بدأت بقراءتها حقًّا.

غير أنّ إيلّا لم ترغب في أن تُزعج شخصًا مثل ميشيل المعروفة بطموحها وعنادها في أوّل عمل يُلقى على عاتقها.

ـ آه، حسن. وكيف وجدتها؟

أمسكت إيلّا عن الكلام قليلاً، حائرة لا تدري ما تقول. فهي لا تعرف شيئًا عن المخطوطة سوى أنّها رواية تاريخيّة تدور عن حياة الشاعر الصوفي المشهور الرومي الذي علمت أنّه كان يُدعى بشكسبير العالم الإسلامي.

ضحكت إيلّا ضحكة خافتة مؤملة أن تطلق نكتة للتغطية:

ـ آه، إنّها رواية صوفيّة تمامًا.

لكنّ ميشيل كانت امرأة مهنيّة تمامًا فقالت ببرود:

ـ حسنًا، اِصغي إليّ. أظنّ أنّ عليك البدء بالمراجعة، فقد تستغرق كتابة تقرير عن مثل هذه الرواية وقتًا أطول ممّا تتوقّعين..

ثمّة غمغمة بعيدة تناهت إلى السمع من الهاتف في حين تلاشى صوت ميشيل. وتخيّلتها إيلّا وهي تمارس مهمّات متعدّدة في الوقت نفسه ـ متابعة الرسائل الإلكترونيّة وقراءة مراجعة عن أحد مؤلّفيها وتناول شطيرة من سلطة التونا وصبغ أظافرها ـ كلّ ذلك وهي تتحدّث هاتفيًا.

وسألت ميشيل بعد مرور دقيقة واحدة:

ـ أما زلت معي؟

ـ نعم.

ـ حسنًا. اِصغي إليّ: المكان يضجّ بالعمل هنا ولا بدّ لي من إنهاء المكالمة. تذكّري أنّ المدّة هي ثلاثة أسابيع.

قالت إيلّا بغتة في محاولة كي تبدو أكثر حزمًا:

ـ أعرف. سألتزم بالموعد.

الحقّ هو أنّ إيلّا لم تكن واثقة بأنّها كانت تريد أن تقيّم هذه المخطوطة. صحيح أنّها كانت في بداية الأمر توّاقة وواثقة وشعرت بالحماسة كونها أوّل من يقرأ مخطوطة رواية غير منشورة لمؤلّف مغمور وأن تؤدّي دورًا في مصيره مهما كان حجم ذلك الدور صغيرًا جدًّا. أمّا الآن فهي غير واثقة بقدرتها على التركيز في موضوع لا صله له بحياتها مثل موضوع الصوفيّة وفي زمان بعيد بعد القرن الثالث عشر.

لا بدّ أنّ ميشيل تنبّهت إلى تردّدها، فسألت:

ـ هل من مشكلة؟

ولمّا لم تسمع جوابًا عن سؤالها، ازدادت إصرارًا:

ـ أصغي إليّ، في وسعك أن تثقي بي.

بعد لحظات قصيرة من الصمت، قرّرت إيلّا أن تخبرها بالحقيقة.

ـ كلّ ما هناك هو أنّني لست متأكّدة أنّني في حالة ذهنيّة صافية هذه الأيّام تمكّنني من التركيز على رواية تاريخيّة. ما أعنيه هو أنّني مهتمّة بالرومي ومجمل العمل لكن على الرّغم من ذلك أجد الموضوع غريبًا عليّ. ربّما في وسعك إعطائي رواية أخرى ـ أنت تدرين، رواية أستطيع أن أتبيّن العلاقات فيها.

ردّت ميشيل:

ـ هذا مدخل ملتو، فأنت تعتقدين أنّ في وسعك العمل على نحو أفضل إذا كنت تعرفين شيئًا ما عن الكتب؟ لا محال! يجب ألّا تتوقّعي مراجعة روايات أخرى تدور أحداثها في ماساشوسيتس لأنّك تعيشين في هذه الولاية. صحيح؟

قالت إيلّا:

ـ لم يكن هذا فحوى كلامي...

وهنا أدركت من فورها أنّها ردّدت العبارة نفسها مرّات ومرّات عصر هذا اليوم، ثم رمت زوجها بنظرة خاطفة كي ترى إن كان قد تنبّه هو نفسه إلى هذه النقطة، ولكن صعب عليها فكّ طلاسم التعابير التي لاحت على محيّاه.

ـ إنّنا نضطرّ في معظم الأحيان إلى قراءة كتب لا صلة لها بحياتنا. ذلك جزء من عملنا. فقد فرغت في هذا الأسبوع من قراءة كتاب من تأليف مؤلّفة إيرانيّة وكانت تُدير مبغى في طهران واضطرّت إلى الهروب من البلاد. فهل كان ينبغي لي أن أخبرها بأن ترسل المخطوطة إلى دار نشر إيرانيّة بدلاً من دارنا؟

تلعثمت إيلّا وهي تشعر بأنّها مخطئة وغبيّة.

ـ لا، أبدًا.

ـ ألا تعتقدين أنّ ربط الناس بالبلاد والحضارات البعيدة دليل قوّة على الأدب الجيّد؟

ـ نعم، على وجه التوكيد. إنسي ما قلته لك. سيكون التقرير جاهزًا على مكتبك قبل انقضاء الموعد المحدّد.

قالت إيلّا ذلك بعد أن رضخت للأمر لأنّها كرهت ميشيل وهي تعاملها وكأنّها أكثر الناس إثارة للسأم في قيد الحياة، وكرهت نفسها لأنّها تركت الأمور تحدث على هذا النحو.

وهنا خلصت ميشيل إلى القول بصوتها الرتيب:

ـ عظيم، هكذا هي الروح. لا تسيئي فهمي، لكنّني أعتقد بأنّك يجب أن تأخذي في الحسبان أنّ عشرات الناس خارج هذا المكان يروقهم أن يحصلوا على وظيفتك. كما أنّ معظمهم أصغر سنًّا منكِ بكثير. سيكون هذا حافزًا لك.

عندما أغلقت إيلّا الهاتف، وجدت ديڤيد يراقبها، جامد الوجه، متحفّظًا. بدا وكأنّه ينتظر ليكمل الحديث الذي انقطع، لكن إيلّا لم تشعر برغبة في التفكير مليًّا في مستقبل ابنتهما بعد الآن، هذا إن كان ذلك هو مبعث قلقهما في المقام الأوّل.

* * *

وفي وقت لاحق من ذلك النهار، جلست وحيدة في كرسيّها الهزّاز في البهو تتطلّع نحو غروب شمس نورثهامبتون الأحمر المائل إلى البرتقالي. شعرت أنّ السماء قريبة ومفتوحة أمامها على نحو يمكن معه لمسها. هدأ بالها وكأنّه تعب من كلّ تلك الضوضاء التي تختلج في أعماقها: مدفوعات هذا الشهر ببطاقة الائتمان وعادات أورلي السيّئة ومعدّل درجات آفي البائسة وأستير وكعكتها الحزينة وتدهور صحّة كلبها سبيرت وخطط جانيت في الزواج وغراميّات زوجها السرّيّة وغياب الحبّ من حياتها... أغلقت كلّ هذه الأشياء، واحدًا تلو الآخر، في صناديق عقلها الصغيرة.

أخرجت إيلّا، وهي في تلك الحالة الذهنيّة، المخطوطة من رزمتها ووازنتها بيدها كأنّها تريد أن تعرف مقدار وزنها. كان عنوان الرواية مكتوبًا على الغلاف بحبر نيلي اللون: تجديف عذب.

سبق أن قيل لإيلّا إنّ ما من أحد يعرف الشيء الكثير عن المؤلّف وهو شخص يُدعى عين. زد. زاهارا ويسكن في هولندا.

كانت مخطوطته قد أرسلت من أمستردام إلى دار النشر في داخل المظروف ببطاقة بريديّة تحمل على وجهها صورة حقول زهرة التوليب بألوان مدهشة: الوردي والأصفر والبنفسجي. أمّا على ظهر البطاقة فثمّة ملاحظة مكتوبة بخطّ اليد كتابة أنيقة:

سيّدي / سيّدتي العزيزة

أحيّيكم من أمستردام. إنّ القصّة التي أرسلتها إليكم تدور أحداثها في القرن الثالث عشر بمدينة قونية في آسيا الوسطى. لكنّني أجزم أنّها تخترق بلادًا وثقافات وقرونًا من الأزمنة. الأمل يراودني في أن يتوفّر لديكم الوقت لقراءة تجديف عذب، وهي رواية تاريخيّة صوفيّة تدور عن العلاقة المدهشة التي ربطت بين الرومي وهو أفضل الشعراء وأكثر الزعماء الروحيّين مدعاة للاحترام في تارخ الإسلام، وشمس التبريزي، ذلك الدرويش المغمور الذي امتلأت حياته فضائح ومفاجآت.

أرجو أن تنعموا دومًا بالحبّ، وأن تكونوا دومًا في أحضان الحبّ.

عين. زد. زاهارا

شعرت إيلّا أنّ البطاقة البريديّة أثارت فضول الناشر الأدبي لكن ستيف لم يكن بذلك الرجل الذي لديه الوقت لقراءة كتاب من تأليف أديب مغمور. ولهذا السبب سلّم المخطوطة لمساعدته ميشيل التي أرسلتها بدورها إليها بوصفها مساعدتها الجديدة. هكذا وصلت المخطوطة إلى يدَيْ إيلّا.

ولم تعرف إلّا الشيء القليل عن أنّ هذا الكتاب لن يكون كتابًا يشبه غيره من الكتب. بل سيكون الكتاب الذي سيغيّر من حياتها. وفي الوقت الذي سوف تستغرقه في قراءته، ستكتب حياتها من جديد.

قلبت إيلّا الصفحة الأولى. ثمّة ملاحظة عن الكاتب تقول: يقطن

عين. زد. هازارا في مدينة أمستردام رفقة كتبه وقططه وسلاحفه في حال عدم سفره حول العالم. وهذه الرواية، تجديف عذب، هي روايته الأولى وربّما ستكون الأخيرة، إذ ليست لديه أيّ نيّة في أن يصبح روائيًّا، وقد كتب هذه الرواية لسبب واحد لا غير وهو إعجابه بالفيلسوف والمتصوّف والشاعر الكبير الرومي وشمسه الحبيبة شمس التبريزي.

انتقلت عيناها إلى أسفل الصفحة في متّجه السطر التالي، وهنا قرأت إيلا شيئًا ما بدا لها مألوفًا على نحو غريب:

فعلى الرّغم ممّا يقوله الناس، فالحبّ ليس شعورًا عذبًا فحسب بل من شأنه أن يأتي ويرحل سريعًا.

تهدّل فكّها وهي تدرك أنّ هذه العباره تناقض تمامًا الجملة التي قالتها لابنتها في المطبخ في وقت سابق من ذلك النهار. وقفت ساكنة برهه وجيزة، تهزّها فكرة وجود قوّة مجهولة في الكون، أو عند هذا الكاتب، مهما كانت هويّته، تتجسّس عليها. لعلّه كتب هذا الكتاب مدركًا سلفًا نوع الشخص الذي سيقرؤه أوّلاً. لا بدّ أنّ هذا المؤلّف فكّر فيها بوصفها قارئته، ولسبب مجهول لا تدرك كنهه، رأت إيلا أنّ هذه الفكرة مزعجة ومثيرة في وقت واحد:

من أوجه متعدّدة، لا يختلف القرن الحادي والعشرون عن القرن الثالث عشر، وسيذكر التارخ هذين القرنين بوصفهما زمنين من أزمنة التصادم الديني الذي لا سابقة له، وسوء الفهم الثقافي والإحساس العامّ بانعدام الأمن والخوف من الآخر. وفي مثل هذه الأوقات تكون الحاجة إلى الحبّ أكبر من أيّ وقت مضى.

هبّت ريح مفاجئة في اتّجاهها، باردة وقويّة، مبعثرة أوراق الشجر على الشرفة، وانسحب جمال مغيب الشمس نحو الأفق الغربي في حين خلا الجوّ من المتعة وأمسى مثيرًا للسأم.

لأنّ الحبّ جوهو الحياة وهدفها. وكما يذكّرنا الرومي، فإنّه يهاجم الجميع بمن فيهم أولئك الذين يتحاشونه ـ حتى أولئك الذين يستخدمون كلمة رومانسي بوصفها علامة استحسان.

صُعقت إيلا كأنّها قرأت ما يأتي:

«الحبّ يهاجم الجميع، حتى ربّة البيت في خريف العمر الساكنة في نورثهامبتون والمدعوّة إيلّا روبنشتاين».

أخبرتها غريزتها الدفينة أن تضع المخطوطة جانبًا وأن تدخل البيت وتتّصل بميشيل وتخبرها بأنّها لا تستطيع كتابة تقرير عن هذة الرواية. لكنّها عوضًا عن ذلك، أخذت نفسًا عميقًا وقلبت الصفحة وبدأت تقرأ.

* * *

تجديف عذب

رواية

عين. زد. زاهارا

يقول المتصوّفون إنّ سرّ القرآن الكريم يكمن
في سورة الفاتحة،
وإنّ سرّ الفاتحه يكمن في
بسم الله الرحمن الرحيم
وإنّ جوهر البسملة هو حرف الباء،
ثمّة نقطة تحت ذلك الحرف...
وإنّ النقطة تحت حرف الباء ترمز إلى الكون كلّه...
ب
المنثوي يبدأ بالحرف باء،
تمامًا كما هو شأن كلّ فصول هذة الرواية(*)...

(*) فصول الرواية تبدأ بكلمات أوّلها حرف B بالإنكليزيّة، لكن يستحيل الإبقاء على هذه الكلمات بالحرف نفسه عند الترجمة إلى العربيّة؛ لهذا اقتضى التنويه. (المترجم).

تصدير

كان القرن الثالث عشر حقبة مضطربة في الأناضول نظرًا لما شهدته من صدامات دينيّة ونزاعات سياسيّة وصراعات لا نهاية لها على السلطة. وفي العالم الغربي اتّجه الصليبيّون إلى القدس واحتلّوا وهم في طريقهم إليها مدينة القسطنطينيّة وسلبوها، ممّا أدّى إلى تقسيم الإمبراطوريّة البيزنطيّة. أمّا في الشرق، فقد توسّعت رقعة جيوش المغول توسّعًا سريعًا وهم المتّصفون بالانضباط العالي تحت قيادة جنكيز خان العبقريّة. وبين هاتين البقعتين خاضت القبائل التركيّة حربًا أهليّة في حين سعى البيزنطيّون إلى استرداد أراضيهم وثروتهم وسلطتهم المفقودة. كان عصر فوضى لا سابقة لها عندما حارب المسيحيّون المسيحيّين وحارب المسيحيّون المسلمين وحارب المسلمون المسلمين، وحيثما استدار المرء، وجد حربًا وعذابًا وخوفًا رهيبًا من أحداث المستقبل.

وفي خضمّ هذه الفوضى الضاربة أطنابها في كلّ مكان، عاش مفكّر إسلامي يُدعى جلال الدين الرومي، المكنّى بمولانا ـ «سيّدنا» ـ من لدن الكثيرين، وكان له آلاف الأتباع والمعجبين من جميع أنحاء المنطقة وما حولها. وكان المسلمون ينظرون إليه بوصفه منارة.

في العام ١٢٤٤ التقى الرومي شمسًا ـ ودرويش كان ليهيم على وجهه، وله طرق غريبة غير مألوفة ومزاعم هرطقيّة. وقد غيّر ذلك اللقاء من حياة الرجلين. وفي الوقت عينه، مهّد اللقاء لصداقة قويّة وفريدة جعلت الصوفيّين في القرون التالية يشبّهونها بوحدة محيطين. وتحوّل الرومي على

إثر لقائه هذا الرفيق المدهش من رجل دين اعتيادي إلى صوفي ملتزم وشاعر مشبوب العاطفة، مدافع عن الحبّ ومبتكر رقصة الدراويش الدائريّة المثيرة، وبلغت به الجرأة حدّ الخروج عن القواعد المألوفة. وفي عصر اتّسم بالتعصّب الأعمى والنزاعات العميقة الجذور، ناصر الرومي الروحانيّات الكلّيّة وفتح أبوابه للناس على اختلاف أفكارهم. وبدلاً من الجهاد الموجّه إلى الخارج ـ الذي يعرف «بالحرب على الكفّار» وكان ينفّذه العديدون في تلك الأيّام تمامًا كما هو الحال في يومنا هذا ـ فإنّ الرومي مثّل الجهاد الموجّه إلى الداخل حيث يتجسّد الهدف في الجهاد ضدّ النفس.

بيد أنّ هذه الأفكار لم ترق كلّ الناس، تمامًا مثلما أنّ الناس لا يفتحون كلّهم قلوبهم للحبّ. فأصبح الرابط الروحي الذي يربط شمسًا والرومي هدفًا للشائعات والافتراء والهجوم. وأصبحا في نهاية المطاف معرّضين لسوء فهم أقرب الناس إليهما وموضع حسدهم وقدحهم وخيانتهم. وبعد ثلاث سنوات على لقائهما، انفصل الاثنان انفصالاً مأسويًّا.

لكنّ الحكاية لم تنته عند هذا الحدّ.

الحقّ لم تكن ثمّة أيّ نهاية، فبعد ثمانمئة سنة تقريبًا، ما تزال روحا كلّ من شمس والرومي حاضرتين إلى يومنا هذا، تحومان في مكان ما بيننا...

* * *

القاتل

الإسكندريّة، تشرين الثاني ١٢٥٢

إنّه يرقد ميتًا الآن تحت مياه مظلمة في أحد الآبار لكن عينيه تلاحقاني أينما أذهب، برّاقتان ومهيبتان، كأنّهما نجمتان سوداوان تتدلّيان من السماء وتنذران بشرّ، لقد جئت إلى الإسكندريّة مؤملاً بأنّني إذا ما سافرت بما يكفي فإنّ في مستطاعي الهروب من هذه الذكرى القاتلة وإيقاف ذلك العويل الذي يتردّد صداه في عقلي، وتلك الصرخة الأخيرة التي أطلقها قبل أن يتلطّخ وجهه بالدماء، وتجحظ عيناه ويغلق فمه بعد شهقة لم تكتمل، مودّعًا وداع رجل مطعون. عويل ذئب في شرك.

عندما تقتل شخصًا ما، ينتقل إليك شيء ما من ذلك القتيل ـ حسرة، رائحة أو إشارة، أسمّيها أنا شخصيًّا «لعنة الضحيّة»، تتُشبّث بجسدك وتتسلّل إلى جلدك وتشقّ طريقها في متّجه فؤادك لتبقى فيه وتعيش في أعماقك. الذين يشاهدونني في الشارع لا يملكون وسيلة لمعرفة هذا الشيء لكنّني أحمل معي آثار كلّ الرجال الذين أجهزت عليهم، أعلّقهم من حول رقبتي مثل قلائد غير مرئيّة، شاعرًا بوجودهم على جسدي، ثقيلاً وشديدًا. وعلى الرّغم من الإحساس بعدم الارتياح بسبب ذلك، ألفت العيش، رفقة هذا العبء وتقبّلته على أنّه جزء من مهمّتي. ومنذ أن قتل قابيل هابيل، فإنّ كلّ قاتل يتنفّس في أعماقه الإنسان الذي قتله، على حدّ علمي، لا أضطرب لذلك، لا، ليس اليوم. لكن ما سبب الرعشة التي أمرّ بها على هذا النحو

المخيف بعد تلك الحادثة الأخيرة؟

كلّ شيء مختلف هذه المرّة، منذ البداية. لنأخذ مثلاً الطريقة التي عثرت بها على وظيفة، أو لنقل على وجه الدقّه الطريقة التي عثرت بها الوظيفة عليّ. في وقت مبكر من ربيع العام ١٢٤٨ كنت أعمل لدى صاحبة مبغى في قونية وكانت مسترجلة اشتهرت بغضبها وهيجانها. وكان عملي يتمثّل في مساعدتها في السيطرة على الغانيات وإثارة خوف الزبائن الذين لا يسلكون سلوكًا حسنًا.

أتذكّر ذلك اليوم تذكّرًا حيًّا. كنت أطارد إحدى الغانيات وكانت هربت من المبغى بحثًا عن الله. كانت شابّة على قسط من الجمال ممّا أثّر في نفسي، لأنّني عندما لحقت بها أريد أن أحطّم وجهها فلا يعد أحد من الرجال يرغب في النظر إليها من جديد. اقتربت كثيرًا حتى أوشكت أن أمسك بتلك الغبيّة عندما رأيت رسالة مجهولة على حافّة نافذتي. لم أكن أعرف القراءة، فحملتها إلى المدرسة ونفحت تلميذًا مبلغًا من المال ليقرأ محتوياتها لي.

تبيّن لي أنّها رسالة من مجهول وموقّعة بعبارة «بعض المؤمنين الحقيقيّين». تقول محتوياتها:

«لقد عرفنا من مصدر موثوق به المكان الذي أتيت منه، وعرفنا حقيقة هويّتك. إنّك عضو سابق في جماعة الحشّاشين(١)!

أفادت الرسالة بأنّ ثمّة حاجة ماسّة الآن إلى خدماتي في قضيّة على درجة بالغة من الأهمّيّة. وأكّدت لي أنّ أجري سيكون مرضيًا. وإذا ما وافقت، فينبغي لي الحضور إلى حانة مشهورة في مساء ذلك اليوم بعد أن يُرخي الظلام سدوله. وإذا ما وصلت إلى الحانة يتعيّن عليّ أن أتّخذ مكاني

---

(١) الحشّاشون Assassins: لقب أُطلق على فرقة من غلاة الإسماعيليّة، وهم النزاريّون الذين استقلّوا في ألموت بقيادة الحسن بن الصباح في ١٠٩٠. اشتهروا بتنظيمهم السرّي وتدبير اغتيالات يقوم بها فدائيّون متطوّعون حاربوا السلاجقة واشتدّ نفوذهم بعد اغتيالهم الوزير نظام الملك في مدينة نيسابور ١٠٩٢. عرف خلفاء الحسن بن الصباح بشيوخ الجبل. اتّسع نطاق دعوتهم فبلغ بلاد الشام واستولوا على قلاع مصايف وقدموس ١١٤١. قضى عليهم في فارس هولاكو ١٢٥٦ وفي سوريا سلطان المماليك ١٢٧٢. (المترجم).

حول أقرب منضدة إلى النافذة وأن أُولي ظهري الباب، وأن أخفض من رأسي إلى أسفل، وأن أثبّت عينَيّ في الأرض. وسينضمّ إليّ على الفور رجل أو رجال لاستخدامي في العمل، وسيمنحونني كلّ التعليمات التي أحتاج إلى معرفتها. ويتحتّم علي عدم رفع بصري والنظر إلى وجوه هؤلاء الاشخاص سواء عند وصولهم أو رحيلهم أو أثناء الحديث وإيّاهم.

كانت رسالة غريبة لكن، للمرّة الثانية، كنت معتادًا التعامل مع نزوات الزبائن. فعلى امتداد السنين استأجرني مختلف الأشخاص، رغب معظمهم في إبقاء أسمائهم طي الكتمان. وقد علّمتني التجربة، في أغلب الظروف، أنّ الزبون كلّما بذل جهدًا أكبر في محاولة التستّر على هويّته ازداد قربًا من ضحيّته. على أيّ حال، هذا ليس شأني، مهمّتي هي القتل وليس التدقيق في الأسباب الكامنة وراء مهمّتي. هكذا كانت الحياة التي اخترتها لنفسي منذ أن غادرت قلعة الموت قبل سنين.

نادرًا ما أطرح أسئلة. ولماذا أطرحها؟ فكلّ الناس الذين أعرفهم لديهم شخص واحد على الأقلّ يرغبون في التخلّص منه. لكن عدم القيام بأيّ إجراء لتحقيق تلك الرغبات لا يعني بالضرورة أنّ لديهم مناعة ضدّ الرغبة في القتل. الحقّ أنّ لكلّ فرد رغبة في قتل شخص ما. ولا تتحقّق الرغبة إلّا عند القتل لنفسه. فهم يظنّون أنهم غير قادرين على القتل لكنّ القضيّة كلّها قضيّة مصادفة لا أكثر. ففي بعض الأحيان تكفي إشارة واحدة لإثارة ثائرتهم. فسوء الفهم المتعمّد أو المشاجرة على أمر تافه أو كون المرء في مكان غير مناسب، في وقت غير مناسب، قد يتسبّب في أحداث نزعة تدميريّة في أُناس طيّبين ومحترمين. يمكن لكلّ فرد أن يقتل ولكن ليس في وسع الجميع قتل إنسان غريب عمدًا. وهنا أدخل صلب الموضوع.

لقد نفّذت أعمالاً قذرة بالإنابة عن الآخرين. الله نفسه أدرك ضرورة وجود شخص ما، مثلي، في ظلّ نظامه القدسي عندما عيّن عزرائيل ملك الموت لقبض حياة الناس. لهذا السبب خاف البشر هذا الملك ولعنوه وكرهوه في حين بقيت يدا الخالق نظيفتين واسمه لا تشوبه شائبة، وهو أمر غير منصف للملك ولكن مرّة أخرى أقول إنّ هذا العالم لم يكن معروفًا بالعدل. صحيح؟

بعد أن أرخى الظلام سدوله توجّهت إلى الحانة. واتّضح لي أنّ المنضدة القريبة من النافذة قد احتلّها رجل على وجهه ندبة وبدا نائمًا نومًا عميقًا، فكّرت في أن أوقظه وأخبره بأن يجلس في مكان آخر لكنّ المرء لا يتوقّع كيف سيكون ردّ فعل السكارى، وتعيّن عليّ أن أتّخذ جانب الحيطة والحذر في عدم إثارة اهتمام الآخرين بي، لهذا السبب جلست حول المنضدة المجاورة مواجهًا النافذة.

وقبل أن يمضي وقت طويل، وصل رجلان اثنان وجلسا إلى جانبي كي لا أتمكّن من رؤية وجهيهما. لم أكن بحاجة إلى النظر إليهما لأدرك صغر سنّهما وعدم جاهزيّتهما للخطوة التي يوشكان أن يتّخذاها.

قال أحدهما بلهجة موجسة أكثر ممّا هي حذرة:

ـ ثمّة توصية قويّة بشأنك، إذ قيل لنا إنّك الشخص الأفضل.

بدا كلامه مضحكًا لي لكنّني كتمت ابتسامتي ولاحظت أنّهما خائفان منّي، وتلك نقطة مهمّة. إذ لو كانا خائفين بما يكفي، فلن يتمكّنا عندئذ من إلحاق الأذى بي.

قلت:

ـ نعم، أنا الأفضل، ولهذا يسمّونني جاكال هيد (رأس ابن آوى) فأنا لم أخذل زبونًا قطّ، مهما كانت المهمّة شاقّة.

تنهّد وقال:

ـ حسن، قد لا تكون هذه المهمّة سهلة.

وهنا تكلّم الرجل الآخر:

ـ ثمّة رجل ناصب الكثيرين العداء، فمنذ وصوله إلى هذه البلدة لم يجلب سوى المتاعب. لقد حذّرناه مرّات ومرّات لكنّه لم يعرنا أيّ اهتمام، وفي أفضل الأحوال تجده قد ازداد ميلاً للجدل والخلاف، ولم يترك لنا أيّ خيار آخر.

الأمر نفسه يحدث في كلّ مرّة، إذا يحاول الزبائن أن يفصحوا عمّا يفكّرون فيه قبل التوصّل إلى اتّفاق وكأنّ موافقتي من شأنها أن تقلّل من هول ما سيقدمون على فعله.

سألت:

ـ أفهم كلامك ولكن من هو الشخص؟

بدا الاثنان متردّدين في البوح بالاسم واكتفيا بإعطائي وصفًا مبهمًا بدلاً من ذلك.

ـ إنّه مهرطق لا صلة له بالإسلام، رجل تصعب السيطرة عليه، مشحون بانتهاك الشعائر الدينيّة والتجديف، ودرويش هائم على وجهه.

عندما سمعت كلمة درويش سرى في ذراعي شعور ترتعد منه الفرائص، وتسارعت أفكاري. فقد قتلت مختلف أنواع البشر، شيبًا وشبابًا، رجالاً ونساء، ولكن لم يكن بينهم درويش مؤمن بالدين. كانت لديّ معتقداتي الخرافيّة ولم أرغب في تحويل غضب الله عليّ لأنّني كنت على الرّغم من كلّ شيء مؤمنًا بالله.

ـ أعتقد أنّني مضطر لرفض هذا العرض، فأنا لا أظنّ أنّني أريد قتل درويش. ابحثا عن شخص آخر.

وهنا نهضت لأغادر المكان لكن أحدهما أمسك بيدي وتوسّل قائلاً:

ـ انتظر، أرجوك. سيكون أجرك على قدر مشقّتك. ومهما كان أجرك فنحن على استعداد لمضاعفته.

سألت وأنا مقتنع بأنّهما لن يتمكّنا من قبول اقتراحي:

ـ ثلاثة أضعاف؟

لكن، لدهشتي، وافق الرجلان بعد تردّد لم يدم طويلاً. اتّكأت على كرسيّ فزعًا، إذ يمكنني بهذا المبلغ أن أدفع ثمن عروس وأن أتزوّج وألّا أقلق بشأن الاقتصاد في النفقات. فكلّ إنسان يستحقّ أنّ يقتل لقاء مثل هذا المبلغ، درويشًا كان أم غير درويش.

من أين لي أن أعرف في تلك اللحظة أنّني كنت أقترف أكبر غلطة في حياتي وأنّني سأنفق بقيّة عمري نادمًا على ذلك؟ من أين لي أن أعرف مدى صعوبة قتل الدرويش، وأنّ نظرته الحادّة كالسكّين ستلاحقني في كلّ مكان حتى بعد مرور زمن طويل على قتله؟

مرّت أربع سنوات منذ أن طعنته في ذلك الفناء ورميت بجثّته في أحد

الآبار وانتظرت كي أسمع صوت ارتطامها بالماء دون جدوى. لم يصدر أيّ صوت. وبدا أنّه صعد إلى السماء بدلاً من أن يسقط. ما زلت عاجزًا عن النوم بلا كوابيس، وإذا ما نظرت إلى الماء، لأيّ مصدر ماء، لأكثر من بضع ثوانٍ، ينتابني رعب شديد ترتعد له فرائصي وأتقيّأ.

* * *

القسم الأوّل

الأرض

الأشياء الصلبة والممتصّة والساكنة

شمس

حانة خارج مدينة سمرقند، أذار ١٢٤٢

تذبذب ضوء الشموع الخشبيّة المصنوعة من شمع العسل أمام بصري فوق المنضدة الخشبيّة المتصدّعة. كان الحلم الذي تشبّث بي هذا المساء أكثر الأحلام وضوحًا وصفاء.

ثمّة منزل كبير ذو فناء يحتشد بورود صفر مزهرة، وفي سط الفناء بئر تحتوي على أبرد ماء في العالم. كانت ليلة هادئة من ليالي أواخر فصل الربيع يزيّنها بدر في كبد السماء. وفي مؤخّر الفناء كانت تتناهى إلى الأسماع أصوات بضعة حيوانات ليليّة. وبعد برهة وجيزة، خرج من المنزل رجل في خريف العمر، رقيق الوجه، عريض المنكبين، عيناه بدتا غائرتين في محجريهما، باحثًا عنّي. كانت ملامحه تنمّ عن قلق واضطراب في حين لاح الحزن العميق في عينيه.

صاح بأعلى صوته وهو ينظر يمينًا وشمالاً:

ـ شمس، شمس، أين أنت؟

هبّت ريح صرصر، وتوارى القمر وراء سحابة كأنّه لا يريد أن يكون شاهدًا على ما سيحدث. توقّف البوم عن النعيق وأمسك الخفّاش عن الخفقان بأجنحته في حين توقّفت نار المدفأة داخل البيت عن إصدار أيّ صوت. وخيّم على العالم هدوء تامّ.

اقترب الرجل من البئر، ومال من فوقها ونظر إلى أسفل وهمس:

ـ أيّها الأعز شمس، أأنت هنا؟

فتحت فمي لأردّ عليه، لكنّني عجزت عن إصدار أيّ صوت من شفتي.

مال الرجل أكثر وسدّد بصره أسفل البئر من جديد. لم يتمكّن في بادئ الأمر من مشاهدة أيّ شيء سوى ظلام الماء. لكنّه لمح في قعر البئر يدي طافية سدًى على الماء الرقراق كأنّها طوق يتمايل إثر عاصفة هوجاء. ثم استدلّ بعد ذلك على عينين ـ عينين تشبهان حجرين أسودين لامعين، تحدّقان إلى أعلى في متّجه القمر الذي بدأ يتسلّل من بين السحب الكثيفة المظلمة. كانت عيناي ثابتتين على القمر كأنّما في انتظار تفسير ما من السموات على مقتلي.

جثا الرجل على ركبتيه، يبكي ضاربًا صدره، ويصيح:

ـ قتلوه! قتلوا شمسي!

وهنا انطلق ظلّ شبح من وراء إحدى الشجيرات، ووثب وثبة سريعة بلمح البصر فوق سياج الحديقة كأنّه قطّ وحشي. لكنّ الرجل لم يتنبّه للقاتل بل شرع يصرخ ويصرخ، بعد أن استبدّ به ألم ساحق، إلى أن تمزّق صوته تمزّق الزجاج، وتطاير في جميع الأرجاء في تلك الليلة، قطعًا موخزة متناهية في الصغر.

ـ أنت! توقّف عن الصياح كالمجنون.

ـ . . .

توقّف عن هذه الضوضاء وإلّا طردتك من هنا!

ـ . . .

ـ قلت لك اِخرس! أتسمعني؟ اِخرس!

كان الصوت الذي يصيح بهذه الكلمات صوت رجل، مدوّيًا على نحو مخيف قريبًا منّي. تظاهرت بأنّني لم أسمعه، مفضّلاً البقاء داخل حلمي لأطول مدّة ممكنة في أقل تقدير، أردت أن أعرف شيئًا أكثر عن موتي، كما أردت أن أُبصر الرجل بعينين بالغتي الحزن. من هو؟ ما صلته بي؟ ولماذا

كان يبحث عنّي بحثًا ميئوسًا منه في ليلة من ليالي الخريف؟

لكن قبل أن أختلس نظرة أخرى إلى حلمي، أمسك بذراعي شخص ما من الجانب الآخر وهزّني هزًّا عنيفًا اصطكّت له أسناني في حلقي وأعادتني من جديد إلى هذا العالم.

فتحت عينَيّ ببطء وعلى مضض وأبصرت رجلاً يقف بجانبي. كان رجلاً طويل القامة، ممتلئ الجسم، أشيب اللحية، بشاربين كثيفين ومقوّسين ومدبّبين عند طرفيهما. عرفت أنّه صاحب الحانة، وعلى الفور تنبّهت إلى أمرين اثنين يخصّانه وهما: أنّه الرجل الذي كان يُثير رعب الآخرين بكلامه الفظّ وعنفه الذي لا مبرّر له. وكان هائجًا في هذه اللحظة هيجانًا بالغًا.

سألته:

ـ ماذا تريد؟ لماذا تجذب ذراعي؟

فزمجر متجهّم الوجه:

ـ ماذا أريد؟ بداية أريد منك أن تتوقّف عن الصراخ. هذا ما أريد. إنّك بهذا تُثير رعب زبائني فيهربون. غمغمت بعد أن أفلحت في تحرير نفسي من قبضته:

ـ حقًّا؟ أكنت أصرخ؟

ـ أتراهن على ذلك؟ كنت تصرخ كالدبّ الذي علقت شوكة بمخلبه. ماذا جرى لك؟ هل غلبك النعاس أثناء الطعام؟ لا بدّ أنّك عشت كابوسًا أو ما أشبه.

عرفت أنّ ذلك التفسير كان الأكثر إقناعًا، وإذا ما قبلت به فإنّ صاحب الحانة سيقتنع ويتركني وشأني ولكنّني على الرّغم من ذلك لم أرغب في الكذب.

فقلت:

ـ لا يا أخي. فأنا لم يغالبني النعاس كما أنّني لم أشهد كابوسًا. في الحقّ، الأحلام لا تراودني.

فسأل صاحب الحانة مستفهمًا:

ـ كيف تفسّر كلّ ذلك الصراخ إذًا؟

ـ راودتني رؤيا، وتلك قضيّة مختلفة.

نظر إليّ نظرة حيرى وامتصّ طرفَيْ شاربه.

وأخيرًا قال:

ـ أنتم الدراويش لكم من الجنون ما للجرذان في حجّة حفظ الأطعمة، خاصّة أنتم الجوّالين، تصومون طوال النهار وتصلّون وتسيرون تحت الشمس الحارقة. ليس من العجب أن تبدأ بالهلوسة ـ لقد انقلى دماغك!

ابتسمت. فقد يكون على صواب. ويُقال إنّ ثمّة خيطًا رفيعًا يفصل بين ضياع المرء ذاته في الله وضياع عقله.

وهنا ظهر للعيان خادمان من الغلمان، يحملان صينيّة كبيرة جدًّا صُفّت عليها الأطباق: معزاة مشويّة طازجة وسمك مجفّف ومملّح ولحم ضأن متبّل وكعك مصنوع من الدقيق وحمّص وكرات لحم وشوربة عدس بدهن الغنم. وزّع الغلامان الطعام من حول القاعة، وامتلأ الهواء بروائح البصل والثوم والتوابل. وعندما توقّفا قرب طرف المنضدة، حصلت لنفسي على طاس من الشوربة الدافئة وقطعة خبز أسمر.

سألني صاحب الحانة بقليل من العطف:

ـ ألديك مال تدفعه ثمنًا لهذا الطعام؟

أجبت:

ـ لا، ليس لديّ ولكن اسمح لي أن أعرض عليك صفقة. ففي وسعي أن أفسّر لك احلامك لقاء ثمن الطعام والغرفة.

وهنا ردّ عليّ ردًّا فيه هزء وسخرية واضعًا يديه على خاصرته:

ـ قلت لي قبل قليل إنّ الأحلام لا تراودك قطّ.

ـ هذا صحيح، أنا مفسّر الأحلام الذي لا يرى أحلامًا.

قال صاحب الحانة وهو يقذف الكلمات قذفًا لاذعًا:

ينبغي لي أن أقذف بك بعيدًا عن هذا المكان. كما قلت لك قبل قليل، أنتم مجانين أيّها الدرويش. وهذه نصيحة أقدّمها لك. أنا لا أعرف

كم عمرك ولكنّني واثق بأنّك صلّيت ما يكفي لهذه الدنيا وللآخرة. ابحث لك عن امرأة وعش حياة مستقرّة، وكوّن لك أسرة، وسوف يساعدك هذا في الاستقلال بشؤونك. ما العبرة في الهيام في هذا العالم ما دام البؤس نفسه منتشرًا في جميع الأرجاء؟ ثق بي. ما من جديد هناك. لديّ زبائن من أقصى أقاصي العالم، وما هي إلّا بضع كؤوس من الشراب حتى تجدني أسمع القصص والحكايات نفسها من كلّ الناس. الرجال متشابهون في كلّ مكان. الطعام نفسه والماء نفسه والقذارة نفسها.

قلت:

ـ إنّني لا أفتّش عن شيء مختلف. إنّني أفتش عن الله. وإنّ مسعاي هو السعي وراء الله. فردّ ردًّا يدلّ على سرعة بديهته واكتسب صوته خشونة على حين بغتة:

ـ لكنّك تبحث عنه في المكان غير المناسب، لقد ترك الله هذا المكان! ولا ندري متى سيعود إليه.

ضرب قلبي جدران صدري عند سماعي هذا الكلام، فقلت:

ـ عندما يتحدّث المرء بسوء عن الله فإنّه يتحدّث بسوء عن نفسه.

لاحت على فم صاحب الحانة ابتسامة غريبة مائلة ولاحظت على وجهه مرارة وسخط، فضلاً عن شيء آخر أشبه بألم طفولي.

سألت:

ـ أليس الله هو القائل: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد؟»(*).

إنّ الله ليس بعيدًا عنّا في السماء، بل هو في كلّ واحد منّا لهذا السبب لا يتخلّى عنّا أبدًا. كيف يمكنه أن يتخلّى عنّا؟

قال صاحب الحانة بعينين لامباليتين وإن شابهما التحدّي:

ـ لكنّه يتخلّى عنّا. فلو كان هنا ولا يحرّك ساكنًا عندما نقاسي الأمرّين، فما تفسيرك؟

أجبت:

(*) أنظر القرآن الكريم: سورة ق (١٦ ـ ٥٠)، (المترجم).

ـ إنّها القاعدة الأولى يا أخي: إنّ رؤيتنا لله انعكاس مباشر للطريقة التي ننظر بها إلى أنفسنا. ولو كان الله لا يذكّرنا إلّا بالخوف واللوم، فذلك يعني أنّ خوفًا ولومًا كبيرين أكثر ممّا ينبغي يستعران في أعماقنا. ولو نظرنا إلى الله على أنّه مملوء بالحبّ والعطف، فالأمر ينطبق علينا أيضًا.

وعلى الفور اعترض صاحب الحانة لكنّني استطعت أن أشاهد الدهشة التي أثارتها فيه كلماتي:

ـ وهل هذا يخالف القول إنّ الله نتاج مخيّلتنا؟ إنّني لا أفهم.

لكن جلبة صدرت في آخر قاعة الطعام حالت دون إجابتي، وعندما التفتنا إلى متّجه الضوضاء شاهدنا رجلين خشني المظهر يزعقان بكلام فارغ ينمّ عن سكرهما. وكأنّهما يستأسدان على بقيّة الزبائن بوقاحة لا سبيل إلى كبح جماحها، فيستوليان على طعامهم من الطوس، ويحتسيان الشراب من أكوابهم، إذا ما اعترض معترض فإنّهما يسخران منه وكأنّهما صبيّان مشاغبان من صِبية المكتب.

قال صاحب الحانة بصوت خفيض وهو يصرّ أسنانه:

ـ ألا تعتقد أنّ شخصًا ما ينبغي له أن يهتمّ بأمر هذين المزعجين؟ والآن، أنظر إليّ!

وفي لمح البصر وصل إلى نهاية القاعة وجذب أحد السكّيرين من فوق مقعده وسدّد له لكمة على وجهه. لا بدّ أنّ الرجل لم يكن يتوقّع ما حدث، إذ سقط من فوره على الأرض مثل كيس فارغ، وندّت عنه آهة لا تكاد تسمع، أمّا ما عدا ذلك فلم يصدر عنه أيّ صوت.

غير أنّ الرجل الآخر أثبت أنّه أشدّ بأسًا وقاتل قتالاً ضاريًا لكن صاحب الحانة لم يستغرق وقتًا طويلاً حتى طرحه أرضًا أيضًا. فقد ركل هذا الزبون الهائج في أضلاعه ثم داس على يده وسحقها تحت حذائه الثقيل. وانساب إلى سمعنا صوت إصبعه وهو ينكسر، أو ربّما حدث له ما هو أسوأ من ذلك. هتفت به:

ـ كفى، سوف تقتله. أهذا هو هدفك؟

بما أنّني صوفي، فقد أقسمت اليمين على أن أحمي حياة الناس وألّا ألحق بهم أيّ ضرر. ففي عالم الأوهام الذي نعيش فيه، تجد العديد من

الناس على استعداد للشجار دون أيّ سبب، أو على استعداد للشجار لسبب ما، لكنّ الصوفي لا يقاتل حتى لو كان يملك سببًا. ليس من سبب يدفعني إلى اللجوء إلى العنف لكن يمكنني أن أحشر نفسي مثل بطّانيّة ناعمة بين صاحب الحانة والزبائن للفصل بينهم.

وهنا زعق صاحب الحانة:

ـ ابتعد من هنا أيّها الدرويش وإلّا فسأشبعك ضربًا أيضًا.

إلّا أنّني كنت أعرف، مثلما كان يعرف بدوره، أنّه لن ينفّذ تهديده.

وبعد مضي دقيقة واحدة، وعندما رفع الخادمان الزبونين عن الأرض. كان أحد الزبونين مكسور الإصبع والآخر محطّم الأنف ملطّخًا بالدماء. وخيّم صمت رهيب على قاعة الطعام. نظر إليّ صاحب الحانة شزرًا وعندما تكلّم من جديد بدا كأنّه يوجّه كلامه إلى كلّ المحيطين به، صوته يدوّي عاليًا، قويًّا كأنّه طائر مغير، مزهوّ في السماء المترامية الأطراف.

ـ أرأيت أيّها الدرويش، لا تسير الأمور دومًا هذا السير. والعنف ليس من شيمتي، لكنّه بات شيمتي الآن، عندما يتخلّى الله عنّا يصبح لزامًا علينا نحن البشر استعادة العدالة. أخبره عندما تكلّمه في المرّة القادمة، دعه يعلم بأنّه إذا ما تخلّى عن حملانه فإنّهم لن ينتظروا طويلاً حتى يتعرّضوا للذبح، بل سيتحوّلون إلى ذئاب.

هززت كتفي وأنا أتّجه نحو الباب:

ـ أنت مخطئ.

ـ أأنا مخطئ في القول إنّني كنت حملاً وتحوّلت إلى ذئب؟

ـ لا، أنت على صواب في هذه الناحية، ففي إمكاني أن ألاحظ أنّك قد تحوّلت إلى ذئب حقًّا ولكنّك مخطئ في وصف ما تفعله «بالعدالة».

وهنا هتف صاحب الحانة من ورائي:

ـ انتظر فأنا لم أنته منك! انت مدين لي. سوف تفسّر لي أحلامي لقاء المأكل والمأوى.

فاقترحت عليه بالقول:

ـ سأفعل ما هو أفضل من ذلك. سأقرأ كفّك.

استدرت وسرت في اتّجاهه وأنا أنظر نظرة نفّاذة إلى عينيه المتّقدتين، فما كان منه إلّا أن جفل على نحو غريزي مرتابًا. ولكنّه لم يدفعني بعيدًا عنه عندما أمسكت يده اليمنى وقلبت كفّه إلى أعلى. تفحّصت الخطوط فوجدتها غائرة، متصدّعة، تؤشّر ممرّات غير مستوية. وشيئًا فشيئًا لاحت لي ألوان هالته: بنّي بلون الصدأ وأزرق فاتح يميل إلى الرمادي.

كانت طاقته الروحيّة جوفاء ورقيقة من حول الحافّات كأنّما لم يعد فيها قوّة للدفاع عن نفسها أمام العالم الخارجي. وفي أعماقه، لم يكن الرجل حيًّا أكثر من نبتة ذاوية. وللتعويض عن فقدان طاقته الروحيّة تجده قد ضاعف من طاقتة الجسديّة التي كان يستخدمها استخدامًا مفرطًا.

دقّ قلبي دقّات أسرع ممّا مضى لأنّي بدأت أشاهد شيئًا ما. وبدا أمام عينَيّ مشهد غائم أوّل الأمر كأنّه من وراء حجاب حتى ازداد وضوحًا.

امرأة شابّة ذات شعر كستنائي، حافية القدمين بوشمين أسودين ووشاح مزركش أحمر اللون ينسدل فوق كتفيها.

ـ لقد فقدت حبيبة.

ثم أمسك براحة كفّه اليسرى.

ثدياها ممتلئان بالحليب، بطنها هائل يوشك أن ينفجر، عالقة في كوخ يحترق. ثمّة محاربون من حول البيت، يمتطون جيادًا، سروجها مطعّمة بالفضّة، وثمّة رائحة قويّة بسبب احتراق التبن واللحم البشري. خيّالة من المغول، أنوفهم مفلطحة وعريضة، رقابهم غليظة وقصيرة، وقلوبهم قاسية قسوة الصخور. إنّهم جيش جنكيزخان الجرّار.

صحّحت نفسي قائلاً:

ـ بل فقدت حبيبين اثنين: زوجتك التي كانت حاملاً بطفلك الأوّل.

عقد صاحب الحانة حاجبيه وثبّت عينيه على حذائه الجلدي الثقيل وزمّ شفتيه، وتغضّن وجهه فبدا خارطة تصعب قراءتها. وبغتة بدا شيخًا أكبر من سنّه الحقيقيّة.

قلت:

ـ أدرك أنّ هذا لن يبعث فيك الراحة والطمأنينة لكن ثمّة أمرًا ينبغي

لك أن تعرفه. فزوجتك لم تمت بسبب النار أو الدخان، بل بلوح خشبي انهار من على السقف وسقط على رأسها ولقيت حتفها من فورها دون ألم. إنّك تعتقد دومًا أنّها تعذّبت عذابًا شديدًا لكنّ الواقع أنّها لم تتعذّب البتّة.

قطّب صاحب الحانة جبينه وانحنى تحت ضغط لا يفهمه إلّا هو نفسه وبات صوته مبحوحًا وهو يسأل:

ـ كيف تعرف هذا كلّه؟

تجاهلت سؤاله واسترسلت في أحلامي:

ـ بقيت تلوم نفسك لأنّك لم تدفنها على نحو لائق. لا تزال تراودك في أحلامك، زاحفة خارج الحفرة التي دفنت فيها، لكن عقلك يمارس لعبة معك. الحقّ يُقال إنّ زوجتك وابنك في أحسن حال، يسافران في الأبديّة، لهما من الحرّيّة ما لنقطة ضوء.

ثم أضفت قائلاً وأنا أحسب حسابًا لكل كلمة:

ـ يمكنك أن تصبح حملاً من جديد لأنّه لا يزال موجودًا فيك.

ما إن سمع صاحب الحانة هذا الكلام حتى جذب يده من فوره كأنّه لمس مقلاة تئزّ أزيزًا وقال:

ـ أنت لا تروقني أيّها الدرويش وسأجعلك تبقى هنا الليلة، لكن احسب حسابك على الرحيل في صباح الغد الباكر، فأنا لا أريد مشاهدة وجهك هنا ثانية.

هكذا هي الأحوال دائمًا، عندما تقول الحقّ يواجهونك بالكراهية. وكلّما تحدّثت أكثر عن الحبّ ازدادت كراهيّتهم لك.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ١٨ أيّار ٢٠٠٨

كانت إيلّا غاية في الإنهاك بعد أن غلبها التوتّر الذي أعقب جدالها مع ديفيد وجانيت، فاضطرّت إلى التوقّف عن قراءة الرواية برهة وجيزة. شعرت كأنّ غطاء قدر يغلي رُفع بغتة فسمح بظهور كلّ النزاعات القديمة والاستياء الجديد مع البخار المتصاعد. لسوء الحظّ لم يرفع أحد سواها الغطاء وقد رفعته عندما اتّصلت برقم هاتف سكوت وطلبت منه ألّا يتزوّج ابنتها.

في وقت لاحق من حياتها، سوف تندم ندمًا شديدًا لكلّ كلمة تفوّهت بها أثناء الحديث على الهاتف. لكن في هذا اليوم من أيّام شهر أيّار، لم تكن واثقة من نفسها ومن الأرض التي تقف عليها إلى الحدّ الذي لم تتمكّن فيه من إدراك العواقب الوخيمة بسبب تطفّلها.

قالت وهي تحاول أن يبدو صوتها مرحًا كأنّ الاتّصال الهاتفي بصديق ابنتها عمل تمارسه كلّ وقت:

ـ مرحبًا يا سكوت. إنّني إيلّا والدة جانيت. ألديك دقيقة واحدة أكلّمك فيها؟

أخبرته إيلّا بلهجة لا تقلّ أدبًا بأنّها لا تحمل له أيّة ضغينة شخصيّة ولكنّه صغير السنّ وعديم الخبرة، فلا يمكنه الزواج بابنتها. وأضافت قائلة إنّه قد ينزعج بسبب تلقّيه هذه المكالمة في الوقت الراهن ولكنّه سوف يفهم يومًا ما في المستقبل المنظور، بل سوف يشكرها لأنّها نبّهته في الوقت

المناسب. وطلبت منه أن ينسى موضوع الزواج حتى يحين ذلك الوقت وأن يُبقي هذه المكالمة سرًّا بينهما.

استقرّ صمت مطبق وثقيل.

قال سكوت عندما تمكّن من الكلام:

ـ لا أعتقد أنّك تفهمين يا سيّدة روبنشتاين. فأنا وجانيت متحابّان.

ها هي هذه النقطة من جديد! كيف يمكن للناس أن يكونوا بهذه الدرجة من السذاجة التي تجعلهم يتوقّعون من الحبّ أن يفتح أبوابه كلّها لهم؟ إنّهم ينظرون إلى الحبّ كأنّه عصا سحريّة تستطيع إصلاح أيّ شيء بلمسة سحريّة واحدة.

لكن إيلّا لم تقل شيئًا من هذا الكلام بل قالت:

ـ صدّقني أنا أعرف ما هو شعورك ولكنّك صغير السنّ والحياة طويلة. من يدري؟ ربّما تهوى غدًا فتاة أخرى.

ـ لا أريد أن أكون فظًّا يا سيّدة روبنشتاين، لكن ألا تعتقدين أنّ القاعدة تنطبق شخصيًّا على كلّ فرد بمن فيهم أنت. من يدري؟ فربّما تهوين غدًا شخصًا آخر.

ضحكت ضحكة مكتومة قبل أن تعلو رويدًا رويدًا دون قصد:

ـ إنّني امرأة متزوّجة، واتّخذت قرارًا مدى الحياة. كذلك هو شأن زوجي. ذلك هو بيت القصيد. الزواج قرار جادّ يحتاج إلى التفكير فيه تفكيرًا مليًّا.

استفسر سكوت:

ـ أتريدين القول إنّني لا ينبغي لي الزواج بابنتك التي أحبّها لأنّني ربّما سأُغرم بفتاة مجهولة في المستقبل المجهول؟

تدهور حال المناقشة من هذه النقطة، وباتت مشحونة بالألم والخيبة. وعندما أغلق الاثنان سمّاعة الهاتف في نهاية المطاف، توجّهت إيلّا مباشرة إلى المطبخ وانهمكت في ما دأبت على الانهماك به في أوقات الأزمات العاطفيّة: الطبخ.

* * *

بعد مرور نصف ساعة، تلقّت مكالمة مُن زوجها.

ـ لا يمكنني أن أصدّق أنّك اتّصلت بسكوت وطلبت منه ألّا يتزوّج ابنتنا. قولي لي إنّك لم تتّصلي به.

شهقت إيلّا.

ـ عظيم، الأقوال تنتقل سريعًا. دعني أشرح لك يا حبيبي.

لكن ديڤيد قاطعها بحدّة.

ـ ليس ثمّة ما يستدعي الشرح. عملك خطأ، وقد أخبر سكوت جانيت وهي غاية في الانزعاج الآن وستبقى في صحبة أصدقائها بضعة أيّام لأنّها لا تريد رؤيتك في الوقت الراهن.

أمسك ديڤيد عن الكلام برهة وجيزة قبل أن يُضيف:

ـ إنّني لا ألومها.

لم تكن جانيت وحدها التي لم ترجع إلى البيت، فقد أرسل ديڤيد رسالة نصّيّة يخبرها بحدوث أمر طارئ ولم يوضح طبيعة ذلك الأمر.

كان تصرّفه نقيض شخصيّته ويخالف روح زواجهما. ربّما تجده يغازل النساء واحدة تلو الأخرى، وربّما يعاشرهنّ وينفق ماله عليهنّ، وهذا أمر تعرفه جيّدًا ولكنّه كان دومًا يرجع إلى البيت ويجلس إلى المائدة مساء. ومهما كان الخلاف عميقًا بينهما، فإنّها كانت تطبخ الطعام دائمًا وكان يأكله دائمًا أيضًا بحبور وامتنان بغضّ النظر عن نوع الطعام الذي تضعه في طبقه. ولم ينس ديڤيد قطّ أن يوجّه الشكر لها فور انتهائه من تناول طعامه ـ شكرًا من أعماق قلبه كانت تنظر إليه على أنّه اعتذار رمزي عن خيانته وكانت تغفر له دائمًا.

لكن هذه هي المرّة الأولى التي يتصرّف بها ديڤيد بمثل هذه الخشونة. فما كان من إيلّا إلّا أن وبّخت نفسها على ما حدث من تغيير لكن، مرّة أخرى، نجد أنّ «الذنب» هو الاسم الأوسط لإيلّا روبنشتاين.

* * *

عندما جلست إيلّا إلى المائدة مع توأميها، تحوّل ذنبها إلى كآبة، وقاومت توسّلات آفي في طلب بيتزا، ومحاولات أورلي في عدم تناول أيّ

طعام، وأجبرتهما على وضع الرزّ والبازيلّاء ولحم البقر المشوي والمتبّل بالخردل. وعلى الرّغم من أنّها من الناحية السطحيّة الأمّ التي تأخذ الأمور على عاتقها، وتهتمّ بكلّ شيء، فقد شعرت بدوّامة من اليأس تفور في داخلها وبمذاق لاسع في فمها، مرّ كالمرارة.

ولمّا فرغوا من تناول الطعام، جلست إيلّا وراء منضدة المطبخ وحيدة، تشعر بالهدوء من حولها ثقيلاً ومثيرًا للاضطراب. ولم يبد الطعام الذي طهته، وهو خلاصة ساعات من العمل المضني والشاقّ، مضجرًا، باعثًا على الملل فحسب، بل يمكن استبداله أيضًا، فرثت لحالها. إذًا ممّا يدعو إلى الشفقة أنّها لم تتمكّن من أن تُحرز تقدُّمًا في حياتها بعد أن اقتربب من سنّ الأربعين. كان لديها حبّ تقدّمه للآخرين ولكن ما من أحد طلبه منها.

عادت بأفكار إلى رواية تجديف عذب وشعرت أنّ شخصيّة شمس التبريزي حيّرت لبّها. فضحكت في داخلها وحدّثت نفسها: إنّه لأمر لطيف أن يكون ثمّة شخص مثله في الجوار ولن يكون اليوم كئيبًا، مثيرًا للملل في رفقته.

وعلى نحو ما، كانت الصورة التي قفزت إلى ذهنها وهي صورة رجل طويل القامة، أسمر البشرة، يُحيط به الغموض يرتدي سروالاً جلديًّا وسترة كالتي تُستخدم عند ركوب الدرّاجات الناريّة، أسود الشعر ينسدل فوق كتفيه، يسوق درّاجة حمراء اللون، برّاقة من طراز هارلي ـ ديفيدسون، تتدلّى شرابات متعدّدة الألوان من مقودها. ابتسمت لهذه الصورة:

سائق درّاجة ناريّة صوفي، وسيم الملامح، ينطلق بدرّاجته على طريق خارجي يخلو من السيّارات! أليس لطيفًا لو كانت مسافرة فيصادفها رجل مثل هذا الطراز فيأخذها معه؟

ثم تساءلت إيلّا عمّا يمكن لشمس أن يراه لو قرأ كفّها. أتراه سيشرح لها السبب الذي يدفع بعقلها إلى أن يتحوّل بين حين وآخر إلى مجموعة من الأفكار السود؟ ثم ما الذي جعلها تشعر بالوحدة على الرّغم من امتلاكها أسرة كبيرة ومحبوبة؟ ثم ما قصّة الألوان في هالتها؟ أتراها برّاقة وساطعة؟ هل كانت حياتها تنطوي مؤخّرًا على ما هو برّاق وساطع؟ أو حتى قبل ذلك؟

في ذلك الوقت وفي ذلك المكان، في حين كانت إيلّا تتحلّق حول منضدة المطبخ وحيدة باستثناء وميض خافت ينبعث من الفرن، أدركت أنّها كانت في أعماقها تتوق إلى الحبّ على الرّغم من عباراتها المتكلّفة التي كانت تنكره بها، وعلى الرّغم من قدرتها على الصبر على الشدائد وتحمّلها دون شكوى أو أنين.

* * *

شمس

حانة خارج مدينة سمرقند، أذار ١٢٤٢

ثمّة دزّينة من المسافرين الذين هدّهم السفر يرقدون في الطابق العلوي من الحانة بعد أن أثقلتهم الوحدة واستسلموا للنوم سريعًا، يحلمون كلٌّ على طريقته. خطوت من فوق أيد وأرجل عارية كي أصل إلى فراشي الفارغ الذي تنبعث منه روائح العرق والتراب، استلقيت في ذلك المكان وسط الظلمة مفكّرًا في أحداث النهار ومتأمّلاً في أيّ إشارات ربّانيّة ربّما أكون قد رأيتها ولكنّني أخفقت في مسعاي بسبب العجلة أو جهلي.

فمنذ أن كنت غلامًا، راودتني الرؤى وطرقت الأصوات مسامعي. تحدّثت دومًا إلى الله فردّ عليّ دائمًا. في بعض الأيّام صعدت حتى السماء السابعة بخفّة الهمسة، ثم هبطت إلى أسفل سافلين حيث تنتشر روائح التربة العميقة المتوارية عن الأنظار مثل صخرة مدفونة تحت أشجار البلّوط العظيمة والكستناء الحلوة، وفي أغلب الأحيان فقدت شهيّتي للطعام وبقيت لا آكل شيئًا على مدى أيّام متواصلة. لم يُثِر مخاوفي أيّ شيء على الرّغم من أنّني تعلّمت ألّا أذكر شيئًا منها للآخرين، فالبشر يميلون إلى الاستخفاف بكلّ ما لا يقدرون على فهمه. تعلّمت ذلك مباشرة ودون وسيط.

كان أوّل شخص لم يصب في حكمه عليّ هو أبي، لا بدّ أنّني كنت في نحو العاشرة من عمري عندما بدأت أشاهد ملاكي الذي كان يحرسني يوميًا وكنت ساذجًا لأنّني فكّرت أنّ ذلك هو حال الجميع. وفي يوم من

الأيّام، وفي حين كان أبي يعلّمني كيف أصنع صندوقًا من خشب الأرز كي أصبح نجّارًا مثله، كلّمته عن ملاكي.

قال أبي بجفاف:

ـ لديك خيال جامح يا بنيّ والأفضل أن تحتفظ به لنفسك، فنحن لا نبغي إزعاج القرية من جديد.

قبل بضعة أيّام من ذلك الحديث، اشتكى الجيران منّي أمام والدي متّهمين إيّاي بالقيام بتصرّفات غريبة وإثارة ذعر أطفالهم.

قال أبي:

ـ إنّني لا أفهم تصرّفاتك يا بنيّ.

ثم سألني:

ـ لماذا تعجز عن فهم حقيقة أنّك لست أكثر من والديك إثارة للإعجاب. كلّ طفل شبيه بأبويه. وهذا هو حالك أيضًا.

في تلك اللحظة أدركت أنّ والداي غريبان عنّي على الرّغم من أنّني أحبّهما وأشتاق إلى حبّهما.

ـ إنّني من بيضة تختلف عن بقيّة أولادك يا أبتِ. فكّر في أنّني فرخ بطّ ربّاه الدجاج. أنا لست طيرًا أليفًا مقدّرًا له أن ينفق حياته في خمّ للدجاج. فالماء الذي يُثير خوفك يجدّد قواي. فأنا على العكس منك أستطيع السباحة، ولسوف أسبح. المحيط وطني. وإذا كنت معي فتعال إلى المحيط، وإن لم تكن معي فكفّ عن التدخّل في شؤوني وعد إلى خمّ الدجاج.

اتّسعت عينا أبي ثم ضاقتا وابتعدتا وقال عن جدّ:

ـ إن كان هذا هو الأسلوب الذي تخاطب به والدك الآن، فإنّني أتعجّب كيف ستخاطب أعداءك عندما تكبر.

وممّا زاد في كدر والدي أنّ الرؤى لم تتوقّف عن الظهور مع تقدّمي في السنّ، بل على العكس من ذلك ازدادت قوّة وجاذبيّة. أعرف بأنّي جعلت والداي يزدادان توتّرًا وراودني الإحساس بالذنب لإثارة قلقهما على هذا النحو، ولكنّ الحقيقة هي أنّني لم أجد سبيلاً لوضع حدّ لهذه الرؤى،

وإذا ما وجدت سبيلاً إلى ذلك، فلا أظنّني سأضع حدًّا لها. ولم يمض وقت طويل حتى رحلت عن البيت إلى غير رجعة. ومنذ ذلك الحين أضحت تبريز كلمة عذبة ورقيقة، جميلة ودقيقة تكاد تذوب على لساني. ثمّة روائح ثلاث تلازم ذكرياتي عن هذا المكان وهي: الخشب المقطوع وخبز الذرة ورائحة الثلج الرقيقة المنعشة.

منذ ذلك الحين وأنا درويش جوّال، لا أنام في مكان واحد أكثر من مرّة واحدة، لا أتناول طعامي من الوعاء نفسه مرّتين في صفّ واحد وأشاهد في كلّ يوم وجوهًا جديدة من حولي. عندما أجوع، أحصل على بعض النقود بتفسير الأحلام. وعلى هذا النحو طفت شرقًا وغربًا، ساعيًا وراء الله في كلّ مكان، أنشد في كلّ بقعة حياة تستحقّ العيش ومعرفة تستحقّ المعرفة. ولكن ما دمت بلا جذور فإنّ الأرض أمامي واسعة أتجوّل فيها.

في أثناء ترحالي سلكت كلّ أنواع الطرق، من طرق التجارة التي يسلكها الناس إلى مسالك نسيها الناس فلا يصادفك بشر على امتداد أيّام مستمرّة، ومن سواحل البحر الأسود إلى مدن بلاد فارس، ومن وهاد آسيا الوسطى حتى الكثبان الرمليّة في الجزيرة العربيّة. وسلكت طرق غابات كثيفة وأراضي مستوية وصحارى وأقمت مدّة قصيرة في خانات استراحة القوافل وفي الفنادق. وشاورت المتعلّمين من الرجال في مكتبات قديمة قدم الدهور، واستمعت إلى شيوخ يعلّمون صغار التلاميذ في المكاتب، وناقشت التفسير والمنطق أمام طلّاب المدارس وزرت المعابد والأديرة والأضرحة وتوسّطت بين النسّاك وكهوفهم وأوردت الذكر رفقة الدراويش، وصمت مع الحكماء، وتناولت طعامي مع الهراطقة، ورقصت مع الدجّالين تحت نور البدر، وتعرّفت إلى أُناس من مختلف الأديان والأعمار والمهن، وشهدت مصائب ومعجزات على حدّ سواء.

شاهدت قرى ضربها الفقر، وحقولاً سوّدتها الحرائق، وبلدات سُلبت ونُهبت وباتت أنهارها حمراء اللون ولم يعد فيها رجل يزيد عمره على العاشرة في قيد الحياة، ورأيت ما هو أسوأ وما هو أفضل في طبيعة البشر، ولم يعد أيّ شيء يُثير دهشتي بعد اليوم.

عندما كنت أعيش تلك التجارب، بدأت أؤلف قائمة لم يسبق أن دوّنها أحد في كتاب ما، بل دوّنتها في روحي. وقد سمّيت هذه القائمة القواعد الأساسيّة لمتصوّفي الإسلام الجوّالين. وأنا أرى أنّ هذه القواعد شاملة يمكن الاعتماد عليها وثابتة مثل قوانين الطبيعة. وتشكّل هذه بمجموعها القواعد الأربعين لديانة الحبّ التي يمكن بلوغها بالحبّ ولا شيء سوى الحبّ. وتقول إحدى هذه القواعد:

إنّ السبيل إلى إدراك الحقيقة عمل من أعمال القلب وليس العقل. دع قلبك يرشدك أوّلاً، وليس عقلك. اِلتقِ نفسك وتحدّاها وبالتالي سيطر عليها بقلبك. إنّ معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفة الله.

لقد استغرقت سنوات طويلة لأكمل وضع هذه القواعد، وهي أربعون قاعدة. وبعد أن فرغت الآن من وضعها، فإنّني أعلم أنّني أقترب من المرحلة الأخيرة من عمري في هذا العالم. لقد شاهدت رؤى كثيرة مؤخّرًا تسير في هذا الاتّجاه. ليس الموت هو ما يقلقني لأنّني لم أنظر إليه على أنّه غاية، بل الموت دون أن تبقى لي تركة من بعدي. ثمّة العديد من الكلمات المتراكمة في داخل صدري، والحكايات التي تنتظر السرد. أردت أن أُعطي كلّ هذه المعرفة لشخص آخر، واحد لا غير، ليس أستاذًا ولا تلميذًا. لقد بحثت عن ندّ ـ عن رفيق.

همست في الحجرة المعتمة الرطبة:

ـ يا إلٰهي! لقد سافرت طوال حياتي في كلّ بقاع العالم، وسرت على طريقك، ورأيت كلّ شخص وكأنّه كتاب مفتوح، كأنّه قرآن متنقّل، ونأيت بنفسي عن بروج العلماء العاجيّة، مفضّلاً قضاء وقتي رفقة المنبوذين والمغتربين والمنفيّين، وها أنا الآن أكاد أنفجر، فساعدني كي أسلّم حكمتك إلى الشخص المناسب، وعندئذ يمكنك أن تفعل بي ما تشاء.

اغتسلت الحجرة أمام عينيّ بدفق من ضياء ساطع جعل وجوه المسافرين وهم في أسرّتهم زرقاء متوهّجة. وكانت رائحة الهواء في الداخل منعشة وزاخرة بالحيويّة كأنّ النوافذ فُتحت على مصاريعها، وهبّت ريح عاصفة معبقة بروائح الزنبق والياسمين من الحدائق البعيدة.

قال ملاكي الحارس بصوت موسيقي كأنّه عزف على آلة الفلوت:

ـ اذهب إلى بغداد.

فسألته ما الذي ينتظرني في بغداد؟

لقد ابتهلت تطلب رفيقًا، سيكون لك رفيق، ففي بغداد ستجد الأستاذ الذي سيوجّهك إلى الطريق الصحيح.

تدفّقت دموع الامتنان والعرفان من عينيّ، وأدركت الآن أنّ الرجل الذي تبيّن لي في رؤياي لم يكن سوى رفيقي الروحي.

لقد قُدّر لنا أن نلتقي عاجلاً أم آجلاً، وعندما يتحقّق اللقاء سأعرف سبب الحزن الأبدي في عينيه البندقيّتين الرقيقتين وكيف سيتمّ اغتيالي في ليلة من ليالي بواكير فصل الربيع.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ١٩ أيّار ٢٠٠٨

قبل أن تأذن الشمس بالمغيب ويرجع الأبناء إلى البيت، وضعت إيلّا شريطة بين صفحتي المخطوطة وتركتها جانبًا. استبدّ بها الفضول لمعرفة الرجل الذي كتب الرواية، واتّجهت نحو الحاسوب وبدأت تبحث في موقع غوغل عن عين. زد. زاهارا مندهشة لما ستجده من معلومات وإن لم تكن تتوقّع شيئًا كثيرًا.

ولكن، لدهشتها البالغة، ظهر لها موقع شخصي. كانت ألوان الصفحة هي الأرجواني والفيروزي، وفي أعلى الصفحة صورة رجل يرتدي جلبابًا طويلاً أبيض اللون، ويدور دورانًا بطيئًا. ولمّا لم تكن إيلّا قد شاهدت من قبل درويشًا يدور حول نفسه، فقد راحت تمعن النظر في الصورة. وكان الموقع بعنوان «قشر بيضة اسمه الحياة» ومن تحته قصيدة بالعنوان نفسه:

اتركونا كي يختار أحدنا الآخر رفيقًا
اتركونا نجلس عند قدمي بعضنا بعضًا
في دواخلنا انسجام لا حدود له ـ ولا تظنّوا
أنّنا لسنا أكثر ممّا نرى.

كانت الصفحة تحتشد ببطاقات بريديّة من مدن ومواقع من مختلف

أرجاء المعمورة. وتحت كلّ بطاقة عبارة تعريفيّة بالمكان المقصود. وبينما كانت إيلّا تقرأ هذه العبارات، صادفتها معلومات جذبت انتباهها على الفور: أوّلاً، أنّ الحرف الأوّل من الاسم عين. زد. زاهارا يرمز إلى الاسم عزيز. ثانيًا، أنّ عزيز كان ينظر إلى نفسه بوصفه صوفيًا، وثالثًا، أنّه كان في تلك اللحظة يسافر في بعض مناطق غواتيمالا.

وفي مكان آخر، شاهدت نماذج لصور التقطها، يمثّل معظمها صور أُناس من مختلف الألوان والمذاهب. وعلى الرّغم من اختلاف أولئك الناس اختلافًا واضحًا بعضهم عن بعض، فقد كانوا يتشابهون في مظهر واحد غريب، هو أنّهم جميعًا كانوا في صورهم يفتقرون إلى شيء واضح. الشيء الذي يفتقر إليه بعضهم غاية في البساطة، على سبيل المثال، قرط أو فردة حذاء أو زرّ، في حين يفتقر البعض الآخر منهم إلى شيء أكثر أهمّيّة مثل سنّ أو إصبع، أو كما في بعض الأحيان، ساق.

وتحت هذه الصورة قرأت ما يأتي:

بغض النظر عن هويّتنا وعن المكان الذي نسكن فيه، فإنّنا في أعماقنا نشعر أنّنا غير كاملين. يبدو الأمر وكأنّنا فقدنا شيئًا ما، ولا بدّ لنا من استرجاعه. أمّا ما هو ذلك الشيء، فمعظمنا لم يعرف كنهه حتى الآن. أمّا الذين عرفوه، فإنّ قليلاً منهم تمكّن من الانطلاق والبحث عنه.

قلبت إيلّا الصفحات إلى أعلى وإلى أسفل على ذلك الموقع، وكبّرت كلّ بطاقة بريديّة وقرأت كلّ عبارة كتبها عزيز. وفي أسفل الصفحة عثرت على عنوان البريد الإلكتروني azizZzahara@gmail.com فما كان منها إلّا أن دوّنته على قصاصة ورق. ثم وجدت بعد قصيدة للرومي:

توجّه للحبّ يا حبيبي، فلولا حياة الحبّ الجميلة
لكانت الحياة عبئًا ـ كما رأيت

وفي حين كانت تقرأ القصيدة خطرت ببالها فكرة. ففي لحظة ما شعرت أنّ كلّ ما وضعه عزيز زد. زاهارا في موقعه الشخصي ـ الصور والملاحظات والمقتطفات والقصائد ـ إنّما كُتبت من أجل عينيها وحدها

دون غيرها. فكرة غريبة وسطحيّة إلى حدّ ما ولكنّها كانت ذات مغزى كبير عندها.

* * *

في وقت متأخّر ما بعد الظهر، جلست إيلّا قرب النافذة، تشعر بالإنهاك وانكسار الخاطر. كانت الشمس قويّة، ثقيلة عليها، وكان الهواء في المطبخ معبقًا بروائح كعكة الشوكولا بالبندق التي كانت تعدّها، كانت الرواية مفتوحة أمامها، ولكن ذهنها كان منشغلاً انشغالاً كبيرًا لم يمكّنها من التركيز على المخطوطة. وخطر لها أن تكتب بدورها قواعدها الخاصّة بها وفي وسعها أن تصنع لها عنوانًا يقول: القواعد الأربعون لربّة بيت عمليّة ومستقرّة استقرارًا ثابتًا.

وتمتمت:

ـ القاعدة الأولى: توقّفي عن البحث عن الحبّ! توقّفي عن اللهاث وراء أحلام مستحيلة! فعلى وجه التوكيد، ثمّة أشياء أكثر أهمّيّة في الحياة عند امرأة متزوّجة تشارف الأربعين.

لكن هذه المزحة تسبّبت في انزعاج غامض في نفس إيلّا، وذكّرتها بمتاعب أكبر وأشدّ. ولمّا وجدت نفسها عاجزة عن كبح جماح نفسها، اتّصلت بابنتها الكبرى ولكنّها تلقّت إجابة على الآلة المسجّلة.

ـ عزيزتي جانيت، أعلم أنّني أخطأت في الاتّصال بسكوت لكن غرضي لم يكن شيئًا، كلّ ما هنالك هو أنّني أردت أن أتأكّد من. . .

وهنا أمسكت عن الكلام، نادمة الندم كلّه لأنّها لم تخطّط لهذه الرسالة مسبقًا. كان في وسعها سماع هسيس آلة التسجيل الخافت وهي تسجّل في الطرف الآخر، فانتابها القلق لمّا فكّرت أنّ الشريط مستمرّ في الدوران وأنّ الوقت قصير.

ـ إنّني آسفة يا جانيت على ما اقترفته من أعمال. أعلم أنّه لا ينبغي لي التذمّر وأنا محظوظة إلى هذه الدرجة. كلّ ما هنالك هو أنّني لست. . . سعيدة تمامًا. . .

وهنا توقّفت آلة التسجيل وضاق صدر إيلّا بعد أن صدمتها الكلمات

التي تفوّهت بها. ما الذي استبدّ بها؟ لم تكن تعرف أنّها غير سعيدة. هل من الممكن أن تكون مكتئبة ولا تدري؟ لكن ممّا يدعو إلى الاستغراب هو أنّها لم تشعر بأنّها غير سعيدة في اعترافها بعدم سعادتها، بل لم تشعر بأشياء كثيرة في الأيّام الأخيرة.

انتقلت أنظارها باتّجاه قصاصة الورق التي دوّنت عليها عنوان بريد عزيز زد. زاهارا الإلكتروني. بدا العنوان بسيطًا لها، خاليًا من التكلّف، ولكنّه جذّاب إلى حدّ ما. ولم تطلّ التفكير حتى تحوّلت إلى حاسوبها وبدأت تكتب رسالة:

عزيزي عزيز زد. زاهارا.

اسمي إيلّا، وأنا الآن أقرأ في روايتك تجديف عذب بصفتي مراجعة لدار النشر الأدبيّة. لقد بدأت بقراءتها قبل قليل، وسررت بها سرورًا كبيرًا. على أيّة حال، هذه وجهة نظري الشخصيّة ولا تعكس وجهة نظر مديري. وسواء راقتني روايتك أو لم ترقني، فأنا لا أملك تأثيرًا يذكر في القرار النهائي الذي سيعاملك زبونًا لنا.

يبدو أنّك تؤمن بأنّ الحبّ جوهر الحياة وأن لا شيء يهمّ بعد ذلك. لست أهدف من هذا الكلام إثارة أيّ نقاش غير مثمر معك بخصوص هذا الموضوع. ويكفي أن أقول إنّي لا أتّفق وإيّاك اتّفاقًا كاملاً. لكن ليس هذا هو السبب الذي يدفعني إلى الكتابة إليك.

إنّني أكتب إليك لأنّ توقيت قراءتي لروايتك هو الأكثر غرابة. ففي الوقت الراهن أحاول أن أقنع ابنتي الكبرى ألّا تتزوّج وهي صغيرة السنّ. وبالأمس طلبت من صديقها أن يلغي خططهما للزواج. الآن، ابنتي تكرهني وترفض الحديث معي. يراودني الإحساس بأنّك سوف تنجسم انجسامًا كبيرًا مع هذا ما دمت تحمل، على ما يبدو، آراء مشابهة عن الحبّ.

آسفة جدًّا لأنّني صببت مشكلاتي الشخصيّة عليك، فذلك ليس هو هدفي. إنّ موقعك الشخصي (وهو الموقع الذي استقيت منه عنوان بريدك الإلكتروني) يُفيد بأنّك الآن في غواتيمالا. لا بدّ أنّ السفر حول العالم مشوّق ومثير إلى حدّ كبير. وإذا ما جئت يومًا إلى بوسطن فربّما يمكننا أن

نلتقي شخصيًّا للحديث وتناول فنجان قهوة.

أطيب الأماني

إيلّا

لم تكن رسالة إيلّا الأولى إلى عزيز رسالة اعتياديّة بل كانت دعوة، نداء من أجل مدّ يد العون لها. لكن إيلّا لم تكن لتدرك هذا وهي تجلس في مطبخها الهادئ وتكتب رسالة إلى أديب مجهول لم تتوقّع لقاءه لا الآن ولا في أيّ وقت آخر في المستقبل.

* * *

المعلّم

بغداد، نيسان ١٢٤٢

لم تنتبه بغداد لوصول شمس التبريزي، ولكنّني لن أنسى اليوم الذي جاء فيه إلى تكيّة دراويشنا المتواضعة. كان لدينا في عصر ذلك اليوم ضيوف مهمّون، كما حلّ علينا قاضي القضاة رفقة عدد من رجاله، فخامرني الإحساس بأنّ زيارته ليست مجاملة فحسب، فهو معروف بكراهيّته الصوفيّة، وأراد بذلك أن يذكّرني بأنّه كان يراقبنا مثلما كان يراقب كلّ الصوفيّين في المنطقة.

كان قاضي القضاة رجلاً طموحًا، عريض الوجه، متهدّل الكرش، قصير الأصابع، يكسوها الشعر، وفي كلّ إصبع خاتم ثمين. كان ينبغي له أن يتوقّف عن الإسراف في تناول الطعام، ولكن من يملك الشجاعة ليثنيه عن ذلك؟ ولا حتى طبيبه. ولَمّا كان ينحدر عن أسرة عريقة من علماء الدين، فقد اكتسب بذلك نفوذًا عظيمًا في المنطقة. فبقرار واحد يمكنه أن يرسل أيّ رجل إلى حبل المشنقة، أو قد يسامح مجرمًا على جرائمه بالسهولة نفسها ويخرجه من دياجير السجون. وكان دومًا يرتدي معاطف مصنوعة من الفراء وثيابًا فاخرة باهظة الثمن، ويظهر بمظهر أبّهة من هو واثق من سلطته. أنا شخصيًا لا أستحسن إفراطه في الإعجاب بذاته، ولكنّني بذلت أقصى ما في وسعي كي أبقى على علاقة طيّبة مع هذا الرجل الواسع النفوذ من أجل مصلحة تكيّتنا.

قال القاضي وهو يدفع بتينة في فمه:

ـ إنّنا نعيش في أروع مدينة في العالم. فبغداد اليوم تزخر باللاجئين الهاربين من جيش المغول. إنّنا نوفّر لهم ملاذًا آمنًا. بغداد مركز هذا العالم. ما رأيك يا بابا زمان؟

قلت محاذرًا:

ـ ممّا لا ريب فيه أنّ هذه المدينة جوهرة. لكن دعنا لا ننسى أنّ المدن مثل بني البشر الذين يولدون ويمرّون بمرحلة الطفولة والمراهقة ويتقدّمون في العمر، وبالتالي يموتون. في هذه اللحظة من الزمان، تمرّ بغداد بمرحلة أواخر الشباب، فنحن لسنا بالثراء الذي كنّا عليه أيّام الخليفة هارون الرشيد على الرّغم من أنّنا لا نزال قادرين على المباهاة والتفاخر بأنّنا مركز التجارة والصناعة والشعر. ولكن من يدري كيف ستكون حال المدينة بعد ألف سنة من اليوم؟ قد يكون كلّ شيء مختلفًا.

ـ يا لك من متشائم. ستكون الغلبة للحكم العبّاسي وسنحظى بالرفاهية، شريطة ألّا يغير الجواسيس الذين بين ظهرانينا من الوضع الراهن. ثم هناك أولئك الذين يزعمون أنّهم مسلمون، ولكن تفسيرهم للإسلام أخطر بكثير من تهديدات الكفّار.

آثرت الالتزام بالصمت، إذ ليس سرًّا أنّ القاضي كان يعتقد بأنّ الصوفيّين، بما يحملونه من تفسيرات فرديّة عن الإسلام لا تفهمها إلّا فئة قليلة من الناس، ليسوا سوى مشاغبين. وقد اتّهمنا بأنّنا لا نهتمّ بأمور الشريعة وبهذا فنحن لا نحترم رجال السلطة ـ أمثاله. في بعض الأحيان، كان الشعور يخامرني بأنّه يفضّل طرد كلّ الصوفيّين خارج بغداد.

سأل القاضي وهو يمسّد لحيته:

ـ جماعتكم غير مؤذية، ولكن ألا تعتقد أنّ بعض الصوفيّين منبوذون من الوسط الاجتماعي؟

لم أحر جوابًا، ولكنّي حمدت الله أنّنا سمعنا في تلك اللحظة صوت طرق على الباب، وظهر بعده مبتدئ أحمر الشعر، اتّخذ أقصر طريق إليّ وهمس في أذني بأنّ زائرًا قد حضر، وهو درويش جوّال، ويصرّ على مقابلتي ورافضًا الحديث إلى أيّ شخص آخر.

في مثل هذه الحالات كنت أطلب من المبتدئ أن يقود الزائر الجديد إلى حجرة هادئة مستحبّة وتقديم الطعام الساخن له وجعله ينتظر حتى يغادر بقيّة الضيوف مجلسنا. لكن بما أنّ القاضي كان يزيد من صعوبة الوقت عليّ، فقد فكّرت في أنّ درويشًا جوّالاً يمكنه أن يزيل التوتّر من الحجرة بعد أن يحكي لنا حكايات ماتعة من أقاصي البلدان. لهذا السبب طلبت من المبتدئ أن يأتي بالرجل إلينا.

وبعد بضع دقائق، فتح الباب ودخل رجل يرتدي السواد من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه. نحيف وطويل، يصعب تحديد عمره، دقيق الأنف، غائر العينين، أسودهما، شعره الأسود يتهدّل على عينيه بخصلات كثيفة. كان يرتدي جبّة سوداء طويلة بغطاء رأس، وثوبًا من الصوف وحذاء من جلد الغنم. ثمّة تعاويذ تُحيط برقبته، وفي يده طاس خشبي من النوع الذي يحمله الدراويش المتسوّلون للتغلّب على زهوهم وكبريائهم بقبول صدقات الآخرين. وأدركت من فوري أنّ هذا الرجل لا يعير أهمّيّة كبرى لأحكام المجتمع، ولا ينزعج كثيرًا إذا ما اختلط أمره على الناس إن ظنّوه متشرّدًا أو حتى متسوّلاً.

وما إن شاهدته يقف موقفه في هذا المكان، منتظرًا الإذن بالتعريف عن نفسه، حتى أحسست أنّه رجل مختلف عن الآخرين، وكان هذا الاختلاف واضحًا في محيّاه، في عينيه وفي إشاراته المعقّدة. وكما هو حال جوزة البلّوط التي قد تبدو للعيون الجاهلة متواضعة ضعيفة وإن كانت تبشّر بشجرة البلّوط التي ستكون عليها يومًا ما، فقد رمقني الرجل بعينيه السوداوين الثاقبتين وأومأ بصمت.

قلت له بعد أن أشرت له بالجلوس على الأرائك المرصوفة قبالتي:

ـ مرحبًا بك في تكيّتنا أيّها الدرويش.

وبعد أن حيّا الدرويش جميع الحاضرين اتّخذ مكانه بين الجالسين، متفحّصًا إيّاهم، مستوعبًا بذلك كلّ التفاصيل. وأخيرًا توقّفت نظراته على القاضي، فنظر أحدهما إلى الآخر دقيقة كاملة دون أن ينبسا بكلمة، ولم أستطع منع نفسي من التساؤل عمّا يفكّر فيه كلّ واحد منهما بالآخر وإذ كانا على طرفي نقيض.

قدّمت للدرويش حليب ماعز دافئًا وتينًا حلوًا وتمرًا محشوًّا، ولكنّه رفض تناولها بأدب جمّ. وعندما سألته عن اسمه عرّفنا قائلاً إنّه شمس التبريزي وأضاف إنّه درويش جوّال يسعى إلى الله في كلّ مكان.

فسألته:

ـ هل تمكّنت من الوصول إليه؟

علت وجهه غمامة وهو يومئ ويقول:

ـ الحقّ أنّه معي طوال الوقت.

اعترض القاضي على هذا الكلام بابتسامة لم يكلّف نفسه عناء إخفائها.

ـ لا أفهم السبب الذي يجعلكم أنتم الدراويش تعقّدون الحياة إلى هذا الحدّ. فإذا كان الله معك طوال الوقت فما السبب الذي يدفعك إلى أن تفتّش طوال هذا الوقت بحثًا عنه؟

حنى شمس البريزي رأسه مفكّرًا ولزم الصمت لحظات. وعندما رفع بصره من جديد، بدا وجهه هادئًا وصوته واثقًا.

ـ لأنّ الذين يبحثون عنه هم وحدهم الذين يستطيعون العثور عليه على الرّغم من أنّه لا يمكن العثور عليه بالبحث عنه!

سخر القاضي من هذا الكلام.

ـ يا له من تلاعب بالألفاظ. أتراك تحاول إخبارنا بأنّنا لا يمكننا العثور على الله إذا ما بقينا في المكان نفسه طوال حياتنا؟ هذا كلام فارغ، فليس كلّ شخص يضطرّ إلى ارتداء ثياب بالية والسير في الطرقات مثلك!

وهنا تتابعت أصداء الضحك الخفيف بين الحاضرين في الحجرة رغبة منهم في إظهار موافقتهم على ما قاله القاضي ـ ضحك ارتفع صداه رويدًا رويدًا، ينمّ عن الافتقار للثقة وللسعادة، ويوحي بتملّق الجالسين لرؤسائهم، فأحسست بالانزعاج. الواضح أنّ فكرتي بالجمع بين القاضي والدرويش لم تكن سديدة.

أذعن الدرويش حسمًا للخلاف:

ـ ربّما لم تفهمني، فأنا لم أقصد بكلامي أنّ المرء لا يمكنه العثور

على الله إذا ما بقي حبيسًا في مسقط رأسه. هذا ممكن بكلّ توكيد. وهناك أُناس لم يسافروا إلى أيّ مكان ولكنّهم على الرّغم من ذلك شاهدوا العالم.

كشّر القاضي عن أسنانه سرورًا وانتصارًا وقال:

ـ تمامًا.

ولكن تكشيرته تبخّرت عندما سمع ما تفوّه به الدرويش بعد ذلك.

ـ إنّ ما قصدته بكلامي أيّها القاضي هو أنّ المرء لا يمكنه العثور على الله إذا ما ظلّ يرتدي المعاطف المصنوعة من الفراء والثياب الحريريّة ويتقلّد المجوهرات الثمينة كالتي تضعها عليك اليوم.

وخيّم صمت مطبق على الحجرة وتحوّلت الأصوات والزفرات من حولنا إلى ذرات غبار، وحبسنا أنفاسنا كأنّنا نتوقّع حدوث شيء ما أكثر هولاً وإن كنت لا أعرف ما الذي يمكن أن يكون أشدّ وقعًا من ذلك.

قال القاضي:

ـ لسانك أكثر حدّة من أن يلائمك أيّها الدرويش.

ـ إذا كانت ثمّة ضرورة لقول ما يجب قوله، فإنّني سأتفوّه به حتى لو أمسك العالم كلّه بي من رقبتي وطلب منّي أن ألتزم الهدوء.

قطّب القاضي جبينه ولكنّه هزّ كتفه صارفًا النظر عن الموضوع.

ـ حسن، على أيّة حال، وفي كلّ الأحوال، أنت الرجل الذي نحتاج إليه، فقد كنّا نتكلّم عن عظمة مدينتنا، ولا بدّ أنّك شاهدت أماكن كثيرة، فهل ثمّة مدينة أكثر سحرًا وجمالاً من بغداد؟

قال شمس موضحًا وهو ينقل نظراته الرقيقة من رجل إلى آخر:

ـ لا جدال في أنّ بغداد مدينة مدهشة ولكن ما من جمال يدوم إلى الأبد على وجه الأرض. إنّ المدن تُشيّد على أعمدة روحيّة، وهي تعكس قلوب سكّانها شأنها شأن المرايا العملاقة، فإذا اسودّت تلك القلوب وفقدت إيمانها، فإنّ المدن ستفقد بهاءها بدورها. هذا ما يحدث، يحدث دائمًا.

لم يسعني إلّا أن أومئ برأسي. التفت شمس التبريزي إليّ، وقد

تشتّت ذهنه لحظه من الزمن، وومضت عيناه وميضًا ينمّ عن مودّة. شعرت بعينيه كأنّهما حرارة شمس حارقة، ومن هنا أدركت بوضوح أنّه جدير باسمه. كان هذا الرجل يفيض حيويّة ونشاطًا ويحترق في أعماقه مثل كرة نار. كان حقًّا شمسًا.

ولكنّ القاضي فكّر على نحو مغاير.

ـ أنتم الصوفيّين تعقّدون الأمور أكثر ممّا ينبغي، وقل الشيء نفسه عن الفلاسفة والشعراء! ما ضرورة الإكثار من الكلام؟ إنّ البشر مخلوقات بسيطة ذات حاجات بسيطة، وعلى عاتق الزعماء مهمّة توفير حاجاتهم والتأكّد من عدم ضلالهم، وهذا يستدعي تطبيق الشريعة بحذافيرها.

قال شمس التبريزي:

ـ الشريعة كالشمعة، فهي توفّر لنا قدرًا كبيرًا من الضياء ولكن دعونا لا ننسى أنّ الشمعة تساعدنا في الانتقال من مكان إلى آخر وسط الظلام. وإذا ما نسينا الوجهة التي نتّجه إليها وركّزنا بدلاً من ذلك في الشمعة نفسها، فما فائدة ذلك؟

لوى القاضي عضلات وجهه وبانت عليه ملامح صارمة، فشعرت بموجة من القلق تغمرني لأنّ الخوض في مناقشة أهمّيّة الشريعة مع رجل مهمّته إصدار الحكم، هو حكم بالعقاب في أغلب الأحيان، على أناس طبقًا للشريعة يعني السباحة في مياه خطرة. ألم يعرف شمس ذلك؟

وبينما كنت أبحث عن عذر مناسب لإخراج الدرويش من الحجرة، سمعته يقول:

ـ ثمّة قاعدة تنطبق على هذه الحالة.

فسأل القاضي مرتابًا:

ـ أيّ قاعدة؟

اعتدل شمس التبريزي في جلسته، ونظر مليًّا كأنّه يقرأ في كتاب غير مرئي، وقال:

ـ كلّ قارئ يفهم القرآن الكريم فهمًا مختلفًا يتّفق وعمق إدراكه. ثمّة

أربعة مستويات من الفهم. المستوى الأوّل هو المعنى الظاهري(*) وهو المستوى الذي يقتنع به أغلب الناس. أمّا المستوى الثاني فهو المستوى الباطني ـ أي المستوى الداخلي، والمستوى الرابع، فله من العمق ما تعجز عن ذكره الكلمات ولهذا يبقى عصيًّا على الوصف.

واسترسل شمس في حديثه لامع العينين:

ـ العلماء الذين يركّزون على الشريعة يعرفون المعنى الظاهري، والصوفيّون يعرفون المعنى الباطني، والأولياء يعرفون باطن الباطن. أمّا المستوى الرابع فلا يعرفه إلّا الأنبياء والمقرّبون من الله.

سأل القاضي وهو ينقر بأصابعه على الطاس:

ـ أتراك تقول لي إنّ الصوفي الاعتيادي يفهم القرآن أكثر من عالم الشريعة؟

افترّ ثغر الدرويش عن ابتسامة ذكيّة ساخرة ولكنّه لم يجب عن السؤال.

فقال القاضي:

(*) كان الصوفيّة يعتقدون أنّ للقرآن الكريم ظاهرًا وباطنًا ويعيرون باطن القرآن اهتمامًا أكثر من ظاهره. يقول جلال الدين الرومي في المثنوي وفي تفسير الحديث النبوي «إنّ للقرآن ظهرًا وبطنًا ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن، وفي رواية إلى سبعين بطنًا»:

لا تظنّ أنّ لكلام القرآن ظاهرًا فحسب، فإنّ تحت الظاهر باطنًا قاهرًا أيضًا».
«وتحت ذلك البطن بطن آخر، يحار فيه الفكر والنظر».
«وتحت ذلك البطن بطن ثالث تتيه فيه العقول جميعًا».
«ولم ير أحد البطن الرابع للنبي
سوى الله الذي ليس له كفؤ ولا نظير.
هكذا حتى سبعة أبطن يا أبا الكرم.
عد أنت في هذا الحديث المعتصم
لا تنظر إلى ظاهر القرآن أيّها الولد
فإبليس لا يرى من الإنسان إلّا طينه
وظاهر القرآن كشخص الآدمي ملامحه ظاهرة وروحه خفيّة». (المترجم).

ـ على رسلك يا صديقي، فثمّة خيط رفيع بين موقفك وبين الكفر المحض.

لو كانت هذه الكلمات تنطوي على تهديد ما، فإنّ الدرويش بدا وكأنّه لم يتنبّه له، فسأل:

ـ ما معنى «الكفر المحض»؟

ثم مضى يقول بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:

ـ اسمح لي أن أحكي لك حكاية.

وها هي الحكاية التي حكاها لنا:

في يوم من الأيّام كان موسى يسير بين الجبال وحيدًا وعندما شاهد راعيًا يرعى الأغنام على مسافة بعيدة، كان الرجل جاثيًا على ركبتيه، باسطًا يديه باتّجاه السماء، متضرّعًا. فرح موسى ولكنّه لمّا اقترب أكثر، صعق عندما سمع دعاء الراعي.

ـ آه يا حبيبي يا إلٰهي! أحبّك أكثر ممّا تتصوّر، ولسوف أفعل كلّ شيء من أجلك، حسبك أن تأمرني، حتى لو طلبت منّي أن أذبح باسمك أضخم شاة في قطيعي فسوف أفعل ذلك دون تردّد. ولسوف تشويها وتضع سمنها في أرزّك ليصبح أشهى وألذّ. تقدّم موسى من راعي الغنم وأصغى باهتمام.

ـ بعد ذلك سأغسل قدميك وأنظّف أذنيك وأرفع القمل عنك. هكذا هو حبّي لك.

بعد أن سمع موسى ما يكفي من هذا الكلام، قاطع الراعي بصوت عالٍ:

ـ كفى أيّها الرجل الغبي! ماذا تظنّ أنّك فاعل؟ أتظنّ أنّ الله يأكل الأرزّ؟ أتعتقد أنّ الله لديه رِجلين كي تغسلهما له؟ هذا ليس بدعاء إنّه كفر محض.

اعتذر الراعي وقد استبدّ به الخجل والذهول ووعد بالدعاء كما يدعو الأخيار. فعلّمه موسى بعض الأدعية في عصر ذلك اليوم، ثم مضى في سبيله، مسرورًا من نفسه.

لكن موسى سمع في تلك الليلة صوتًا، وكان صوت الله.

ـ آه يا موسى! ما الذي فعلت؟ لقد وبّخت الراعي المسكين وأخفقت في معرفة مدى اعتزازي به. ربّما لم يكن يتفوّه بالكلمات الصحيحة بأسلوب صحيح، لكنّه كان مخلصًا، فقلبه نظيف ونيّته سليمة، وكنت مسرورًا منه. ربّما كانت كلماته كفرًا في رأيك لكنّها تجديف عذب بالنسبة لي.

وأدرك موسى غلطته من فوره. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، قفل راجعًا إلى الجبل لرؤية راعي الغنم، فوجده يدعو من جديد، ولكن دعاءه كان في هذه المرّة على النحو الذي لقّنه إيّاه. وكان يتلعثم في دعائه بسبب عزمه على التلفّظ بالدعاء بصورة صحيحة، كما أنّه حرم من الحماسة والعاطفة اللتين اتّصف بهما دعاؤه السابق. فندم موسى على فعلته وربت على ظهر راعي الغنم وقال: «كنت مخطئًا يا صديقي. أرجو أن تسامحني. واظب على دعائك وفق طريقتك، فذلك أعظم في عينَيّ الله».

استبدّت الدهشة براعي الغنم لدى سماعه هذا الكلام لكنّه كان مرتاحًا في أعماقه. ومع هذا فإنّه لم يرغب في العودة إلى دعواته القديمة، كما أنّه لم يلتزم الدعوات التقليديّة التي علّمه إيّاها موسى، فقد وجد الآن طريقة جديدة للاتّصال بالله. وعلى الرّغم من أنّه كان راضيًا ومحظوظًا في دعائه الساذج، فقد تجاوز تلك المرحلة الآن ـ مرحلة التجديف العذب(*).

(*) تعميمًا لفائدة القارئ العربي، نضع بين يديه ما قاله جلال الدين الرومي في المثنوي في قصّة مناجاة راعي الأغنام مع الله تعالى على عهد موسى عليه السلام:
لمّا سمع موسى عن راعي الأغنام وهو في الصحراء يتكلّم مع الله في مقام المناجاة ويقول حسب زعمه وتصوّره:

أين أنت حتى أصير عبدًا لك ... فأخصف نعلك وأمشط شعرك
وإذا دهاك مرض أحمل همّك ... كما أحمل همّ نفسي
وإذا عرفت دارك أحمل إليك ... السمن واللبن كلّ صباح ومساء

فنهره موسى وقال:

قال موسى ويحك لقد صرت جريئًا ... وأصبحت كافرًا قبل أن تكون مسلمًا
فإن لم تكفّ عن هذا الكلام ... فستنزل نار وتحترق الخلائق أجمعين

فأجاب الراعي موسى:

ثم اختتم شمس كلامه قائلاً:

- أرأيت؟ لا تحكم على أسلوب الآخرين في صلتهم بالله. فلكلّ واحد طريقته وأسلوبه الخاصّ في الدعاء لأنّ الله لا يحكم علينا من خلال كلماتنا الخارجيّة، بل ينظر إلى أعماق قلوبنا. إنّ الطقوس والمناسبات ليست هي التي تشكّل الاختلاف، بل قلوبنا إن كانت صافية بما يكفي أم لا.

نظرت مليًّا في وجه القاضي وتمكّنت من ملاحظة انزعاجه الواضح من تحت قناع الثقة ورباطة الجأش. ولكنّه تنبّه في الوقت عينه إلى أنّ الموقف يحتاج إلى حيلة ودهاء لاسيّما أنّه رجل ثاقب البصيرة. فلو نجم عنه ردّ فعل إزاء حكاية شمس، لاضطرّ إلى اتّخاذ الخطوة التالية ويعاقبه على وقاحته، وفي هذه الحالة ستصبح الأمور خطيرة وسيعلم الجميع أنّ درويشًا فقيرًا تجرّأ على مواجهة قاضي القضاة. لهذا السبب، الأفضل له أن يتظاهر بأنّه غير منزعج من أيّ شيء، ويترك الأمور عند هذا الحدّ.

في الخارج، كانت الشمس تميل إلى الغروب، راسمة في السماء

لقد سددت فمي وأحرقت روحي من الندم
ومزّق قميصه وتأوّه بحرقة واتّجه إلى جانب الصحراء وسار

ثم جاء الوحي من الله إلى موسى بشأن ذلك الراعي:

نزل الوحي على موسى من الله لقد أبعدت عبدنا عنّا
لقد جئت لوصل الناس بنا لا لفصلهم عنّا
لا تسر خطوة نحو الفراق ما استطعت لأنّ أبغض الأشياء عندي الطلاق
فقد وضعنا لكلّ فرد سيرة خاصّة كما جعلنا لكلّ واحد اصطلاحًا خاصًّا
إنّ ما يكون في حقّه مدحًا يكون في حقّك ذمًّا وما يكون له شهدا يكون لك سما
نحن لا ننظر إلى الظاهر والقال بل ننظر إلى الباطن والحال
ننظر إلى القلب إن كان خاشعًا ولو كان القول واللفظ غير خاضع
لأنّ القلب جوهر والقول عرض فالعرض طفيلي والجوهر مقصود

هذا ويبدو لنا أنّ الروائيّة حاولت الاستفادة من هذه النصوص فأضافت إليها من خيالها أو لعلّها من خيال الترجمة الإنكليزيّة للمثنوي فجاءت بالصورة التي نقلناها بأمانة في المتن أعلاه (المترجم).

مجموعة من ظلال اللون القرمزي الذي تتخلّله هنا وهناك سحب رماديّة غامقة، وبعد برهة وجيزة، نهض القاضي واقفًا وقال إنّ لديه أمورًا مهمّة يتعيّن عليه إنجازها. وبعد أن أومأ إليّ إيماءة صغيرة، ورشق شمس التبريزي بنظرة لامبالية، مضى في سبيله، يتبعه رجاله صامتين.

وبعد أن رحل الجميع قلت:

ـ أعتقد أنّك لم ترق القاضي كثيرًا.

دفع شمس التبريزي شعره بعيدًا عن وجهه وابتسم قائلاً:

ـ آه، لا بأس. أنا معتاد الناس الذين لا أروقهم كثيرًا.

لم أتمكّن من إخفاء شعوري بالحماسة. فأنا سيّد هذه التكيّة منذ زمن بعيد يكفي لأن أعرف أنّ مثل هذا المكان لا يزوره مثل هذا الزائر.

قلت:

ـ أخبرني أيّها الدرويش، ما الذي يدفع شخصًا مثلك إلى زيارة بغداد؟

كنت توّاقًا لسماع جوابه ولكنّي في الوقت نفسه أيضًا كنت خائفًا خوفًا غريبًا.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٢٠ أيّار ٢٠٠٨

راود الراقصون والدراويش إيلّا في أحلامها في تلك الليلة التي لم يعد زوجها إلى المنزل. كان رأسها يستريح فوق المخطوطة وهي تراقب محاربين أشدّاء يتناولون طعام الغداء في حانة على قارعة طريق وقد امتلأت أطباقهم بكمّيات كبيرة من الفطائر والحلويات اللذيذة.

ثم رأت نفسها تبحث عن شخص ما في سوق مزدحم في قلعة ببلاد غريبة، والناس من حولها يسيرون سيرًا بطيئًا كأنّهم يرقصون على وقع أنغام لا تتمكّن من سماعها. توقّفت أمام رجل بدين، متهدّل الشاربين للاستفسار عن شيء ما ولكنّها لم تتذكّر السؤال. رمقها الرجل بنظرة تنمّ عن عدم الفهم ومضى يعرج في مشيته. حاولت الكلام مع عدد من الباعة الجوّالين وأصحاب الدكاكين ولكن لم يجبها أحد منهم. في البدء ظنّت أنّ السبب يرجع إلى عدم فهمها لغتهم. ثم وضعت يدًا على فمها وأدركت، لرعبها، أنّ لسانها مقطوع. ازداد رعبها وهي تجيل الطرف من حولها بحثًا عن مرآة كي ترى فيها انعكاس صورتها والتأكّد أنّها لا تزال المرأة نفسها، ولكنّها لم تعثر على أيّة مرآة في السوق.

فبدأت تصرخ حتى استيقظت على إثر سماعها صوتًا يثير الاضطراب، لا تدري إن كانت لا تزال تحتفظ بلسانها أم لا.

وعندما فتحت إيلّا عينيها وجدت كلبها يخربش على الباب الخلفي.

ربّما تسلّل حيوان إلى الشرفة فدفع الكلب إلى الهياج.

كان الحيوان المعروف بالضربان الأميركي يثير ثائرته على وجه الخصوص. وكانت ذكرى مصادفته أحد الضربان في الشتاء الماضي ما تزال حيّة. واستغرقت إيلّا أسابيع كي تزيل الروائح النتنة التي علقت بالكلب، بل إنّ تلك الرائحة ظلّت عالقة بالحيوان حتى بعد أن وضعته في مغطس الحمّام المملوء بعصير الطماط، مذكّرة بمطّاط محترق.

ألقت إيلّا نظرة خاطفة على الساعة المثبّتة على الجدار فوجدتها تُشير إلى الثالثة إلّا ربعًا فجرًا. ديڤيد لم يعد بعد ربّما لن يعود أبدًا. كما أنّ جانيت لم تردّ على اتّصالها الهاتفي وراودت إيلّا الشكوك، وهي في حالتها المتشائمة، بأنّها لن تتّصل أيضًا. استبدّ بها الرعب خشية أن يكون زوجها وابنتها قد هجراها، فاتّجهت نحو البرّاد وفتحت بابه ونظرت إلى محتوياته بضع دقائق. رغبت في أن تتناول مرطّبات بالڤانيلّا والكرز ولكنّها خشيت أن يزداد وزنها.

فتراجعت بصعوبة إلى الوراء وأغلقت باب البرّاد بقوّة أكبر ممّا ينبغي.

ثم عمدت إلى فتح زجاجة من شراب النبيذ الأحمر وصبّت كأسًا لها. وكان النبيذ لذيذًا وخفيفًا ومنعشًا وإن كانت تشوبه حلاوة مرّة قليلاً، وهو ما يروقها. وعندما كانت تملأ الكأس الثانية خطر ببالها أنّها ربّما فتحت إحدى زجاجات شراب ديڤيد من نوع بوردو، فنظرت إلى العلامة المثبّتة على الزجاجة وقرأت: شاتو ماركو ١٩٩٦. ولمّا لم تفهم شيئًا ممّا قرأت قطّبت جبينها وهي تنظر إلى الزجاجة.

كانت تشعر بالتعب والنعاس الشديدين اللذين لا يسمحان لها بمواصلة القراءة، ولهذا قرّرت أن تُلقي نظرة على بريدها الإلكتروني، فوجدت نصف دزّينة من الرسائل التافهة ورسالة من ميشيل تستفسر عن حال المخطوطة، ورسالة من عزيز زد. زاهارا.

عزيزتي إيلّا (إن كان في وسعي قول ذلك).

وصلتني رسالتك وأنا في قرية مومستينانغو في غواتيمالا، وهي من الأماكن القليلة التي ما تزال تستعمل التقويم المایاني. في الجهة المقابلة للفندق الذي أنزل فيه، ثمّة شجرة أماني مزيّنة بمئات من قطع الأقمشة

المختلفة الألوان والنقوش التي يمكن لك أن تتخيّليها. الناس هنا يطلقون عليها شجرة أصحاب القلوب المحطّمة، لأنّ الذين تحطّمت قلوبهم يكتبون أسماءهم على قصاصات ورق ويثبّتونها بالأغصان، متضرّعين وداعين أن تشفى قلوبهم.

أرجو ألّا تجدي هذا دليل وقاحة، لكنّني بعد أن قرأت رسالتك توجّهت إلى شجرة الأماني ودعوت لك ولابنتك كي تتوصّلا إلى حلّ لسوء التفاهم بينكما. إنّ ذرة حبّ واحدة لا يجب الانتقاص منها لأنّ الحبّ، كما قال الرومي، ماء الحياة.

لقد ساعدني شيء واحد في الماضي وهو عدم التدخّل في شؤون الناس الذين من حولي، وكنت أشعر بالإحباط لأنّني لم أتمكّن من إحداث أيّ تغيّير فيهم. وبدلاً من التدخّل أو البقاء مكتوف اليدين، هل يمكنني يا ترى أن أقترح عليك التسليم؟

إنّ بعض الناس يخطئون عندما يخلطون بين «التسليم» والضعف. إنّ التسليم يعني كلّ شيء باستثناء الضعف. التسليم شكل من أشكال القبول السلمي لقوانين الكون بما في ذلك الأشياء التي نعجز الآن عن تغييرها أو فهمها.

وحسب التقويم المایاني، فاليوم هو يوم سعيد يبشّر بالنجاح. فثمّة تحوّل كبير على وشك الحدوث في النجوم، مؤشّرًا بوعي إنساني جديد. إنّني مضطر إلى الإسراع في إرسال هذه الرسالة لأنّ الشمس آذنت بالمغيب وانتهى النهار.

أرجو أن تجدي الحبّ في أقلّ الأماكن التي تتوقّعينها، وفي أقلّ الأوقات التي تتوقّعينها أيضًا.

المخلص لك

عزيز

أغلقت إيلّا حاسوبها المحمول وتأثّرت عندما علمت أنّ إنسانًا غريبًا عنها تمامًا وفي ركن قصي عن العالم قد ابتهل ودعا من أجل رفاهيّتها. أسبلت جفنيها وتخيّلت اسمها مكتوبًا على قصاصة ورق مثبّتة بشجرة

الأماني، متدلّية مثل طيّارة ورقيّة في الجو، حرّة وسعيدة.

وبعد بضع دقائق، فتحت باب المطبخ وخطت في الفناء الخلفي، مستمتعة ببرودة النسيم المثيرة. وقف كلبها إلى جانبها، قلقًا، مزمجرًا، يشمّ الهواء دون توقّف. ضاقت عينا الكلب، ثم اتّسعتا وبان عليهما القلق في حين ظلّت أذناه تنفران إلى أعلى كأنّه أدرك وجود شيء ما يبعث على الخوف.

وقفت إيلّا وكلبها جنبًا لجنب تحت ضوء القمر في ذلك الوقت المتأخّر من الربيع، يحدّقان في الظلمة الحالكة التي لا أوّل لها ولا آخر، وكانت بدورها وجلة من الأشياء المتراقصة في الظلام، خائفة من المجهول.

* * *

المبتدئ

بغداد، نيسان ١٢٤٢

أفرطت في الاحترام والتذلّل وأنا أرافق القاضي إلى الباب، ثم عدت سريعًا إلى الحجرة الرئيسيّة لجمع الأواني القذرة. ولدهشتي وجدت بابا زمان والدرويش الجوّال في المكان نفسه الذي تركتهما فيه، صامتين لا ينبسان بكلمة. نظرت إليهما نظرة جانبيّة، متفحّصًا ومفكّرًا إن كان ممكنًا مواصلة الحديث دون كلام! أنفقت وقتًا طويلاً قدر استطاعتي أرتّب الأرائك وأنظّف الجرّة وألتقط فضلات الطعام عن السجّادة ولكن بعد مضي مدّة من الزمن لم يعد لي سبب في البقاء.

تباطأت في الخروج من الحجرة واتّجهت إلى المطبخ فاتر الهمّة، وما إن رآني الطاهي حتى انهال عليّ بالأوامر: «امسح المشرب، نظّف الأرضيّة! اغسل الأواني! نظّف المدفأة والجدران من حول الشوّاية! وعندما تفرغ من عملك، لا تنسَ أن تُلقي نظرة على مصائد الفئران!» منذ أن وصلت هذا المكان قبل نحو ستّة أشهر، كان الطاهي يعاملني بفظاظة وقسوة، وكان في كلّ يوم يجعلني أشتغل كالكلب ناعتًا هذا العذاب على أنّه جزء من التدريب الروحي، وكأنّ غسل الأواني القذرة أمر روحي في كلّ الأحوال.

ولَما كان هذا الطاهي رجلاً قليل الكلام، فإنّ عبارته المفضّلة كانت: النظافة صلاة والصلاة نظافة!

وفي كلّ يوم من الأيّام امتلكت الشجاعة وقلت:

ـ لو كان ذلك صحيحًا لأصبحت ربّات كلّ البيوت في بغداد سيّدات روحيّات.

وهنا رماني بملعقة خشبيّة على رأسي وصاح بأعلى صوته:

إنّ مثل هذا الردّ لن يجديك نفعًا يا بنيّ. فإذا أردت أن تصبح درويشًا عليك أن تخرس مثل الملعقة الخشبيّة. التمرّد ليس صفة مستحبّة عند أيّ مبتدئ، وكلّما قلّ كلامك، أسرعت بالنضج!

كرهت الطاهي، لكنّ الأسوأ من هذا هو أنّني كنت أخشاه، فلم أعطِهِ أمراً، بمعنى، حتى هذا المساء.

ما إن ولّاني الطاهي ظهره حتى تسلّلت خارج المطبخ وسرت على رؤوس أصابعي في اتّجاه الحجرة الرئيسيّة متشوّقًا لمعرفة المزيد عن الدرويش التائه. من هو؟ ماذا يفعل في هذا الجوار؟ إنّه لا يشبه بقيّة الدراويش في التكيّة. عيناه تبدوان متّقدتين، متمرّدتين، حتى عندما يحني رأسه تواضعًا. ثمّة شيء غير مألوف وغير متوقّع يحيط به فيبدو مخيفًا إلى حدّ ما.

اختلست النظر من خلال صدع في الباب ولكنّي لم أتمكّن من رؤية أيّ شيء في بادئ الأمر، لكن عينيّ اعتادتا العتمة المنتشرة داخل الحجرة وتمكّنت من رؤية وجهيهما.

سمعت المعلّم يطرح سؤالاً:

ـ أخبرني يا شمس التبريزي، ما الذي يدفع شخصًا مثلك للمجيء إلى بغداد؟ هل شاهدت هذا المكان في حلم؟

هزّ الدرويش رأسه نافيًا:

ـ لا، ليس الحلم هو الذي الذي أتى بي إلى هذا المكان، بل الرؤيا، فأنا لا تراودني الأحلام.

قال بابا زمان برقّة:

ـ لكلّ امرئ أحلامه. ربّما أنت لا تتذكّر الأحلام طوال الوقت. لكن هذا لا يعني أنّك لا تحلم.

أصرّ الدرويش على رأيه:

ـ أنا لا تراودني الأحلام. وهذا جزء من الاتّفاق الذي عقدته مع الله. أنت تدري. عندما كنت صبيًّا صغيرًا شاهدت ملائكة وراقبت أسرار الكون وهي تنفتح أمام عيني. وعندما أخبرت والداي بالأمر، لم يبد عليهما الارتياح وطلبا منّي التوقّف عن الأحلام. ولمّا أودعت سرّي عند أصدقائي قالوا بدورهم إنّني حالم يائس. حاولت أن أحدّث أساتذتي ولكن ردّهم لم يكن مختلفًا. وأخيرًا أدركت أنّ الناس يطلقون كلمة الحلم على كلّ ما يسمعون من غريب القول. فبدأت أمقت هذه الكلمة وكلّ ما تمثّله.

بعد أن تفوّه الدرويش بهذا الكلام، أمسك عن الحديث هنيهة كأنّه سمع صوتًا غريبًا، ثم حدث أغرب شيء، إذ نهض واقفًا واعتدل في وقفته وبدأ يسير نحو الباب سيرًا بطيئًا عن عمد، وينظر في اتّجاهي في الوقت نفسه. بدا كأنّه أدرك أنّني أتجسّس عليهما.

بدا كأنّه يستطيع أن يخترق بنظره الباب الخشبي.

دقّ قلبي كالمجنون، وأردت أن أركض مسرعًا نحو المطبخ لكنّي لم أجد سبيلاً إلى ذلك، فقد تجمّدت أطرافي، وتجمّد بدني كلّه. كانت عينا شمس التبريزي السوداوان ثابتتين عليّ، وشعرت وأنا في لجّة الرعب بطاقة هائلة تندفع داخل جسدي. اقترب منّي ووضع يده على مقبض الباب، ولكن في اللحظة التي ظننت أنّه سيفتح الباب ويقبض عليّ، توقّف في مكانه. لم أتمكّن من مشاهدة وجهه وهو قريب، ولم تكن لديّ أيّة فكرة عن السبب الذي دفعه إلى تغيير رأيه. انتظرنا على ذلك النحو دقيقة طويلة لا تُحتمل، استدار بعدها ومضى في طريقه نحو الباب واستأنف روايته.

ـ عندما كبرت قليلاً توسّلت إلى الله أن يجرّدني من قدرتي على الحلم كي أُدرك كلّما التقيته أنّي لست أحلم. فوافق وأبعدني عن الأحلام كلّها. لهذا السبب تراني لا أحلم.

وقف شمس التبريزي الآن قرب النوافذ المشرّعة في الجهة المقابلة من الحجرة. في الخارج، ثمّة رذاذ مطر خفيف، فراقبه مشغول البال قبل أن يقول:

ـ جرّدني الله من قدرتي على الحلم ولكنّه سمح لي أن أفسّر أحلام الآخرين بدلاً من ذلك، فأنا الآن مفسّر الأحلام.

توقّعت من بابا زمان ألّا يصدّق هذا الكلام الفارغ وأن يوبّخه مثلما كان يوبّخني في كلّ وقت.

ولكنّه عوضًا عن ذلك أومأ برأسه عن احترام وقال:

ـ يبدو أنّك رجل غير اعتيادي. قل لي، ما الذي يمكنني أن أفعله لك؟

ـ لا أدري. في الحقّ كنت أتمنّى لو في وسعك أن تخبرني.

سأل المعلّم حائرًا على ما يبدو:

ـ ماذا تعني؟

ـ إنّني درويش جوّال منذ حوالى أربعين سنة، أعرف أساليب الطبيعة ولكنّني أرى أساليب المجتمع غريبة عنّي. وإذا ما استدعت الضرورة، فإنّ في وسعي القتال مثل حيوان متوحّش ولكنّي أنا شخصيًّا لا أستطيع إيذاء أحد. يمكنني أن أخبرك بأسماء البروج في السماء، وأن أطلعك على أسماء الأشجار في الغابة، وأن أقرأ، كما في كتاب مفتوح، نماذج البشر الذين خلقهم الله على صورته.

توقّف شمس عن كلامه قليلاً وانتظر حتى يفرغ المعلّم من إشعال المصباح الزيتي. ثم أردف قائلاً:

ـ تقول إحدى القواعد: يمكنك أن تدرس الله في كلّ شيء وفي كلّ شخص في الكون لأنّ وجوده لا يقتصر على مسجد أو هيكل أو كنيسة. لكن إن كنت ما تزال في حاجة إلى معرفة مكانه، فثمّة مكان واحد ينبغي لك أن تبحث عنه وهو قلب الحبيب الصادق. ما من أحد عاش بعد مشاهدته، وما من أحد مات بعد مشاهدته. وكلّ من يعثر عليه سيبقى معه إلى الأبد.

بدا شمس التبريزي في ذلك الضوء الخافت المتراقص أطول قامة، شعره ينسدل فوق كتفيه موجات مبعثرة.

ـ ولكنّ المعرفة تشبه الماء الأجاج في قعر مزهريّة عتيقة إلّا إذا جرى في مكان ما. لقد تضرّعت إلى الله على مدى سنوات كي أحصل على صديق يشاركني في معرفتي التي تراكمت في داخلي، وأخيرًا، وفي رؤيا

مرّت بي في سمرقند، قيل لي أن أسافر إلى بغداد لتحقيق ذاتي. أُدرك أنّك تعرف اسم رفيقي ومحلّ وجوده وسوف تخبرني عنه عاجلاً أو آجلاً.

هبط الليل خارج البيت وتسلّلت حزمة من نور القمر من النوافذ المفتوحة، وأدركت أنّ الوقت متأخّر جدًّا. لا بدّ أنّ الطاهي بحث عنّي، لكنّني لم أعر الأمر أهمّيّة، إذ بدا خرق القوانين جيّدًا في بعض الأحيان.

تمتم المعلّم:

ـ لا أعرف أيّ إجابة تطلبها منّي، لكن لو كانت ثمّة معلومة لديّ وينبغي لي أن أطلعك عليها، فأعتقد أنّ الوقت سيحين لذلك، وإلى أن يحين الوقت في وسعك أن تبقى معنا. كن ضيفنا.

عندما سمع الدرويش الجوّال هذا الكلام انحنى بتواضع وامتنان ليقبّل يد بابا زمان، وهنا سأل المعلّم سؤاله الغريب:

ـ قلت إنّك على استعداد لنقل كلّ معرفتك إلى شخص آخر، وتريد أن تحمل الحقيقة في راحة كفّك كأنّها لؤلؤة ثمينة وتقدّمها لشخص آخر مميّز. لكن فتح المرء قلبه أمام النور الروحاني ليس قضيّة سهلة على أيّ إنسان.

فأنت تسرق الرعد من الله ولكنّ ما الذي ستدفعه لقاء ذلك؟

لن أنسى ما حييت الإجابة التي قدمها الدرويش آنذاك. فقد رفع حاجبه وقال بثبات:

ـ إنّني على استعداد لأن أقدّم رأسي ثمنًا لذلك.

جفلت وشعرت بقشعريرة باردة تسري في عظامي. وعندما نظرت من الشقّ ثانية، لاحظت أنّ المعلّم ارتعش لهذا الجواب أيضًا.

أطلق بابا زمان تنهيدة وقال:

ـ ربّما تكلّمنا بما يكفي في هذا اليوم، ولا بدّ أنّك مرهق، فدعني أستدعي المبتدئ الشابّ وسوف يرشدك إلى فراشك ويجهّزك بملاءة نظيفة وكوب من الحليب.

التفت شمس التبريزي باتّجاه الباب، فشعرت أنّه يحدّق إليّ من جديد. بل أكثر من ذلك. بدا كأنّه ينظر إليّ وإلى أعماقي، متفحّصًا كلّ

تضاريس روحي، مفتّشًا عن الأسرار الخافية حتى عليّ أنا شخصيًا. لعلّه متورّط في نوع من أنواع السحر الأسود أو ربّما درّبه هاروت وماروت ملكا بابل اللذان حذّرنا القرآن منهما(*) أو ربّما امتلك مواهب خارقة تساعده على أن يخترق بنظره الأبواب والجدران. وفي كلتا الحالتين، أثار الرجل مخاوفي.

قال في صوت ازداد ارتفاعًا:

ـ لا ضرورة لاستدعاء المبتدئ فلديّ إحساس أنّه على مقربة منّا وأنّه سمعنا.

شهقت شهقة عالية ربّما أيقظت الموتى في قبورهم، ووثبت واقفًا في ذعر تامّ وهرعت إلى البستان أبحث عن ملاذ وسط الظلام. لكن مفاجأة كانت تنتظرني في ذلك المكان.

صرخ الطاهي بأعلى صوته راكضًا في اتّجاهي وبيده مكنسة:

ـ ها قد أمسكت بك أيّها السافل. أنت في ورطة كبيرة يا بنيّ، ورطة كبيرة.

قفزت جانبًا وأفلحت في تفادي ضربة المكنسة في اللحظة الأخيرة، بيد أنّ الطاهي صاح ورائي وهو يلهث:

ـ تعالَ إلى هنا وإلّا كسرت لك ساقيك.

لكنّي لم أذهب واندفعت بدلاً من ذلك خارج البستان بسرعة السهم. وفي الوقت الذي كان فيه وجه شمس التبريزي يومض أمام عينيّ، واصلت الركض على امتداد الممرّ الملتوي الذي يربط التكيّة بالطريق العامّ، ولم أتوقّف عن الركض حتى بعد أن ابتعدت كثيرًا. كان قلبي يدقّ دقّات عنيفة، وفمي جافًّا تمامًا. وركضت حتى انهارت قواي ولم يعد في وسع ركبتيّ الاستمرار بعد ذلك.

* * *

(*) انظر سورة البقرة في القرآن الكريم (٢ : ١٠٢)، (المترجم).

إيلّا

نورثهامبتون، ٢١ أيّار ٢٠٠٨

عاد ديفيد إلى البيت في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي، شاحذًا همّته على الشجار ولكنّه وجد إيلّا نائمة في السرير وفي حضنها مخطوطة الرواية مفتوحة وإلى جانبها قدح فارغ بعد أن كانت قد أتت على محتوياته من النبيذ. تقدّم خطوة منها كي يغطّيها قليلاً بالبطّانيّة ويتأكّد أنّها مغطّاة على نحو مريح ولكنّه غيّر رأيه.

استيقظت إيلّا بعد عشر دقائق ولم تستبدّ بها الدهشة عندما سمعته يستحمّ. في وسع زوجها أن يغازل غيرها من النساء وأن يقضي ليلته معهنّ على ما يبدو، ولكنّه لا يستحمّ إلّا في حمّامه وعندما فرغ ديفيد من الاستحمام وعاد إلى الحجرة، تظاهرت إيلّا بأنّها نائمة، موفّرة عليه مشقّة تفسير سبب غيابه.

وبعد مرور أقلّ من نصف ساعة كان زوجها وأولادها قد غادروا المنزل وباتت إيلّا وحدها في المطبخ. يبدو أنّ الحياة تأخذ مجراها الاعتيادي، ففتحت كتاب الطبخ المفضّل لديها بعنوان «فنّ الطبخ السهل والبسيط». وبعد أن فكّرت في عدد من الخيارات، اختارت قائمة من شأنها أن تُبقيها مشغولة طوال ما بعد الظهر:

حساء من سمك وبطاطس وبصل مع الزعفران
وجوز الهند والبرتقال. معكرونة مع الفطر، أعشاب

طريّة وخمسة أنواع من الجبن، ضلوع لحم عجل
منقوع بإكليل الجبل والخلّ والفوم المشوي، سلطة
فاصولياء خضراء وكرنب منقوعة بالليمون الحامض
ثم اختارت الحلويات: سوفليه شوكولا ساخن.

ثمّة أسباب كثيرة تجعل إيلّا يروقها الطبخ، فقد كان إعداد وجبة طعام من مكوّنات اعتياديّة إنجازًا يبعث على الارتياح والسرور فضلاً عن أنّه يُثير حواسّها على نحو غريب. الأهمّ من هذا هو أنّها كانت تستمتع بالطبخ لأنّها كانت تجيده حقًّا. يُضاف إلى ذلك أنّ الطبخ يهدّئ من بالها. فالمطبخ هو المكان الأوّل في حياتها الذي يمكنها فيه أن تبتعد عن العالم الخارجي ابتعادًا تامًّا وأن توقف سريان الزمن في أعماقها. ربّما كان للجنس التأثير نفسه عند آخرين. هكذا تخيّلت، ولكنّ الجنس يحتاج إلى شخصين اثنين في حين لا يتطلّب الطبخ سوى الوقت والعناية وكيس من البقول.

الناس الذين يطهون الطعام في برامج التلفاز يجعلون عمليّة الطهو تبدو وكأنّها إلهام وأصالة وابتكار، وأفضل كلمة عندهم هي «التجريب». أمّا إيلّا فهي ليست من هذا الرأي. لِمَ لا يترك أمر التجريب للعلماء والتلاعب بالألفاظ للفنّانين؟ إنّ الطبخ يعني تعلّم الأُسس الأوّليّة باتّباع التعليمات واحترام حكمة العصور. كلّ ما يتعيّن على المرء عمله هو اتّباع التقاليد التي رسخت بمرور الزمان وعدم التجريب بها. لقد جاءت مهارات الطبخ من العادات والأعراف، وليس ثمّة أيّ خطأ في أن يكون المرء تقليديًّا في المطبخ على الرّغم من أنّ العصر الحديث يقلّل كما هو واضح من شأن مثل هذه الأمور.

احتفظت إيلّا بعاداتها اليوميّة. ففي صباح كلّ يوم، وفي الوقت نفسه تقريبًا، كانت الأسرة تتناول طعام الفطور، وفي عطلة نهاية الأسبوع، ترتاد الأسرة مركز التسوّق نفسه، وفي أوّل يوم أحد من كلّ شهر يحتفلون بتناول طعام الغداء مع الجيران. ولمّا كان ديفيد مدمنًا على العمل وليس لديه وقت شاغر، تتولّى إيلّا مسؤوليّة كلّ شيء في البيت: إدارة الأمور الماليّة ورعاية المنزل وتنظيف الأثاث من جديد والقيام

بالأشغال الضروريّة وترتيب جداول الأولاد ومساعدتهم في إعداد واجباتهم المدرسيّة، إلخ. وفي أيّام الخميس، كانت تذهب إلى نادي الطبخ حيث يخلط الأعضاء الطبخات من مختلف البلدان ويعيدون إحياء وصفات قديمة ويضيفون إليها توابل ومكوّنات جديدة. وفي كلّ يوم جمعة كانت تقضي ساعات في سوق الفلّاحين تتجاذب أطراف الحديث مع المزارعين عن منتجاتهم وتتفحّص عبوة زجاجيّة من مربّى الخوخ العضوي قليل السكّر أو تشرح لمتسوّقة أخرى أفضل الوسائل لطبخ الفطر للأطفال. وكلّ ما كانت لا تستطيع العثور عليه، تجده في محالّ هول فودز ماركيت عند رجوعها إلى المنزل.

وفي أمسيات السبت، كان ديفيد يصحب إيلّا إلى أحد المطاعم (غالبًا ما يكون مطعمًا تايلنديًا أو يابانيًا)، وإذا لم يكن الاثنان مرهقين أو ثملين إلى حدّ كبير وإذا كان مزاجهما رائقًا عند رجوعهما إلى البيت، يمارسان الحبّ. قبلات صغيرة وحركات لطيفة تنمّ عن عاطفه أكثر ممّا تنمّ عن مودّة. وبعد أن كان الجنس يشدّ من أزرهما، تجده الآن قد فقد جاذبيّته منذ زمن طويل. ففي بعض الأحيان، كانت تمرّ الأسابيع دون ممارسة الحبّ. وقد رأت إيلّا أنّ الشيء الغريب هو أن يكون الجنس قد احتلّ مكانة مهمّة في حياتها يومًا ما، واليوم، وبعد أن تبخّر من حياتها، شعرت بالارتياح، والتحرّر إلى حدّ ما. على أيّة حال، كانت تروقها فكرة رجل وامرأة متزوّجين منذ زمن بعيد وقد هجرا مرحلة الانجذاب الجسدي ووجدا ارتباطًا أكثر ثباتًا يمكن الاعتماد عليه. المشكلة الوحيدة تتمثّل في أنّ ديفيد لم يهجر الجنس بقدر ما هجره مع زوجته. ولم تواجهه في هذه القضايا، بل لم تلمّح له عن شكوكها. وجدت أنّ من الأسهل عليها التظاهر بالتجاهل ما دام أحد من أصدقائهما المقرّبين لا يعرف شيئًا عن الموضوع. لم تصادفهما أيّة فضائح ولا مصادفات محرجة ولا ما يجعل الألسن تلوك الفضيحة وتتداولها. لم تعرف كيف تمكّن من تدبير كلّ ذلك، خاصّة مع ازدياد ممارساته الجنس مع غيرها من النساء خاصّة سكرتيراته الشابّات، ولكن زوجها كات كتومًا وهادئًا في هذه الأمور. على أيّة حال، للخيانة رائحة، وهذا كلّ ما كانت تعرفه إيلّا.

إذا كانت ثمّة سلسلة من الحوادث، فإنّ إيلّا لم تستطع معرفة أيّ حادث هو الأوّل أو الأخير. هل كان فقدان اهتمامها بالجنس سببًا لخداع زوجها؟ أم أنّ القضيّة كانت معكوسة؟ هل يا ترى كان ديڤيد هو الذي خانها أوّلاً، ثم عمدت هي بعد ذلك إلى إهمال جسدها ففقدت رغبتها في الجنس؟

مهما كان الجواب، فإنّ النتيجة واحدة: إذ لم يعد ذلك الوهج بينهما، ذلك النور الذي ساعدهما على شقّ طريقهما وسط حياة الزواج المجهولة، وأبقى على رغبتهما كما هي حتى بعد أن رُزقا ثلاثة أطفال ومضى على زواجهما عشرون عامًا.

* * *

احتشد ذهنها على مدى الساعات الثلاث بالأفكار في حين ظلّت يداها في حركة دائمة. باشرت تقطيع الطماطم وفرم الثوم وقلي البصل قليًا خفيفًا وطهت المرق على نار هادئة وفرمت قشور البرتقال وعجنت العجين لإعداد خبز من الدقيق الكامل، وكان هذا العمل الأخير يستند إلى نصيحة والدة ديڤيد الذهبيّة عندما تمّت خطبتهما:

«لا شيء يذكّر الرجل بالبيت مثل رائحة الخبز الطازج، لا تذهبي لشراء الخبز، بل اصنعيه بنفسك يا حبيبتي، فله تأثير سحري».

انهمكت إيلّا طوال ما بعد الظهر وأعدّت مائدة شهيّة وعليها مناديل مناسبة لها ووضعت شموعًا معطّرة وباقة من زهور ذات لونين أصفر وبرتقالي شديدي اللمعان حتى يخيّل للناظر أنّها اصطناعيّة، وفي لمسة أخيرة، وضعت مناديل مائدة برّاقة دائريّة الشكل، ولمّا أضحت وحدها، بدت المائدة أشبه بواحدة من تلك الموائد التي نراها في المجلّات الأنيقة الخاصّة بالبيوت.

شعرت إيلّا بالإنهاك ولكنّها كانت راضية، مسرورة، فاتّجهت إلى جهاز التلفاز في المطبخ لتسمع الأخبار المحلّيّة، ثمّة طبيبة علاج طبيعي شابّة طُعنت في شقّتها، حريق في مستشفى سببه تماس كهربائي، واعتقال أربعة طلّاب من مدرسة ثانويّة بتهمة التخريب. شاهدت الأخبار وهزّت رأسها على ما تسمعه من أخطار لا حدود لها محدقة بالعالم. كيف يمكن

لرجل مثل عزيز زد. زاهارا أن يجد الرغبة والشجاعة للسفر في أقلّ مناطق العالم نموًّا في حين لم تعد حتى ضواحي أميركا آمنة؟

حارت إيلّا وهي تفكّر في هذا العالم الذي يصعب توقّع أحداثه أو فهمه فيدفع بأناس مثلها إلى البقاء في البيت وفي الوقت نفسه يكون تأثيره معاكسًا على شخص مثل عزيز فيلهمه على القيام بمخاطرات في أماكن غير مطروقة.

جلس آل روبنشتاين حول مائدة غاية في الحسن والكمال في الساعة السابعة والنصف مساء، وكانت الشموع تضفي على غرفة الطعام جوًّا رائعًا. ولو كان أحد الغرباء يراقبهم لربّما اعتقد أنّ هذه الأسرة مثاليّة، ورقيقة مثل خيوط الدخان المتلاشية ببطء في الجو. ولم يفسد الجوّ غياب جانيت. فقد تناولوا الطعام في حين تحدّثت أورلي وآفي عن أحداث النهار في المدرسة. وشعرت إيلّا للحظة بالامتنان لهما لقدرتهما على الحديث وإثارة الصخب والتغلّب على الصمت الذي لولا ذلك لخيّم ثقيلاً بينها وبين زوجها.

شاهدت إيلّا زوجها وهي تراقبه بطرف عينها يغرس الشوكة في الكرنب ويمضغ ببطء. ثم انحدرت نظرتها إلى ذقنه وإلى شفتيه وأسنانه البيض اللؤلؤيّة. أمّا فمه فكانت تعرفه معرفة جيّدة إذ سبق لها أن قبّلته مرّات ومرّات.

تخيّلته يقبّل امرأة أخرى، ولسبب ما، تصوّرت أنّ غريمتها ليست سكرتيرة ديڤيد الشابّة وإنّما امرأة عظيمة الصدر على غرار سوزان ساراندون، رياضيّة ملؤها الثقة بالنفس، تكشف عن نهديها من خلال ثوبها الضيّق وتضع حذاء عالي الكعبين من الجلد الأحمر يرتفع إلى ركبتيها، مشرقة الوجه، تعلوها المساحيق فيبدو متقزح الألوان تقريبًا. تخيّلت إيلّا زوجها يقبّل هذه المرأة بعجالة ونهم وليس على النحو الذي يمضغ فيه ببطء الكرنب من مائدة الأسرة.

في ذلك الوقت، وفي ذلك المكان، وفي حين كانت تتناول طعامها الذي أعدّته من كتاب فنّ الطبخ السهل والبسيط وتتخيّل زوجها يقيم علاقة مع إحداهنّ، شعرت بغصّة في داخلها. فقد أدركت بوضوح تامّ أنّها سوف

تهمل كلّ شيء وتهجره على الرّغم من قلّة تجربتها وخوفها: مطبخها وكلبها وأولادها وجيرانها وزوجها وكتب الطبخ خاصّتها ووصفات إعداد الخبز المنزلي... سوف تخرج بكلّ بساطة من هنا وتدخل عالمًا تحدث فيه دومًا أشياء خطيرة.

* * *

المعلّم

بغداد ٢٦، كانون الثاني ١٢٤٣

إذا كان المرء جزءًا من تكيّة الدراويش، فذلك يتطلّب صبرًا أكبر من ذلك الصبر الذي يمتلكه شمس التبريزي. ومع هذا فقد مرّت تسعة أشهر وما يزال معنا.

في بادئ الأمر توقّعت منه أو يوضّب حاجيّاته ويرحل في أيّة لحظة، إذ كان نفوره واضحًا من الحياة المنتظمة انتظامًا صارمًا. وكان في وسعي أن ألاحظ مدى سأمه لاضطراره إلى الخلود إلى النوم والاستيقاظ في ساعات معيّنة وتناول وجبات طعام منتظمة، والانسجام مع مجريات الأمور مثل الآخرين. كان معتادًا الطيران، مثل عصفور وحيد، حرًّا وجامحًا. وأظنّه اقترب من محاولة الهروب مرّات عديدة. ولكنّه كان على الرّغم من ذلك بحاجة إلى العزلة، وكان التزامه أكبر بالعثور على رفيقه. كان شمس يؤمن إيمانًا عميقًا أنّني يومًا ما سأعطيه المعلومات التي يحتاجها وأخبره بالمكان الذي يتعيّن عليه الذهاب إليه، والشخص الذي سيعثر عليه. بمثل هذا الإيمان، بقي وإيّانا. راقبته عن كثب في غضون الأشهر التسعة الماضية وأنا أتساءل إن كان الوقت يمرّ مرورًا مختلفًا عنده، أسرع وأقوى. فإذا كان غيره من الدراويش يستغرقون أشهرًا، وفي بعض الأحيان سنوات للتعلّم، فإنّه كان يتعلّم في بحر أسابيع، إن لم نقل في غضون أيّام قليلة. كان يمتلك حبّ فضول مدهشًا بخصوص كلّ ما هو جديد وغير مألوف،

فضلاً عن أنّه كان دقيق الملاحظة في الطبيعة. وهكذا وجدته في أيّام كثيرة يتجوّل في البستان مندهشًا في تناسق نسيج العنكبوت أو قطرات الندى اللامعة على زهرة تفتّحت ليلاً. وبدت الحشرات والنباتات والحيوانات مثار اهتمامه ومصدر إلهامه أكثر من الكتب والمخطوطات ولكن في اللحظة التي كنت أوشك فيها على الاعتقاد بأنّه لا يهوى القراءة ولا تثير اهتمامه أجده غارقًا في قراءة كتاب قديم. وبرغم هذا، ففي إمكانه أن ينفق الأسابيع دون أن يقرأ أو يدرس أيّ شيء.

ولمّا سألته عن هذا الأمر أخبرني بأنّ على المرء أن يُبقي عقله في حالة من الإشباع ولكن ينبغي له أن يتنبّه كي لا يفسده. كانت إحدى قواعده هي: (العقل والحبّ من مادّتين مختلفتين. العقل يربط الناس ربطًا محكمًا ولا خوف في ذلك. أمّا الحبّ فإنّه يفكّ جميع العقد وينطوي على مخاطر كبيرة. العقل حذر، يوجّه النصائح دائمًا، ويقول «حذار الإفراط في النشوة». أمّا الحبّ فيقول: «آه، لا بأس! خاطر باتّخاذ خطوة جريئة بغض النظر عمّا يترتّب على ذلك». ليس سهلاً على العقل أن يتفكّك ولكن يمكن للحبّ أن يُحيل نفسه، دون عناء يُذكر، إلى حطام. بيد أنّ الكنوز مخفيّة وسط الأنقاض. فالكوكب الكسير يخفي كنوزًا).

أُعجبت بجسارته وفطنته بمرور الوقت الذي بدأت أعرفه فيه. وظننت أنّ ثمّة جانبًا آخر لعبقريّة شمس وأصالته اللتين لا مثيل لهما. فهو على الرّغم من كلّ شيء صريح إلى حدّ الصفاقة. ونصحت دراويش غضّ النظر عن أخطاء الآخرين وإذا ما رأوا تلك الأخطاء، فعليهم التزام الهدوء وإظهار روح التسامح. أمّا شمس، فهو لا يدع خطأ إلّا وتنبّه له، وكلّما رأى خطأ تكلّم صراحة عنه وعلى الفور دون أن يحوم حول الموضوع. كانت نزاهته تثير حفيظة الآخرين ولكنّه كان يهوى استفزازهم كي يرى ما الذي يمكن أن يصدر عنهم في لحظات الغضب.

كان إرغامه على تنفيذ الواجبات الاعتياديّة أمرًا صعبًا، فهو قليل الصبر في مثل هذه الأعمال ويفقد اهتمامه في أيّ شيء في اللحظة التي يبدأ به. أمّا في الأعمال الاعتياديّة فتراه في حالة يأس مثل نمر أسير في قفص. وإذا ما أثارت مناقشة ما سأمه، أو أبدى أحدهم ملاحظة سخيفة،

تراه ينهض ويغادر المكان لا يلوي على شيء ولا يضيّع من وقته في الفكاهة والهذار. أمّا القيم التي يعتزّ بها معظم بني البشر مثل الأمان والراحة والسعادة فلا معنى لها في نظره إلّا نادرًا. كما أنّ عدم ثقته بالكلام عظيمة حتى إنّه كان ينفق أيّامًا طويلة دون أن ينبس بكلمة. وهذه هي إحدى قواعده: (تنجم معظم المشكلات من أخطاء لغوية وسوء فهم بسيط. فلا تنظر إلى الكلمات من ناحية قيمتها الاسميّة أبدًا. وإذا ما خطوت داخل ملكوت الحبّ، فإنّ اللغة كما عهدناها، يبطل استعمالها. فالشيء الذي لا يمكن تغييره بالكلمات لا يمكن فهمه إلّا بالصمت).

وفي الوقت المناسب راودني القلق على صحّته لأنّني شعرت من صميم فؤادي أنّ من يحترق بمثل هذه الدرجة من الاتّقاد قد يكون لديه ميل إلى وضع نفسه في مواقف خطرة.

في نهاية المطاف، أقدارنا بيد الله وهو وحده القادر الذي يعلم متى وكيف سيغادر كلّ واحد منّا هذا العالم. أمّا أنا فقد قرّرت أن أبذل قصارى جهدي كي أهدّئ من شمس وأن أجعله يتكيّف، بقدر ما أستطيع، مع أسلوب حياة أكثر هدوءًا. ولبرهة وجيزة، اعتقدت أنّني سأفلح في مسعاي لكنّ الشتاء حلّ، ومع الشتاء جاء رسول حاملاً رسالة من بلد بعيد.

فغيّرت الرسالة كلّ شيء.

* * *

الرسالة

من قيصريّة إلى بغداد، شباط ١٢٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم،

أخي العزيز بابا زمان المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مرّ زمن طويل منذ أن التقينا آخر مرّة، وأرجو أن تصلك رسالتي وأنت في أحسن حال. لقد طرق سمعي كثير من الأشياء المدهشة من التكيّة التي شيّدتها في ضواحي بغداد لتعليم الدراويش حكمة الله ومحبّته. إنّني أكتب لك هذه الرسالة على وجه الخصوص لأشارك بعضًا من الأمور التي تشغل ذهنك. فاسمح لي أن أبدأ من البداية.

كما تعلم، كان السلطان الراحل علاء الدين كيقباذ رجلاً مدهشًا برز في القيادة في الأوقات العصيبة، وكان حلمه أن يبني مدينة يستطيع العيش فيها الشعراء والفنّانون والفلاسفة ويشتغلون في سلام. وقال عدد كبير من الناس باستحالة تحقيق هذا الحلم في ضوء الفوضى والحروب التي تعمّ العالم وخاصّة الحرب ضدّ الصليبيّين والمغول الذين يهاجموننا من كلا الجانبين. لقد شاهدنا ذلك كلّه. النصارى يقتلون المسلمين والنصارى يقتلون النصارى والمسلمون يقتلون النصارى والمسلمون يقتلون المسلمين. أديان وطوائف وقبائل وحتى الإخوان في حالة حرب. لكن كيقباذ كان زعيمًا حازمًا قوي الشكيمة فاختار مدينة قونية ـ وهي أوّل بقعة أرض تظهر

إلى الوجود بعد الفيضان العظيم ـ ليحقّق فيها حلمه الكبير.

يعيش في قونية اليوم عالم ربّما سمعت به أو لم تسمع يُدعى مولانا جلال الدين ولكنّ الاسم الشائع عنه هو الرومي. ويسعدني أنّني التقيته، والأهمّ من هذا، أنّني درست وإيّاه، في البدء بوصفي معلّمًا له، وعند وفاة أبيه، مرشدًا، وبعد سنوات تلميذًا له. نعم يا صديقي، لقد أصبحت تلميذًا لتلميذي. وكان عظيم الموهبة، سديد الرأي، وبعد مرحلة معيّنة لم يعد لديّ ما ألقّنه إيّاه، فبدأت أنهل من علمه بدلاً من ذلك. وكان والده عالمًا ذكيًّا أيضًا ولكنّ الرومي كان يتمتّع بسجيّة لا يملكها إلّا عدد قليل من العلماء وهي قدرته على الغور في أعماق الدين واستخراج الجوهرة الشاملة والأبديّة.

أريد منك أن تتعلّم أنّ هذه الأفكار ليست أفكاري الشخصيّة وحدها. فعندما التقى الرومي وهو في مقتبل العمر، ذلك الصوفي العظيم والصيدلاني فريد الدين العطّار، قال العطّار عنه:

«سوف يفتح هذا الغلام بوّابة في قلب الحبّ ويلقي بشعلة في قلوب كلّ عشّاق الصوفية». وعلى هذا النحو، هتف الفيلسوف والأديب الصوفي اللامع ابن عربي مندهشًا عندما رأى الرومي الشابّ يسير وراء أبيه يومًا ما: «العزّة لله! محيط يسير خلف بحيرة!».

أصبح الرومي في وقت مبكّر من حياته وهو في سنّ الرابعة والعشرين زعيمًا روحيًّا. واليوم، وبعد مرور ثلاث عشرة سنة ينظر إليه سكّان قونية بوصفه نموذجًا يُقتدى به، وفي كلّ يوم جمعة يتقاطر الناس من جميع أنحاء المنطقة إلى المدينة ليستمعوا إلى خطبه. فقد برع في القانون والفلسفة وعلم الكلام وعلم الفلك والتاريخ والكيمياء والجبر. ويُقال إنّ عدد مريديه حتى الآن بلغ عشرة آلاف. ويتشبّث مريدوه بكلّ كلمة يتفوّه بها وينظرون إليه على أنّه أحد المتنوّرين الكبار ومن شأنه أن يحدث تغيّرًا إيجابيًّا مهمًّا في تاريخ الإسلام، إن لم يكن في تاريخ العالم.

لكنّ الرومي كان وما يزال بالنسبة لي مثل أحد أبنائي. وقد قطعت عهدًا لأبيه الراحل ألّا يغيب عن ناظري. واليوم وبعد أن تقدّم بي العمر واقتربت من أيّامي الأخيرة، فإنّني أريد أن أطمئنّ إلى أنّه في رفقة أمينة.

ها أنت ترى أنّ الرومي، ذلك الناجح والمدهش على نحو لا يرقى

إليه شكّ، قد استودعني سرًّا مفاده أنّه يشعر بعدم الرضا في أعماقه، وأنّ ثمّة شيئًا ما مفقودًا في حياته ـ فراغًا لا يمكن لأسرته أو لمريديه أن يملأوه. وفي يوم ما قلت له، وإن لم يكن غرًّا، أنّه لم يحترق بعد، وأنّ كأسه ما تزال مملوءة إلى حافّتها ولكنّه على الرّغم من ذلك بحاجة إلى من يفتح الباب المؤدّي إلى روحه كي تتدفّق مياه الحبّ منها وإليها. وعندما سألني عن كيفيّة حدوث ذلك، أخبرته أنّه بحاجة إلى رفيق، صديق على طريقته، يذكّره أنّ المؤمنين كالمرايا يعكس أحدهم صورة الآخر.

ولو لم يطرح الموضوع من جديد لكنت نسيته تمامًا ولكن في اليوم الذي رحلت فيه عن قونية، جاءني الرومي يسألني عن رأيي في حلم يراوده ويزعجه. وأخبرني أنّه كان في أحلامه يبحث عن شخص ما في مدينة كبيرة مفعمة بالنشاط في أحد البلدان البعيدة. كلمات باللغة العربيّة. غروب شمس آسر. أشجار توت، ودود قزّ ينتظر بنفاد صبر في شرانق خفيّة اللحظة التي يصل فيها. ثم شاهد نفسه في فناء بيته، جالسًا قرب البئر وفي يده مصباح، ويبكي.

بادئ ذي بدء، لم أفقه معنى أحلامه، إذ لا شيء فيها يبدو مألوفًا. ولكنّ الجواب وصلني يومًا ما وانكشف اللغز على أثر تسلّمي وشاحًا حريريًّا هديّة. وتذكّرت مدى ولعك بالحرير وبدود القزّ، وتذكّرت الأشياء المدهشة التي سمعتها عن طريقتك. وتذكّرت لتوّي أنّ المكان الذي شاهده الرومي في أحلامه لم يكن سوى تكيّتك الخاصّة بالدراويش. خلاصة القول يا صديقي، إنّني لا أستطيع منع نفسي من السؤال إن كان رفيق الرومي يسكن تحت سقفك. لهذا السبب تجدني أكتب هذه الرسالة.

لا أعرف إن كان مثل هذا الشخص موجود في تكيّتك. لكن إن كان موجودًا حقًّا، فإنّني أترك الأمر بين يديك لتخبره عن القدر الذي ينتظره. ولو استطعنا، أنا وأنت، أن نؤدّي دورًا، ولو كان صغيرًا، في مساعدة نهرين يلتقيان ويصبّان في محيط الحبّ الإلٰهي بوصفهما مجرى واحدًا من الماء، وإذا كان في وسعنا مساعدة صديقين من أصدقاء الله على لمّ شملهما، فسأعتبر نفسي محظوظًا.

لكن على الرّغم من هذا، ثمّة شيء واحد يتعيّن عليك أن تأخذه في

الحسبان فربّما يكون الرومي رجلاً واسع النفوذ والتأثير، يحبّه ويحترمه الكثيرون ولكن هذا لا يعني أنّه بعيد عن النقد لأنّ ثمّة من ينتقده حقًّا. يضاف إلى ذلك، ربّما يولد مثل هذا الجريان المشترك استياء ومعارضة ويسبّب خصومات تستعصي على الفهم. كما أنّ حبّه لرفيقه قد يسبّب مشكلات في أسرته وحلقته الداخليّة. فالشخص الذي يحبّه علنًا شخص آخر يعجب به الكثيرون من شأنه أن يثير حسد الآخرين، إن لم نقل كراهيّتهم.

إنّ هذا كلّه قد يضع رفيق الرومي في خطر يصعب التنبّؤ به، بمعنى أنّ الشخص الذي ترسله إلى قونية، يا أخي، قد لا يعود أبدًا. لهذا السبب، أطلب منك أن تفكّر في القضيّة تفكيرًا جيّدًا قبل أن تصل إلى قرار بخصوص الإفصاح عن هذه الرسالة لرفيق الرومي.

أعتذر لأنّني أضعك في هذا الموقف الصعب ولكنّ الله، كما تعلم، لا يحمّلنا ما لا نستطيع، وأنا في انتظار إجابتك، وكن على ثقة بأنّك سوف تتخذ الخطوات الصحيحة في الاتّجاه الصحيح مهما كانت النتيجة.

وليبق نور الإيمان يغمرك أنت ودراويشك.

السيد برهان الدين

شمس

بغداد، ١٨ كانون الأوّل ١٢٤٣

ظهر للعيان رسول في مكان بعيد خلف الدروب المكسوّة بالثلوج وقطرات الماء المتدلّية والمتجمّدة على شكل عصا مدبّبة، وقال إنّه جاء من قيصريّة وتسبّب في حدوث جلبة بين الدراويش الذين كانوا يعرفون أنّ الزوّار أندر من عنب الصيف العذب في هذا الوقت من السنة. فالرسول الذي يحمل رسالة عاجلة يتطلّب تسليمها نقلها وسط العواصف الثلجيّة لا يمكن أن يعني إلّا أحد أمرين: إمّا أنّ حدثًا جللاً قد حدث أو أنّ شيئًا مهمًّا يوشك أنّ يحدث.

كان وصول الرسول سببًا دفع الألسن إلى أن تتداول الأمر وتلوكه في تكيّة الدراويش لأنّ كلّ فرد منهم كان متلهّفًا لمعرفة محتوى الرسالة التي سُلّمت إلى المعلّم الذي على رغم ذلك لم تند عنه أيّة إشارة إليها بل ظلّت في طيّ الكتمان. وبدا من محيّاه، وعلى مدى أيّام متّصلة، أنّه رجل ينازع ضميره، ويجد صعوبة في الوصول إلى القرار الصائب، مخفيًا انفعالاته، مجترًّا أفكاره، حذرًا ومتحفّظًا إلى أبعد الحدود.

في ذلك الوقت لم يكن الفضول وحده هو الذي جعلني أراقب بابا زمان عن كثب. فقد أحسست في أعماقي أنّ الرسالة تخصّني أنا شخصيًّا، على الرّغم من أنّني لم أعرف ذلك يقينًا. وهكذا أنفقت الأماسي في المصلّى أردّد أسماء الله الحسنى طالب المشورة. وفي كلّ مرّة كان اسم من

الأسماء يبرز واضحًا: الجبّار ـ هو الذي لا يحدث في ملكوته شيء إلّا ما يشاء بنفسه.

في الأيّام التالية، وفي حين كان كلّ من في التكيّة يضرب أخماسًا في أسداس، أمضيت وقتي وحيدًا في البستان أراقب أمّنا الطبيعة التي تغفو الآن تحت غطاء سميك من الثلوج. وأخيرًا سمعنا في أحد الأيّام صوت الجرس النحاسي يدقّ دقّات متتالية في المطبخ، يدعونا إلى اجتماع طارئ. وعند دخولي الحجرة الرئيسيّة في الخانقاه(*)، وجدت الجميع حاضرين، الدراويش المبتدئين والأقدمين على حدّ سواء، جالسين في حلقة واسعة، وفي وسط الحلقة جلس المعلّم مطبق الشفتين، غائم العينين.

وبعد أن تنحنح قال:

ـ بسم الله. لا بدّ أنكم تتساءلون عن السبب الذي دفعني إلى إحضاركم إلى هذا المكان في هذا اليوم. السبب هو هذه الرسالة التي تلقّيتها. لا يهمّ مصدر الرسالة، بل يكفي القول إنّها جذبت انتباهي إلى موضوع له نتائج عظيمة.

أمسك بابا زمان عن الكلام برهة وجيزة ونظر نظرة محدقة خارج النافذة. وبدا منهكًا، نحيلاً، شاحب الوجه كأنّ العمر تقدّم به تقدّمًا كبيرًا

(*) الخانقاه: هكذا وردت في النص الإنكليزي Khaneqah وقد جاء في كتب التراجم الخاصّة بأحوال العارفين أنّ أوّل خانقاه للصوفيّة بناها أحد أمراء المسيحيّين، ومن جملة ذلك ما ذكره الجامي في كتابه نفحات الأنس عند شرح حال أبي هاشم الصوفي أحد صوفيّة الربع الأخير من القرن الثاني الهجري ((فهو أوّل من دُعِي بالصوفي ولم يُسَمّ أحد قبله بهذا الاسم. كما أنّ أوّل خانقاه بُنِي للصوفيّة هو ذلك الذي في رحلة الشام والسبب في ذلك أنّ الأمير النصراني كان قد ذهب للقنص فشاهد شخصين من هذه الطائفة الصوفيّة «سنح له لقاؤهما وقد احتضن أحدهما الآخر وجلسا هناك. وتناولا كلّ ما كان معهما من طعام ثم سارا لشأنهما، فسرّ الأمير النصراني من معاملتهما وأخلاقهما معًا، فاستدعى أحدهما وقال له: من هو ذاك؟ قال: لا أعرفه، قال: وما صلتك به؟ قال: لا شيء. قال فمن كان؟ قال: لا أدري، فقال الأمير: فما هذه الألفة التي كانت بينكما؟ فقال الدرويش: إنّ هذه طريقتنا. قال: هل لكما مكان تأوون إليه؟ قال: لا. قال: فإنّي أقيم لكما محلًا تأويان إليه، فبنى لهما هذه الخانقاه في الرحلة. (المترجم).

في غضون الأيّام الماضية، ولكن ما إن استرسل في الكلام حتى بدا صوته مفعمًا بالعزيمة والإصرار على نحو غير متوقّع.

ـ ثمّة عالم واسع المعرفة يسكن في مدينة لا تبعد كثيرًا عنّا. هو متكلّم جيّد، ولكنّه لا يُجيد الاستعارات لأنّه ليس بشاعر، ويحظى بحبّ آلاف الناس واحترامهم وإعجابهم، ولكنّه ليس بعاشق. ولسبب من الأسباب خارجة عن نطاقي ونطاقكم، ينبغي لأحد الموجودين في هذه التكيّة الذهاب للقائه ليكون رفيقًا له.

ضاق قلبي بين أضلاعي، وتنفّست ببطء، ببطء شديد، إذ لم أستطع الحيلولة دون أن أتذكّر إحدى القواعد القائلة: «الوحدة والعزلة شيئان مختلفان. فعندما تكون وحيدًا، يسهل أن تخدع نفسك وتظنّ أنّك تسلك الدرب الصحيح. أمّا العزلة فهي أفضل لنا لأنّها تعني أنّ الفرد يكون وحيدًا دون أن ينتابه الإحساس بالوحدة. ولكن الأفضل في نهاية المطاف أن يجد المرء شخصًا يكون مرآة لك. تذكّر أنّك لا تستطيع رؤية نفسك وحضور الله في أعماقك إلّا من خلال قلب شخص آخر».

أردف المعلّم:

ـ لقد جئت إلى هنا لأسأل إن كان أيّ واحد منكم يرغب في أن يتطوّع لهذه الرحلة الروحيّة. لقد كان في وسعي أن أعيّن شخصًا ما لهذه المهمّة، ولكن هذه المهمّة لا يمكن تحقيقها خارج نطاق الواجب، بل لا يمكن المضيّ بها إلّا بالحبّ وباسم الحبّ.

طلب أحد الدراويش المبتدئين الإذن بالكلام:

ـ من هو هذا العالِم أيّها المعلّم؟

ـ لا يمكنني البوح باسمه إلّا للشخص الراغب في الذهاب.

عندما سمع الدراويش هذا الجواب رفع عدد منهم أيديهم وبدا عليهم التحمّس ونفاد الصبر. تسعة مرشّحين، فانضممت إليهم وكنت العاشر. لوّح بابا زمان بيده مشيرًا إلينا بالانتظار حتى يفرغ من كلامه:

ـ ثمّة شيء آخر ينبغي لكم أن تكونوا على بيّنة منه قبل اتّخاذ قراركم.

وهنا أخبرنا المعلّم أنّ الرحلة تنطوي على خطر عظيم ومشاقّ لا

سابقة لها، ولا ضمان على العودة. وعلى الفور أنزل الجميع أيديهم إلى أسفل باستثنائي.

سدّد بابا زمان نظرة مباشرة إليّ للمرّة الأولى في ذلك الوقت، وعندما التقت نظراتنا، أدركت أنّه كان يعرف منذ البداية أنّني سأكون المتطوّع الوحيد.

قال المعلّم في بطء وعناد كأنّ اسمي ترك مذاقًا ثقيلاً في فمه:

ـ إنّني أحترم قرارك يا شمس التبريزي ولكنّك لم تصبح بعد عضوًا كامل العضويّة في هذه الجماعة، فأنت ضيفنا.

قلت:

ـ أنا لا أرى في هذا أيّ مشكلة.

التزم المعلّم الصمت لحظة واحدة طويلة متأمّلاً قبل أن ينهض واقفًا على حين بغتة ليخلص إلى القول:

ـ لننسَ هذا الموضوع في الوقت الراهن. وعندما يحلّ فصل الربيع سنتحدّث من جديد.

تمرّد قلبي. فبابا زمان كان يحرمني من الفرصة لتحقيق قدري على الرّغم من أنّه كان يدرك جيّدًا أنّ هذه المهمّة تمثّل السبب الوحيد لمجيئي إلى بغداد بالدرجة الأولى.

وهتفت به:

ـ لماذا أيّها المعلّم؟ لِمَ الانتظار وأنا جاهز للسفر في هذه اللحظة؟ حسبك أن تخبرني باسم المدينة واسم العالِم، وسأمضي في طريقي الآن.

لكنّ المعلّم كرّر بصوت ثابت، لامبالٍ لم أكن قد ألفته من قبل:

ـ ليس هناك ما يتطلّب النقاش. انتهى الاجتماع.

* * *

كان شتاء طويلاً وقاسيًا، تجمّدت فيه الحديقة مثلما تجمّدت شفتاي. لم أكلم أحد بكلمة واحدة على مدى الأشهر الثلاثة التالية.

وفي كلّ نهار، كنت أخرج للتنزّه طويلاً في الريف مؤملاً أن أشاهد شجرة يانعة. ولكنّ الثلج أعقبه ثلج أشدّ كثافة، ولم يلح الربيع في الأفق.

وبقيت وأنا في تلك الحالة المكتئبة خارجًا، ولكنّي ظللت ممتنًا مفعمًا بالأمل في أعماقي محتفظًا في ذهني بقاعدة أخرى: مهما يحدث في حياتك، بغضّ النظر عن الإزعاج الذي قد تبدو فيه الأمور، فلا تدخل منطقة اليأس. وإذا بقيت كلّ الأبواب موصدة فإنّ الله سيفتح طريقًا جديدًا لك وحدك. كن شكورًا! من السهل أن يتوجّه المرء بالشكر عندما يكون كلّ شيء على ما يرام. والصوفي لا يعبّر عن شكره لما أنعم عليه من نعم فحسب، بل عن كلّ ما حُرِم منه أيضًا.

وأخيرًا، وفي صباح يوم من الأيّام، رأيت لونًا ساحرًا، عذبًا مثل أغنية جميلة، يظهر من بين ركام الثلج. كانت شجرة برسيم مغطاّة بزهور من الخزامى، فامتلأ قلبي سرورًا. وبينما كنت أعود أدراجي إلى تكيّة الدراويش، صادفت في طريقي المبتدئ ذا الشعر الأحمر وحيّيته بحبور. فغر فاه لأنّه كان معتادًا رؤيتي جالسًا وصامتًا.

هتفت به:

ـ ابتسم أيّها الغلام! ألا ترى الربيع في الجوّ؟

ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، تغيّر الجوّ تغيّرًا سريعًا. فذابت الثلوج وأينعت الأشجار وعادت العصافير والطيور المغرّدة، وقبل أن يمضي وقت طويل انتشرت في الجوّ رائحة توابل خفيفة.

في صباح يوم ما، سمعنا صوت الجرس النحاسي يرنّ من جديد. وكنت أوّل الواصلين إلى الحجرة الرئيسيّة هذه المرّة. وجلسنا مرّة أخرى في حلقة واسعة حول المعلّم واستمعنا له يتكلّم عن عالِم الإسلام البارز الذي كان يعرف كلّ شيء باستثناء شراك الحبّ. مرّة أخرى، لم يتطوّع أحد.

أعلن بابا زمان بصوت ازداد ارتفاعًا وانخفاضًا كأنّه عويل ريح:

ـ أرى أنّ شمسًا هو المتطوّع الوحيد، ولكنّي سأنتظر حتى يحلّ فصل الخريف قبل أن أتّخذ قرارًا.

صعقت، ولم أصدّق ما كان يحدث، فأنا جاهز للسفر بعد ثلاثة أشهر من التسويف، وها هو المعلّم يخبرني أن أؤجّل السفر ستّة أشهر أخرى. فاعترضت اعتراضًا جريئًا وتذمّرت وتوسّلت إلى المعلّم أن يخبرني عن اسم

المدينة واسم العالم ولكنّه رفض مرّة أخرى.

على أيّة حال أدركت في هذه المرّة أنّ الانتظار سيكون أسهل لأنّه لن يكون ثمّة تأجيل بعد الآن. فبعد أن انتظرت من بداية الشتاء حتى نهاية الربيع، فإنّ في وسعي الآن أن اكبح جماح نفسي من فصل الربيع حتى أواخر الخريف. ولم يثبط رفض بابا زمان من عزيمتي، فثمّة قاعدة أخرى تفيد: الصبر لا يعني التحمّل سلبيًّا، بل يعني أن يكون المرء متحلّيًا ببعد نظر يكفي لأن يثق بالنتيجة النهائيّة التي ستصل إليها عمليّة ما. ماذا يعني الصبر؟ يعني أن تنظر إلى الشوكة وترى فيها وردة، أن تنظر إلى الليل وترى فيه الفجر. أمّا نفاد الصبر فيعني أن تكون قصير النظر إلى الحدّ الذي لا تستطيع به رؤية النتيجة. إنّ عشّاق الله لا يفقدون الصبر لأنّهم يعلمون أنّ الوقت ضروري كي يصبح الهلال بدرًا».

وعندما رنّ الجرس النحاسي في الخريف للمرّة الثالثة، دخلت الحجرة بتؤدة وثقة، متأكّدًا أنّ الأمور سوف تُحسم أخيرًا لكنّ المعلّم بدا أشدّ شحوبًا ووهنًا عن ذي قبل كأنّ طاقته وقواه نفدت. ولكن برغم ذلك، عندما رآني أرفع يدي من جديد لم يشح بوجهه بعيدًا ولم يترك الموضوع جانبًا. وبدلاً من ذلك، أومأ إليّ إيماءة تنمّ عن عزم وإصرار:

ـ حسنًا يا شمس، ليس ثمّة شكّ في أنّك ستكون الشخص الذي ينطلق بهذه المهمّة. فغدًا صباحًا ستكون في طريقك إلى هذه الرحلة إن شاء الله.

قبّلت يد المعلّم، فأخيرًا سوف ألتقي رفيقي.

ابتسم بابا زمان ابتسامة دافئة تنمّ عن تفكير عميق، على النحو الذي يبتسم فيه أب لابنه الوحيد قبل أن يرسله إلى ميدان المعركة. ثم أخرج رسالة مختومة من جيب داخلي من جيوب جبّته الطويلة، وبعد أن سلّمها إليّ غادر الحجرة بصمت، ولحق بالآخرين. ولمّا أصبحت وحيدًا في الحجرة كسرت شمع الختم فوجدت عبارتين اثنتين مكتوبتين بخطّ جميل: اسم المدينة واسم العالِم. الواضح أنّني سأسافر إلى مدينة قونية، وأنّني سألتقي شخصًا اسمه الرومي.

استبدّت بي الدهشة، فأنا لم أسمع باسمه من قبل، وهو قد يكون

عالِمًا مشهورًا على الرّغم من كلّ شيء، ولكنّه سرّ غامض تمامًا بالنسبة لي. تلفّظت بحروف اسمه واحدًا تلو الآخر: حرف الراء القوي والصافي وحرف الواو المخملي وحرف الميم الجسور الذي ينمّ عن الثقة بالنفس وحرف الياء المبهم الذي يحتاج إلى من يفكّ لغزه.

وبعد أن جمعت الأحرف من جديد، مرّرت لفظ اسمه مرّات ومرّات حتى ذابت الكلمة على لساني بعذوبة ذوبان قطعة حلوى، وأصبح الاسم مألوفًا كالماء وكالخبز وكالحليب.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٢٢ أيّار ٢٠٠٨

بلعت إيلّا ريقها الملتهب وهي تشعر بالإعياء. فقد سهرت حتى ساعة متأخّرة من الليل واحتست من الشراب أكثر من الحدّ المقرّر لها على مدى ليال مستمرّة ممّا أثّر فيها تأثيرًا شديدًا. ولكنّها على الرّغم من ذلك، هبطت السلالم لإعداد وجبة الفطور وجلست حول المائدة رفقة توأميها وزوجها، باذلة قصارى جهدها كي تبدو مهتمّة بالحديث الذي لا يتوقّف عن أكثر السيّارات برودة في المدرسة، في حين كانت تتمنّى العودة إلى سريرها والخلود إلى النوم.

وعلى حين بغتة، التفتت أورلي إلى أمّها مستفسرة:

ـ يقول آفي إنّ أختنا لن تعود إلى البيت. أهذا صحيح يا أمّاه؟

كان صوتها مشوبًا بالشكّ والاتّهام.

قالت إيلّا:

ـ هذا ليس بصحيح. لقد حدثت مشادّة بيني وبين شقيقتك، كما تعلمين، ولكنّنا نحبّ بعضنا بعضًا.

سأل آفي مكشّرًا عن ابتسامة، ومستمتعًا على ما يبدو بالموضوع استمتاعًا كبيرًا:

ـ هل صحيح أنّك اتّصلت بسكوت وطلبت منه أن يتخلّى عن جانيت؟

نظرت إيلّا نظرة خاطفة إلى زوجها جاحظة العينين، ولكن ديڤيد رفع حاجبيه، وفتح راحة كفّيه ليوضح أنّه ليس بذلك الشخص الذي نقل مثل هذا الخبر.

وهنا تكلّمت إيلّا في صوت اعتادت أن تضفي عليه قدرًا من السلطة عندما توجّه بعض التعليمات لأبنائها:

ـ هذا ليس بصحيح. لقد كلّمت سكوت حقًّا ولكنّني لم أطلب منه التخلّي عن شقيقتك. كلّ ما قلته له هو ألّا يندفع في الزواج.

قالت أورلي بثقة:

ـ أنا شخصيًّا لن أتزوّج.

فقاطعها آفي:

ـ نعم، كأنّ الشبّان كلّهم يريدون أن يتّخذوا منك زوجة.

شعرت إيلّا بابتسامة متوتّرة تستقرّ في فمها في حين كانت تصغي إلى توأميها يكيد أحدهما الآخر لأسباب لا تعرف كنهها. كتمت تلك الابتسامة، ولكنّ الابتسامة ظلّت خفيّة عن الأنظار وهي تودّعهما إلى الباب متمنّية لهما نهارًا سعيدًا.

ولم تستطع أنّ تتخلّص من ابتسامتها إلّا بعد أن عادت إلى المائدة وجلست على كرسيّها، وقد تمكّنت من ذلك بعد أن سمحت لنفسها بالاستسلام للوجوم. بدا المطبخ لها كأنّه تعرّض لهجوم جيش من الجرذان. فثمّة بقايا من بيض مقليّ لم يؤكل نصفه، وحبوب الإفطار التي تُركت نصفها في طوسها، وأكواب شاي قذرة وكلّها في كومة عديمة الترتيب على المائدة. أمّا كلبها فكان يذرع أرض الغرفة، متشوّقًا للخروج في نزهة. غير أنّ إيلّا لم تتمكّن من الخروج به إلّا إلى الحديقة لبضع دقائق بعد أن احتست فنجانين من القهوة وشرابًا معدًّا من ڤيتامينات متعدّدة.

* * *

بعد أن قفلت راجعة من الحديقة، وجدت الضوء الأحمر ينبعث من الآلة المجيبة على الاتّصالات الهاتفيّة. فما كان منها إلّا أن ضغطت على الزرّ، ولفرحتها الكبيرة سمعت صوت جانيت الموسيقي يملأ الحجرة.

ـ هل تسمعينني يا أمّاه؟ حسنًا، لا أظنّ ذلك، وإلّا كنت التقطت سمّاعة الهاتف.

ثم ضحكت ضحكة خفيفة وأردفت:

ـ لا بأس. كنت في حالة غضب شديد منك ولم أرغب في رؤيتك مرّة أخرى ولكنّني هدأت الآن، أعني أنّ ما فعلته كان خطأ تمامًا. أكيد. ما كان ينبغي لك الاتّصال بسكوت قطّ ولكنّي أفهم الدافع إلى ذلك. أصغي إليّ. لست بحاجة إلى حماية طوال الوقت. فأنا لست بتلك الطفلة الغرّ التي تحتاج إلى أن تبقى في حاضنة بعد الآن. تخلّصي من هذه المبالغة في الحماية. اتركيني كما أنا. حسنًا؟

اغرورقت عينا إيلّا بالدموع، فقد مرّ في ذهن إيلّا مشهد جانيت وهي طفلة وُلدت توًّا، بشرتها حمراء تمامًا، وحزينة، أصابعها الصغيرة متغضّنة، شفّافة إلى حدّ ما، رئتاها مربوطتان بأنبوب تنفّس ـ كانت غير جاهزة بعد للوصول إلى هذا العالم. وأنفقت إيلّا الليالي الطويلة التي لم تذق عيناها طعم النوم، تصغي لأنفاسها كي تطمئنّ إلى أنّها ما زالت حيّة وستظلّ حيّة.

استرسلت جانيت كأنّما بعد تفكير:

ـ ثمّة شيء آخر يا أمّاه. إنّني أحبّك.

وهنا تنفّست إيلّا الصعداء وانتقل ذهنها إلى رسالة عزيز. هل حقّقت شجرة الأماني أمنيتها، الجزء الأوّل منها في الأقلّ، فقد أدّت جانيت دورها باتّصالها الهاتفي بها، والآن تقع المسؤوليّة على إيلّا لإنجاز ما تبقّى. فاتّصلت بهاتف ابنتها الخلوي فتبيّن لها أنّها في طريقها إلى مكتبة الكلّيّة.

ـ تلقّيت رسالتك يا حبيبتي. استمعي إليّ، أنا آسفة جدًّا، وأريد أن أعتذر منك.

تريّث قصير ولكنّه مشحون.

ـ لا بأس يا أمّي.

ـ لا. كان ينبغي لي أن أظهر احترامًا أكثر لمشاعرك.

قالت جانيت كأنّها هي الأمّ وإيلّا هي ابنتها المتمرّدة:

ـ لنترك الموضوع وننسه.

ـ نعم يا عزيزتي.

ـ وهنا انخفض صوت جانيت حتى تحوّل إلى همهمة ملؤها الثقة كأنّها تخشى ممّا ستتفوّه به بعد ذلك:

ـ لقد راودني القلق ممّا قلته قبل أيّام. أعني هل هذا صحيح؟ أحقًّا أنت غير سعيدة؟

ردّت إيلّا على عجل إلى حدّ ما:

ـ لا، أبدًا. لقد ربّيت ثلاثة أطفال، فكيف يمكنني أن أكون غير سعيدة.

غير أنّ جانيت لم تبدُ مقتنعة.

ـ أعني مع أبي.

لم تعرف إيلّا بماذا تُجيب باستثناء قول الحقيقة:

ـ لقد تزوّجنا أنا ووالدك منذ زمن طويل، ويصعب الاحتفاظ بالحبّ بعد كلّ هذه السنين الطويلة.

قالت جانيت:

ـ أفهم ذلك.

الغريب في هذا الأمر هو أنّ إيلّا شعرت أنّ ابنتها فهمتها حقًّا.

بعد أن أغلقت إيلّا الهاتف سمحت لنفسها بالتفكير بالحبّ. فجلست مكوّرة في كرسيّها الهزّاز وتساءلت إن كان في وسعها، وهي الجريحة والمستخفّة، أن تحبّ من جديد. الحبّ لأولئك الذين يبحثون عن مبرّر أو منطق في هذا العالم الدوّار دورانًا عنيفًا. ولكن ماذا عن أولئك الذين تخلّوا منذ زمن بعيد عن البحث عنه؟

قبل أن ينقضي النهار كتبت رسالة إلى عزيز.

* * *

عزيزي عزيز (إن كان ذلك ممكنًا)

شكرًا جزيلاً على ردّك الرقيق والمشجّع الذي ساعدني في اجتياز أزمة

عائليّة. لقد أفلحت أنا وابنتي في نسيان سوء التفاهم، كما سمّيته، الذي حدث بيننا.

كنت على صواب في مسألة واحدة، فأنا أتأرجح بين أمرين متضادّين دومًا: العدوانيّة والسلبيّة. فإمّا أن أتدخّل تدخّلاً أكثر ممّا ينبغي في حياة أحبّائي أو أشعر بالعجز أمام تصرّفاتهم.

أمّا بخصوص التسليم، فأنا لم أجرّب هذا النمط من الخضوع السلمي الذي كتبت عنه إليّ. بصراحة أنا لا أعتقد أنّي أملك ما يؤهّلني لكي أكون صوفيّة. لكن لديّ ما أقوله لك. فما يبعث على الدهشة، أنّ الأمور التي حدثت بيني وبين جانيت لم تصل إلى ما وصلت إليه إلّا بعد أن توقّفت شخصيًّا عن إملاء رغبتي عليها وتدخّلي في شؤونها. لهذا أنا مدينة لك بالشكر والعرفان. كان بودّي أيضًا أن أصلّي من أجلك لكن زمنًا طويلاً مضى منذ أن طرقت آخر مرّة باب الله، وأنا لست متأكّدة إن كان موجودًا في المكان نفسه. أتراني أتكلّم مثل صاحب الحانة في روايتك؟ لا تقلق. فأنا لست لاذعة إلى هذا الحدّ. ليس بعد.

صديقتك في نورثهامبتون

إيلّا

* * *

الرسالة

من بغداد إلى قيصريّة، ٢٩ أيلول ١٢٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم،

الأخ السيّد برهان الدين،

تلقّيت ببالغ السرور رسالتك وعلمت أنّك وهبت نفسك لطريق الحبّ كعادتك دومًا. لكن رسالتك وضعتني في مأزق. إذ ما إن عرفت أنّك تبحث عن رفيق الرومي حتى فهمت عمّن تتكلّم. لكنّ الشيء الذي لم أعرفه هو ما الذي سأفعله بعد ذلك.

فأنت تعلم أنّ لديّ درويشًا جوّالاً تحت سقفي يُدعى شمس التبريزي وتنطبق عليه الصفات التي ذكرتها وهو يؤمن بأنّ لديه مهمّة خاصّة في هذا العالم، ولتحقيق هذه الغاية يتمنّى أن يُنير رجلاً مستنيرًا. وهو لا يبحث عن مريدين ولا عن تلاميذ ولهذا طلب من الله أن يكون له رفيقًا. وقال لي في إحدى المرّات إنّه لم يأت سعيًا وراء أُناس اعتياديّين، بل جاء لوضع إصبعه على نبض أولئك الذين يرشدون العالم إلى الحقيقة.

عندما تلقّيت رسالتك، علمت أنّ شمسًا كان مقدّرًا له أن يلتقي الرومي. ومع هذا، ولكي أطمئنّ إلى أنّ كلّ دراويش حظوا بفرصة متساوية، فقد استدعيتهم وأخبرتهم، دون الخوض في التفاصيل، عن عالِم ينبغي فتح قلبه. وعلى الرّغم من قلّة عدد المرشّحين، فإنّ شمس التبريزي كان الوحيد الذي واظب على ترشيح نفسه حتى بعد أن سمع عن المخاطر

التي تكتنف المهمّة. حدث ذلك في الشتاء المنصرم وتكرّر المشهد نفسه في الربيع ثم في الخريف.

ربّما تستفسر عن السبب الذي يدفعني إلى كلّ هذا الانتظار الطويل. لقد فكّرت تفكيرًا شديدًا في هذا الموضوع ولا يمكنني إلّا توضيح سبب واحد وهو أنّني أحببت شمسًا وشعرت بالألم وأنا أرسله في رحلة خطيرة.

ثم إنّ شمسًا كما ترى ليس بالشخص السهل. فما دام يحيا حياة متنقّلة تراه يستطيع تدبير أموره تدبيرًا حسنًا. لكنّه إذا بقي في المدينة أو اختلط بسكّانها فإنّني أعتقد أنّه سوف يتسبّب في بعض الإزعاج. لهذا السبب، حاولت أن أؤجّل هذه الرحلة أطول مدّة ممكنة.

وفي المساء الذي سبق سفر شمس، تنزّهت وإيّاه من حول أشجار التوت حيث أربّي دود القزّ. العادات القديمة نادرًا ما تموت. الحرير يشبه الحبّ بقوّته المدهشة ورقّته المؤلمة. وأخبرت شمسًا أنّ دود القزّ يقضي على الحرير الذي ينتجه عند خروجه من الشرنقة. لهذا يضطر المزارعون إلى الخيار بين الحرير ودود القزّ. وفي الأعمّ الأغلب، يقتلون دود القزّ عند وجوده داخل الشرنقة كي يسحبوا الحرير من داخلها دون ضرر. إنّ إنتاج وشاح من الحرير يتطلّب القضاء على مئات دود القزّ.

اقترب المساء من نهايته وبدأت ريح باردة تهبّ في متّجهنا، فارتجفت، لأنّني في مثل هذه السنّ المتقدّمة أشعر بالبرودة بكلّ سهولة لكنّني أعرف أنّ التقدّم في السنّ ليس هو سبب رجفتي، بل لأنّني أدركت أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي يقف فيها شمس في بستاني، ولن نتمكّن من رؤية بعضنا بعضًا ثانية. ليس في هذا العالم. لا بدّ أنّ مثل هذا الإحساس راوده أيضًا لأنّني شاهدت الحزن في عينيه.

في هذا الصباح، وعند انبلاج الفجر، جاء ليقبّل يدي ويطلب منّي بركاتي. واستبدّت بي الدهشة عندما شاهدته وقد قصّ شعره الأسود الطويل وحلق لحيته ولكنّه لم يوضح السبب كما أنّني لم أسأله بدوري. وقبل أن يرحل قال إنّ دوره في هذه القصّة يشبه دور دود القزّ، وأنّه سوف يخلد رفقة الرومي إلى شرنقة الحبّ الإلٰهي ولن يخرج منها إلّا عندما ينضج الوقت، ويحاك السلك الثمين. لكن لا بدّ من موت دود القزّ في نهاية

المطاف كي يبقى الحرير حيًّا.

وهكذا سافر إلى قونيه، حفظه الله. أعلم أنّني قمت بالعمل الصائب، وأنت أيضًا، لكن قلبي مفعم بالحزن وقد اشتقت منذ الآن إلى أكثر الدراويش الذين حلوا في بيتي غرابة وتمرّدًا.

وأخيرًا، إنّا لله وإنّا إليه راجعون

حسبك الله

بابا زمان

المبتدئ

بغداد، ٢٩ أيلول ١٢٤٣

حذّرني الجميع بأنّ الدروشة ليست أمرًا سهلاً. لكن هؤلاء نسوا أن يذكروا أنّني على استعداد لدخول الجحيم لكي أصبح درويشًا. ومنذ اليوم الذي وطأت فيه هذا المكان اشتغلت كالكلب. فأنا أعمل معظم الأيّام في أعمال شاقّة حتى إنّني عندما أستلقي على حصيرة نومي يغادرني النوم بسبب آلام العضلات والنبض الذي أشعر به في قدمي. وأفكّر في نفسي إن كان أحد ما قد تنبّه إلى سوء المعاملة التي ألقاها. ولكن حتى لو تنبّهوا إلى أمري، فإنّهم لا يبدون أيّ علامة تدلّ على الرأفة. وكلّما بذلت قصارى جهدي، ازددت سوءًا. إنّهم لا يعرفون حتى اسمي، بل يسمّونني التلميذ الجديد، وتراهم يتهامسون خلفي قائلين: ذلك الجاهل ذو الشعر الأحمر.

أسوأ ما في الأمر هو العمل في المطبخ تحت إشراف الطبّاخ. فالرجل قُدّ قلبه من حجر وكان في وسعه أن يصبح قائدًا متعطّشًا لسفك الدماء في جيش المغول بدلاً من أن يكون طاهيًا في تكيّة الدراويش. ولا يمكنني حتى أن أتذكّر سماعه وهو يخاطب أيّ شيء بمودّة ولطف، بل لا أعتقد أنّه يعرف كيف يبتسم.

وفي إحدى المرّات سألت أحد الدراويش القدامي إن كان يتعيّن على كلّ المبتدئين المرور بمثل هذه التجربة في العمل مع الطاهي في المطبخ، فقال لي مبتسمًا ابتسامه غامضة:

ـ ليس كلّ المبتدئين، بل بعضهم.

لكن لماذا أنا شخصيًّا؟ لماذا يريدني المعلّم أن أتعذّب أكثر من بقيّة المبتدئين. هل لأنّ نفسي أكبر من نفوسهم وبحاجة إلى معاملة أقسى كي أكون منضبطًا؟

في كلّ يوم، يتعيّن عليّ أن أكون أوّل المستيقظين من النوم، وأن أحضر الماء من الجدول القريب. ثم يتعيّن عليّ أن أُشعل المدفأة وأخبز بعض خبز السمسم الدائري. كما أنّ إعداد حساء الشوربة للفطور من مسؤوليّتي، إذ ليس سهلاً إطعام خميسن فردًا. فكلّ شيء ينبغي طبخه في قدور ضخمة لا تقلّ حجمًا عن حجم مغطس الماء. خمّنوا من الذي يغسلها وينظّفها بعد ذلك؟ فمنذ طلوع الشمس حتى غروبها، أمسح الأرضيّات وأنظّف السطوح والسلالم وأكنس الفناء وأقطع الخشب وأُنفق ساعات جاثيًا على قدميّ وأنظّف ألواح الأرضيّة الخشبيّة العتيقة وأجهّز المربّى والنكهات المتبّلة وأصنع مخلّلات الجزر والعصير، وأتأكّد من وجود كمِّيّة من الملح كافية للبيض، وإذا ما أضفت كمِّيّة أكثر أو أقلّ ممّا ينبغي، تنتاب الطاهي نوبة يكسر فيها كلّ الجرار فيتحتّم عليّ صنع أخرى جديدة.

الأدهى من هذا كلّه، أنّه يتوقّع منّي أن أؤدّي الصلاة بالعربيّة في الوقت الذي أؤدّي فيه كلّ واجب ومهمّة. الطاهي يريدني أن أصلّي بصوت مرتفع كي يتأكّد أنّني لا أتجاوز كلمة أو أسيئ نطقها. وهكذا، أصلّي وأنا أشتغل، أشتغل وأنا أصلّي. ويدّعي معذّبي قائلاً:

(كلّما تحمّلت على نحو أفضل مشاقّ العمل في المطبخ، أسرعت في النضج يا بنيّ. وفي الوقت الذي تتعلّم فيه الطبخ ستجد روحك وهي تفور).

وفي إحدى المرّات سألته:

ـ كم سيطول هذا التدريب؟

فكان ردّه:

ـ ألف يوم ويوم. إذا كان في وسع شهرزاد أن تحكي حكاية جديدة كلّ ليلة طوال ذلك الوقت، ففي وسعك أن تتحمّل أنت أيضًا. هذا جنون!

أتراني أشبه بأيّ حال من الأحوال شهرزاد الصخّابة؟ فضلاً عن ذلك، فإنّ كلّ ما كانت تفعله هو أنّها كانت تستلقي على آرائك مخمليّة. تضيّع وقتها سدًى، وتفبرك القصص الخياليّة، وتطعم الأمير الظالم حبّات العنب الحلو وتغذّيه على ما يجرّه حيالها. أنا لا أجد أيّ عمل شاقّ في ذلك. ولو طلب منها أن تنجز نصف عملي لما بقيت حيّة بعد أسبوع واحد. لا أدري إن كان أحد يعدّ الأيّام لي. لكنّني أعدّها على وجه التأكيد، وما يزال أمامي ٦٢٤ يومًا.

قضيت الأيّام الأربعين الأولى من مدّة تدريبي في زنزانة صغيرة واطئة لا أستطيع أن أستلقي أو أقف فيها، وكنت مضطرًّا إلى الجلوس على ركبتي طوال الوقت. ولو تاقت نفسي إلى طعام لائق أو قدر من الراحة، أو كنت خائفًا من الظلمة أو الوحدة، أو حلمت أحلامًا جنسيّة بأجساد النساء، لسمعت الأمر يصدر إليّ بقرع الأجراس الفضّيّة المتدلّية من السقف لتقديم المساعدة الروحيّة. لكن لم يحدث كلّ هذا. لكن هذا لا يعني القول إنّ أفكارًا تشتّت الذهن لم تخامرني لكن ما وجه الخطأ في قدر قليل من التشتّت عندما لا تتمكّن حتى من الحركة؟

عندما انتهت مدّة الخلوة، أُرسلت إلى المطبخ لأتعذّب على يدي الطبّاخ. وتعذّبت حقًّا. لكنّ الحقيقة المرّة مرارتي منه هي أنّني لم أعصَ قوانين الطبّاخ إلى اليوم الذي وصل فيه شمس التبريزي. ففي تلك الليلة، وعندما عوّضني الطاهي عمّا فاتني من معاملة قاسية، ضربني ضربًا مبرّحًا، كسر العصي الخيزرانيّة واحدة تلو الأخرى على ظهري. ثم وضع فردتي حذائي أمام الباب، مقدّمتهما إلى أمام دلالة على أنّ وقت ذهابي قد حان. ففي تكيّة الدراويش، لا يطردونك أو يخبرونك صراحة بأنّك فشلت، بل يتركونك ترحل بصمت.

قال الطبّاخ معلنًا:

ـ ليس في إمكاننا جعلك درويشًا على الرّغم من إرادتك. في وسع المرء أن يأتي بالحمار إلى الماء ولكن ليس في وسعه جعله يشربه. لا بدّ أن تكون الإرادة موجودة عند الحمار، وليس ثمّة أيّ أسلوب آخر.

يعني هذا الكلام أنّني حمار، في الحقّ كان بودّي أن أرحل عن هذا

المكان منذ زمن بعيد لولا شمس التبريزي، فقد جعلني فضولي أرسو هنا، فأنا لم أصادف أحد يشبهه من قبل، فهو لا يخاف أحدًا، ولا يطيع أحدًا. كان الطاهي نفسه يكنّ له كلّ احترام. ولو كان ثمّة نموذج لي في هذه التكيّة فهو شمس وجاذبيّته وكرامته وتمرّده. وليس السيّد العجوز الصاغر.

نعم، كان شمس التبريزي بطلي. وقرّرت على إثر رؤيته أنّني لست مضطرًّا إلى أن أتحوّل إلى درويش خنوع وذليل. وإذا ما أنفقت وقتًا كافيًا في رفقته فيمكنني أن أتحوّل إلى متمرّد جسور يركن إليه. وهكذا، وبحلول فصل الخريف، أدركت أنّ شمسًا سوف يرحل دون رجعة، فما كان منّي إلّا أن قرّرت الرحيل وإيّاه.

بعد أن اتّخذت قراري، توجّهت إلى بابا زمان، فوجدته جالسًا، يقرأ في كتاب قديم على ضوء مصباح زيتي.

سألني منهكًا كأنّني أرهقه كما يظنّ:

ـ ماذا تريد أيّها المبتدئ؟

قلت بأكبر ما يمكنني من صراحة:

ـ أفهم أنّ شمس التبريزي سيرحل عمّا قريب أيّها المعلّم، وأنا أريد الذهاب وإيّاه، إذ قد يكون بحاجة إلى رفقة في الدرب.

قال المعلّم مرتابًا:

ـ لم أعرف أنّك مهتمّ لأمره إلى هذه الدرجة، أم تُراك تبحث عن وسائل لتهرب من واجباتك في المطبخ؟ إنّ فترة تدريبك لم تنته بعد، وقلّما يمكن أن توصف بأنّك درويش.

اقترحت وأنا مدرك أنّ ما سأقوله سيكون شيئًا جريئًا ولكنّني عزمت على قوله:

ـ لعلّ الذهاب رفقة شخص مثل شمس سيكون تدريبًا.

خفض المعلّم من بصره، وغرق في تفكير عميق. وكلّما ازداد صمته ازددت اقتناعًا بأنّه سوف يوبّخني لصفاقتي ويدعو الطاهي ليراقبني مراقبة أشدّ ولكنّه لم يفعل شيئًا من هذا كلّه. وبدلاً من ذلك، رشقني بنظرة حزينة وهزّ رأسه.

ـ ربّما لم تخلق للحياة في مثل هذه التكيّة يا بنيّ. على أيّة حال، لا يبقى سوى مبتدئ واحد من بين كلّ سبعة مبتدئين ينطلقون في هذا الدرب. شعوري هو أنّك لا تصلح لأن تكون درويشًا وعليك أن تبحث عن قسمتك في مكان آخر. أمّا بخصوص مرافقة شمس في رحلته، فعليك أن تسأله عن ذلك.

بعد أن قدّم بابا زمان هذه الملاحظة لي، أنهى الموضوع بإيماءة مؤدّبة ولكنّها تنمّ عن تصميم وإصرار، وعاد إلى كتابه.

أحسست بالحزن والضآلة ولكنّني تحرّرت على نحو غريب.

* * *

شمس

بغداد، ٣٠ أيلول ١٢٤٣

شققت أنا وجوادي طريقنا بصعوبة وسط الريح وانطلقنا عند انبلاج الفجر، ولم أتوقّف سوى مرّة واحدة للنظر إلى الوراء. تكيّة الدراويش أشبه بعشّ طير يتوارى وسط أشجار التوت والشجيرات. ظلّ وجه بابا زمان المتعب يومض في مخيّلتي برهة وجيزة. كنت أعلم أنّه كان قلقًا عليّ ولكنّني لم أجد سببًا حقيقيًّا لذلك فقد انطلقت في رحلة حبّ داخلية، فكيف يمكن أن ينجم عنها أيّ أذى؟ ها هي قاعدتي العاشرة: (لا فرق يُذكر بين الشرق أو الغرب أو الجنوب أو الشمال. بغض النظر عن وجهتك، فإنّ كلّ ما عليك فعله هو التأكّد أنّك تجعل كلّ رحلة، رحلة باطنيّة. فإذا ما رحلت إلى الباطن، فسوف تسافر إلى جميع أرجاء العالم وإلى ما هو أبعد من ذلك).

على الرّغم من أنّني توقّعت صعوبات أمامي فإنّ ذلك لم يقلقني كثيرًا، فرحت بأيّ قدر ينتظرني في قونية بغض النظر عن ذلك القدر، فأنا تدرّبت بوصفي صوفيًا على تقبّل الشوك مع الورود، والصعوبات مع جمال الحياة، من هنا تأتي القاعدة الأخرى: (القابلة تعلم إنّ الطريق أمام الطفل لا يمكن فتحه، وأنّ الأمّ لا يمكنها أن تولد ما لم يكن ثمّة ألم. كذلك، فإنّ الشدائد ضروريّة لولادة نفس جديدة. ومثلما يحتاج الطين إلى حرارة عالية جدًّا كي يصبح صلدًا، فإنّ الحبّ لا يمكن أن يكتمل إلّا بالألم).

* * *

في الليلة التي سبقت رحيلي عن تكيّة الدراويش، فتحت كلّ نوافذ غرفتي كي أفسح المجال للأصوات ولروائح الظلمة بالدخول. وتحت نور الشمعة المتراقص، قصصت شعري الطويل فتساقطت خصلات كثيفة على الأرض. ثم حلقت ذقني وشاربي وتخلّصت من حاجبي. وبعد أن فرغت من ذلك، ألقيت نظرة خاصّة على وجهي في المرآة، فرأيته الآن أكثر بريقًا ولمعانًا. وبعد أن تخلّصت من شعري، بات وجهي بلا اسم وبلا عمر وبلا جنس، لا أملك ماضيًا ولا مستقبلاً، مختومًا بختم اللحظة الراهنة.

قال لي المعلّم عندما توجّهت إلى حجرته لأودّعه:

ـ ها إنّ رحلتك قد بدأت بتغيّرك منذ الآن وهي لم تبدأ بعد.

قلت برقّة:

ـ نعم، لاحظت ذلك. وهذه قاعدة أخرى من القواعد الأربعين (البحث عن الحبّ يغيّرنا. وما من باحث بيننا يسعى وراء الحبّ ولم ينضج في طريقه إليه. ففي اللحظة التي تبدأ فيها بالبحث عن الحبّ يبدأ التغيير عليك باطنًا وخارجًا).

ابتسم بابا زمان ابتسامة باهتة وأخرج علبة مخمليّة وسلّمها إليّ، وفي داخلها وجدت ثلاثة أشياء: مرآة فضّيّة ومنديل حريري وزجاجة مرهم.

ـ سوف تعينك هذه الحاجات في رحلتك. استخدمها إذا ما اقتضت الضرورة. وإذا ما فقدت احترامك لذلك، فسوف تساعدك المرآة على إظهار جمالك الباطن. وإذا شابت سمعتك أيّة شائبة، فسوف يذكّرك المنديل بمعنى نقاء قلبك. أمّا بخصوص البلسم، فهو يشفي جروحك الداخليّة والخارجيّة.

داعبت كلّ حاجة من تلك الحاجات الثلاث وأغلقت العلبة وشكرت بابا زمان، ولم يعد هناك شيء آخر يستدعي القول.

امتطيت ظهر جوادي في وقت كانت العصافير تسقسق وقطرات الندى تتدلّى من الأغصان مع أوّل ضياء في ذلك الصباح. انطلقت باتّجاه قونية، لا أعرف ماذا أتوقّع ولكنّي آمنت بقدري الذي هيّأه الله العظيم لي.

* * *

التلميذ

بغداد، ٣٠ أيلول ١٢٤٣

امتطيت صهوة جوادي ولحقت بشمس التبريزي. وعلى الرّغم ممّا بذلته من مشقّة للإبقاء على مسافة معقولة بيني وبينه، فقد وجدت صعوبة في تعقّبه دون أن أبدو للعيان. ولمّا توقّف شمس عند أحد الأسواق في بغداد لإنعاش نفسه ولشراء بعض الحاجات لاستهلاكها في الطريق، عزمت على إظهار نفسي وأن أرتمي أمام جواده.

وعندما رآني شمس، هتف دهشًا مبهوتًا ومسرورًا من فوق جواده:

ـ ما الذي تفعله هنا مستلقيًا على الأرض أيّها الجاهل ذو الشعر الأحمر؟

جثوت على ركبتيّ، وعقدت يدي، ومددت عنقي، كالشحّاذين، وتوسّلت إليه:

ـ أريد أن أرافقك في سفرك. أرجوك دعني أرافقك.

ـ ألديك أيّ فكرة عن وجهتي؟

توقّفت برهة وجيزة، فالسؤال لم يخطر ببالي قطّ.

ـ لا ، لكن لا فرق، فأنا أريد أن أكون تلميذك، وأنت نموذج لي.

فقال شمس:

ـ إنّني أسافر وحيدًا دومًا ولا أريد أتباعًا ولا مريدين. شكرًا لك.

فضلاً عن أنّني لست نموذجًا لأحد، أقلّهم أنت. حسبك إذًا أن تنطلق في رحلتك ولكن إذا لبثت تبحث لك عن معلّم في المستقبل فأرجو أن تتذكّر القاعدة الذهبيّة: ثمّة مرشدون مزيّفون ومعلّمون دجّالون في هذا العالم أكثر ممّا فيه من نجوم في الكون المرئي. لا تخلط بين الناس الذي تدفعهم السلطة ويحبّون أنفسهم والمعلّمين الحقيقيّين. فالمعلّم الروحي الحقيقي لا يجذب انتباهك إلى نفسه أو نفسها، ولا يتوقّع طاعة عمياء أو دهشة تامّة منك ولكنّه عوضًا عن ذلك، سوف يساعدك في تقدير نفسك الباطنيّة والإعجاب بها. المعلّمون الحقيقيّون شفّافون كالزجاج، وهم يتركون نور الله يمرّ من خلالهم.

توسّلت.

ـ امنحني فرصة، أرجوك، فكلّ المسافرين المشهورين لديهم من يساعدهم في الطريق، مثل تلميذ أو ما أشبه.

وهنا حكّ شمس ذقنه وهو يستغرق في تفكير عميق كأنّما يقرّ بصدق كلماته وسألني:

ـ ألديك من القوّة ما يجعلك تتحمّل رفقتي؟

قفزت على قدمي مومئًا من صميم فؤادي:

ـ لديّ على وجه التوكيد، وهذه القوّة تأتيني من الداخل.

ـ حسنًا جدًّا إذًا. هذه هي مهمّتك: أريدك أن تذهب إلى أقرب حانة واشتر لنفسك وعاء فيه خمر وسوف تشربه هنا في السوق.

كنت أكشط أرضيّات الغرف بردائي، وألمّع الأواني والقدور لتصبح مثل زجاج الزينة المصنوع في البندقيّة الذي شاهدته بين يدي أحد الفنّانين الذين هربوا من القسطنطينيّة قبل زمن طويل عندما اجتاح الصليبيّون المدينة. في إمكاني أن أقطع مئات الحبّات من البصل في جلسة واحدة أو أقشّر فصوص الثوم كلها باسم التنمية الروحيّة ولكن شرب الخمر في وسط الحشود في السوق تحقيقًا لتلك البغية، كان خارج مدى فهمي. ثم نظرت إليه نظرة رعب.

ـ لا يمكنني فعل هذا الشيء. ولو علم والدي بالأمر لكسر رجليّ. لقد أرسلني إلى تكيّة الدراويش كي أصبح مسلمًا صالحًا وليس كافرًا. ما

الذي ستفكّر فيه أسرتي وأصدقائي عنّي.

أحسست بنظرة شمس الحارقة عليّ، وارتجفت بسبب الضغط الهائل تمامًا كما ارتجفت في ذلك اليوم الذي تجسّست فيه عليه من وراء أبواب موصدة.

فقال مقتنعًا:

ـ أتدري؟ إنّك لا تصلح لأن تكون تلميذًا لي، فأنت تخاف عليّ خوفًا شديدًا، وتهتمّ كثيرًا بما يعتقده الآخرون. لكن أتعرف لماذا؟ لأنّك ترغب في الحصول على استحسان الآخرين، فإنّك لن تنجو من نقدهم على الرّغم من الجهد الكبير الذي تبذله.

أدركت أنّ فرصتي في مرافقته بدأت تتلاشى، فاندفعت للدفاع عن نفسي:

ـ من أين لي أن أعرف أنّك لن تطرح ذلك السؤال عن الهدف؟ فالخمر محرّمة تحريمًا تمامًا في الإسلام. ظننتك تختبرني.

قال شمس:

ـ لكن هذا يعني تضليل الربّ. فالحكم على ورع الآخرين وقياسه ليسا من مسؤوليّتنا.

نظرت من حولي بائسًا لا أفقه شيئًا من كلامه.

واسترسل شمس في كلامه:

ـ أنت تقول إنّك تريد أن تسافر على الطريق، ولكنّك لا تريد التضحية بأيّ شيء في سبيل تلك الغاية. المال والشهرة والسلطة والرفاهية أو المتعة الجسديّة ـ وكلّ ما يعتبره الإنسان شيئًا عزيزًا عليه، إنّما ينبغي له التخلّص منه أوّلاً.

ربت شمس على جواده وخلص إلى نتيجة نهائيّة:

ـ أعتقد أنّ عليك أن تمكث في بغداد رفقة أسرتك. جد لك تاجرًا نظيفًا واعمل تلميذًا له. لديّ إحساس بأنّك سوف تصبح تاجرًا جيّدًا يومًا ما. لكن لا تكن جشعًا. والآن أستميحك عذرًا، فأنا أريد الانصراف.

وهكذا حيّاني للمرّة الأخيرة، ورفس جواده ومضى بعيدًا، والعالم

ينهار تحت حوافره الرعديّة. وثبت إلى جوادي ولحقت به إلى ضواحي بغداد ولكنّ المسافة بيننا أصبحت بعيدة، وبعيدة، حتى أصبح نقطة سوداء في الأفق البعيد، أمّا أنا، فشعرت بثقل شمس وهو يحدّق إليّ حتى بعد أن تلاشت تلك النقطة السوداء في الأفق.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٢٤ أيّار ٢٠٠٨

الفطور هو أهمّ الوجبات في النهار. كانت إيلّا تدلف إلى المطبخ مؤمنة بهذه المقولة صباح كلّ يوم وفي أيّام الأسبوع وعطلات نهاية الأسبوع على حدّ سواء. وكانت تعتقد أنّ الفطور اللذيذ مؤشّرًا على طابع بقيّة النهار. فقد قرأت في المجلّات النسائيّة أنّ الأسر التي تتناول بانتظام طعام الفطور معًا، تكون أكثر انجسامًا وتماسكًا من تلك التي يندفع فيها كلّ فرد خارج الباب نصف جائع. وعلى الرّغم من شدّة إيمانها بهذا البحث، فما يزال يتعيّن عليها أن تعيش في أجواء طعام الفطور البهيج الذي تكتب عنه المجلّات. وكانت تجربتها في الفطور عبارة عن تضارب بين الكواكب حيث يسير كلّ فرد من أفراد أسرتها على وفق نغمات متباينة لأنّ كلّ واحد يريد تناول طعام مختلف في وجبة الفطور وهو ما يخالف مفهوم إيلّا عن تناول الطعام معًا. فكيف يمكن أن تكون ثمّة وحدة من حول مائدة إذا قضم أحد الأفراد (جانيت) الخبز المحمّص مع المربّى، في حين أكل آخر (آفي) حبوب الفطور بضوضاء، بينما انتظر ثالث بصبر (ديڤيد) كي يقدّم له البيض المقلي، ورفض رابع (أورلي) تناول أيّ طعام؟ على أيّة حال، كان الفطور بالغ الأهمّيّة، وكانت تتولّى إعداده في صباح كلّ يوم بعزيمة وإصرار حتى إنّ أيّ ولد من أولادها لا يبدأ اليوم بأكل قطعة شوكولا أو أيّ طعام لا قيمة غذائيّة له.

ولكن أوّل شيء أقدمت عليه إيلّا في هذا الصباح بعد أن دخلت المطبخ هو الجلوس إلى المنضدة والبحث في حاسوبها بدلاً من إعداد القهوة أو عصر البرتقال أو تحميص الخبز. ألقت نظرة على بريدها الإلكتروني لتتأكّد إن كانت قد وصلتها أيّة رسالة من عزيز ولفرحتها وجدت رسالة منه.

عزيزتي إيلّا

غمرتني السعادة عندما علمت أنّ الأحوال قد تحسّنت بينك وبين ابنتك. أمّا أنا، فقد رحلت عن قرية مومو ستينانغو بالأمس عند انبلاج الفجر. الغريب في الأمر هو أنّني لم أمكث في هذا المكان سوى بضعة أيّام ولكن عندما حان الوقت لمغادرة المكان انتابني الحزن حدّ البكاء. وفكّرت إن كنت محظوظًا كي أشاهد هذه القرية في غواتيمالا مجدّدًا. لا أظنّ.

في كلّ مرّة أودّع مكانًا يروقني أشعر كأنّني أترك ورائي جزءًا منّي. أعتقد أنّ الحياة ليست سوى سلسلة من الولادات والوفيّات سواء اخترنا السفر قدر ما اختاره ماركو بولو أو بقينا في البقعة نفسها من المهد إلى اللحد. لحظات تولد ولحظات تموت ولا بدّ للعادات والتجارب القديمة أن تموت كي تبرز أخرى جديدة إلى النور. ما رأيك؟

في الأيّام التي أنفقتها في مومو ستينانغو، فكّرت مليًّا وحاولت أن أتخيّل شكلك. ولم يمض وقت طويل حتى رأيت أمامي ثلاثة ألوان: الأصفر الدافئ والبرتقالي الباهت والبنفسجي اللامع. لديّ إحساس أنّ هذه الألوان هي ألوانك المفضّلة، ففكّرت في جمالها مجتمعة كانت أم منفردة.

مَحطّتي الأخيرة في غواتيمالا هي شاجول ـ بلدة صغيرة، بيوتها مشيّدة باللبن، أطفالها يملكون عيونًا تنطق بحكمة وتتجاوز أعمارهم. وفي كلّ بيت، تجدين النسوة من مختلف الأعمار، منهمكات في حياكة المنسوجات المطرّزة الرائعة. طلبت منّي إحدى الجدّات أنّ تختار إحدى هذه المنسوجات وأخبرتها أنّها لسيّدة تقطن مدينة نورثهامبتون. وبعد تفكير، جذبت إحدى المنسوجات من كومة هائلة وراء ظهرها. أقسم بالله أنّ ثمّة ما يزيد عن الخمسين قطعة من شتّى الألوان في تلك الكومة ولكنّ

القطعة التي اختارتها من أجلك كانت تتألّف من ثلاثة ألوان لا غير: الأصفر والبرتقالي والبنفسجي. وفكّرت أنّك ربّما ترغبين في معرفة هذه المصادفة إن كان ثمّة مصادفة حقًّا في هذا الكون.

هل فكّرت أنّ تبادلنا الرسائل قد لا يكون نتيجة أيّة مصادفة؟

أحرّ تحياتي

عزيز

ملاحظة: إن شئت، فسوف أرسل القطعة لك بالبريد، أو في وسعي أن أنتظر حتى نلتقي يومًا ما لتناول القهوة فأجلبها بنفسي.

أسبلت إيلّا جفنيها وحاولت أن تتخيّل ألوان شكلها وهي تُحيط بوجهها. ممّا يبعث على الاهتمام أنّ الصورة التي برزت في ذهنها لم تكن صورتها بعد أن تقدّم بها العمر، بل صورتها وهي طفلة في نحو السابعة.

أشياء كثيرة مرّت بذهنها: ذكريات ظنّت أنّها غادرتها منذ زمن بعيد، ومشهد والدتها تقف ساكنة مرتدية صدريّة طبخ بلون الفستق الحلبي الأخضر من حول خصرها، وفي يدها كوب مقاييس. أمّا وجهها فكان قناعًا شاحبًا من الحزن والألم، قلوب ورقيّة متدلّية على الجدران، برّاقة ولامعة، وجثّة والدها تتدلّى من السقف كأنّه يريد أن يمتزج بزينة عيد الميلاد فيمنح البيت مظهرًا احتفاليًّا. وتذكّرت كيف أمضت سنوات مراهقتها وهي تحمّل والدتها مسؤوليّة انتحار والدها. كانت إيلّا في شبابها قد قطعت عهدًا على نفسها بأنّها إذا ما تزوّجت، فسوف تجعل زوجها سعيدًا ولن تفشل في زواجها كما فشلت والدتها. وفي محاولتها كي تجعل زواجها مختلفًا عن زواج أمّها قدر المستطاع، فإنّها لم تتزوّج مسيحيًّا، بل فضّلت الزواج من بني ملّتها.

ولم تتّفق إيلّا عن الشعور بكراهية والدتها إلّا قبل بضع سنوات. ولكن على الرّغم من أنّ الاثنتين كانتا على وفاق مؤخّرًا، فقد شعرت في أعماقها بشيء من القلق والاضطراب عندما تذكّرت الماضي.

ـ أمّاه... كفى استغراق في الأحلام! كفى!

طرق سمع إيلّا صوت ضحكات وهمسات من وراء كتفها، وعندما

استدارت شاهدت أربعة أزواج من العيون تراقبها بسرور وبهجة. فقد جاء ديڤيد وأورلي وآفي وجانيت كلّهم مرّة واحدة لتناول وجبة الفطور في الوقت نفسه، ووقفوا جنبًا إلى جنب ينظرون إليها مليًّا كأنّها مخلوق غريب. وبدوا من نظراتهم أنّهم كانوا واقفين في ذلك المكان منذ برهة من الزمان، محاولين إثارة انتباهها.

ابتسمت إيلّا.

ـ أنعمتم صباحا كلّكم.

قالت أورلي وقد بدت الدهشة على محيّاها:

ـ كيف لم تسمعينا؟

وقال ديڤيد دون أن ينظر إليها:

ـ كنت مستغرقة تمامًا أمام تلك الشاشة.

لاحقت نظرات إيلّا زوجها وشاهدت أمامها على الشاشة رسالة عزيز زد. زاهارا تومض وميضًا باهتًا. فما كان منها إلّا أن أغلقت حاسوبها من فورها دون أن تنظر كي يغلق بنفسه.

قالت إيلّا مقلّبة عينيها:

ـ لديّ قراءة كثيرة للناشر الأدبي، فأنا منهمكة في كتابة تقريري.

قال آفي وقد بانت ملامح الجدّ على وجهه:

ـ كلّا، بل كنت تقرئين رسائلك الإلكترونيّة.

وتساءلت إيلّا في نفسها: ما الذي يملكه الأولاد المراهقون فيبدون توّاقين لمتابعة كلّ هفوة وكلّ كذبة؟

لكنّها شعرت بالارتياح عندما لاحظت أنّ الآخرين لم يهتمّوا بالموضوع. الحقّ كانوا جميعًا ينظرون إلى مكان آخر الآن، مركّزين عيونهم على طاولة المطبخ.

التفتت أورلي إلى إيلّا وطرحت سؤالاً بالإنابة عن الآخرين:

ـ لماذا لم تجهّزي لنا أيّ فطور في هذا الصباح يا أمّي؟

وهنا استدارت إيلّا إلى النضد وشاهدت ما شاهدوه:

ليس ثمّة قهوة تغلي، ولا بيض مقليًّا، ولا خبز محمّصًا بصلصة التوت. هزّت رأسها مرّات ومرّات كأنّها توافقهم بصوت باطني ينطق بحقيقة لا سبيل إلى نكرانها.

وفكّرت حسن، كيف نسيت الفطور؟

* * *

القسم الثاني

الماء

الأشياء السائلة والمتغيّرة وغير المتوقّعة

الرومي

قونية، ١٥ تشرين الأوّل ١٢٤٤

كان البدر الهائل والساطع أشبه بلؤلؤة ضخمة معلّقة في السماء. نهضت من السرير ورنوت من النافذة إلى الفناء الذي كان يغسله ضوء القمر ولكن دقّات قلبي أو ارتجاف يدي لم يهدّئ منها هذا الجمال.

همست زوجتي:

ـ تبدو ممتقع الوجه أيّها الأفندي. هل راودك الحلم نفسه من جديد؟ هلّا آتيك بكأس ماء.

طلبت منها ألّا تقلق وأن تستسلم للنوم ثانيةً لأن ليس في وسعها عمل أيّ شيء، فإخلاصنا جزء من قدرنا، وستسير سيرها الذي كتبه الله لها. فضلاً عن ذلك، لا بدّ من سبب ما لرؤيتي الحلم نفسه كلّ ليلة على مدى الأربعين يومًا الماضية.

كانت بداية الحلم تختلف اختلافًا بسيطًا في كلّ مرّة، أو ربّما كان الحلم نفسه ولكنّني كنت أدخله من بوّابة مختلفة في كلّ مساء. وفي هذه المرّة، شاهدت نفسي وأنا أقرأ في القرآن في حجرة مفروشة بسجّادة وتبدو مألوفة لديّ، ولكنّها لا تشبه أيّ مكان زرته من قبل. وفي الطرف المقابل لي، جلس درويش طويل القامة، نحيل الجسد، منتصبًا، واضعًا خمارًا يخفي وراءه وجهه، وكان يحمل بيده شمعدان زينة توهّجت في شعبه خمس شموع موفّرة لي قدرًا من الضياء يمكّنني من القراءة.

وبعد برهة وجيزة، رفعت رأسي كي أبيّن للدرويش الآية التي كنت أتلوها، ولكنّي، ولدهشتي لم أدرِ إلّا في تلك اللحظة أنّ الشيء الذي ظننته شمعدان زينة لم يكن سوى يد الرجل اليمنى، فقد كان يمدّ يده باتّجاهي وقد توهّج كلّ إصبع من أصابعه.

فتّشت عن ماء من حولي مذعورًا ولكنّي لم أجد قطرة منه. فما كان منّي إلى أن خلعت عباءتي ورميت بها على الدرويش كي أطفئ اللهب. غير أنّني رأيت الدرويش يختفي عن الأنظار عندما رفعت العباءة، ولم يترك وراءه سوى الشمعة محترقة.

ومن هذه النقطة فصاعدًا، كان الحلم يتكرّر. فبدأت أفتّش عنه وقلبت البيت رأسًا على عقب بحثًا عنه، ثم عدوت إلى الفناء حيث تفتّحت الزهور في بحر من اللون الأصفر البرّاق. صحت بأعلى صوت يمينًا ويسارًا:

ـ ارجع أيّها المحبوب. أين أنت؟

وأخيرًا اقتربت من البئر كأنّ نذيرًا بالشرّ دفعني إليها وألقيت نظرة إلى المياه المظلمة التي ترغي وتزبد من تحت. في البدء، لم أتمكّن من رؤية أيّ شيء، ولكنّ القمر غمرني بعد لحظات بحزمة من ضياء متألّق، فاكتسب الفناء لونًا أصفر نادرًا. وفي تلك اللحظة، لاحظت عينين سوداوين تتطلّعان من قاع البئر إلى أعلى في اتّجاهي، وقد غشيهما حزن لا مثيل له.

صاح أحدهم:

ـ لقد قتلوه!

ربّما كنت أنا الذي صحت، وربّما كان ذلك صوتي وأنا أمرّ في حالة صراع لا حدود له.

وصرخت مرّات ومرّات حتى أمسكت بي زوجتي بقوّة، وجذبتني إلى صدرها وسألتني برفق:

ـ هل راودك الحلم نفسه أيّها الأفندي؟

* * *

بعد أن خلدت باكرًا إلى النوم من جديد، تسلّلت إلى الفناء، إذ خامرني الإحساس في تلك اللحظة أنّ الحلم ما يزال معي وأنه لم ينته بعد،

كان حلمًا حيًّا ولكنّه يبعث على الرعب. وفي سكون تلك الليلة وهدوئها، أرسل مشهد البئر قشعريرة في أسفل بدني ولكنّي لم أستطع منع نفسي من الجلوس على مقربة منه، مصغيًا لنسيم الليل الذي يداعب الأشجار بلطف.

في مثل هذه الأوقات، أشعر بموجة عارمة ومفاجئة من الحزن تأخذ بتلابيبي على الرّغم من أنّني لا أعرف سببًا لذلك. فحياتي مثاليّة وهانئة، وقد أنعم الله عليّ بثلاث نعم أظنّها الأفضل بين كلّ النعم وهي: المعرفة والفضيلة والقدرة على مساعدة الآخرين لمعرفة الله.

في سنّ الثامنة والثلاثين، منحني الله أكثر ممّا كنت أطلب منه. فقد تدرّبت لأصبح خطيبًا وقاضيًا وتعلّمت علم الحدس الربّاني ـ أي المعرفة التي تمنح للأنبياء والقدّيسين والعلماء بدرجات متفاوتة. وبعد أن هداني المرحوم أبي، وعلّمني أفضل معلّمي زماننا، بذلت قصارى جهدي لأعمّق وعيي بالإيمان والاعتقاد بأنّ ما أفعله إنّما هو واجب فرضه الله عليّ.

كان معلّمي القديم السيّد برهان الدين يقول إنّني أحد الذين حباهم الله ما دمت أؤدّي واجبي بتبليغ رسالته إلى أمّته، ومساعدة الناس على التفريق بين الحقّ والباطل.

بقيت سنوات طويلة أمارس التعليم في المدرسة وأناقش علم الكلام مع غيري من علماء الشريعة، أعلّم تلاميذي وأدرّس القانون والأحاديث النبويّة وأُلقي الخطب في كلّ يوم جمعة في أكبر مسجد في البلدة. وقد نسيت منذ عهد بعيد عدد تلاميذي الذين لقّنتهم العلوم. وأنّه لمن الرياء أن أستمع إلى الناس الذين كانوا يثنون على مهاراتي الخطابيّة ويخبرونني أنّ كلماتي غيّرت من حياتهم في زمن كانوا هم فيه بأمسّ الحاجة إلى الهداية.

إنّني محظوظ بأسرة مفعمة بالحبّ والحنان والأصدقاء الطيّبين والتلاميذ المخلصين. ولم أعرف طوال حياتي العدم أو العوز على الرّغم من أنّ خسارتي زوجتي الأولى كان مدمّرًا. وفكّرت في أنّني لن أتزوّج من جديد، ولكنّي تزوّجت، وبفضل كيرا، استمتعت بالحبّ والبهجة. وقد كبر ولداي على الرّغم من أنّني لا أنفك أُدهش من الاختلاف الواضح بينهما، منهما مثل بذرتين زرعتا جنبًا إلى جنب في التربة نفسها وانتعشتا بالشمس نفسها والماء نفسه ولكنّهما أصبحتا نبتتين مختلفتين اختلافًا شديدًا. إنّي

فخور بهما، مثلما أنا فخور بابنتي التي تبنّيتها والتي تحظى بمواهب فريدة ونادرة. إنّني رجل سعيد، وراض بحياتي الخاصّة والعامّة.

ما السبب الذي يدفعني إذًا إلى الإحساس بهذا الخواء في داخلي والذي يزداد عمقًا واتّساعًا بمرور الأيّام؟ إنّه يهشّمني مثل مرض، ويرافقني حيثما ذهبت، هادئًا هدوء فأر يكاد يموت جوعًا.

* * *

شمس

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

قبل أن أمرّ من بوّابات أي مدينة لم يسبق لي زيارتها، أتوقّف دقيقة لأداء التحيّة للأولياء ـ الأحياء منهم والأموات، المعروفين منهم والمجهولين ولم أصل طوال حياتي إلى بقعة جديدة دون أن أحظى ببركات أوليائها أوّلاً. ولا فرق عندي سواء أكانت تلك البقعة عائدة للمسلمين أم للمسيحيِّين أم لليهود لأنّني أؤمن أنّ الأولياء خارج نطاق مثل هذه التقسيمات الإسميّة، فالولي ينتمي إلى الإنسانيّة كلّها.

ولهذا فعلت ما كنت أفعله دومًا لدى رؤيتي قونية أوّل مرّة من مسافة بعيدة. بيد أنّ شيئًا غريبًا حدث لي، إذ بدلاً من أن يردّ الأولياء التحيّة عليّ ويمنحوني بركاتهم، كدأبهم، فقد بقوا صامتين صمت شواهد القبور المكسورة. فما كان منّي إلّا أن ألقيت عليهم التحيّة ثانية، بصوت عال وباصرار في هذه المرّة، إذ ربّما لم يسمعوني ولكنّ الصمت خيّم بعد ذلك، وأدركت أنّ الأولياء سمعوني. حسنًا. إنّهم لا يريدون منحي بركاتهم.

سألت الريح كي تنقل كلماتي إلى الأولياء في جميع الأنحاء:

ـ أخبرني ماذا حدث؟

وبعد لحظات عادت الريح حاملة الجواب.

ـ آه أيّها الدرويش. لن تجد في هذه المدينة سوى النقيضين ولا شيء

آخر بينهما. إمّا الحبّ الصافي أو الكراهية المحض. إنّنا نحذّرك، ادخل على مسؤوليّتك.

قلت:

ـ في هذه الحالة، لا ضرورة للقلق ما دمت سأواجه الحبّ الصافي، فهو يكفيني.

وعندما سمع أولياء قونية هذا الكلام، منحوني بركاتهم ولكنّي لم أكن راغبًا بَعدُ في دخول المدينة في هذه اللحظة. فجلست تحت شجرة بلّوط، ورشقت المدينة بنظرة وهي على مسافة واضحة منّي في حين بدا جوادي يقضم الحشائش القليلة المنتشرة حوله. تألّقت منائر قونية تحت نور الشمس كأنّها قطع من زجاج. وطرق سمعي بين حين وآخر صوت كلاب تنبح وحمير تنهق، وأطفال يضحكون، وباعة جوّالين يصيحون بأعلى أصواتهم ـ أصوات اعتياديّة لمدينة تنبض بالحياة. وفكّرت في نفسي: أيّ أفراح وأيّ أحزان يا ترى تنتشر في هذه اللحظة وراء أبواب موصدة ونوافذ مقفلة؟ ولَما كنت معتادًا حياة التجوّل، أدركت أنّ عزيمتي لن توهن، وهمّتي لن تخمد إلى حدّ ما إذا اضطررت إلى الاستقرار في مدينة، ولكنّي تذكّرت قاعدة أخرى جوهريّة وهي: (حاول ألّا تقاوم المتغيّرات التي تصادفك في طريقك، بل اترك الحياة تنتعش في داخلك، ولا تقلق إذا ما انقلبت حياتك رأسًا على عقب، إذ من أين لك أن تعرف أنّ الجهة التي تألفها أفضل من الجهة الأخرى؟).

وهنا أيقظني صوت من أحلام يقظتي:

ـ سلام عليكم أيّها الدرويش!

وعندما التفتّ من حولي، رأيت فلّاحًا زيتوني البشرة، مفتول العضلات، قوي الجسم، متدلّي الشارب، يسوق عربة يجرّها ثور هزيل بدا، وهو المخلوق المسكين، موشكًا على لفظ نفسه الأخير في أيّة لحظة.

وهتفت:

ـ وعليكم السلام، بارك الله فيك!

ـ لِمَ أنت جالس هنا وحيدًا؟ إذا كنت مرهقًا من قيادة جوادك، فيمكنني أن أصحبك.

ابتسمت.

ـ شكرًا لك. أظنّ أنّ في وسعي السير بأسرع ممّا يسير ثورك.

قال الفلّاح وقد بدا عليه الاستياء والكدر:

ـ لا تبخس ثوري حقّه، فقد يكون هزيلاً وعجوزًا ولكنّه ما زال أفضل صديق لي.

أوقفتني كلماته، فوثبت على قدمي وانحنيت أمام الفلّاح. كيف يمكنني أنا المخلوق الضعيف بين كلّ مخلوقات الله التي لا تعدّ ولا تحصى أن أبخس حقّ مخلوق آخر من تلك المخلوقات سواء كان حيوانًا أم بشرًا؟

فقلت:

ـ أطلب الصفح منك ومن ثورك. أرجوك سامحني.

لاح على وجه الفلّاح ظلّ من ظلال الشكّ وعدم التصديق، ووقف جامد الوجه، سحنته لا تعبّر عن أيّ شعور، يتبصّر إن كنت أسخر منه أم لا.

قال عندما استرسل في الكلام ثانية وهو يومض بابتسامة دافئة:

ـ ما من أحد طلب ذلك.

ـ أتقصد طلب الصفح من الثور؟

ـ حسنًا، وهذا أيضًا ولكنّني فكّرت أنّ أحدًا لم يعتذر منّي، بل الأمر معكوس، فأنا الشخص الذي يعتذر طوال الوقت، وحتى عندما يظلمني الناس، فإنّني أطلب الصفح منهم.

تأثّرت عند سماعي هذا الكلام وقلت بلطف:

ـ يخبرنا القرآن أنّ كلّ واحد منّا مخلوق على أفضل صورة وهذه هي إحدى القواعد.

فسأل:

ـ أيّ قاعدة؟

ـ إنّ الله ينهمك في إنجاز عملك، خارجيًّا وباطنيًّا، وهو مشغول بك تمامًا. وكلّ إنسان عبارة عن عمل في طور التكوين على نحو بطيء ولكنّه يسير سيرًا ثابتًا نحو الكمال، وكلّ واحد منّا عمل فنّي لم يكتمل، ننتظر

الكمال ونسعى جاهدين إليه. إنّ الله يعامل كلّ واحد منّا على انفراد لأنّ البشريّة عمل فنّي رائع من أعمال فنون الحظّ الماهرة حيث إنّ كلّ نقطة بالأهمّيّة نفسها لمجمل الصورة.

وهنا سأل الفلّاح باهتمام متجدّد:

ـ هل جئت إلى هذا المكان لإلقاء خطبة أيضًا؟ يبدو أنّ المكان سيكون مزدحمًا جدًّا، فهو رجل مدهش.

أخفق قلبي في خفقة منخفقاته عندما أدركت عمّن يتحدّث هذا الفلّاح.

ـ قل لي: ما الذي يميّز خطب الرومي إلى هذا الحدّ؟

لزم الفلّاح الصمت والهدوء ورشق الأفق الشاسع بنظرة خاصّة برهة وجيزة، في حين بدا ذهنه شاردًا ومشتّتًا، لا يستقرّ على حال.

ثم قال:

ـ لقد أتيت من قرية كان لها نصيبها من الشدائد والصعوبات. ففي البداية، حلّ بها القحط والمجاعة، ثم اجتاحها المغول الذين أحرقوا كلّ قرية وجدوها في طريقهم، وسلبوها. لكن ما فعلوه في المدن الكبرى كان أردأ وأسوأ. فقد احتلّوا أضروم وسيواس وقيصريّة وذبحوا كلّ الذكور فيها وسبوا النساء. أنا شخصيًّا لم أفقد صبيًّا ولم أفقد بيتي، ولكنّي فقدت شيئًا آخر وهو بهجتي.

سألت:

ـ وما شأن هذا بالرومي؟

حوّل الفلّاح أنظاره إلى ثوره وتمتم بكلام تخلو نبرته من أيّ أثر:

ـ يقول الناس لو إنّك أصغيت إلى خطبة الرومي لشفيت من حزنك.

أنا شخصيًّا لم أجد أيّ غضاضة في الحزن، بل على العكس، فالنفاق يجعل الناس سعداء، والحقيقة تجعلهم حزانى، ولكنّي لم أخبر الفلّاح بهذا الكلام، بل قلت بدلاً من ذلك:

ـ لِمَ لا أرافقك إلى قونية وتحدّثني أكثر عن الرومي؟

ثم ربطت جوادي بالعربة وركبتها إلى جانب الفلّاح، سعيدًا لأنّني

رأيت الثور لا يعترض على حمل إضافي. ففي كلّ الأحوال، سوف يسير سيره البطيء المؤلم. قدّم الفلّاح إليّ خبزًا وجبنة ماعز، فأكلنا ونحن نتجاذب أطراف الحديث. وعلى هذا الحال دخلت مدينة قونية بينما الشمس تتوهّج في سماء بلون النيلة، وتحت عيون أولياء المدينة الساهرين عليها.

قلت وأنا أقفز من فوق العربة وأجذب جوادي:

ـ اعتنِ بنفسك أيّها الصديق.

فما كان من الفلّاح إلّا أن صاح على نحو متوقّع:

ـ احرص على الحضور إلى الخطبة!

أومأت برأسي ولوّحت له مودّعًا:

ـ إن شاء الله.

على الرّغم من أنّني كنت توّاقًا للاستماع إلى خطبة الرومي وإلى لقائه، فقد أردت أن أنفق بعض الوقت في المدينة أوّلاً، وأن أعرف ما الذي يدور في أذهان سكّانها من أفكار وآراء عن الخطيب العظيم. لقد أردت أن أراه بعيون غريبة، حالمة وغير حالمة، رحيمة وغير رحيمة، قبل أن أنظر إليه بعينيّ شخصيًّا.

* * *

حسن الشحّاذ

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

صدّق أو لا تصدّق، فهم يسمّون هذا المطهر على الأرض «العذاب المقدّس». أنا أبرص منسيّ، لا الأموات ولا الأحياء يريدونني بينهم. الأمّهات يلفتون النظر إليّ في الشوارع لإثارة ذعر صغارهم المشاكسين، والأطفال يرمونني بالحجارة، والحرفيّون يطردونني من أمام واجهات دكاكينهم لإبعاد شبح الحظّ السيّئ الذي يقتفي أثري في كلّ مكان، والحوامل من النساء يشحن بوجوههنّ جانبًا كلّما وقعت عيونهنّ عليّ خشية أن يولد أطفالهنّ بعلامات فارقة مشوّهة. ولم يبدُ على أيّ من هؤلاء الناس أنّهم يدركون إذا كانوا توّاقين إلى تجنّب رؤيتي، فإنّني أكثر منهم توقًا إلى تجنّبهم هم ونظراتهم التي تدعو إلى الشفقة والرثاء.

الجلد هو الذي يتغيّر أوّلاً، فيصبح أشدّ سمكًا وسمرة. وتظهر البقع المختلفة الأحجام، بلون البيض الفاسد، على الكتفين والركبتين والذراعين والوجه. في هذه المرحلة، تفوح روائح كثيرة وتظهر حروق شديدة ولكنّ الألم، وعلى نحو ما يذوي ويتلاشى أو ربّما يُصاب صاحبه بالخدر فلا يحسّ به. ثم تبدأ هذه البقع بالاتّساع والتورّم لتتحوّل إلى انتفاخات قبيحة الشكل. وتتحوّل الأيدي إلى مخالب، ويتشوّه الوجه فيغدو بلا ملامح مميّزة. ولمّا بدأت أقترب الآن من المراحل النهائيّة، فإنّني لا أقوى على سبل جفنيّ بعد الآن. الدموع واللعاب تتدفّق دون إرادتي، وتساقطت ستّة

من أظافر يدي الاثنتين وثمّة ظفر سابع في طريقه إلى السقوط. لكنّ الغريب في هذا كلّه هو أنّ شعر رأسي ما زال كما هو، فلا بدّ أن أعتبر نفسي محظوظًا.

سمعت أنّ المُصابين بالبرص في أوروبا يُحجزون خارج أسوار المدينة، أمّا هنا فيسمحون لنا بالعيش في المدينة ما دمنا نحمل جرسًا لتحذير الناس من وجودنا. كما يُسمح لنا بالتسوّل، وهو أمر جيّد لأنّنا لولا ذلك لربّما تضوّرنا جوعًا. التسوّل هو أحد طريقين للبقاء على قيد الحياة. أمّا الطريق الآخر فهو الصلاة. ولا يعود السبب في ذلك إلى أنّ الله يولي اهتمامًا خاصًّا بالمصابين بالبرص بل لأنّ بعض الناس يؤمنون بهذا المعتقد لسبب مجهول. من هنا، فإنّ أهالي المدينة كانوا يحترموننا بقدر ما كانوا يحتقروننا. فكانوا مثلاً، يستأجروننا للصلاة والدعاء من أجل المرضى والمقعدين وكبار السنّ. يدفعون لنا مالاً وفيرًا، ويطعموننا طعامًا لذيذًا، مؤملين استنطاقنا ببعض الصلوات والأدعية الأخرى. وفي الشوارع، كان المصابون بالبرص يُعاملون معاملة أسوأ من الكلاب، ولكن في الأماكن التي يخيّم عليها الموت والمرض على نحو كبير، فإنّنا نحن السلاطين.

وكلّما استأجرني أحد للدعاء والصلاة، كنت أحني رأسي وأتفوّه ببعض الكلمات غير المفهومة باللغة العربيّة، متظاهرًا أنّني منهمك في الدعاء. كلّ ما يمكنني فعله هو التظاهر.

كنت شخصيًّا أجد في التسوّل سهولة أكبر وإن كان يدرّ مالاً أقلّ، فأنا في أقلّ تقدير لا أخدع أحدًا. الجمعة هو أفضل أيّام الأسبوع للتسوّل، إلّا إذا حلّ شهر رمضان لأنّ الربح وفير على امتداد الشهر كلّه. وآخر يوم من أيّام شهر رمضان، هو أفضل وقت للحصول على المال، إذ يتسابق حتى المقترون اليائسون للتبرّع بالصدقات، مؤملين التعويض بذلك عن كلّ خطاياهم وماضيهم وحاضرهم. ولا ينصرف الناس عن المتسوّلين مرّة واحدة في السنة، بل على العكس من ذلك، تجدهم يبحثون عن متسوّل واحد على وجه الخصوص، وكلّما ازداد بؤس ذلك المتسوّل كان أفضل. وترى حاجتهم ماسّة لإظهار مدى كرمهم وسخائهم، وهم لا يتسابقون في ذلك اليوم لإعطاء الصدقات فحسب، بل يمنحوننا الحبّ.

يمكن لهذا اليوم أن يكون مربحًا الربح كلّه ما دام الرومي سيُلقي واحدة من خطبه يوم الجمعة. المسجد كلّه مكتظّ بالمصلّين، والذين لا يستطيعون العثور على مكان في الداخل، يحتشدون في الفناء. ووقت العصر هو أفضل مناسبة للمستجدين والنشّالين، وهم مثلي، موجودون كلّهم في هذا المجال، ومنتشرون وسط الحشود.

جلستُ على الجانب الآخر من مدخل المسجد موليًا ظهري إلى شجرة قيقب. ثمّة رائحة مطر شديدة الرطوبة تشيع في الجوّ، ممتزجة بنكهة عذبة وخفيفة تنبعث من البساتين البعيدة. وضعت طاس التسوّل خاصّتي أمامي، ولَما كنت مُصابًا بالبرص لم أكن مضطرًّا إلى التشكّي والتبكّي ولا إلى الاستعطاف، وفبركة الحكايات والقصص عن مدى بؤسي وشقائي وسوء حالتي الصحّيّة. إنّ نظرة خاطفة من الناس إلى وجهي لها تأثير يعادل ألف كلمة. لهذا فإنّ كلّ ما فعلت هو أن أمطت اللثام عن وجهي واعتدلت في جلستي.

وبعد ساعة من الزمان، تجمّعت في الطاس بضع قطع من النقود المعدنيّة وكلّها أقراص من نحاس. وتاقت نفسي إلى قطعة نقد ذهبيّة عليها نقوش تمثّل الشمس والأسد والهلال. ومنذ أن خفّف علاء الدين كيقباذ من إجراءاته بخصوص العملة، أصبحت النقود التي تصدر عن بكوات حلب والخلفاء الفاطميّين في القاهرة، وخليفة بغداد، فضلاً على الفلورين الإيطالي، صالحة للتداول. وكان حكّام قونية يقبلون بها كلّها، مثلما كان يقبلها أيضًا متسوّلو البلدة.

تساقطت أوراق شجر جافّة في حضني كما كانت تتساقط قطع النقود المعدنيّة. وكانت شجرة القيقب تسقط أوراقها الذهبيّة المحمرّة، وعند هبوب ريح قويّة، وجدت بعض هذه الأوراق طريقها إلى الطاس كأنّ الشجرة تتصدّق عليّ. وعلى حين بغتة، أدركت أنّ ثمّة شيئًا مشتركًا بيني وبين الشجرة. فالشجرة التي ترمي بأوراقها في الخريف تشبه الرجل الأبرص الذي يرمي بأطرافه في المراحل الأخيرة من مرضه.

كنت شجرة عارية. جلدي وأعضائي ووجهي تتساقط كلّها. وفي كلّ يوم يمرّ، كان جزء آخر من بدني يتخلّى عنّي. وعلى العكس من الشجرة،

لن يكون لي ربيع أتفتّح فيه وأزهر. فما أفقده، إنّما أفقده إلى ما لا نهاية. وعندما كان الناس يرمونني بنظراتهم، لم يعرفوا هويّتي، بل عرفوا ما كنت أفتقد إليه. ومتى وضعوا قطعة نقد في الطاس، فإنّما كانوا يضعونها بسرعة مدهشة، متجنّبين لفت نظري كأنّ نظراتي معدية. كنت في رأيهم أسوأ من لصّ أو قاتل. وبقدر ما كانوا يستهجنون مثل هؤلاء الخارجين عن القانون، فإنّهم لم يعاملوهم وكأنّهم غير مرئيّين. ولكن عندما يخصّني الأمر، فإنّ كلّ ما كانوا يرونه فيّ هو الموت المتطلّع إليهم في وجوههم. هذا ما كنت أخشاه ـ أن أدرك أنّ الموت يمكن أن يكون قريبًا وقبيحًا إلى هذا الحدّ.

وعلى حين غرّة، تناهى إلى مسامعي صوت جلبة وضوضاء في المؤخّرة، كما طرق سمعي صوت أحدهم وهو يصيح:

ـ ها هو آت! ها هو آت!

كان هو الرومي على وجه التوكيد، ممتطيًا جوادًا أبيض كالحليب، مرتديًا قفطانًا أنيقًا كهرماني اللون، مزركشًا بأوراق شجر ذهبيّة اللون ومرصّعًا باللآلئ، منتصب القامة ذا كبرياء، حكيمًا ونبيلاً، ومن خلفه حشد من المعجبين. كان يثير من حوله الثقة بالنفس، ويفصح عن قوّة الشخصيّة، يبدو حاكمًا أكثر ممّا يبدو عالمًا ـ بل سلطان الريح والنار والماء والأرض. حتى جواده كان شامخًا، ثابت الجنان كأنّه يدرك أهمّيّة الرجل الذي يمتطي صهوته.

لملمت النقود ووضعتها في جيبي ولففت رأسي كاشفًا عن نصف وجهي، ودخلت المسجد. كان المسجد يحتشد بالناس حتى بات التنفّس مستحيلاً. ولم يكن ثمّة موطئ قدم. لكن فضيلة الأبرص تكمن في أنه دائمًا يجد مكانًا له لأنّ ما من أحد يرغب في الجلوس بجانبه بغض النظر عن ازدحام المكان.

قال الرومي بصوت يرتفع وينخفض:

ـ أيّها الإخوة! إنّ عظمة هذا المكان تجعلنا صغارًا، أبعد ما نكون عن المنطق. ولعلّ البعض منكم يسأل: «ما معنى وجودي المحدود جدًّا أمام الله؟» أعتقد بأنّ هذا السؤال مرّ بخاطر عدد كبير منكم بين حين وحين. وفي خطبة اليوم، سأحاول إيجاد بعض الأجوبة عن ذلك.

كان ابنا الرومي يجلسان في الصفّ الأمامي ـ الوسيم منهما هو سلطان ولد الذي قال الجميع إنّه شبيه المرحومة أمّه، والابن الأصغر علاء الدين صاحب الوجه المشرق والعينين المتلصّصتين على نحو فضولي. ولاحظت أنّ الابنين كانا يفتخران بأبيهما.

استرسل الرومي في خطبته:

ـ لقد أوتي أبناء آدم معرفة واسعة لا تستطيع الجبال أو السموات حملها. لهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾(*). ونظرًا لهذه المكانة المشرفة، فإنّه لا ينبغي لبني البشر التوجّه لغير ما أراد الله.

تكلّم الرومي متلفّظًا حروف العلّة على ذلك النحو الغريب الذي لا يتمكّن منه إلّا المتعلّمون، وتحدّث عن الله مؤكّدًا لنا أنّه ليس متربّعًا على عرش بعيد في السماء، بل هو قريب من كلّ واحد منّا. وأكّد أنّ المعاناة هي التي تقرّبنا أكثر من أي شيء آخر إلى الله.

ـ إنّ يدكم تنفتح وتنقبض طوال الوقت، ولولا ذلك، لأُصيبت بالشلل. إنّ حضور الإنسان الأقوى يكمن في كلّ انبساط وانقباض مهما ضؤل شأنه، ويتوازن هذان الشيئان توازنًا جميلاً كتوازن جناحي طير.

في البدء، راقني كلامه، وسرى الدفء في قلبي عندما فكّرت في البهجة والحزن بوصف أحدهما يعتمد على الآخر مثل جناحي طير. ولكن في الوقت نفسه، شعرت بموجة من الامتعاض، إذ ما الذي يعرفه الرومي عن المعاناة؟ فقد كانت الحياة كريمة معه وهو ابن رجل بارز ووريث أسرة معروفة وغنيّة. أعرف أنّه فقد زوجته الأولى، ولكنّي لم أصدّق أنّه صادف أيّة مصيبة في حياته. فقد ولد وفي فمه ملعقة من فضّة وتربّى في أوساط مميّزة، وتلقّى علومه على أيدي أفضل العلماء، وكان دومًا محبوبًا ومدلّلاً ومحطّ الإعجاب ـ كيف يمكنه الحديث عن المعاناة؟

أدركت بقلب منهار أنّ المقارنة بين الرومي وبيني لا يمكن أن تكون

(*) سورة الأحزاب (٣٣: ٧٢). (المترجم).

أكبر ممّا هي عليه. لقد أعطاني الله الفقر والمرض والشقاء، ووهب الرومي الثراء والنجاح والحكمة، كما أنّ الرومي، بما يملكه من شهرة لا تشوبها شائبة، وسلوك يليق بالملوك، قلّما ينتمي إلى هذا العالم، في الأقلّ داخل هذه المدينة. فأنا يتعيّن عليّ أن أغطّي وجهي إذا لم أرغب في نفور الناس عند رؤيتهم إيّاه في حين يتألّق الرومي أمام الناس مثل جوهرة ثمينة. وفكّرت في نفسي:

كيف سيكون حاله لو حلّ محلّي؟ هل فكّر يومًا ما أنّ في وسع إنسان كامل ومميّز مثله أن يتعثّر ويسقط؟ هل فكّر يومًا ما كيف سيكون شعوره إذا ما كان منبوذًا حتى ليوم واحد لا غير؟ هل تراه سيظلّ ذلك الرومي العظيم لو كانت حياته مثل حياتي؟

ازداد امتعاضي عند كلّ سؤال، مكتسحًا بذلك كلّ ذرّة إعجاب كان من شأني أن أكنّها له لولا ذلك. نهضت واقفًا، متذمّرًا ومتألّمًا وشققت طريقي إلى الخارج. حملق فيّ بعض الناس الحاضرين، متسائلين عن السبب الذي يجعلني أترك الخطبة التي كان عدد كبير من الناس على استعداد للموت من أجل الاستماع إليها.

* * *

شمس

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

وجدت لي ولجوادي مكانًا نمكث فيه بعد أن شكرت للفلّاح إيصاله إيّاي إلى وسط البلدة. وبدا لي خان باعة السكّر الجوّالين هو المكان الذي أحتاج إليه تمامًا. فبعد أن أطلعوني على الحجرات الأربع، اخترت الحجرة التي تحتوي على أقلّ ما يمكن من الأثاث، وكانت تضمّ حصيرة للنوم وبطّانيّة تنبعث منها عفونة، ومصباحًا زيتيًّا يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقطعة آجر جفّفت تحت أشعّة الشمس وتستخدم وسادة، فضلاً عن المشهد الرائع للبلدة حتى سفوح التلال المحيطة بها.

وبعد أن استقرّ بي المقام، تجوّلت في الشوارع، مندهشًا لذلك الخليط من الأديان والعادات واللغات التي تخترق الأجواء. وصادفت في طريقي عازفي موسيقى من الغجر ومسافرين عربًا، وحجّاجًا نصارى، وتجّارًا يهودًا، وكهنة بوذيّين، وطبقة من شعراء الفرنجة الجوّالين، وفنّانين فرسًا وبهلوانيّين صينيّين، وحواة أفاعٍ من الهنود، ومشعوذين وزرادشتيّين وفلاسفة إغريقًا. وشاهدت في سوقَ العبيد محظيّات من ذوات البشرة البيضاء كالحليب، ومخصيّين جبّارين من ذوي البشرة السوداء شاهدوا من البشاعة والفظاعة ما جعلهم يفقدون القدرة على الكلام. وصادفت في السوق حلّاقين جوّالين يحملون أدوات تريق الدماء، وعرّافين من ذوي الكرات البلّوريّة، وسحرة يبتلعون النار. ورأيت حجّاجًا في طريقهم إلى

القدس، ومتشرّدين أحسبهم جنودًا هاربين في آخر الحملات الصليبيّة. وطرق سمعي أُناس يتكلّمون باللغات البندقيّة والفرنجيّة والساكسونيّة واليونانيّة والفارسيّة والتركيّة والكرديّة والأرمنيّة والعبريّة وعدد آخر من اللهجات التي لم أتمكّن من معرفتها. وعلى الرّغم من اختلاف هؤلاء الناس اختلافًا واضحًا على ما يبدو، فقد كانوا يوحون بقدر من عدم الاكتمال كأنّ كلّ واحد منهم في طور الصيرورة، عملاً نموذجيًا لم ينجز بعد.

كانت البلدة عبارة عن برج بابل، كلّ ما فيها يتحوّل ويتبدّل ويتغيّر ويُفصل ويظهر إلى النور ويرشح وينمو ويتحلّل ويتفسّخ ويموت. وقفت وسط هذه الفوضى في مكان يسوده صمت وهدوء ولامبالاة إزاء العالم ولكنّي شعرت في الوقت نفسه بحبّ غامر تجاه كلّ الناس الذين يكافحون ويتعذّبون فيه. وبينما كنت أرقب الناس من حولي، تذكّرت قاعدة ذهبيّة أخرى: (سهل جدًّا أن يحبّ الإنسان الله الكامل الذي لا تشوبه شائبة والذي لا يخطئ. لكنّ الأصعب من هذا كثيرًا هو أن يحبّ الإنسان إخوانه من بني البشر بكلّ ما فيهم من نقائض وعيوب. تذكّر أنّ الإنسان لا يمكنه أن يعرف إلّا ما يقدر على حبّه، فما من حكمة بلا حبّ، وما لم نعرف كيف نحبّ مخلوقات الله، فإنّنا لا نستطيع أن نحبّ الله حبًّا صادقًا أو نعرفه معرفه حقيقيّة).

تجوّلت في الأزقّة الضيّقة حيث يشتغل في جدّ الحرفيّون وأصحاب المهن من كلّ الأعمار في دكاكينهم الصغيرة، القابضة للصدور. وفي كلّ مكان زرته، ترامى إلى أذني حديث سكّان البلدة عن الرومي. وفكّرت في نفسي: كيف يكون شعور المرء إذا كان بمثل هذه الشهرة؟ وكيف تؤثّر هذه الشهرة على نفسيّته؟ انشغل بالي بهذه الأسئلة وأنا أتجوّل في الاتّجاه المعاكس للمسجد الذي كان الرومي يلقي خطبته فيه. وبدأت البيئة تتغيّر رويدًا رويدًا. ففي سيري نحو الجزء الشمالي من البلدة، بدت البيوت آيلة للسقوط أكثر من غيرها، وأسوار البساتين متداعية، والأطفال أشدّ خشونة وجموحًا، لا ينصاعون لنظام. وتغيّرت الروائح أيضًا فباتت ثقيلة الوطأة عابقة بالثوم والتوابل. وفي نهاية المطاف وصلت شارعًا تشيع في هوائه

ثلاث روائح: العرق والعطور والشهوة. لقد وصلت الجانب العابس والأسوأ من البلدة.

ثمّة منزل متداعٍ وآيل للسقوط في أعلى الشارع المنحدر والمرصوف بالحصى، جدرانه تدّعمها أوتاد من الخيزران، وسقفه مصنوع من سيقان القشّ. وثمّة مجموعة من النساء افترشن الأرض أمام البيت يتجاذبن أطراف الحديث. ولمّا شاهدنني أقترب، ألقين عليّ نظرة فضوليّة تنمّ عن قدر من السرور. وإلى جانب النسوة، بستان فيه ورود من كلّ صنف ولون وعبق يمكن تخيّله. وفكّرت في نفسي: من يهتمّ بهذه الزهور يا ترى؟

لم أنتظر طويلاً لمعرفة الجواب، إذ ما إن وصلت البستان حتى فتح باب المنزل الأمامي على مصراعيه واندفعت امرأة إلى الخارج. كانت عظيمة اللغد، فارعة وبدينة إلى حدّ لا يوصف. ولمّا نظرت شزرًا إليّ، ضاعت عيناها في كرات من اللحم. كانت ذات شوارب خفيفة سوداء اللون وسوالف جانبيّة كثيفة. استغرقت برهة وجيزة كي أدرك أنّها رجل وامراة في آن واحد.

سألتني بصوت رجولي ينمّ عن ريبة:

ـ ماذا تريد؟

كان وجهها في حالة تقلّب مستمرّ: ففي لحظة من اللحظات يبدو أشبه بوجه امرأة، وفي اللحظة التالية يعود إلى سحنته السابقة ويغدو وجه رجل.

قدّمتُ نفسي إليها وسألتها عن اسمها ولكنّها تجاهلت سؤالي.

ثم قالت وهي تلوّح بيدها كأنّني ذبابة تريد مطاردتها:

ـ هذا ليس مكانك.

ـ ولِمَ لا؟

ـ ألا ترى أنّ هذا المكان مبغى؟ ألم تحلفوا الإيمان أيّها الدراويش بالابتعاد عن كلّ شهوة؟ الناس يظنّونني أتمرّغ في الرذيلة في هذا المكان ولكنّي أتصدّق على الفقراء وأغلق أبوابي في شهر رمضان. وها أنا الآن أنقذك. ابقَ بعيدًا عن هذا المكان، فهو أقذر بقعة في هذه البلدة.

اعترضت قائلاً:

ـ القذارة في أعماق النفوس وليس في خارجها. هكذا تقول القاعدة.

نعقت كالبوم قائلة:

ـ ما الذي تقوله؟

حاولت أن أشرح لها أنّها واحدة من القواعد الأربعين: (القذارة الحقيقيّة تكمن في الداخل، أمّا ما تبقّى منها فيغسل ويزول. ثمّة نمط واحد من القذارة الذي لا يمكن غسله بالمياه النقيّة وهو الكراهية والتخندق اللذان يلوّثان النفس. في إمكانك تنظيف جسدك بالتقشّف والصوم ولكنّ الحبّ وحده هو الذي ينقّي القلب).

لم تفهم شيئًا ممّا قلت.

ـ أنتم الدراويش مجانين. عندي كلّ أنواع الزبائن في هذا المكان. ولكن هل من درويش؟ نعم؟ عندما تنمو اللحى للضفادع! لو تركتك تتسكّع هنا، فسوف يقوّض الله هذا المكان من أساسه ويصبّ علينا لعناته لأنّنا أغوينا رجل دين.

لم أستطع منع نفسي من الضحك ضحكة خافتة:

ـ من أين لك هذه الأفكار الساذجة؟ أتظنّين الله كالأب الغاضب المزاجي الطبع فيراقبنا من أعالي السموات فيلقي بالحجارة والضفادع على رؤوسنا في اللحظة التي نخطئ فيها؟

جذبت صاحبة المبغى طرفي شاربها الرقيقين ورمتني بنظرة تكاد تكون خسيسة ودنيئة.

قلت لها مطمئنًا:

ـ لا تشغلي بالك. لم أحضر إلى هذا المكان لزيارة مبغاك، بل أنظر بإعجاب إلى بستان زهورك.

هزّت كتفيها صارفة النظر عن فكرتي:

ـ آه! هذا ما صنعته إحدى فتياتي واسمها زهرة الصحراء.

وبعد أن تفوّهت صاحبة المبغى بهذه العبارة، أشارت إلى فتاة شابّة تجلس وسط الغانيات على مسافة قريبة أمامنا. كانت رقيقة الذقن، بهيّة البشرة كاللؤلؤ، لوزيّة العينين، يغشاهما القلق وانشغال البال. كانت جميلة

على نحو يخلع الفؤاد. وبينما كنت أرنو إليها بعينيّ، راودني الإحساس بأنّها تمرّ بعمليّة تحوّل كبير.

خفضت من صوتي حتى كاد يتحوّل إلى همس كي لا يسمعني أحد سوى صاحبة المبغى.

ـ تلك الفتاة طيّبة، وسرعان ما ستبدأ رحلة روحيّة بحثًا عن الله وتتخلّى عن هذا المكان إلى غير رجعة. وعندما يأتي ذلك اليوم، لا تحاولي منعها.

سرحت ببصرها إليّ، حائرة، ذاهلة، قبل أن تنفجر صائحة:

ـ ما الذي تتحدّث عنه بحقّ الجحيم. لا أحد يملي عليّ ما أفعله بفتياتي. الأفضل لك أن تخرج من هنا وإلّا استدعيت جاكال هيد.

سألت:

ـ من هو؟

قالت وهي تهزّ إصبعها مؤكّدة ما قالته:

ـ صدّقني، ما أنت راغب في ذلك.

عندما سمعت اسم هذا الشخص الغريب ارتعدت فرائصي، ولكنّي لم أعوّل كثيرًا على ما قالته.

قلت لها:

ـ على أيّة حال، سأغادر المكان ولكنّي سأرجع ثانية، فلا تستبدّ بك الدهشة إذا ما شاهدتني في الجوار في المرّة القادمة، فأنا لست من أولئك المتّقين الذين ينفقون جلّ حياتهم محدوبي الظهر من فوق سجّادة الصلاة في حين تبقى عيونهم وقلوبهم مغمضة لا ترى شيئًا من العالم الخارجي، فهؤلاء يقرأون القرآن قراءة سطحيّة، أمّا أنا فأقرأه في الزهور اليانعة والطيور المهاجرة، وأقرأ الأسرار التي يسّر القرآن بها لبني البشر.

ضحكت صاحبة المبغى ضحكة فاترة.

ـ أتعني أنّك تقرأ ما يدور في أذهان الناس؟ أيّ هراء هذا؟

ـ كلّ إنسان كتاب مفتوح. كلّ واحد منّا قرآن متنقّل. والبحث عن الله راسخ ومتأصّل في قلوب الناس أجمعين، الغانيات والأولياء على حدّ

سواء. الحبّ يحيا في كلّ واحد منّا لحظة ولادتنا وينتظر منّا أن نكتشفه بعد ذلك. هذا ما تصرّح به إحدى القواعد الأربعين: (الكون كلّه يحتويه إنسان واحد هو أنت. كلّ ما تشاهدين من حولك بما فيه الأشياء التي قد لا تعجبك، وكذلك الناس الذين قد يثيرون اشمئزازك ونفورك، موجود داخلك بدرجات متفاوتة. لهذا السبب، لا تنظري إلى الشيطان خارج نفسك أيضًا، فالشيطان ليس قوّة جبّارة تهاجم من الخارج، بل هو صوت اعتيادي من الداخل. وإذا عرفت نفسك معرفة تامّة، وواجهت بالنزاهة والمشقّة جوانبك المظلمة والمشرقة، فسوف تصلين إلى شكل سامٍ من أشكال الوعي. وعندما يعرف الإنسان نفسه، أو نفسها، فسوف يعرفً، أو تعرف، الله).

عقدت المرأة يديها على صدرها وانحنت إلى أمام ورمتني بنظرة خبيثة وقالت:

ـ درويش يعظ غانية. أحذّرك، فأنا لن أسمح لك بمضايقتي بعد الآن أكثر من هذه المضايقة بأفكارك السخيفة. يستحسن بك الابتعاد عن مبغاي لأنّك إن لم تبتعد فإنّني أقسم بالله أن يقطع جاكال هيد لسانك، وسوف آكله بمتعة وسرور.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٢٨ أيّار ٢٠٠٨

استيقظت إيلّا من نومها حزينة حزنًا يلائم مزاجها العامّ. غير أنّ حزنها لم يكن من ذلك النوع الذي يدفع إلى البكاء أو يبعث على الإحساس بالشقاء، بل يجعلها غير راغبة في الابتسام أو النظر إلى الأمور من دون اكتراث أو اهتمام. شعرت إيلّا كأنّها وصلت نقطة تحوّل غير مستعدّة لها. وفيما كانت تجهّز القهوة في المطبخ، جذبت قائمة قراراتها من أحد الأدراج ونظرت إليها متأمّلة.

عشرة أشياء ينبغي إنجازها قبل بلوغ سنّ الأربعين

١ ـ تطوير ضبط الوقت، وحسن التنظيم والحزم في الاستفادة من كلّ الوقت. اشتري المخطّط الجديد. (منجز).

٢ ـ إضافة ملحقات معدنيّة ومضادّات أكسدة للحمية. (منجز).

٣ ـ اتّخاذ إجراءات للتقليل من التجاعيد. جرّبي مستحضرات ألفا هايدروكسي، وابدئي باستعمال مسحوق لوريال الجديد (منجز).

٤ ـ تغيير تنجيد الأثاث، وشراء نباتات جديدة وآرائك جديدة. (منجز).

٥ ـ تقييم أمور حياتك وقيمك ومعتقداتك. (نصف منجز).

٦ ـ إلغاء اللحوم من حميتك، جهّزي قائمة طعام صحّيّة كلّ أسبوع وابدئي بمنح جسدك الاحترام الذي يستحقّ. (نصف منجز).

٧ ـ ابدئي بقراءة قصائد الرومي (منجز).

٨ ـ اصطحبي الأولاد إلى حفل موسيقي في برودواي (منجز).

٩ ـ ابدئي بتأليف كتاب عن الطبخ. (غير منجز).

١٠ ـ افتحي قلبك للحبّ!!

وقفت إيلّا ساكنة، دون حراك، ثابتة العينين على المادّة العاشرة من قائمتها، لا تعرف إن كانت تريد وضع علاقة أمامها أم لا. ولم تعرف حتى ما الذي كانت تعنيه بالعبارة عندما دوّنتها. ما الذي كانت تفكّر فيه؟ وتمتمت في نفسها: «لا بدّ أنّه تأثير مخطوطة الرواية التي لا أزال أقرأها». ووجدت نفسها في الأيّام الأخيرة تفكّر في الحبّ بين حين وحين.

* * *

عزيزي عزيز:

اليوم هو يوم مولدي! أشعر أنّني وصلت مرحلة مهمّة في حياتي. يُقال إنّ بلوغ الأربعين محطّة مهمّة وبخاصّة في حياة النساء. ويُقال أيضًا إنّ الأربعين هي سنّ الثلاثين الجديدة (وأنّ الستّين هي الأربعين الجديدة)، ولكن يبدو لي أنّ هذا كلّه أمر يصعب تصوّره وإن كنت أرغب بتصديقه بالقدر نفسه. أعني، على من نضحك؟ الأربعون هي أربعون! أعتقد أنّني سأحصل الآن على كمّيّة إضافيّة من كلّ شيء: معرفة إضافيّة، وحكمة إضافيّة، وتجاعيد إضافيّة، وشعر أشيب إضافي.

أعياد مولدي تجعلني دائمًا سعيدة ولكنّي نهضت في هذا الصباح منقبضة الصدر، أوجّه أسئلة كبيرة عليّ وأنا التي لم أشرب بعد فنجان قهوتي الصباحي. ظللت أفكّر في نفسي: هل أسلوب الحياة التي عشتها هو الأسلوب الذي أريد أن أستمرّ فيه من الآن فصاعدًا؟

ثم غمرني إحساس مرعب: ما الذي يمكن أن تولّده كلمة «نعم» أو كلمة «لا» من عواقب وخيمة بالقدر نفسه؟ وهكذا عثرت على إجابة أخرى: ربّما.

أمنياتي الحارّة

إيلّا

ملاحظة:

أعتذر لأنّني لم أتمكّن من كتابة رسالة أكثر مدعاة للبهجة. لا أعرف سبب كدري وضيقي في هذا اليوم. لا يمكنني أن أقدّم لك سببًا. (بمعنى سبب آخر غير بلوغ سنّ الأربعين. أعتقد أنّ هذا ما يطلق عليه أزمة منتصف العمر).

* * *

عزيزتي إيلّا،

عيد ميلاد سعيد! سنّ الأربعين هي الأجمل للرجال والنساء على حدّ سواء. أتدرين أنّ سنّ الأربعين ترمز في الفكر الصوفي إلى الارتقاء من مرحلة إلى أخرى أعلى منها درجة، فضلاً عن اليقظة الروحيّة؟ عندما نحزن حدادًا فإنّ الحزن يستمرّ أربعين يومًا، وعندما يولد الطفل، فإنّه بحاجة إلى أربعين يومًا لكي يكون جاهزًا للبدء بالحياة على وجه الأرض. وعندما نحبّ، نحتاج إلى الانتظار أربعين يومًا كي نتأكّد من مشاعرنا.

كما استمرّ طوفان نوح أربعين يومًا، وفي الوقت الذي دُمّرت فيه المياه الحياة فإنّها غسلت كلّ ذنوبنا وساعدت الجنس البشري على البدء بداية جديدة. وفي التصوّف الإسلامي، ثمّة أربعون درجة بين الإنسان والله. كذلك، ثمّة أربع مراحل أساسيّة من الوعي، وفي كلّ مرحلة عشر درجات، فيصبح المجموع أربعين. وخرج يسوع إلى البرِّيّة وظلّ فيها أربعون نهارًا وليلة. أمّا محمّد فقد بلغ الأربعين عندما جاءه الوحي ليصبح نبيًّا. واستغرق بوذا في تأمّلاته من تحت شجرة زيزفون أربعون يومًا، وزيادة على ذلك، ثمّة أربعون قاعدة وضعها شمس.

مهمّة جديدة أمامك وأنت في الأربعين، فرصة تمنح حياة جديدة! لقد بلغت أكثر الأرقام المبشّرة بالخير. تهانيّ! ولا تشغلي بالك بتقدّم السنّ، فما من تجاعيد ولا من شعر أشيب لهما من القوّة ما يمكّنهما من تحدّي قوّة الأربعين!

احرّ الأمنيات

عزيز

* * *

الغانية زهرة الصحراء

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

وُجدتْ بيوت الدعارة منذ قديم الزمان، وكذلك النساء مثيلاتي، لكن شيئًا واحدًا يحيّرني: ما السبب الذي يدفع الناس إلى جعل حياة مومس عسيرة إذا ما رغبت في التوبة، والبدء في حياتها من جديد، على الرّغم من أنّ هؤلاء الناس أنفسهم يقولون إنّهم يكرهون رؤية مومس؟ يبدو الأمر وكأنّهم يقولون لنا إنّهم متأسّفون بسبب سقوطنا إلى هذا الدرك الأسفل، ولكن ما دمنا الآن في هذا المكان، فإنّ علينا البقاء فيه إلى الأبد. إنّني لا أعرف سببًا لهذا ولكن كلّ ما أعرفه هو أنّ بعض الناس يقتاتون على شقاء الآخرين وتعاستهم ولا تروقهم مشاهدة وجه الأرض وقد نقص شخص تَعِس واحد. لكن بغض النظر عمّا يقولون أو يفعلون فإنّني سوف أخرج من هذا المكان يومًا ما.

نهضت من نومي في هذا الصباح والرغبة تشتعل فيّ من أجل الاستماع إلى خطبة الرومي العظيم. ولو أخبرت صاحبة المبغى بالحقيقة وطلبت منها أن تأذن لي بالذهاب لسخرت منّي قائلة: «منذ متى والعاهرات يذهبن إلى المساجد؟» ولضحكت ضحكة مدوّية ينقلب فيها لون وجهها المستدير إلى اللون القرمزي.

لهذا السبب كذبت. فبعد أن رحل ذلك الدرويش الأمرد، لاحت صاحبة المبغى وقد بدا عليها أنّ فكرة ما تختلج في صدرها اختلاجًا دفعني

إلى الإحساس أنّ الوقت ملائم الآن للذهاب والحديث إليها.

وكان الاجتماع بها أو الحديث إليها أسهل بكثير على الدوام عندما تكون شاردة الذهن. وأخبرتها أنّني مضطرّة إلى الذهاب إلى السوق لقضاء بعض الأشغال، فصدّقتني. بعد تسعة أعوام من العمل كالكلاب من أجل منفعتها.

قالت:

ـ شريطة أن يصحبك سمسم.

لم يكن شرطها مشكلة، إذ كان سمسم يروقني، وهو رجل ضخم الجثّة، عظيم البنيان، طفولي التفكير، ويُعتمد عليه إلى أبعد الحدود. أمّا كيف بقي في قيد الحياة في مثل هذا العالم القاسي فذلك سرّ من الأسرار لم أعرف كنهه. ولم يكن أحد يعرف اسمه الحقيقي، وربّما لم يعرفه هو نفسه، وقد أطلقنا عليه ذلك الاسم بسبب ولعه بحلاوة السمسم. وإذا ما رغبت إحدى الغانيات في الخروج من المبغى، كان سمسم يرافقها مثل ظلّ صامت، وكان أفضل حارس يمكن أن أتمنّاه.

سلكت أنا وهو الطريق الترابي الملتفّ من حول البستان ولدى وصولنا أوّل تقاطع، طلبت من سمسم أن ينتظرني، فتواريت من خلف شجرة كنت قد أخفيت فيها صرّة مملوءة بثياب الرجال.

وجدت صعوبة أكبر ممّا تصوّرت في ارتداء ثياب رجل. فقد اضطررت إلى لفّ وشاحات طويلة من حلّ نهديّ كي ينبسط صدري. ثم ارتديت سروالاً فضفاضًا، وقميصًا قطنيًا، وجبّة طويلة مائلة إلى السواد، واعتمرت عمامة. وأخيرًا غطّيت نصف وجهي بوشاح مؤملة أن أبدو مثل مسافر عربي.

ولمّا رجعت متّجهة نحو سمسم، بدا عليه الذهول وجفل. قلت له:

ـ لنذهب!

ولمّا رأيته ساكنًا لا يتحرّك من مكانه، كشفت له عن وجهي، وقلت:

ـ ألم تستدلّ عليّ يا عزيزي؟

هتف سمسم دهشًا، واضعًا يده على فمه كأنّه طفل مذعور:

ـ زهرة الصحراء! أهذه أنت؟ ما سبب لبسك لهذه الثياب.

ـ أفي وسعك أن تكتم سرًّا؟

أومأ سمسم برأسه، واتّسعت عيناه في حماسة.

همست:

ـ لا بأس، سوف نذهب إلى المسجد ولكن لا تخبر صاحبة المبغى.

ارتجفت شفة سمسم السفلى.

ـ لا، لا. سنذهب إلى السوق.

ـ نعم يا عزيزي. سنذهب بعد ذلك. في البدء سنستمع إلى الرومي العظيم.

انتاب سمسم الذعر إلى حدّ ما، وهو ما كنت أتوقّعه. فقد كان تغيير الخطّة مقلقًا له. والتمست قائلة:

ـ أرجوك! هذا يعني شيئًا كبيرًا لي. فإذا وافقت وتعهّدت لي بألّا تخبر أحدًا بذلك، فسوف أشتري لك قطعة كبيرة من الحلاوة.

عبّر سمسم عن فرحته قائلاً:

ـ حلاوة!

كأنّ الكلمة وحدها تركت مذاقًا لذيذًا في فمه.

وهكذا انطلقت أنا وهو إلى المسجد حيث كان الرومي يوشك أن يلقي خطبته، في ترقّب لطيف.

* * *

ولدت في قرية صغيرة على مقربة من مدينة نيقيا. وكانت أمّي تخاطبني على الدوام قائلة: «لقد ولدت في المكان المناسب ولكنّي أعتقد أنّ نجمك غير مناسب». كانت الأوقات عصيبة، يصعب توقّعها، إذ لم يبق شيء على حاله بمرور السنين. ففي البدء، سرت شائعات مفادها أنّ الصليبيّين قادمون من جديد. وطرقت سمعنا قصص رهيبة عن الفضائع التي ارتكبوها في القسطنطينيّة، حيث نهبوا البيوت، وحطّموا الرموز الدينيّة في الكنائس والأبرشيّات. ثم تناهى إلى سمعنا هجوم السلاجقة. وقبل أن تتلاشى حكايات الأهوال التي نفّذها الجيش السلجوقي، بدأت هجمات

المغول المتوحّشين الذين لا يعرفون الرحمة أو الشفقة. لقد كان اسم العدوّ ووجهه يتغيّران ويتبدّلان ولكنّ الخوف من الموت على أيدي الأجانب ظلّ ثابتًا بثبوت الثلج على جبل إيدا.

كان والداي خبّازين ومن المسيحيّين الطيّبين، وكانت رائحة الخبز وهو يخرج من الفرن إحدى أولى ذكرياتي. لم نكن أثرياء، وقد عرفت بذلك حتى وأنا طفلة صغيرة. لكنّنا لم نكن فقراء أيضًا، إذ كنت أبصر النظرة الطويلة في عيون الفقراء عندما يأتون إلى الفرن متوسّلين أن نعطيهم فتات الخبز. وقبل أن أخلد إلى النوم في كلّ ليلة كنت أشكر للربّ لأنّني لم أستسلم للنوم وأنا جائعة. أحسست أنّني كنت أكلّم صديقة. كان الله صديقي في تلك الأيّام.

ولمّا كنت في سنّ السابعة، حملت أمّي، وعندما أتذكّر الآن تلك الأيّام، أظنّ أنّها تعرّضت إلى إسقاط حملها مرّات ومرّات قبل أن تحمل ولكنّني لم أفقه شيئًا من تلك الأمور. كنت غاية في البراءة، إذا ما سألني أحدهم عن كيفيّة خلق الأطفال، لقلت إنّ الله يعجنهم من عجينة رقيقة ناعمة.

لكن لا بدّ أنّ طفل الخبز الذي عجنه الله لأمّي كان هائلاً في حجمه لأنّ بطنها انتفخ وكبر بعد مرور وقت قصير. وأصبحت أمّي ضخمة الجثّة لا تكاد تقوى على الحركة، وقالت القابلة إنّ جسدها يحتبس الماء، غير أنّ هذا الكلام لم يكن سيّئ التأثير فيّ.

لكنّ الأمر الذي لم تعرفه أمّي أو القابلة هو أنّ أمّي لم تكن حبلى بطفل واحد بل بثلاثة أطفال. وكانوا كلّهم ذكورًا، وقد خاض إخوتي حربًا داخل جسد أمّي، وعمد أحد التوائم الثلاثة إلى خنق شقيقه بحبله السرّي، لكنّ الطفل الميت سدّ طريق الخروج من بطن أمّي كأنّه يسعى إلى الانتقام، وبهذا حال دون خروج شقيقه إلى العالم، وظلّت أمّي أربعة أيّام في مخاض، وكنّا نصغي ليل نهار لصراخها إلى أن توقف نهائيًّا.

فقد عجزت القابلة عن إنقاذ أمّي ولهذا عمدت إلى بذل قصارى جهدها لإنقاذ أشقّائي، فأمسكت بمقصّ وشقّت به بطن أمّي، لكنْ طفل واحد ظلّ في قيد الحياة في نهاية المطاف. وهكذا ولد شقيقي، ولم

يسامحه أبي، ولم يحضر مراسم عمادته.

بعد أن رحلت أمّي عن هذا العالم، وبات أبي رجل مكتئبًا، معذّبًا، لم تعد الحياة كما كانت عليه في ماضي الزمان. وتدهورت الأوضاع في المخبز تدهورًا سريعًا، فقدنا زبائننا، وخشيت أن يضربنا الفقر فنضطر إلى التسوّل يومًا ما، لهذا بدأت أخفي أرغفة الخبز تحت سريري حيث تصبح يابسة وقديمة. لكن شقيقي هو الذي تألّم حقًّا. فقد حظيت أنا بالحبّ وكان هناك من يرعاني ويهتمّ بي في الأيّام الغابرة. أمّا هو، فلم يحظَ بشيء من هذا. وانفطر قلبي وأنا أراه معرّضًا لمعاملة سيّئة، ولكن على الرّغم من ذلك، كنت أشعر بالارتياح إلى حدّ ما، بل وممتنّة لأنّني لم أكن أنا هدف ثورة أبي وهيجانه. تمنّيت لو في وسعي حماية أخي، وفي تلك الحالة، كان من شأن الأمور أن تبدو مختلفة، وما كان من شأني أن ينتهي بي المطاف اليوم إلى مبغى في بلدة قونية. يا لغرابة الحياة!

وتزوّج أبي بعد مرور سنة واحدة. الفارق الوحيد في حياة شقيقي هو أبي وزوجته الجديدة إذ راحا يعاملانه معاملة سيّئة بعد أن كان أبي وحده هو الذي يعامله مثل تلك المعاملة. فبدأ يهرب من البيت ولا يعود إليه إلّا وقد اكتسب عادات أسوأ وأصدقاء يسلكون طريق الرذيلة. وفي يوم من الأيّام، ضربه والدي ضربًا مبرّحًا حتى كاد أن يقتله. فتغيّر الغلام بعد ذلك، ولاحت في عينيه نظرة قاسية تنمّ عن لامبالاة، لم تكن فيهما من قبل، فعرفت أنّه عقد العزم على أمر ما، ولكن لم يخطر ببالي أنّه كان يرسم خطّة رهيبة، وتمنّيت لو كنت أقدر على الحيلولة دون وقوع المأساة.

في صباح يوم من أيّام فصل الربيع، عثرنا على أبي وزوجته وقد فارقا الحياة، قُتلا بسمّ الجرذان. وما إن ذاع خبر الحادثة، حتى حامت الظنون من حول شقيقي. وعندما بدأ الحرّاس يوجّهون الأسئلة، أطلق ساقيه للريح مذعورًا، ولم أشاهده ثانية، وهكذا أصبحت وحيدة في هذا العالم. ولمّا وجدت نفسي عاجزة عن البقاء وحيدة في المنزل حيث ما زلت أشمّ رائحة أمّي، وأعجز عن العمل في الخبز حيث كانت الذكريات المزعجة تحوم في الجوّ، قرّرت الذهاب إلى القسطنطينيّة لأعيش رفقة خالتي العانس التي أضحت يومئذ أقرب أقربائي. كنت في الثالثة عشرة.

ركبت عربة متوجّهة إلى القسطنطينيّة، وكنت أصغر الركّاب سنًّا على ظهرها، والوحيدة المسافرة وحدها. وبعد مرور بضع ساعات من السفر، أوقفتنا عصابة من اللصوص، وسلبوا منّا كلّ شيء: الحقائب والثياب والأحذية الثقيلة والأحزمة والمجوهرات، ولم تسلم حتى نقانق السائق من السرقة. ولَما لم يكن لديّ ما أملكه لأمنحه لهم، فقد تنحّيت جانبًا في هدوء وأنا واثقة من أنّهم لن يلحقوا بي أيّ أذى. ولكن عندما تأهّب اللصوص للرحيل، التفت إليّ زعيم العصابة وسألني:

ـ أأنت عذراء أيّتها اللذيذة؟

تورّد وجهي ورفضت الإجابة عن مثل هذا السؤال غير اللائق، ولم أعرف أنّ احمرار وجهي هو الإجابة التي كان يريدها.

وهنا هتف زعيم العصابة:

ـ لنذهب! خذوا الجياد والفتاة.

وبينما كنت أقاومهم بدموعي، لم يحاول أحد من بقيّة المسافرين نجدتي. فأخذني اللصوص إلى غابة كثيفة الأشجار لأجد، لدهشتي، أنّهم قد شيّدوا قرية بأكملها في ذلك المكان. شاهدت نساءً وأطفالاً. وكان البطّ والماعز والخنازير في كلّ مكان. وبدت القرية شاعريّة، تملأ النفس رضى وراحة لولا أنّها كانت مأوى المجرمين.

وأدركت من فوري السبب الذي حدا زعيم العصابة على أن يسألني إن كنت عذراء. فشيخ القرية كان قد دهمه مرض شديد ويعاني حمّى عصبيّة، وبات طريح الفراش منذ مدّة طويلة، وانتشرت البقع الحمر على جميع أجزاء جسده. ولم تفلح في علاجه وشفائه أيّة أدوية على كثرتها. وفي الأيّام الأخيرة، أقنعه أحد الأشخاص بأنّه إذا أتى إحدى العذارى، فإنّ مرضه سينتقل إليها، وعندئذ سيبرأ من مرضه.

ثمّة أشياء في حياتي لا أرغب في تذكّرها، ومنها الوقت الذي أنفقته في القرية. وكلّما مرّت القرية في مخيّلتي، أتذكّر حتى يومنا هذا أشجار الصنوبر، ولا شيء آخر غيرها، لأنّني كنت أفضّل الجلوس وحيدة تحت تلك الأشجار، رفقة نساء القرية اللواتي كنّ، في غالب الأحيان، زوجات اللصوص أو بناتهنّ. وكان ثمّة عدد من العاهرات جئن إلى ذلك المكان

بإرادتهنّ المحض، ولم أستطع أن أفهم السبب في عدم لجوئهنّ إلى الهروب، في حين أنّني كنت قد وطّدت العزم على الفرار.

ثمّة عجلات تعبر الغابة، يعود معظمها إلى النبلاء والأشراف. حرتُ لأنّني لا أعرف سببًا في عدم تعرّض هؤلاء للسرقة، إلى أن أدركت أنّ بعض سائقي العربات كانوا يرشون اللصوص بالمال قبل عبور الغابة، فيحصلون بذلك على حقّ المرور الآمن في الغابة. وعندما علمت بآليّات العمل في ذلك المكان، دبّرت صفقة خاصّة بي. وبعد أن أوقفت عربة متّجهة إلى المدينة الكبيرة، توسّلت إلى السائق أن يصحبني وإيّاه. فطلب منّي مبلغًا كبيرًا من المال على الرّغم من أنّه علم أنّني لا أملكه. فدفعت له على النحو الذي لا أعرف غيره.

ولم أفهم السبب الذي لا يدفع بالعاهرات إلى الفرار من الغابة إلّا بعد أن وصلت مدينة القسطنطينيّة بوقت طويل. فقد كانت المدينة أردأ وأسوأ، وكانت قاسية لا ترحم، ولم أبحث عن خالتي العجوز. فبعد أن أصبحت امرأة ساقطة، أدركت أنّ السيّدة الفاضلة لن تحبّذني، فكنت وحيدة. ولم تستغرق المدينة وقتًا طويلاً حتى حطّمت معنويّاتي ودمّرت جسدي. وعلى حين بغتة أضحيت في عالم مغاير تمامًا، عالم البغضاء والكراهية والإيقاع بالآخر، عالم الاغتصاب والقسوة والمرض. واضطررت إلى الإجهاض مرّات ومرّات إلى أن تحطّمت وتوقّفت الدورة الشهريّة ولم يعد في إمكاني الحمل.

شاهدت في تلك الشوارع ما تعجز عن وصفه أيّة كلمة وبعد أن رحلت عن المدينة، سافرت مع الجنود والممثّلين والغجر، عارضة خدماتي عليهم دون استثناء. ثم عثر عليّ رجل اسمه جاكال هيد وأتى بي إلى هذا المبغى في قونية. ولم تلق صاحبة المبغى بالاً للمكان الذي أتيت منه ما دامت هيئتي كانت حسنة. وابتهجت عندما علمت أنّني عاجزة عن إنجاب الأطفال، وأنّي لذلك لن أسبّب لها أيّة مشكلات بهذا الخصوص. ونظرًا إلى حالة العقم التي أُصبت بها، فقد اختارت لي الاسم «الصحراء»، وأضافت إليه كلمة «زهرة» لتزويقه، ولم أعترض لأنّني كنت متيّمة بالزهور.

وهكذا أفكّر في الإيمان ـ إنّه أشبه بزهرة مخفيّة في بستان حيث كنت يومًا أتجوّل فيها وأتنسّم عبير زهورها ولكنّني لم أستطع دخولها بعد الآن. إنّني أرغب في أن يكون الله صديقي من جديد، وبمثل هذه الرغبة والحنين ألفّ وأدور في ذلك البستان بحثًا عن مدخل، مؤملة العثور على البوّابة التي سوف تسمح لي بالدخول.

* * *

عندما وصلت أنا وسمسم إلى المسجد، لم أستطع أن أصدّق ما رأته عينيّ. فقد كان الرجال، على اختلاف أعمارهم ومهنهم، يحتلّون كلّ ركن بما في ذلك المكان الخلفي المخصّص عادة للنساء. كنت موشكة على الانصراف ومغادرة المكان لمّا لاحظت شحّاذًا يتخلّى عن مكانه، ويشقّ طريقة في بطء وعناء إلى الخارج. شكرت لحظي، وتسلّلت إلى مكانه، وبقي سمسم في الخارج.

وهكذا وجدت نفسي أستمع إلى الرومي العظيم في مسجد يحتشد بالرجال، ولم أرغب حتى في التفكير في ما قد يحدث إذا ما عثروا على امرأة وسطهم، وإلى جانب أنّها غانية. طردت كلّ الأفكار السود من رأسي وأصغيت بكلّ جوارحي إلى الخطبة.

قال الرومي:

ـ خلق الله المعاناة كي نظهر البهجة فتكون نقيضًا لها. إنّ الأشياء تتّضح من الأضداد، ولمّا كان الله لا ضدّ له، فإنّه يظلّ غير مرئي.

وفي حين استرسل الخطيب في خطبته، فإنّ صوته كان يعلو ويرتفع ويزداد ضخامة كأنّه جدول ماء في جبل تغذّيه الثلوج الذائبة.

ـ انظروا إلى دنوّ الأرض ورفعة السموات، واعلموا أنّ كلّ الأحوال في العالم تسير على هذا النحو: الفيضان والمجاعة، والحرب والسلم. ولا تنسوا أنّ كلّ ما يحدث، لم يخلقه سدًى، سواء أكان ذلك غضبًا أو رحمة، تسامحًا أو احتيالاً.

شاهدت وأنا في مجلسي أنّ لكلّ شيء هدفًا: حمل أمّي والحرب التي دارت في رحمها، ووحدة شقيقي التي صعبت العلاج بل حتى مقتل

أبي وزوجته، وأيّامي الرهيبة في الغابة وكلّ قسوة رأيتها في شوارع القسطنطينيّة ـ كلّها أسهمت، بطريقتها الخاصّة ـ في قصّتي. فوراء كلّ مشقّة يكمن مشروع كبير. وخامرني الشعور وأنا جالسة أستمع إلى الرومي في مسجد يكتظّ بالناس ما بعد ظهر ذلك اليوم، أنّ سحابة من الهدوء والسكينة خيّمت عليّ بهيجة ومهدّئة، مثل رؤيتي أمّي تخبز الخبز.

* * *

حسن الشحّاذ

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

جلست من تحت شجرة إسفندان محفوفًا بالانزعاج والغيظ. ولم يهدأ غضبي على الرومي بسبب خطبته عن المعاناة ـ وهو موضوع لا يعرف عنه إلّا النزر اليسير على ما يبدو. وشقّ ظلّ المنارة طريقه بصعوبة على الشارع. كنت بين النوم والصحو، أرقب إلى حدّ ما المارّة، وكاد النوم يغلبني لمّا أبصرت درويشًا لم أره من قبل، مرتديًا ثيابًا سوداء مهلهلة، يمسك عكّازًا بيده. كان حليق الوجه، يتدلّى قرط فضّي من إحدى أذنيه، ويبدو على غير هيئة الآخرين حتى إنّني لم أستطع الحيلولة دون إمعان النظر فيه.

وفي حين كانت عيناه تتنقّلان يمينًا ويسارًا، لم يمض وقت طويل حتى تنبّه الدرويش إليّ. وبدلاً من أن يتجاهل حضوري، على النحو الذي فعله الناس عندما يرونني أوّل مرّة، فإنّه وضع يده اليمنى على قلبه وحيّاني كأنّنا صديقان قديمان. صعقت والتفتّ من حولي كي أتأكّد أنّه لم يكن يلقي بالتحيّة إلى شخص آخر، ولكن لم يكن هناك سواي وشجرة الإسفندان. ذهلت وحرت، ولكنّي برغم ذلك، وضعت يدي على قلبي ورددت له التحيّة.

سار الدرويش في متجهي في بطء وتردّد، فخفضت بصري، متوقّعًا أن يضع قطعة نقد نحاسيّة في الطاس أو ربّما يناولني قطعة خبز. غير أنّه عوضًا عن ذلك، جثا على ركبتيه وبات في مستوى بصري.

قال:

ـ سلام عليكم أيّها الشحاذ.

أجبت:

ـ وعليكم السلام.

بدا لي صوتًا خشنًا وغريبًا، فقد مضى زمن طويل منذ أن شعرت بالحاجة إلى أن أكلّم أيّ شخص حتى نسيت تقريبًا كيف كان صوتي يبدو للسامع.

قدّم نفسه على أنّه شمس التبريزي وسألني عن اسمي.

ضحكت.

ـ ما حاجة رجل مثلي إلى اسم؟

اعترض قائلاً:

ـ لكلّ امرئ اسم. لله أسماء لا تُحصى، ولا نعرف منها سوى تسعة وتسعين اسمًا. فإذا كان لله هذا العدد الكبير من الأسماء، فكيف يمكن للإنسان الذي خُلق على هيئته أن يتجوّل دون اسم؟

لم أعرف كيف أجيب عن تساؤله، ولهذا لم أحاول حتى الإجابة. وبدلاً من ذلك أذعنت وقلت:

ـ كانت لي أمّ وزوجة يومًا ما. وكانتا تسمّياني حسن.

أومأ الدرويش برأسه.

ـ إذًا اسمك حسن.

ثم ناولني، لدهشتي، مرآة فضّيّة وقال:

ـ احتفظ بها. لقد أعطاني إيّاها رجل صالح في بغداد ولكنّك تحتاج إليها أكثر ممّا أحتاجها أنا، وسوف تذكّرك بأن الله في داخلك.

وقبل أن أجد الفرصة لأُجيب عنه، حدثت جلبة ضوضاء على مقربة، وكان أوّل شيء عنّ على بالي هو أنّ نشّالاً قُبض عليه في المسجد. ولكن بارتفاع الأصوات وازدياد حدّتها، أدركت أنّ هناك أمرًا جللاً، فما من نشّال يمكنه أن يخلق مثل هذه الضجّة.

وسرعان ما اكتشفنا ما حدث. فقد اكتشفوا امرأة، وهي بغي

مجهولة، متنكّرة بزيّ رجل داخل المسجد. وثمّة طائفة من الناس تدفع بها إلى الخارج وهم يصيحون:

ـ اقتلوا المخادعة! اقتلوا الزانية!

وصل الجمع الهائج على هذه الحال إلى الشارع، فوقع بصري على الشابّة ذات الثياب الرجّاليّة. وكانت ممتقعة الوجه، شاحبة شحوب الموت، والرعب يملأ عينيها اللوزيّتين. وسبق لي أن شاهدت حالات كثيرة من الضرب ولم أتوقّف يومًا عن التساؤل في نفسي عن التغيير الذي يحدث للناس على نحو درامي عندما ينضمّون إلى حشد من الدهماء. فالرجال الاعتياديّون الذين لا يعرف عنهم أيّ عنف ـ كالحرفيّين أو الباعة الجوّالين ـ ينقلبون إلى عدوانيّين حدّ ارتكاب جريمة قتل عندما يجتمعون معًا. كان القتل شائعًا على ذلك النحو في تلك الأيّام وينتهي الأمر بعرض الجثّة أمام الناس لتكون رادعًا لهم.

تمتمت بصوت خفيض لشمس التبريزي، ولكن عندما التفتّ إليه لأستمع ما يقول، لم أجد أحدًا.

شاهدت الدرويش يندفع نحو الحشد كأنّه سهم ملتهب انطلق نحو السماء. وثبت على قدمي واندفعت نحوه.

وعندما وصل شمس مقدّمة الكوكب، رفع عكّازه مثل راية وصرخ بأعلى صوته:

ـ قفوا أيّها الناس! توقّفوا!

حملق الناس فيه ذاهلين واستقرّ الصمت بغتة عليهم.

وصاح شمس التبريزي وهو يضرب الأرض بعكّازه:

ـ ينبغي أن تخجلوا من أنفسكم! ثلاثون رجلاً ضدّ امرأة واحدة! أهذا هو العدل؟

قال رجل عريض الوجه قوي البنية، ذو عينين تنمّان عن كسل، ويبدو أنّه نصب نفسه زعيمًا لهذه الطائفة التي لا سابقة لها. وتمكّنت من الاستدلال عليه من فوري، فقد كان حارسًا أمنيًّا يُدعى بيبرس، يعرفه كلّ الشحّاذين في البلدة لما فيه من قسوة وتكالب وجشع.

قال بيبرس:

ـ لقد ارتدت هذه المرأة ثياب الرجال وتسلّلت إلى داخل المسجد لتضليل المسلمين الصالحين.

سأله شمس التبريزي بصوت يقطر بالاحتقار والتوبيخ:

ـ أتقول إنّك تريد أن تعاقب شخصًا بسبب دخوله المسجد؟ أهي جريمة؟

أحدث السؤال هدوءًا للحظة، إذ بدا أنّ أحدًا لم يفكّر بالموضوع على ذلك النحو.

وهتف رجل آخر لاح عليه غضب شديد حوّل لون وجهه إلى قرمزي أدكن:

ـ إنّها ساقطة، ولا مكان لها في مسجد له حرمته المقدّسة.

وهنا اشتعلت طائفة الناس غضبًا، وصاح بعض الناس من الجانب الخلفي صيحة موحّدة:

ـ ساقطة! ساقطة! لنمسك الساقطة!

بدا هذا الكلام كأنّه أمر، إذ سرعان ما وثب شابّ إلى أمام وقبض على عمامة المرأة وراح ينتزعها بقوّة، فارتخت العمامة، وانساب شعر المرأة الأشقر الطويل، برّاقًا مثل زهور الشمس، وتدلّى متموّجًا موجات رائعة، فحبسنا أنفاسنا وقد استبدّت بنا الدهشة لفرط جمالها وروعة شبابها.

ولا بدّ أنّ شمسًا أدرك المشاعر المختلطة التي عمّت في ذلك الجوّ لأنّه عنّفهم تعنيفًا شديدًا.

ـ عليكم أن تتّخذوا قراركم أيّها الإخوة، أتحرقون هذه المرأة حقًّا، أم تراكم راغبين فيها؟

وهنا أمسك الدرويش بيد الغانية وجذبها نحوه، بعيدًا عن الشابّ وبقيّة الناس. فتوارت من خلفه كأنّها طفلة صغيرة تختبئ وراء ثياب أمّها.

قال زعيم الطائفة رافعًا صوته من فوق دمدمة الحشد:

ـ أنت ترتكب خطأ شنيعًا، وأنت غريب عن هذه البلدة ولا تعرف أساليبنا، فلا تتدخّل في هذه القضيّة.

انبرى شخص آخر.

ـ أيّ درويش أنت على أيّة حال؟ أليس لديك ما هو أفضل من الدفاع عن مصالح غانية؟

بقي شمس التبريزي ساكنًا برهة وجيزة كأنّه يفكّر في الأسئلة. ولم يبد عليه الغضب بل ظلّ هادئًا على نحو ثابت. ثم أردف:

ـ لكن كيف تنبّهتم لها أوّلاً؟ أنتم تذهبون إلى المسجد ولكنّكم تولون اهتمامكم للناس من حولكم أكثر ممّا تولون الله. وإذا كنتم مؤمنين صادقين كما تزعمون، لما كان من شأنكم أن تنظروا إلى هذه المرأة حتى إن كانت عارية. والآن، عودوا إلى الخطبة، وقوموا بعمل أفضل هذه المرّة.

وخيّم صمت يسوده الاضطراب على الشارع كلّه، وانزلقت أوراق الشجر على امتداد الرصيف، وكانت هي الشيء الوحيد الذي يتحرّك ولوّح شمس التبريزي بعكّازه طاردًا الرجال بعيدًا كأنّهم ذباب وصاح:

ـ هيّا أيّها الحشد! انصرفوا وعودوا إلى الخطبة.

لم يستدر الناس جميعًا ويبتعدوا ولكنّهم تراجعوا خطوات إلى الوراء يتمايلون على نحو غير مستقرّ، حائرين لا يعرفون ماذا يفعلون بعد الآن. نظر بعضهم في متّجه المسجد كأنّهم يفكّرون في العودة إليه. وفي تلك اللحظة بالذات، لمّت الغانية أطراف شجاعتها لتخرج من مخبئها من خلف الدرويش. وأطلقت ساقيها للريح، تعدو بسرعة الأرنب، وشعرها الطويل يتطاير في كلّ اتّجاه، وانسلّت مهرولة إلى أقرب شارع فرعي.

رجلان اثنان لا غير حاولا مطاردتها ولكن شمس التبريزي حال دونهما ورمى عكّازه تحت أقدامهما على نحو مفاجئ وعنيف دفعهما إلى التعثّر والسقوط على الأرض، فضحك عدد من المارّة للمشهد، كما ضحكت بدوري.

تمكّن الرجلان في اضطرابهما وذهولهما من النهوض على أقدامهما من جديد، ولكنّ الغانية كانت في ذلك الوقت قد توارت بعيدًا وانصرف الدرويش لشأنه بعد أن أنجز مهمّته.

* * *

سليمان السكّير

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

رحت في نومة خفيفة قبل الضجّة، وكنت أسندت ظهري إلى جدار الحانة، غير أنّ الضوضاء في الخارج جعلتني أثب على قدمي دهشة وارتعابًا، وصرخت وقد اتّسعت عيناي:

ـ ما الذي يجري؟ هل هاجمنا المغول؟

تتابعت أصداء ضحكة خفيفة، فاستدرت إلى الخلف لأجد عددًا من الزبائن يهزأون منّي. يا لهم من لقطاء قذرين!

هتف بي صاحب الحانة خريستوس:

ـ لا تقلق أيّها السكّير العجوز. المغول لا يطاردونك، ولكن ها هو الرومي يمرّ من هنا رفقة جيش من المعجبين به.

اتّجهت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج. ها هم بلا أدنى ريب ـ موكب متحمّس من المريدين والأتباع يردّدون باستمرار: الله أكبر! الله أكبر! وفي وسط الحشد كان الرومي بقامته المنتصبة يمتطي ظهر جواد أبيض، مهيبًا وواثقًا. فتحت النافذة وأخرجت رأسي وراقبتهم. اقترب الموكب كثيرًا وهو يتحرّك في بطء لا تزيد سرعته على سرعة الحلزون. في الحقّ، كان بعض أفراد الحشد قد اقتربوا على نحو يمكنني من لمس بعض الرؤوس. وفجأة خطرت ببالي فكرة مدهشة:

سوف أنتزع بعض عمائم هؤلاء الناس!

أمسكت ماسحة الظهر ذات القبضة الخشبيّة العائدة إلى خريستوس وأبقيت النافذة مشرّعة بيد والماسحة باليد الثانية وانحنيت إلى أمام، وتمكّنت من الوصول إلى عمامة أحد الرجال في الحشد. وفي اللحظة التي كدت فيها أن أجذب العمامة، رفع رجل آخر بصره إلى أعلى من غير قصد، وشاهدني.

حيّيته مبتسمًا ابتسامة عريضة وقلت:

ـ سلام عليكم.

زمجر الرجل:

ـ مسلم في حانة؟ عار عليك! ألا تعلم أنّ الخمر من صنع الشيطان؟

فتحت فمي كي أُجيب ولكن شيئًا حادًّا مرّ قرب رأسي قبل أن أصدر أيّ صوت. وأدركت في رعب هائل أنّها كانت قطعة حجر. ولو لم أتفادها في اللحظة الأخيرة لحطّمت جمجمتي، وهكذا دخلت من النافذة المفتوحة وسقطت على منضدة التاجر الفارسي الذي كان يتّخذ مجلسه ورائي. كان التاجر قد شرب حتى الثمالة، فلم يفقه ما حدث، وأمسك بقطعة حجر بيده، متفحّصًا إيّاها كأنّها رسالة مجهولة وصلت من السماء.

هدر صوت خريستوس، خشنًا، غليظًا، مفعمًا بالقلق:

ـ أغلق النافذة يا سليمان وعد إلى طاولتك.

قلت وأنا أتعثّر في طريقي إلى طاولتي:

ـ هل رأيت ما حدث؟ لقد قذف أحدهم حجرًا في وجهي، وكان في إمكانه أن يقتلني.

رفع خريستوس حاجبه:

ـ آسف، ولكن ماذا كنت تتوقّع؟ ألا تعلم أنّ الناس لا يريدون مشاهدة مسلم في حانة؟ وهنا أنت تكشف عن نفسك، وتنبعث منك رائحة الكحول، وأنفك يتّقد مثل مصباح أحمر.

ـ وإن يكن؟ ألست بشرًا؟

ربت خريستوس على كتفي كأنّه يريد أن يقول: لا تكن حسّاسًا، سريع الانفعال.

قلت:

ـ أتدري أنّني أكره الدين لهذا السبب؟ كلّ الأديان! الناس المتديّنون واثقون بأنّ الله يقف إلى جانبهم على نحو يدفعهم إلى الاعتقاد بأنّهم متفوّقون على الآخرين.

لم يردّ خريستوس، فقد كان رجلاً متديّنًا وإن كان صاحب حانة على درجة كبيرة من المهارة، يعرف كيف يهدّئ زبونًا ثارت ثائرته. أحضر لي دورقًا آخر من النبيذ الأحمر وأخذ يرقبني وأنا أكرعه بشراهة، وفي خارج الحانة، هبّت ريح صرير، يمينًا ويسارًا. مكثنا ساكنين بلا حراك، نصغي بانتباه كأنّ ثمّة أغنية ينبغي سماعها.

قلت:

ـ لا أفهم السبب الذي منع به الخمر في هذا العالم، ولكنّه شراب موعود في السماء. فإذا كان ضارًّا إلى الحدّ الذي يوصف به، فما الداعي إلى تقديمه في الجنّة؟

تمتم خريستوس وهو يحرّك يديه إلى أعلى:

ـ أسئلة، أسئلة... إنّك تكثر من الأسئلة. أأنت مضطر إلى طرح أسئلة عن كلّ شيء؟

ـ نعم، بطبيعة الحال. ولهذا السبب لدينا أدمغة. ما رأيك؟

ـ إنّني أعرفك منذ زمن طويل يا سليمان، وأنت لست زبونًا اعتياديًّا من زبائني، بل أنت صديقي، ولهذا أنا قلق عليك.

قلت:

ـ سأكون على ما يرام.

وهنا قاطعني خريستوس:

ـ أنت رجل طيّب ولكن لسانك حادّ كالسكّين، وهو ما يثير قلقي.

تجد في قونية شتّى أنواع البشر، وليس سرًّا أنّ بعضهم لا يكن احترامًا شديدًا للمسلم الذي يتعاطى شرب الخمر. عليك أن تتعلّم كيف تتوخّى الحذر أمام الناس. لا تكشف عن أساليبك، وتنبّه لكلامك.

ابتسمت.

ـ هلّا ننهي هذا الحديث بقصيدة من قصائد الخيام.

أطلق خريستوس تنهيدة ولكنّ التاجر الفارسي الذي كان يسترق السمع هتف بسرور:

ـ نعم، نريد قصيدة من شعر الخيام.

انضمّ زبائن آخرون وصفّقوا لي طويلاً، ممّا حفّزني وأثارني إلى حدّ ما، فوثبت فوق طاولة وبدأت أردّد:

أتظنّ الله خلق الكروم

ثم حرّم شرب عصيرها

صاح التاجر الفارسي: لا بطبيعة الحال، لا معنى لذلك!

أشكره على هذا القضاء

فهو حتمًا يحبّ سماع رنين الكأس

لو كان ثمّة شيء واحد لا غير تعلّمته من كلّ هذه السنوات الطويلة من تناول الكحول فهو أنّ الناس على اختلافهم، يختلفون في تناول الشراب. أعرف أُناسًا يحتسون غالونات من الشراب في كلّ ليلة، وكلّ ما يفعلون هو أنّهم يمرحون ويغنّون قبل أن يداهمهم النعاس. ولكن آخرين ينقلبون وحوشًا على أثر شرب قطرات من الكحول. فإذا كان الشراب نفسه يجعل بعض الناس مرحين وثملين ويجعل آخرين أشرارًا وعدائيّين، أفلا يتعيّن علينا أن نلقي بالمسؤوليّة على الشاربين وليس على الشراب؟

اشرب! فأنت لا تدري متى جئت ولماذا.

اشرب! فأنت لا تدري لماذا تذهب وإلى أين.

أعقب ذلك تصفيق حادّ من جديد، وانضمّ خريستوس نفسه إلى المتحمّسين. وهكذا، كنّا في الحيّ اليهودي من بلدة قونية، وفي حانة

يملكها أحد النصارى، رفعنا نحن الثلّة المختلطة من عشّاق الخمر المختلفي الأديان، كؤوسنا وشربنا الأنخاب معًا، وإن كان يصعب تصديق ذلك، من أجل الله الذي في وسعه أن يسامحنا حتى عندما نفشل نحن في التسامح على ما يبدو.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٣١ أيّار ٢٠٠٨

قالت الشبكة العنكبوتيّة: «الأمان أفضل من الندم. افحصي آثار أحمر الشفاه على قمصانه، وتأكّدي إن كانت تنبعث منه روائح غير مألوفة عند عودته على البيت».

هذه هي المرّة الأولى التي تختبر فيها إيلّا روبنشتاين نفسها على موقع الأونلاين بعنوان: «كيف تعرفين أنّ زوجك يخونك؟». على الرّغم من أنّها وجدت الأسئلة مبتذلة، يعوزها الذوق الرفيع، فقد عرفت الآن أنّ الحياة نفسها يمكن أن تبدو في بعض الأحيان أشبه بشيء مبتذل.

وبرغم ما سجّلته من نقاط في الاختبار الأخير، لم ترغب في مواجهة ديڤيد بهذه القضية، فهي لم تسأله بعد أين كان ينفق وقته في الليالي التي لم يرجع فيها إلى البيت. كانت قد أمضت معظم وقتها في تلك الأيّام تقرأ مخطوطة الرواية، مستخدمة إيّاها مبرّرًا كي تخفي صمتها. وكان ذهنها مشوّشًا تشويشًا كبيرًا جعلها تستغرق وقتًا أطول ممّا هو مألوف لإنهاء قراءة الرواية. ومع هذا، فقد كانت تستمتع بقراءتها، ومع كلّ قاعدة جديدة من قواعد شمس، كانت تفكّر في حياتها تفكيرًا طويلاً.

كانت تصرّفاتها طبيعيّة أمام أبنائها وتصرّفوا تصرّفًا طبيعيًا بدورهم. ولكن في اللحظة التي كان يخلو الجوّ لها ولديڤيد، كانت تضبط زوجها ينظر إليها نظرة غريبة كأنّه يتساءل عن نوع الزوجة التي تتجنّب الاستفسار

من زوجها عن المكان الذي قضى فيه ليلته. غير أنّ الحقيقة هي أنّ إيلّا لم تكن ترغب في أيّ معلومة لا تدري كيف تعالجها. فكلّما كانت معرفتها أقلّ عن مغامرات زوجها، قلّ انشغال فكرها فيها. صحيح ما يقولونه عن الجهل. إنّه نشوة.

الوقت الوحيد الذي انقطعت فيه النشوة هو يوم عيد الميلاد الأخير عندما وصلت إلى صندوقهم البريدي رسالة تضمّ مسحًا من أحد فنادق المنطقة، وموجّهة مباشرة إلى ديڤيد. كان قسم خدمات الزبائن يرغب في التأكّد من سعادته وارتياحه في إقامته. تركت إيلّا الرسالة فوق كومة من الرسائل البريديّة، وراقبته في ذلك المساء وهو يلتقط الرسالة من الغلاف المفتوح ويقرأها.

قال ديڤيد بعد أن تمكّن من تدبير ابتسامة صغيرة لها:

ـ آه، إنّها قسيمة تقييم للضيوف! هذا آخر شيء أحتاج إليه. لقد عقدنا مؤتمرًا عن طبّ الأسنان في ذلك المكان في العام الماضي، ولا بدّ أنّهم أدرجوا كلّ المشاركين في قائمة زبائنهم. صدّقته. في الأقلّ صدّقت ذلك الجزء منها الذي لم يرغب في إفساد الأمور. أمّا الجزء الآخر منها فكان ساخرًا ومرتابًا. فذلك الجزء نفسه هو الذي عثر في اليوم التالي على رقم هاتف الفندق واتّصل به، ليسمع ما كانت تعرفه توًّا وهو أنّ الفندق لم يشهد في هذا العام ولا في العام الذي سبقه أيّ مؤتمر عن طبّ الأسنان!

وجّهت إيلّا اللوم إلى نفسها في داخلها. فهي لم يتقدّم بها العمر تقدّمًا مرضيًا، كما أنّ وزنها ازداد زيادة ملحوظة في السنوات الستّ الأخيرة. ومع كلّ رطل جديد، قلّ دافعها إلى الجنس أكثر. ووجدت أنّ الدروس الخاصّة بالطبخ قد خلقت صعوبة في التخلّص من الأرطال الزائدة على الرّغم من أنّ بعض النسوة في مجموعتها واللواتي يطبخن الطعام في أغلب الأحيان، وعلى نحو أفضل، بقين في نصف حجمها.

عندما تأمّلت حياتها الماضية، أدركت أنّ التمرّد لم يكن ملائمًا لها قطّ. فهي لم تدمن التدخين، رفقة الشبّان من وراء أبواب مغلقة، ولم تطرد من الحانات ولم تستخدم حبوب منع الحمل، ولم تمرّ بأيّة نوبات عصبيّة، ولم تكذب على أمّها، ولم تتغيّب عن الدوام، ولم تمارس الحبّ أثناء

مراهقتها، في حين كانت الفتيات في مثل سنّها يلجأن إلى الإجهاض، أو يعرضن أطفالهنّ للتبنّي بعد إنجابهنّ مباشرة، وكانت تشاهد قصصهنّ وكأنّها تشاهد برنامجًا تلفازيًا عن القحط والمجاعة في أثيوبيا. وشعرت إيلّا بالحزن بسبب مثل هذه المآسي المنتشرة في العالم، لكنّ الحقيقة هي أنها لم تشاهد نفسها شريكة الكون في هذه المصائب.

لم تكن يومًا ما فتاة حفلات، ولا حتى عندما كانت في سنّ المراهقة، بل آثرت البقاء في المنزل وقراءة كتاب جيّد في ليلة من ليالي الجمعة بدلاً من مصاحبة الغرباء في حفلات قصف وعربدة.

وسألت أمّهات الحيّ بناتهنّ:

«لم لا تكنّ مثل إيلّا؟ إنّها لا تورّط نفسها في أيّة مشكلات».

وفي حين كانت الأمّهات يعجبن بها، كان الأولاد يرون فيها فتاة غير مناسبة، لا تتمتّع بروح الفكاهة. لهذا، فلا عجب أنّها لم تكن محبوبة كثيرًا في المدرسة الثانويّة. وفي إحدى المرّات قال لها أحد زملائها في الصفّ:

«أتدرين ما مشكلتك؟ إنّك تأخذين الحياة على محمل الجدّ أكثر ممّا ينبغي. إنّك مثيرة للسأم إلى أبعد الحدود».

فما كان منها إلّا أن أصغت له بعناية وقالت له إنّها سوف تفكّر بالأمر.

حتى تسريحة شعرها لم تتغيّر كثيرًا على مدى السنين ـ شعر طويل، أشقر كالعسل، تشدّه إلى الخلف فينسدل إلى أسفل أو تشدّه بهيئة ضفيرة. ولم تكن تضع إلّا قليلاً من مساحيق التجميل، ولا أكثر من لمسة بنّيّة تميل إلى الاحمرار من أحمر الشفاه وخط رفيع أخضر اللون من حول عينيها، فكان، على حدّ تعبير ابنتها يخفي عينيها الزرقاوين المائلتين إلى اللون الرمادي أكثر ممّا يكشف عنهما بوضوح. وفي كلّ الأحوال، لم تتمكّن من رسم قوسين بقلم العينين، وكانت تخرج عن الخطّ في أغلب الأحوال، فيبدو أحد الخطّين أشدّ سمكًا من الآخر.

وانتاب الشكّ إيلّا في أنّ ثمّة خطبًا ما فيها. فهي إمّا متطفّلة أو مندفعة أكثر ممّا ينبغي (كما هو حالها بخصوص خطط زواج ابنتها) أو سلبيّة وسهلة الانقياد (بخصوص علاقاته الغراميّة القصيرة). فثمّة إيلّا المزاجيّة

الأهواء وإيلّا الخنوعة إلى أبعد الحدود. ولم تكن قادرة على معرفة أيّ واحدة منهما ستظهر إلى السطح ولا حتى متى.

ثم لدينا إيلّا ثالثة التي تراقب كلّ شيء مراقبة هادئة، منتظرة أن يأتي دورها. إيلّا الأخيرة هذه، هي التي أخبرتها أن تكون هادئة حدّ الحذر، لكن ثمّة نفسًا تختنق تحت هذا كلّه، نفسًا تضمر طوفانًا سريعًا متدفّقًا من الغضب والتمرّد. وإذا ما ظلّت على هذا الحال، فسوف تنفجر يومًا ما، وهو ما حذّرتها منه إيلّا الثالثة. القضيّة قضيّة وقت لا أكثر.

وفي حين كانت إيلّا تفكّر مليًّا في هذه القضايا في ذلك اليوم الأخير من شهر أيّار، فعلت شيئًا لم تكن قد فعلته منذ زمن بعيد. أدّت الصلاة، وطلبت من الله أن يمنحها الحبّ الذي سيغمر كلّ وجودها أو أن يجعلها غليظة، لامبالية إلى الحدّ الذي يجعلها لا تمانع إن غاب الحبّ في حياتها.

وأضافت بعد تفكير:

(لا يهمّ أيّ إيلّا تختارين، لكن عليك بالإسراع في الاختيار. ربّما تكونين قد نسيت ولكنّي بلغت الأربعين. وكما ترين، فأنا لا أتصرّف بلباقة في المواقف الصعبة طوال هذه السنين).

* * *

الغانية زهرة الصحراء

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

ركضت وركضت متقطّعة الأنفاس على امتداد الزقاق الضيّق، لا أقدر على النظر إلى الوراء، رئتاي تحترقان، صدرِي يدقّ دقّات عنيفة، حتى وصلت أخيرًا إلى السوق المزدحم، فاختبأت خلف جدار وكدت أنهار. ولم أتمكّن إلّا في ذلك المكان من أن ألمّ أطراف شجاعتي وأنظر خلفي. ولدهشتي البالغة وارتياحي العظيم، لم يكن هناك سوى شخص واحد يقتفي أثري: إنّه سمسم. وقف ورائي، منقطع الأنفاس، يداه متدلّيتان إلى جانبه، مستبدًّا به الذهول والحيرة، عاجزًا عن فهم السبب الذي دفعني بغتة إلى الركض مثل مجنونة وسط شوارع قونية.

حدث كلّ شيء بسرعة بالغة حتى إنّني لم أتمكّن من فهم الأمور إلّا في السوق. فقد جلست في المسجد مستغرقة في التفكير في الخطبة، أشرب من لآلئ حكمة الرومي. ولم أتمكّن في لحظة انشداهي من ملاحظة أنّ الصبي الجالس إلى جانبي وطأ من غير قصد على طرفي الوشاح الذي كان يغطّي وجهي. وقبل أن أدرك ذلك، ارتخى الوشاح ومالت العمامة إلى الجانب كاشفة بذلك وجهي وجزءًا من شعري. فما كان منّي إلّا أن عدّلت الوشاح بسرعة وواصلت الاستماع إلى الرومي وأنا واثقة من عدم تنبّه أحد لما حدث، ولكن ما إن رفعت بصري من جديد حتى رأيت الشابّ الجالس في الصفّ الأمامي ينظر إليّ نظرة كلّها اهتمام وتركيز. وعرفت من وجهه

وعينيه البليدتين وأنفه المستدقّ وفمه الباعث على السخرية أنّه بيبرس نفسه.

كان بيبرس واحدًا من زبائن المبغى المزعجين، الذين لم ترغب أيّة واحدة من الفتيات في مضاجعته. ثمّة رجال يرغبون في مضاجعة العاهرات وفي الوقت نفسه يلحقون الإهانة بهنّ. وكان بيبرس واحدًا من هذا النمط من الرجال، يروي النكات البذيئة، ومزاجه لا يحتمل. وفي إحدى المرّات ضرب إحدى الفتيات ضربًا مبرحًا، حتى إنّ صاحبة المبغى طلبت منه أن يغادر المكان من فوره وألّا يعود إليه ثانية ولكنّه ظلّ يتردّد على المكان، في الأقلّ على امتداد بعض الشهور القليلة. ثم توقّف عن زيارة المبغى لسبب أجهله، ولم أسمع شيئًا عنه بعد ذلك. والآن، ها هو جالس هناك في الصفّ الأمامي وقد عمد إلى إطالة لحيته كأيّ رجل ورع ولكنّه ما يزال يحمل ذلك البريق في عينيه.

حوّلت أنظاري، ولكن بعد فوات الأوان، لقد استدلّ عليّ.

همس بيبرس همسًا خافتًا في أذن الرجل الجالس بجانبه، التفت الاثنان بعدها وحدّقا فيّ. ثم أشارا إلى شخص آخر ونبّهاه إليّ، حتى أخذ كلّ الرجال في الصفّ الأمامي ينظرون في اتّجاهي. شعرت بتورّد وجنتي، وتسارعت دقّات قلبي، ولكنّي لم أستطع أن أتحرّك من مكاني، بل تشبّثت بدلاً من ذلك بأمل طفولي يتمثّل في أنّني لو بقيت ساكنة بلا حراك وأغمضت عينيّ، فإنّ الظلمة ستخيّم علينا كلّنا ولا تترك لنا شيئًا كي نقلق من أجله.

ولمّا تجرّأت وفتحت عينيّ من جديد، كان بيبرس يشقّ طريقه وسط الحشد ويتّجه نحوي. فاندفعت إلى الباب ولكن كان الهروب مستحيلاً لأنّني كنت محاطة بأمواج كثيفة من البشر. وفي إغماضة عين وصل بيبرس إليّ واقترب منّي اقترابًا مكّنني من أن أشمّ رائحة أنفاسه وأمسك بذراعي وقال وهو يصرّ أسنانه:

ـ ما الذي تفعله غانية هنا؟ أليست لديك ذرّة حياء؟

تلعثمت وإن اعتقدت أنّه لم يسمعني:

ـ أرجوك، أرجوك، دعني وشأني.

وانضمّ إليه أصدقاؤه، وكانوا مجموعة من الأجلاف المثيرين للهلع،

الواثقين بأنفسهم، يستشيطون غضبًا وشراسة، وينهالون عليّ بالشتائم. واستدار بعض الناس لمعرفة سبب الجلبة والضوضاء واستهجنوا ما سمعوا ولكنّهم لم يتدخّلوا.

كان جسدي فاتر الهمّة، تعوزه الحيويّة مثل كتلة من العجين، فتركتهم يدفعون بي نحو باب الخروج. وراودني الأمل في أنّني عند وصولي الشارع سيأتي سمسم إلى نجدتي، وإذا ما حدث ما هو أسوأ من هذا، فإنّني سأطلق ساقيّ للريح. ولكن ما إن خطونا خطواتنا الأولى على الشارع حتى ازداد الرجال شراسة وعدوانًا، وأدركت في رعب أنّهم كانوا حذرين وهم في المسجد ألّا يرفعوا أصواتهم أو يتدافعوا من حولي، احترامًا للخطيب ولجماعة المصلّين، ولكن ما إن وصلوا إلى الشارع حتى لم يعد يوقفهم أيّ شيء.

كنت قد عشت تجارب أصعب من هذه التجربة طوال سني حياتي ولكنّي أشكّ تمامًا في أنّ مثل هذا الشعور الطافح بالغمّ والكدر قد ساورني من قبل. فبعد سنوات من التردّد، اتّخذت اليوم خطوة من أجل التقرّب إلى الله، ولكنّني طُردت من بيته.

قلت لسمسم بصوت متصدّع تصدّع قطع الثلج الرقيقة:

ـ أتدري لم يكن يتعيّن عليّ الذهاب إلى ذلك المكان. إنّهم على صواب. فالغانية لا مكان لها في مسجد أو كنيسة أو في أيّ بيت من بيوت الله.

ـ لا تتفوّهي بمثل هذا الكلام!

وعندما استدرت لأرى من المتكلّم، لم أصدق ما شاهدته عيناي. كان هو نفسه، ذلك الدرويش الجوّال الأصلع. فافترّ ثغر سمسم عن ابتسامة عريضة، مسرورًا لرؤيته من جديد. انحنيت إلى أمام لأقبّل يده ولكنّه أبى واستوقفني قائلاً:

ـ لا، أرجوك.

فتوسّلت إليه:

ـ لكن كيف أشكرك؟ إنّني مدينة لك بالشيء الكثير.

هزّ كتفيه وبدا غير مكترث، وقال:

ـ أنت لست مدينة لي بأيّ شيء، ونحن لا ندين إلّا له.

ثم قدّم نفسه على أنّه شمس التبريزي، ثم قال قولاً لم أسمع أغرب منه قطّ:

ـ يبدأ بعض الناس حياتهم بهالة متألّقة تألّقًا شديدًا ولكنّهم يفقدون اللون ويتوارون. أنت، على ما يبدو، واحدة من هؤلاء الناس. ففي يوم من الأيّام كانت هالتك أشدّ بياضًا من الزنبق الأبيض بنقاطه الصفر والورديّة ولكنّها بهتت بمرور الأيّام حتى أصبحت اليوم بنيّة شاحبة. ألا تشتاقين إلى ألوانك الأوّليّة؟ ألا تحبّين الاتّحاد بجوهرك؟

رمقته بنظرة وأحسست أنّني لم أفقه شيئًا من كلماته.

ـ لقد فقدت هالتك بريقها ولمعانها لأنّك أقنعت نفسك طوال هذه السنين بأنّك قذرة في الداخل والخارج.

قلت وأنا أعضّ على شفتي:

ـ بل أنا قذرة حقًّا. ألا تعرف ماذا أفعل كي أعيش؟

قال شمس:

ـ اسمحي لي أن أحكي لك قصّة.

وها هي الحكاية التي قصّها عليّ:

ـ في يوم من الأيّام، مرّت بغي بكلب من كلاب الشوارع، وكان الكلب يلهث تحت أشعّة الشمس الحارقة، ظمأنَ، لا حول له ولا قوّة. فما كان من البغي إلّا أن أسرعت وخلعت فردة حذائها وملأتها بالماء من أقرب بئر وسقته للكلب، ثم انصرفت في سبيلها. وفي اليوم التالي، التقت أحد الصوفيّين وكان رجلاً واسع الحكمة. وما إن شاهدها حتى قبّل يديها، فصعقت، ولكنّه أخبرها أنّ عطفها على الكلب كان عطفًا حقيقيًّا فغفر لها كلّ ذنوبها(*).

فهمت ما كان شمس التبريزي يحاول أن يقوله لي ولكن شيئًا في

(*) أنظر رواية البخاري عن هذا الحديث النبوي الشريف في صحيحه وفي رياض الصالحين. (المترجم).

أعماقي رفض أن يصدّقه. فقلت:

ـ دعني أطمئنك إلى أنّني لو أطعمت كلّ كلاب قونية لما كانت كافية لإنقاذي.

ـ لا يمكنك أن تعرفي هذا الشيء. الله وحده يعلمه. فضلاً عن هذا، ما الذي يجعلك تفكّرين في أنّ أيّ رجل من أولئك الرجال الذين أخرجوك من المسجد هو أقرب إلى الله؟

أجبت غير مقتنعة:

ـ حتى لو لم يكونوا أقرب إلى الله، فمن الذي سيخبرك بذلك؟ هل ستخبرهم أنت؟

هزّ الدرويش رأسه:

ـ لا، النظام لا يعمل وفق هذا التصوّر، فأنت التي يتحتّم عليك أن تخبريهم.

ـ أتظنّهم سيستمعون إليّ؟ هؤلاء الرجال يكرهونني.

قال بحزم وإصرار:

ـ بل سيستمعون لأنّه لا يوجد هناك ما يعرف بـ هم وأنا.

وكلّ ما يتعيّن عليك عمله هو أن تتذكّري كيف تترابط الأشياء والناس في هذا الكون. فنحن لسنا مئات أو آلاف الأشياء المختلفة، بل كلّنا واحد.

انتظرت كي يشرح لي ما يقول ولكنّه استرسل في الكلام بدلاً من ذلك:

ـ إنّها قاعدة من القواعد الأربعين: (إذا أردت أن تغيّري الأسلوب الذي يعاملك به الناس، عليك أوّلاً أن تغيّري الأسلوب الذي تعاملين به نفسك. فما لم تتعلّمي كيف تحبّين نفسك حبًّا شاملاً ومخلصًا، فليست ثمّة وسيلة يمكن أن يحبّك بها الآخرون. ومع هذا، وإذا ما حقّقت تلك المرحلة، فإنّه ينبغي لك أن تتوجّهي بالشكر إلى كلّ شوكة ربّما رماك بها الآخرون. فتلك علامة تدلّ على أنّ الورود سوف تنهال عليك عمّا قريب).

وقفت في مكاني عاجزة عن التفوّه بأيّ كلمة في وقت شعرت أنّ استحواذي على ما هو حقيقي بدأ يفلت منّي. وفكّرت في كلّ الرجال الذين عاشرتهم ـ وفي الرائحة المنبعثة منهم وملمس أيديهم المتصلّبة وكيف كانوا يصرخون عند مجيئهم... شاهدت صبيانًا لطيفين يتحوّلون إلى وحوش، والوحوش تتحوّل إلى صبيان لطيفين. وفي إحدى المرّات جاءني زبون كان معتادًا البصاق على البغايا أثناء معاشرته لهنّ. وكان يردّد وهو يبصق في فمي أو على وجهي: «قذرة. أنت بغي قذرة».

والآن ها هو هذا الدرويش الذي يقول لي إنّني كنت أنظف من ماء الينبوع النقي. الكلام يبدو مثل نكتة تافهة ولكنّي عندما أرغمت نفسي على الضحك، فإنّ صوت الضحكة لم يمرّ من حنجرتي، وانتهى بي المطاف إلى أن أكتم نشيج بكائي.

قال شمس كأنّه قرأ أفكاري:

ـ الماضي دوّامة مائيّة، فإذا ما سمحت له أن يهيمن على لحظتك الراهنة، فسوف يقضي عليك. الزمان ليس سوى وهم. وأنت بحاجة إلى أن تعيشي في هذه اللحظة الآنيّة. هذا هو لبّ القضيّة.

وبعد أن فرغ من قوله هذا، أخرج منديلاً حريريًا من جيب ردائه الداخلي وقال:

ـ احتفظي به. لقد أعطاني إيّاه رجل طيّب في بغداد، ولكنّك بحاجة إليه أكثر منّي، وسوف يذكّرك بأنّ قلبك نقي وصاف وأنّك تحملين الله في جوانحك.

وهنا أمسك الدرويش بعكّازه ونهض واقفًا وهو يستعدّ للرحيل، وقال:

ـ حسبك أن تتركي ذلك المبغى!

ـ إلى أين؟ وكيف؟ ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه.

قال شمس وقد تألّقت عيناه:

ـ هذه ليست مشكلة. لا تضيعي في الأماكن التي ستقودك إليها الطرقات، بل ركّزي بدلاً من ذلك في الخطوة الأولى. فذلك هو أصعب

شيء وأنت المسؤولة عنه. وإذا اتّخذت تلك الخطوة الأولى، فاتركي كلّ شيء يأخذ مجراه على نحو طبيعي بعد ذلك، ثم تأتي بقيّة الأمور. لا تركبي الموجة، بل كوني أنت الموجة.

أومأت برأسي. ولم أضطرّ إلى السؤال كي أفهم أنّ هذه أيضًا إحدى القواعد.

* * *

سليمان السكّير

قونية، ١٧ تشرين الأوّل ١٢٤٤

قبل أن ينتصف الليل، كرعت آخر كأس وغادرت الحانة. فحذّرني خريستوس وهو يلوّح لي مودّعًا:

ـ تذكّر ما قلت لك. تنبّه للسانك.

أومأت برأسي، وشعرت أنّني محظوظ لأنّ لديّ مثل هذا الصديق الذي يهتمّ بي. ولكن ما إن خطوت أولى خطواتي في الشارع المظلم والمقفر حتى استبدّ بي إعياء لم أشعر به من قبل. تمنّيت لو أنّني أخذت زجاجة نبيذ كي أشرب منها.

وبينما كنت أتمايل وأترنّح بحذائي الثقيل فوق حصى الشارع المتكسّر، مرّ بخاطري مشهد الرجال في موكب الرومي. وتألّمت عندما تذكّرت بريق الكراهية والبغضاء يشعّ في عيونهم. وإذا كان هناك شيء واحد أكرهه في هذا العالم فهو الإفراط في الاحتشام. وقد نهرني متزمّتون وصالحون مرّات ومرّات حتى أصبحت ذكراهم كافية لأن ترتعد لها فرائصي.

استدرت من حول ناصية ومضيت في شارع فرعي وأنا أحاول التخلّص من تلك الأفكار. كانت الظلمة أشدّ حلكة في هذا الشارع نظرًا للأشجار الضخمة الشامخة من فوقه. ويبدو أنّ تلك الظلمة لم تكن كافية إذ توارى القمر على حين بغتة وراء سحابة، فلفّني ظلام دامس، ولولا ذلك

لتنبّهت إلى اثنين من رجال الأمن يتقدّمان في اتّجاهي.

فقلت بصوت بدا مرحًا أكثر ممّا ينبغي في محاولة لإخفاء جزعي:

ـ سلام عليكما.

غير أنّ الحارسين لم يردّا على تحيّتي، وبدلاً من ذلك سألاني عمّا أفعله في الشوارع في تلك الساعة المتأخّرة.

تمتمت:

ـ أتنزّه فحسب.

وقفنا وجهًا لوجه، يلفّنا صمت مربك لا يقطعه سوى نباح الكلاب على مسافة بعيدة. خطا أحد الرجلين خطوة نحوي وبدأ يشمّ الهواء، ونطق بغير تبصّر:

ـ المكان تنبعث منه رائحة كريهة.

قال الحارس الثاني مؤكّدًا:

ـ نعم، تفوح منه رائحة الخمر.

قرّرت أن أعالج الموقف معالجة هادئة.

ـ لا تشغلا باليكما، فالنتانة رمزيّة. ولَمَا كنّا مسلمين لا يسمح لنا إلّا بشرب الخمر رمزيًّا، فإنّ الرائحة لا بدّ أن تكون رمزيّة بدورها.

قال الحارس الأوّل مزمجرًا:

ـ ما هذا الذي تهذي به بحقّ الجحيم؟

وفي هذه اللحظة، برز القمر من وراء السحابة وشملنا بنور شاحب ومريح للنظر، وأصبح في إمكاني أن أرى الرجل الواقف أمامي. كان عريض الوجه، بارز الذقن، أزرق العينين ومدبّب الأنف. ولولا نظراته التي تنمّ عن عدم اكتراث، وعبوس وجهه الدائم لكان وسيمًا، بهيّ الطلعة.

كرّر الرجل ثانية:

ـ ما الذي تفعله في الشوارع في هذه الساعة المتأخّرة؟ من أين أتيت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟

لم أستطع إلّا أن أردّ قائلاً:

ـ هذه أسئلة صعبة يا بنيّ. ولو كنت أعرف لها جوابًا لتمكّنت من حلّ

لغز وجودنا في هذا العالم.

سأل الحارس وعقد حاجبيه وقبل أن أعرف ما الذي يحدث، أخرج سوطًا فرقع به الهواء قائلاً:

ـ أتسخر منّي أيّها البذيء؟

كانت حركته مبالغًا فيها فضحكت ضحكة خانقة. ثم قرّب السوط وانهال به على صدري في هذه المرّة على نحو مفاجئ أفقدني توازني، فسقطت على الأرض. ومضى يقول وهو ينقل السوط من يد إلى أخرى:

ـ ربّما سيعلّمك هذا كيف تتصرّف. ألا تعرف أنّ شرب الخمر من الكبائر؟

على الرّغم من أنّني شعرت بحرارة دمي ودوران رأسي في بحر من الألم، لم أصدّق أنّ شابًا في مثل عمر ابني ضربني وسط الشارع. قلت:

ـ إذًا هيّا، عاقبني. إذا كانت الجنّة محجوزة لأمثالك، فإنّني أفضّل نار جهنّم.

وفي نوبة غضب عارم، انهال الشابّ عليّ بالسوط بكلّ ما يملك من قوّة. غطّيت وجهي بيدي، دون فائدة. وفجأة تذكّرت أغنية قديمة، مرحة ووجدت طريقها إلى شفتي المدمّاتين. ولكي لا أظهر في حال تعس، بدأت أغنّي بصوت ازداد علوًّا وارتفاعًا عند كلّ ضربة سوط:

قبّلني يا حبيبي، انزع عن قلبي قشوره حتى اللبّ،
شفتاك عذبتان مثل خمرة الكرز، فاسقني أكثر.

وهكذا دفع استهزائي وسخريتي الحارس إلى أن يثور ثورة هوجاء. وكلّما أنشدت بصوت أعلى، ازداد ضربه لي. ولم أكن أتخيّل أنّ مثل هذا الغضب يمكن أن يكون متراكمًا في داخل إنسان واحد.

وسمعت صوت الحارس الثاني يصرخ مذعورًا:

ـ كفى يا بيبرس، كفى أيّها الرجل!

وتوقّف ضرب السوط بمثل النحو الفجائي الذي بدأ به، ولكنّني أردت أن تكون الكلمة الأخيرة لي، أن أقول شيئًا قويًا، باتًّا وقاطعًا ولكنّ الدم

في فمي كتم صوتي. شعرت بصوت في معدتي، وقبل أن أعرف شيئًا عن طبيعته، تقيّأت.

نهرني بيبرس قائلاً:

ـ لم تعد إلّا حطامًا، وما عليك إلّا أن تلوم نفسك لما فعلته بك.

ثم ولّاني الاثنان ظهريهما وانطلقا يلفّهما الظلام.

لا أدري كم مضى عليّ من الوقت وأنا مضطجع في ذلك المكان. ربّما ليس أكثر من بضع دقائق أو الليل بطوله. لقد فقد الزمان ثقله، وفقد معه كلّ شيء آخر وزنه أيضًا. فتوارى القمر من خلف السحب ولم يتركني دون ضياء فحسب، بل تركني لا أعرف من أنا. وسرعان ما ترنّحت في عالم النسيان بين الحياة والموت، لا أكترث إلى أين سينتهي بي المطاف. ثم بدأ الخدر يتلاشى، وشعرت بكلّ كدمة وكلّ أثر ضربة وكلّ جرح في جسمي، كلّها تؤلمني إيلامًا قاسيًا، تسبغ عليّ موجة إثر موجة من الألم. وكان رأسي يهتزّ، وأطرافي تتألّم، وصدر عنّي، وأنا في ذلك الحال، أنين يشبه أنين حيوان جريح.

لا بدّ أنّني فقدت وعيي، إذ ما إن فتحت عينيّ حتى وجدت سروالي يقطر بولاً، وكلّ طرف من أطرافي يؤلمني إيلامًا رهيبًا. توسّلت إلى الله أن يفقدني حواسّي أو يمنحني شرابًا عندما سمعت صوت وقع أقدام تقترب. وثب قلبي من بين ضلوعي، فقد يكون القادم ولدًا شقيًا من أولاد الشوارع، أو لصًا أو حتى قاتلاً، لكنّي فكّرت في نفسي بعد ذلك: ما الذي أخشاه؟ لقد وصلت نقطة لم يعد فيه الليل قادرًا على أن يأتي بما هو أكثر إثارة للرعب.

سار من بين الظلال درويش أصلع، طويل القامة، نحيف البنية. جثا على ركبتيه بجانبي، وساعدني على الجلوس، وقدّم نفسه على أنّه شمس التبريزي وسألني عن اسمي.

أجبت وأنا أخلع سنًّا متقلقلةً في فمي:

ـ سليمان السكّير من بلدة قونية في خدمتك. تسرّني معرفتك.

تمتم شمس وقد شرع يمسح الدم من على وجهي:

ـ أنت لا تنزف نزيفًا خارجيًّا فحسب، بل داخليًّا أيضًا.

وبعد أن تفوّه بهذه العبارة، أخرج قارورة فضّيّة من جيب جبّته وقال:

استخدم هذا المرهم وضعه على جروحك. لقد أعطاني إيّاه رجل صالح في بغداد، وأنت بحاجة إليه أكثر منّي. على أيّة حال، ينبغي لك أن تعرف أنّ الجرح في داخلك أعمق، وهذا هو الجرح الذي يتعيّن عليك أن تقلق بشأنه. وسيذكّرك هذا بأن الله موجود في داخلك.

سمعت نفسي أتلعثم بعد أن تأثّرت بعطفه:

ـ شكرًا لك. لقد جلدني بالسوط ذلك الحارس الأمني، وقال إنّني أستحقّ الجلد.

وعندما تفوّهت بكلماتي، صعقت لمّا سمعت الأنين الطفولي في صوتي وحاجتي إلى الراحة والحنان.

هزّ شمس التبريزي رأسه وقال:

ـ ليس لهم الحقّ في أن يفعلوا ذلك، فكلّ فرد قد اكتفى اكتفاء ذاتيًّا في بحثه عن العناية الإلٰهيّة، ثمّة قاعدة بهذا الشأن تقول: (لقد خلقنا كلّنا على صورته، ولكنّنا على الرّغم من ذلك نختلف، ولا يشبه أحدنا الآخر. لا يوجد اثنان متشابهان، ولا يوجد قلبان ينبضان على الإيقاع نفسه. ولو أراد الله أن نكون كلّنا متشابهين، لكان له ذلك. لهذا السبب، فإنّ عدم احترام الاختلافات، وفرض أفكار المرء على غيره، يرقى إلى عدم احترام النظام المقدّس الذي أبدعه الله).

قلت مندهشًا من انسيابيّة صوتي:

ـ يبدو كلامك منطقيًّا، ولكن ألا تراودكم أنتم الصوفيّين أيّة شكوك في شأنه؟

ابتسم شمس التبريزي ابتسامة تنمّ عن تعب وقال:

ـ نعم، تراودنا، ولكنّ الشكوك نافعة وتعني أنّك حيّ وأنّك تبحث.

تكلّم بلهجة ذات إيقاع كأنّه يقرأ في كتاب:

ـ فضلاً عن ذلك، فالإنسان لا يصبح مؤمنًا بين ليلة وأخرى. إنّه يعتقد أنّه مؤمن ثم يحدث شيء ما في حياته فيصبح غير مؤمن. وبعد ذلك

يتحوّل إلى مؤمن ثانية، ثم غير مؤمن وهكذا، حتى نصل مرحلة معيّنة نتذبذب فيها. وهذا هو الطريق الوحيد للمضي إلى أمام. وعند كلّ خطوة جديدة، نصبح أقرب إلى الحقيقة.

قلت:

ـ إذا ما طرق سمع خريستوس قولك هذا فسوف يخبرك بأن تحترس من لسانك، وهو يقول إنّ الكلمة الواحدة لا تناسب كلّ أذن.

أطلق شمس التبريزي ضحكة قصيرة.

ـ حسنًا، له الحقّ في هذا.

ثم وثب واقفًا على قدميه وأضاف:

ـ هيّا، دعني آخذك إلى البيت، ثمّة ضرورة لمعالجة جروحك والتأكّد من خلودك إلى النوم.

ساعدني في النهوض على قدمي، لكنّي لم أتمكن من السير إلّا بصعوبة. فما كان من الدرويش إلّا أن حملني دون تردّد وكأنّ وزني لا شيء، ووضعني على ظهره.

قلت خجلاً:

ـ حذار، فرائحتي كريهة.

ـ لا بأس يا سليمان، لا تقلق.

وهكذا حملني الدرويش على امتداد شوارع قونية الضيّقة غير آبه بالدم أو البول أو الرائحة الكريهة، ومررنا ببيوت وأكواخ غارقة في النوم. ونبحت كلاب في وجهينا نباحًا عاليًا وقويًّا من وراء أسوار البستان، مخبرة بذلك كلّ فرد عن وجودنا.

قلت:

ـ يستبدّ بي دائمًا حبّ الاستطلاع بشأن ذكر الخمر في الشعر الصوفي. هل يا ترى يمدح الصفيّون الخمر الحقيقي أم المجازي؟

سألني شمس التبريزي قبل أن ينزلني من على ظهره أمام بيتي:

ـ ما الفرق يا صديقي بين الاثنين؟ ثمّة قاعدة توضح هذا الأمر: (عندما يذهب حبيب الله الحقيقي إلى حانة، فإنّ تلك الحانة تصبح مكان

صلاته، ولكن عندما يذهب مدمن خمر إلى المكان نفسه، فإنّه يصبح حانته. إنّ قلبنا وليست مظاهرنا هي التي تجعل الأمر مختلفًا في كلّ شيء نقوم به. الصوفيّون لا يحكمون على الآخرين من مظهرهم أو من موقعهم. وعندما يتفرّس صوفي في أحد الناس، فإنّه يغمض عينيه، ويفتح بدلاً منهما عينًا ثالثة ـ العين التي ترى ملكوت الباطن).

فكّرت في كلّ ما حدث بعد أن أصبحت وحيدًا في منزلي عقب تلك الليلة الطويلة المرهقة. وعلى الرّغم من إحساسي بالشقاء فإنّ هدوءًا مبهمًا انتشر في مكان ما في أعماقي. وللحظة عابرة، لمحت شيئًا ما وتمنّيت لو ظلّ في مكانه إلى ما لا نهاية. في تلك اللحظة، أدركت أنّ الله موجود، وأنّه يحبّني.

ويا للغرابة، فعلى الرّغم من أنّني كنت متألّمًا ألمًا شديدًا، فلم أتوجّع.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٣ حزيران ٢٠٠٨

مرّ من أمام إيلّا طلّاب جامعيّون بسيّاراتهم، وجوههم تعلن عن سمرة بواكير الصيف، في حين ترامت إلى المسامع أنغام فريق بيتش بويز الموسيقيّة من نوافذ تلك السيّارات. راقبتهم إيلّا، لا تحسّ بسعادتهم إذ كان ذهنها يسترجع أحداث الأيّام القليلة الماضية. فقد وجدت أوّلاً كلبها وقد نفق في المطبخ. وعلى الرّغم من أنّها كانت أقنعت نفسها مرّات ومرّات أن تستعدّ لمثل هذه اللحظة، فلم تقع ضحيّة حزن عميق فحسب، بل ضحيّة الإحساس بالضعف والوحدة. كان تأثير خسارتها كلبها يوازي تأثير إخراجها من البيت ورميها في خضمّ العالم كلّه. ثم وجدت بعد ذلك أنّ أورلي تعاني الشره المرضي وأنّ كلّ زميلاتها في الصفّ تقريبًا كانوا يعرفون بذلك، ممّا تسبّب في موجة من الإحساس بالذنب لإيلّا دفعتها إلى أن ترتاب في علاقتها بابنتها الصغرى وأن تشكّ في صحّة معلوماتها بوصفها أمًّا. لم يكن الذنب عنصرًا جديدًا في مخزون مشاعر إيلّا ولكن ضياع هذه الثقة في أمومتها كان أمرًا جديدًا.

في هذه المرحلة، بدأت إيلّا تراسل عزيز زد زاهارا كلّ يوم، بل كانت ترسل له أحيانًا رسالتين أو ثلاثًا، أو حتى خمسًا على عنوان بريده الإلكتروني. فكتبت له عن كلّ شيء، وكان، لدهشتها البالغة، يردّ عليها ردودًا سريعة، أمّا من أين له الوقت، أو حتى الاتّصال عن طريق الإنترنت

ليلقي نظرة إلى بريد رسائله وهو يسافر في أماكن نائية، فذلك خارج حدود فهمها. لكن لم يمرّ وقت طويل حتى أمست مدمنة على كلماته. فكانت تتفحّص بريدها الإلكتروني كلّما حانت لها الفرصة ـ أوّل شيء تفعله في الصباح، وبعد تناول الفطور، وعندما تعود من تنزّهها الصباحي مشيًا، وعند إحضارها وجبة الغداء، وقبل الخروج من البيت لقضاء بعض الأشغال الضروريّة، وأحيانًا أثناء قضاء تلك الأشغال وذلك بالتوقّف عند مقهى من مقاهي الإنترنت. وكانت تترك حاسوبها المحمول مفتوحًا وترقب الرسائل الواردة أثناء مشاهدتها برامجها التلفازيّة المفضّلة وأثناء تقطيع الطماطم في نادي الطبخ، والحديث إلى صديقاتها بالهاتف، أو أثناء الإصغاء إلى توأميها وهما يتحدّثان بصخب عن المدرسة وواجباتهما المدرسيّة. وإذا لم تجد رسائل جديدة من عزيز، فإنّها تُعيد قراءة الرسائل القديمة. وفي كلّ مرّة كانت تتلقّى منه رسالة جديدة، تجدها عاجزة عن تجنّب الابتسام، مبتهجة من جهة، ومرتبكة من جهة أخرى لما يحدث. شيء ما يحدث.

وسرعان ما شعرت إيلّا وهي تبادل عزيز الرسائل أنّها بدأت تبتعد عن حياتها الهادئة والرصينة، وتحوّلت من امرأة تحتشد صورة حياتها بالكثير من الألوان البنّيّة والرماديّة الكئيبة إلى امرأة ذات لون غامض ـ أحمر برّاق يعدها بالآمال، فأحبّته.

لم يكن عزيز رجلاً من محبّي الدعابات والثرثرة، فهو يرى أنّ الناس ليسوا أحياء حقًّا إن لم يجعلوا قلوبهم دليلهم الأوّل في الحياة، ولم ينفتحوا على الحبّ ويسلكوا طريقه على النحو الذي تسلك فيه زهرة الشمس سبيلها نحو الشمس. (وفكّرت إيلّا في نفسها إن كان هذا من شأنه أن يضعها في قائمة عزيز الخاصّة بالأشياء الجامدة). فعزيز لم يكتب لها عن الطقس أو عن آخر الأشرطة السينمائيّة التي شاهدها، بل كتب عن أشياء أخرى أكثر عمقًا، كالحياة والموت، وقبل هذا وذاك، الحبّ. لم تكن إيلّا معتادة التعبير عن مشاعرها في مثل هذه الموضوعات، وبخاصّة أمام شخص غريب، ولكن ربّما تطلّب الأمر شخصًا غريبًا كي يجعل امراة مثلها تفتح عقلها.

وفكّرت إيلّا في نفسها: لو كان ثمّة أثر للغزل في مخاطبتهما، لكان

غزلاً يفيدهما معًا. في إمكان أحدهما مغازلة الآخر، وهما في ركنين نائيين في متاهة لا حدود لها من الفضاء الذي لا سبيل إلى السيطرة عليه. وكانت تأمل في استعادة قدر من الإحساس بأهمّيّتها التي فقدتها خلال زواجها وذلك بفضل هذه المراسلة المتبادلة. كان عزيز ذلك النمط النادر من الرجال الذي يمكن للمرأة أن تهواه دون أن تخسر كرامتها. وهو أيضًا، يمكنه أن يجد ما يبعث السرور في نفسه عندما يكون مركز اهتمام امرأة أميركيّة في خريف العمر، إنّ الفضاء الحاسوبي يكبر ويرطّب السلوك البعيد عن الخطوط، ويوفّر فرصة للمغازلة دون الوقوع في الخطيئة (وهو ما لم تكن راغبة فيه لأنّ لديها ما يكفيها حتى الآن) والمغامرّة دون مخاطر (وهو ما تريده لأنّها لم تغامر قطّ). كان الأمر أشبه بقضم فاكهة محرّمة دون الاضطرار إلى القلق بشأن السعرات الحراريّة الزائدة ـ إذ لا وجود هنا للعواقب.

إذًا ربّما كان تجديفًا بالنسبة لامرأة متزوّجة ذات أبناء إذا ما كتبت رسائل إلكترونيّة حميميّة لأحد الغرباء. ولكن في ضوء طبيعة علاقتهما البريئة، كان مثل هذا التجذيف عذبًا. هذا ما خلصت إليه إيلّا.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٥ حزيران ٢٠٠٨

عزيزي عزيز،

قلت في إحدى رسائلك السابقة إنّ الفكرة القائلة إنّنا يمكننا السيطرة على مجرى حياتنا باللجوء إلى الخيارات العقلانيّة إنّما هي فكرة سخيفة سخافة سمكة تحاول السيطرة على المحيط الذي تسبح فيه. فكّرت في جملتك التالية تفكيراً طويلاً: «إنّ فكرة معرفة النفس لم تلد توقّعات كاذبة وزائفة فحسب، بل ولدت أيضًا خيبات في الحياة لا توازي توقّعاتنا».

والآن حان دوري كي أعترف: فأنا جهاز قيادة استثنائي وغريب إلى حدّ ما. هذا في الأقلّ ما سيقوله لك الناس الذين يعرفونني معرفة حقّة. فحتى وقت قريب، كنت تلك الأمّ المتزمّتة جدًّا، لي العديد من القواعد (صدّقني، هي قواعد ليست لطيفة مثل قواعدك الصوفيّة)، ولا مجال للمساومة معي. في إحدى المرّات اتّهمتني ابنتي الكبرى بأنّني أتبنّى استراتيجيّة غوريلّا، وقالت إنّني أنقّب في حياتهم وأنّني أحاول من خندقي أن أستولي على فكرة أو رغبة عابرة ربّما تكون قد ساورتهم!

هل تتذكّر أغنية «كي سيرا، سيرا» حسنًا، أعتقد أنّها لم تكن يومًا ما أغنيتي. ولم تلائمني قطّ عبارة «المقدّر مكتوب»، لأنّني لا أستطيع أن

أساير التيّار. أعرف أنّك رجل متديّن، أمّا أنا فلست متديّنة. وعلى الرّغم من أنّ أسرتنا تحتفل بيوم السبت بين حين وآخر. فلا أتذكّر شخصيًّا آخر مرّة صلّيت فيها. (بل أعرف. قبل يومين في مطبخي، لكن هذه الصلاة غير مهمّة لأنّها كانت أشبه بالشكوى أمام الذات الأعلى).

ثمّة وقت من الأوقات يرجع إلى أيّام الكلّيّة عندما تعلّقت بروحانيّات الشرق وقرأت شيئًا عن البوذيّة والطاويّة، بل وصل بي الأمر إلى حدّ وضع الخطط مع إحدى صديقاتي الغريبات الأطوار لقضاء شهر في معتكف في الهند ولكن تلك المرحلة لم تدم طويلاً. كانت التعاليم الصوفيّة جذّابة ومغرية ولكنّي فكّرت أنّها مبالغة في الخضوع والاستسلام ولا يمكن أن تنطبق على الحياة الحديثة. لم أغيّر رأيي منذ ذلك اليوم.

أرجو ألّا يثير نفوري من الدين حفيظتك، كما أرجو أن تنظر إليه على أنّه اعتراف متأخّر عن ميعاده من إنسان يهتمّ.

المخلصة

إيلّا

عزيزتي إيلّا

وصلتني رسالتك وأنا أستعدّ لمغادرة أمستردام في طريقي إلى مالاوي، إذ كلّفت بالتقاط صور لسكّان إحدى القرى التي تفشّى فيها مرض الإيدز وأصبح فيها معظم الأطفال يتامى.

والآن، إذ سار كلّ شيء على ما يرام، فإنّني أعود بعد أربعة أيّام. هل يمكنني أن أؤمل ذلك؟ نعم. هل يمكنني السيطرة عليه؟ كلّا. كلّ ما يمكنني عمله هو أن آخذ حاسوبي وأحاول العثور على نقطة اتّصال جيّدة للإنترنت، كما أرجو أن أعيش يومًا آخر.

أمّا غير ذلك، فهو ليس بيدي، وهذا ما يسمّيه الصوفيّون العنصر الخامس ـ الفراغ. العنصر الإلهي الذي يصعب فهمه أو السيطرة عليه والذي لا يمكننا نحن البشر أن نفهمه وإن كان لزامًا علينا أن نكون واعين

به. أنا لا أؤمن بـ «اللافعل»، إن كنت بهذا تعنين عدم فعل أيّ شيء وعدم إظهار أيّ اهتمام عميق بالحياة. ولكنّي أؤمن باحترام العنصر الخامس.

أعتقد أنّ في وسعنا أن نعاهد الله. أعرف أنّني عاهدته. فعندما أصبحت صوفيًّا قطعت عهدًا على الله بأن أؤدّي دوري على أفضل وجه ممكن وأن أترك البقيّة له وليس لأحد سواه. وقبلت بالحقيقة القائلة إنّ ثمّة أشياء خارج حدودي، فلا يمكنني أن أرى إلّا بعض الأجزاء، مثل مقاطع شريط سينمائي. أمّا المشروع الأكبر فهو خارج نطاق حدود فهمي.

والآن، أنت تظنّين أنّني رجل متديّن. ولكنّي لست كذلك.

فأنا شخص روحاني، وهو شيء مختلف. فالتديّن والروحانيّات ليسا شيئًا واحدًا، وأعتقد أنّ الفجوة بين الاثنين لم تكن يومًا ما أكبر ممّا هي عليه اليوم. فعندما أنظر إلى العالم، أرى حيرة كبيرة. فمن جهة أولى، أنا أؤمن بحرّيّة الفرد وسلطته بغض النظر عن الحكومة أو المجتمع. إنّ الجنس البشري يزداد أنانيّة من مختلف الأوجه مثلما أنّ العالم يزداد نزوعًا نحو المادّيّة. من جهة أخرى، البشريّة تتّجه نحو الروحانيّة أكثر من ذي قبل، وبعد أن اعتمدنا على العقل زمنًا طويلاً، يبدو أنّنا وصلنا نقطة تحتّم علينا الاعتراف بحدود العقل.

واليوم، كما في العصور الوسطى، ثمّة اهتمام هائل بالروحانيّات، إذ تحاول أعداد متزايدة من الغربيّين أن تشقّ لنفسها طريقًا نحو هذه الروحانيّات في خضمّ حياتهم الكثيرة المشاغل. ولكن على الرّغم من حسن نيّاتهم، فإنّ أساليبهم غير دقيقة في أغلب الأحيان. فالروحانيّات ليست زينة توضع على طبق الطعام القديم نفسه، هي ليست شيئًا يمكننا إضافته إلى حياتنا دون إحداث تغييرات كبرى فيها.

أعرف أنّك تهوين الطبخ. أتدرين أنّ شمس التبريزي يقول إنّ العالم قدر هائل في حجمه وإنّ شيئًا كبير الحجم يُطبخ في داخله؟ نحن لا نعرف حتى الآن ما هو ذلك الشيء، فكلّ ما نفعله أو نشعر به أو نفكّر فيه إنّما هو مكوّن واحد من مكوّنات ذلك الخليط. لا بدّ لنا من أن نطرح السؤال على

أنفسنا: ما الذي نضيفه إلى ذلك القدر؟ أترانا نضيف النقمة والبغضاء والغضب والعنف؟ أم الحبّ والانسجام؟

وماذا عنك يا عزيزتي إيلّا؟ ما المكوّنات التي تعتقدين أنّك تضعينها في طبخة البشريّة الجماعيّة؟ كلّما أفكّر فيك، فإنّ الإضافة التي أضيفها هي ابتسامة كبيرة.

مع حبّي

عزيز

* * *

القسم الثالث

الريح

الأشياء التي تتغيّر وتنشأ وتتحدّى

المتعصّب

قونية، ١٩ تشرين الأوّل ١٢٤٤

كانت الكلاب تنبح وتزمجر من تحت نافذتي المفتوحة. فاعتدلت في فراشي مرتابًا في أنّ الكلاب لا بدّ قد تنبّهت إلى وجود لصّ يحاول اقتحام أحد المنازل، أو ربّما كان أحد السكارى القذرين يمرّ في الجوار. اليوم، لم يعد الناس المحترمون بقادرين على النوم نومًا هانئًا. فالفجور والفسوق ينتشران في كلّ مكان. لم تكن الأوضاع على هذا الحال. فقد كانت هذه البلدة مكانًا أكثر أمنًا إلى سنوات قليلة خلت. والفساد الأخلاقي لا يختلف عن مرض رهيب يداهم مكانًا دون سابق إنذار وينتشر انتشارًا سريعًا فيصيب الأغنياء والفقراء، الكبار والصغار دون استثناء. هكذا أصبح حال بلدتنا اليوم. ولولا وظيفتي في المدرسة لما خرجت من بيتي إلّا نادرًا.

حمدًا لله، فهناك أناس يضعون منفعة الجماعة قبل منفعتهم الشخصيّة، ويشتغلون ليل نهار لحفظ النظام. الناس يحبّون ولدي بيبرس، وأنا وزوجتي نفتخر به. وممّا يبعث على الاطمئنان أنّ بيبرس وزملاءه من حرّاس الأمن يجولون في البلدة لحمايتنا في هذه الساعة المتأخّرة من الليل في حين يطلق الأوغاد والمجرمون والسكارى العنان لأنفسهم في الصخب والعربدة.

بعد وفاة أخي في مقتبل العمر، أصبحت الوصيّ الأوّل على بيبرس الذي بدأ شابًا عازمًا على العمل حارسًا أمنيًا قبل ستّة أشهر. وزعم محبّو القيل والقال إنّه حصل على هذه الوظيفة بفضل موقعي معلّمًا في المدرسة.

كلام فارغ! فبيبرس لديه من القوّة والشجاعة ما يجعله أهلاً للوظيفة، وكان يصلح لأن يكون جنديًا ممتازًا، وأراد الذهاب إلى القدس لمحاربة الصليبيّين ولكنّي فكّرت أنا وزوجتي أنّ وقته حان للاستقرار وتكوين أسرة.

قلت له:

ـ نحن بحاجة إليك هنا يا بنيّ. فثمّة أشياء كثيرة ينبغي لك أن تحاربها في هذه البلدة أيضًا.

في الحقّ، كانت هناك أشياء كثيرة. ففي هذا الصباح، أخبرت زوجتي أنّنا نعيش في أوقات عصيبة، وليس مصادفة أنّنا نسمع في كلّ يوم عن مأساة جديدة. فإذا كان المغول يحقّقون ما نسمع من انتصارات، وإذا أفلح النصارى في تعزيز قضيّتهم، وإذا ما اجتاح أعداء الإسلام البلدات والقرى واحدة تلو الأخرى، فإنّ سبب ذلك يرجع إلى الناس الذين هم مسلمون بالاسم لا أكثر. فعندما يتخلّى الناس عن التشبّث بحبل الله، فسوف يضيعون. وما أرسل المغول إلينا إلّا لمعاقبتنا على آثامنا. ولو لم يكن هؤلاء المغول، فستكون بدلاً منهم هزّة أرضيّة أو مجاعة أو فيضان. كم مصيبة وكارثة ينبغي لنا أن نعيشهما بسبب الآثمين في هذه البلدة حتى يفهموا الرسالة ويندموا على أفعالهم؟ إنّني أخشى أن تمطر علينا السماء حجارة تضرب رؤوسنا. وعمّا قريب سيأتي اليوم الذي نمحى فيه من على وجه الأرض ويحلّ بنا ما حلّ بأهل سدوم وعامورة(*).

أمّا الصوفيّون فإنّ تأثيرهم بالغ السوء. كيف يمكنهم أن يسمّوا أنفسهم بالإسلام عندما يتفوّهون بأشياء لا ينبغي لأيّ مسلم حتى التفكير فيها؟ إنّ دمائي تغلي عندما أسمعهم ينطقون باسم النبي ﷺ للدفاع عن أفكارهم السخيفة. فهم يقولون إنّ النبي محمّد كان قد أعلن أنّ رجاله كانوا بسيرهم إلى المعركة إنّما يتركون الجهاد الأصغر من أجل الجهاد الأكبر ـ وهو محاربة المرء نفسه. إنّ الصوفيين يجادلون بأنّ النفس هي العدوّ الوحيد

(*) سدوم وعامورة: مدينتان كنعانيّتان قديمتان حلّت بهما كارثة أرضيّة في القرن التاسع عشر ق.م. فخربتهما ومدنًا أخرى واقعة جنوبي البحر الميت. ذكرت التوراة أنّهما أُحرقتا بالنار والكبريت قصاصًا لفساد أهلهما وشذوذهم الأخلاقي وهم قوم لوط عليه السلام. (المترجم).

الذي ينبغي للمسلم أن يحاربه. كلام جميل. ولكن كيف يمكن أن يساعد ذلك في الحرب على أعداء الإسلام؟ لا أدري.

إنّ الصوفيّين يبالغون في تطرّفهم عندما يزعمون أنّ الشريعة ليست سوى محطّة على الطريق. أيّ محطّة؟ ما الذي يتحدّثون عنه؟ ويبدو أنّ هذا الكلام لا يثير ما يكفي من الذعر فتراهم يجادلون بأنّ الإنسان المستنير لا يمكن أن تقيّده قوانين المحطّات السابقة. ولَما كانوا يحبّون النظر إلى أنفسهم بوصفهم وصلوا مستوى ممتازًا، فإنّهم يستخدمونه مبرّرًا بائسًا لكي لا يلتزموا بقوانين الشريعة. ولهذا يبدو الشرب والرقص والموسيقى والشعر والرسم أكثر أهمّيّة عندهم من الواجبات الدينيّة.

ويظلّون يردّدون في خطبهم بأنّه ما دام الإسلام يفتقر إلى المرجعيّة، فإنّ لكلّ واحد طريقته الخاصّة به في السعي إلى الله. تبدو هذه الأقوال لا غبار عليها ولا ضرر فيها، ولكن ما إن يخوض المرء في حشو الكلام الباعث على السأم حتى يكتشف أنّ رسالتهم تنطوي على جانب شنيع وهو أنّ المرء غير مضطرّ إلى الالتفات إلى السلطات الدينيّة!

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالصوفيّين، فإنّ القرآن الكريم يحتشد بالرموز الغامضة والإشارات المبطّنة التي ينبغي تفسيرها تفسيرًا صوفيًّا. وهكذا يفحصون كيفيّة تحوّل كلّ كلمة إلى عدد، ويدرسون المعنى الخفي لهذا العدد ويبحثون عن إشارات مبطّنة في النصّ، باذلين أقصى ما في وسعهم لتجنّب قراءة رسالة الله الواضحة والجليّة.

ويذهب الأمر ببعض الصوفيّين إلى القول إنّ البشر هم القرآن الناطق، ولا أدري ما معنى مثل هذا الكلام إن لم يكن هو الكفر بعينه، ثم إنّ هناك الدراويش الجوّالين، وهم مرتبة أخرى مضطربة من الأشخاص غير

(*) القلندريّون والحيدريّون والجاميّون: القلندريّة طريقة تصوّف أسّسها قلندر يوسف العربي الإسباني، وجاء بها إلى دمياط (مصر) الشيخ جلال الدين الساوي. والحيدريّون، نسبة إلى حيدر بن جنيد، الصوفي الإيراني الذي اشتهر في أردبيل وهو جدّ الصوفيّين ملوك إيران، قُتل في محاربة الآق قيونلو، أسّس ابنه إسماعيل

المتكيّفين في المجتمع، وينضوون تحت مختلف المسمّيات: القلندريّون والحيدريّون والجاميّون(*). أنا أقول إنّ هؤلاء هو الأسوأ. ما النفع الذي يمكن للمرء أن يجنيه من إنسان لا يستطيع الاستقرار في مكان ما؟ إذا لم يكن للإنسان إحساس بالانتماء إلى مكان، فإنّ في مستطاعه أن يهيم في كلّ اتّجاه، مثل ورقة شجرة تتقاذفها الريح. ضحيّة شيطان نموذجيّة.

وليس الفلاسفة بأفضل حال من الصوفيين، وهم يجترّون أفكارهم ويطيلون التفكير كأنّ عقولهم القاصرة يمكنها أن تدرك الكون الذي لا يمكن إدراكه! وثمّة قصّة تؤشّر المؤامرة بين الفلاسفة والصوفيّين.

التقى أحد الفلاسفة درويشًا في يوم من الأيّام، وسرعان ما انسجم الاثنان ووجد كلّ واحد في الآخر صديقًا له. وتحدّث الاثنان على مدى أيّام بلا توقّف، يكمل أحدهما الآخر جملة الآخر.

وفي نهاية المطاف، عندما افترقا، قال الفيلسوف عن الحديث: إنّه يرى كلّ ما أعرفه. أمّا الصوفي فقال: إنّه يعرف كلّ ما أراه.

وهكذا إذن. فالصوفي يعتقد أنّه يرى، والفيلسوف يعتقد أنّه يعرف. أمّا وجهة نظري فهي أنّهما لا يريان أيّ شيء ولا يعرفان أيّ شيء. ألا تدركون أنّنا بشر بسيطون ومحدودون وبالتالي فانون ولهذا ليس من المتوقّع منّا أن نعرف ما لا ينبغي لنا أن نعرفه؟ إنّ أقصى ما يستطيع الإنسان الوصول إليه هو معرفة سطحيّة بسيطة عن الله العلي العظيم. هذا كلّ شيء. إنّ مهمّتنا ليست تفسير تعاليم الله بل الالتزام بها.

عندما يعود بيبرس إلى البيت، سوف نناقش هذه القضايا، فقد أصبح

= الأوّل دولة الصوفيين الشيعة في إيران عام ١٥٠١. أمّا الجاميّون فهم جماعة نور الدين الجامي (١٤١٤ ـ ١٤٩٢)، الشاعر الإيراني الصوفي، وهو من الشعراء البارزين في العرفان. له «هفت أورنك» سبع مثنويّات قصصيّة و«يوسف وزليخة». وهنا لدينا ملاحظة مهمّة وهي إذا كانت أحداث هذا الفصل تجري في العام ١٢٤٤، فكيف يمكن للراوي أن يتحدّث عن هذه الفرق الصوفيين التي جاء تأسيسها وانتشارها بعد أكثر من قرنين من الزمان؟ (المترجم).

مثل هذا النقاش عادتنا وطقسنا البسيط. ففي كلّ ليلة، وبعد انتهاء نوبة حراسته يتناول حساء ورغيف خبز تعدّه له زوجتي، ونتبادل أطراف الحديث عن مجريات الأمور. ويسرّني أن أرى مدى شهيّته الطيّبة للطعام. لا بدّ له أن يكون قويًّا. فمن كان مثله شابًّا في مقتبل العمر، ومنضبطًا، فإنّ أمامه عملاً كثيرًا يتطلّب إنجازه في هذه البلدة البعيدة عن الورع والتقوى.

* * *

شمس

قونية، ٣٠ تشرين الأوّل ١٢٤٤

قبل ليلة واحدة من لقائي الرومي، جلست في شرفتي في حانة باعة السكّر. وكان فؤادي مفعمًا بالبهجة والسرور لعظمة الكون الذي خلقة الله على صورته، فحيثما التفتنا أصبح في إمكاننا البحث عنه والعثور عليه. ومع هذا، فقلّما يلجأ بنو البشر إلى هذا البحث إلّا نادرًا.

استعدت إلى خاطري الأشخاص الذين التقيتهم ـ الشحّاذ والغانية والسكّير، أشخاصًا عاديّين يعانون داء مشتركًا وهو الافتراق عن الواحد الأحد. هؤلاء هم نمط من البشر أخفق العلماء في رؤيتهم وهم جالسون في أبراجهم العاجيّة. وفكّرت في نفسي إن كان الرومي يختلف بأيّ حال من الأحوال عن هؤلاء العلماء. وإذا لم يكن مختلفًا عنهم، فقد آليت على نفسي أن أكون قناة بينه وبين المظلومين في المجتمع.

أخيرًا، استسلمت البلدة للنوم. في ذلك الوقت من الليل، كانت حتى الحيوانات الليليّة عازفة عن إقلاق السكينة المخيّمة في الأرجاء. كنت دومًا أشعر بحزن شديد وغبطة كبيرة في آن واحد عندما أصغي لبلدة ما وهي تخلد للنوم، مفكّرًا في نفسي بالحكايات التي تحكى من وراء أبواب مغلقة، والقصص التي كان من شأني أن أعيشها ولو أنّني اخترت طريقًا آخر. لكنّني لم ألجأ إلى اصطفاء ما يحلو لي. ولو كان ثمّة اصطفاء، فإنّ الطريق هو الذي اصطفاني.

وتذكّرت حكاية.

وصل أحد الدراويش بلدة لم يكن أهلها يثقون بالغرباء. لهذا صاحوا به: «اخرج من هنا! لا أحد يعرفك في هذا المكان!» فردّ عليهم الدرويش في هدوء: «صحيح، ولكنّي أعرف نفسي. صدّقوني لو كان الأمر معكوسًا لكانت الأمور أسوأ».

وهكذا، فما دمت أعرف نفسي، فإنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. وكلّ من عرف نفسه، عرف الواحد الأحد.

غمرني القمر بنوره الدافئ، وبدأ مطر خفيف ورقيق مثل وشاح من حرير يسقط على البلدة، فشكرت الله هذه اللحظة الميمونة وسلّمت أمري إليه. مرّة أخرى، خطرت ببالي فكرة هشاشة الحياة وقصرها، فتذكّرت قاعدة أخرى: (الحياة قرض موقّت، وهذا العالم ليس سوى تقليد تافه للحقيقة. الأطفال وحدهم يخطئون الدمية فيتصوّرونها شيئًا حقيقيًا. ومع هذا، فإنّ بني البشر إمّا تخلب لبّهم الدمية أو يحطّمونها دون احترام ويرمون بها جانبًا. وفي هذه الحياة، ابق بعيدًا عن كلّ أنواع التطرّف، لأنّها ستحطّم توازنك الداخلي. الصوفيّون لا يلجأون إلى التطرّف. الصوفي يظلّ هادئًا ومعتدلاً دومًا).

في صبيحة اليوم التالي، سأذهب للمسجد الكبير للاستماع إلى الرومي. وفي وسعه أن يكون خطيبًا مفوّهًا، كما يردّد الآخرون، لكن نطاق كلّ خطيب ومداه لا يقرّرهما إلّا جمهوره في نهاية المطاف. ربّما تكون ألفاظ الرومي مثل بستان برّي يحتشد بنباتات الدبساسيّة والأعشاب والرايتنجيّة والشجيرات ذات السيقان المتعدّدة، ولكنّ الزائر هو الذي يقرّر ماذا يريد أن يقطف من بين كلّ هذه الأنواع. وإذا كانت الزهور الجميلة تجد دومًا من يقطفها على الفور، فإنّ قليلا من الناس ينجذبون إلى النباتات ذات الأشواك. غير أنّ الحقيقة هي أنّ أعظم الأدوية تصنع من هذه النباتات.

أليس الأمر شبيهًا ببستان الحبّ؟ كيف يمكن للحبّ أن يكون جديرًا باسمه إذا ما التقى أحد الناس الأشياء الجميلة لا غيرها وترك الأشياء الصعبة؟ سهل جدًا أن يستمتع المرء بالطيّب ويكره الرديء. يمكن لكلّ

إنسان أن يفعل ذلك. لكنّ التحدّي الحقيقي يكمن في أن يحبّ الإنسان ما هو لذيذ وما هو غير لذيذ معًا، لا لأنّك مضطر إلى أخذ الخشن مع الناعم، بل لأنّك يجب أن تذهب إلى ما هو أبعد من هذه التوصيات وأن تقبل الحبّ بقضّه وقضيضه.

ثمّة يوم واحد آخر قبل أن يحين لقائي برفيقي، ولهذا لا أستطيع النوم.

آه، أيّها الرومي! يا ملك ملكوت الكلمات والمعاني! هل ستعرفني عندما تراني؟

تراني!

* * *

الرومي

قونية، ٣١ تشرين الأوّل ١٢٤٤

مبارك هذا النهار لأنّني التقيت شمس التبريزي. في هذا اليوم الأخير من شهر تشرين الأوّل، كانت للجوّ برودة جديدة، وهبّت الريح أشدّ وأقوى، معلنة رحيل الخريف.

كان المسجد عصر هذا اليوم مزدحمًا كمألوف عادته. عندما ألقي خطبتي أمام حشد كبير من المستمعين، فإنّي على الدوام أحاذر في ألّا أنسى وألّا أتذكّر جمهوري في آن واحد. ثمّة طريقة واحدة لتحقيق هذا الشيء وهو أن أتخيّل الحشد أمامي وكأنّه شخص واحد لا أكثر. مئات من الناس يستمعون إليّ في كلّ أسبوع ولكنّي لا أتحدّث إلّا إلى إنسان واحد بمفرده ـ الإنسان الذي يسمع كلماتي تتردّد في فؤاده، ويعرفني على نحو لا يعرفه غيره.

عندما خرجت من المسجد بعد ذلك، وجدت جوادي مستعدًّا لي. فقد عقدت خصلات شعر الحيوان بهيئة ضفائر تزيّنها أجراس صغيرة، ذهبيّة وفضّيّة. سررت بالاستماع إلى رنين الأجراس في كلّ خطوة يخطوها، ولكن شقّ علينا المضيّ قُدُمًا على جناح السرعة بسبب حشود الناس التي سدّت الطريق. ومررنا بخطوات محسوبة بدكاكين وبيوت مهلهلة سقوفها مصنوعة من سيقان القشّ. وكانت صيحات المشتكين تمتزج ببكاء الأطفال، وهتافات الشحّاذين التوّاقين إلى كسب نقود قليلة. أراد معظم هؤلاء الناس أن أصلّي من أجلهم، وتمنّى بعضهم السير قريبًا منّي لا أكثر

ولكن آخرين جاءوا يتطلّعون تطلّعات أكبر من ذلك، طالبين منّي أن أشفيهم من مرض مميت أو من سحر شرّير، فكانوا مبعث قلقي. كيف لا يفهم هؤلاء أنّني غير قادر على اجتراح المعجزات وأنّني لست حكيمًا ولا نبيًّا؟

عندما انعطفنا عند ناصية أحد الشوارع واقتربنا من حانة باعة السكّر، تنبّهت إلى درويش جوّال يشقّ طريقة وسط الجمع الغفير، متبخترًا في اتّجاهي مباشرة ويرمقني بنظرات من عينيه الثاقبتين. كانت حركاته خفيفة، ومركّزة، موحيًا مظهره بمقدرة كافية. كان أصلع الرأس، حليق الذقن، وبلا حاجبين. وعلى الرّغم من أنّ وجهه كان مكشوفًا إلى أبعد الحدود، فقد كانت أماراته مبهمة وملغّزة.

لكنّ الذي أثار اهتمامي وحيّر لبّي لم يكن وجهه، فقد سبق لي، وعلى امتداد سني حياتي، أن شاهدت الدراويش الجوّالين على اختلاف أنواعهم يمرّون ببلدة قونية بحثًا عن الله. وكان معظم هؤلاء الدراويش موسومين بوشوم مثيرة للانتباه، ويعلّقون الأقراط في آذانهم وأنوفهم، مسرورين من كلمة «عاص» المنتشرة عليهم جميعًا. وكان شعرهم طويلاً جدًّا أو حليقًا برمّته. وكان بعض القلندريّين مثقوبي الألسن والحلمات. ولهذا فإنّني عندما أشاهد درويشًا أوّل مرّة، فإنّ أوّل شيء يثير اهتامي فيه ليس مظهره الخارجي، بل تحديقته ونظرته المتفرّسة إن جاز لي التعبير.

كانت عيناه السوداوان تتّقدان في اتّجاهي، أشدّ مضاء من الخناجر، عندما وقف في منتصف الطريق ورفع ذراعيه عاليًا، وبسطهما كأنّه لا يريد إيقاف الموكب وحده فحسب، بل إيقاف سريان الزمان أيضًا. وشعرت برجّة تسري في بدني مثل هاجس مفاجئ وارتبك جوادي وبدأ يصهل صهيلاً قويًّا، ويهزّ رأسه إلى أعلى وأسفل. حاولت تهدئته ولكنّه ازداد جفولاً حتى أربكني بدوري.

اقترب الدرويش من جوادي أمام أنظاري، وكان الجواد يجفل ويدور، وهمس فيه همسًا خافتًا غير مسموع فبدأ الحيوان يتنفّس تنفّسًا ثقيلاً. ولكن عندما لوّح الدرويش بيده في حركة أخيرة، هدأ الحيوان من فوره، فسرت وسط الحاضرين موجة من الحماسة وطرق سمعي أحدهم وهو يغمغم:

ـ هذا سحر أسود!

نظر الدرويش إليّ نظرة تنمّ عن حبّ استطلاع دون أن يعير اهتمام لما حوله. قال:

ـ يا عالم الشرق والغرب الكبير! لقد طرق سمعي شيء كثير عنك، وقد جئت اليوم إلى هذا المكان لأطرح عليك سؤالاً. فهل تقبل؟

قلت بصوت خفيف:

ـ هيّا، اسأل.

ـ حسنًا. لا بدّ لك من أن تترجل أوّلاً عن جوادك لتكون في المستوى نفسه الذي أنا عليه.

ذُهلت ذهولاً كبيرًا لهذا الكلام ممّا جعلني أعجز عن الكلام برهة وجيزة. وبدا الناس من حولي وقد أخذوا على حين غرّة، إذ لم يسبق لأحد أن تجرّأ وكلّمني على هذا النحو.

شعرت بوجهي يتّقد ومعدتي تتلوّى انزعاجًا ولكنّني تمكّنت من التحكّم في نفسي وترجّلت عن جوادي، غير أنّ الدرويش كان قد استدار على عقبيه ومضى في سبيله. ولمّا لحقت به، قلت له مخاطبًا:

ـ انتظر أرجوك! فأنا أريد أن أسمع سؤالك.

توقّف الدرويش والتفت مبتسمًا للمرّة الأولى، وقال:

ـ حسنًا. قل لي من فضلك، أيّهما أكبر، النبي محمّد أم البسطامي الصوفي؟

قلت:

ـ ما هذا السؤال كيف يمكنك أن تقارن بين نبيّنا الأكرم ﷺ وخاتم الأنبياء بصوفي فظيع؟

كان جمع غفير من الناس قد احتشدوا من حولنا ولكن لم يظهر على الدرويش ما يشير إلى اعتراضه على وجودهم، بيد أنّ الدرويش ألحّ في سؤاله وهو يتفرّس في وجهي بعناية شديدة، وقال:

ـ أرجوك فكّر في الموضوع. ألم يطلب النبي من الله أن يغفر له لأنّه قال: «ما عرفناك حقّ معرفتك» في حين قال البسطامي: «العظمة لي، ليس

في جبّتي سوى الله» أيّهما أعظم في رأيك؟(*).

أحسست بفؤادي ينبض في بلعومي، فالسؤال لم يعد يبدو سؤالاً عبثيًا بعد الآن. في الحقّ، بدا الأمر وكأنّ قناعًا قد رفع فظهرت من تحته حيرة مربكة تنتظرني. وافترّ ثغر الدرويش عن ابتسامة خاطفة كنسمة عابرة، وأدركت الآن أنّه ليس بمعتوه أو مجذوب، بل كان رجلاً ذا قضيّة ـ قضيّة لم أفطن لها من قبل.

بدأت كلامي ولم أكن راغبًا في أن يسمع أيّ رجفة في صوتي:

ـ أفهم ما تحاول قوله. سأقارن العبارتين وسأخبرك، حتى إن بدت عبارة البسطامي طنّانة أكثر، إنّ القضيّة معكوسة تمامًا.

قال الدرويش:

ـ كلّي آذان صاغية لك.

ـ كما ترى، فإنّ حبّ الله محيط لا أوّل له ولا آخر، وأنّ البشر يسعون إلى غرف أكبر كمّيّة من مياهه. غير أنّ خلاصة الأمر هي أنّ كمّيّة الماء التي يمكن لكلّ واحد منّا أن يحصل عليها إنّما تعتمد على حجم أكوابنا. فبعض الناس يملكون براميل، والآخرون دلاء، في حين لا تملك فئة ثالثة إلّا أوعية صغيرة.

حرصت أثناء كلامي على أن أراقب سحنة الدرويش وهي تتحوّل من ازدراء خفيف إلى إقرار واضح وصريح، ليتحوّل بعد ذلك إلى ابتسامة رقيقة

(*) يورد شمس الدين الأفلاكي، مؤرّخ المولوديّة، هذه الحادثة في كتابه مناقب العارفين، ١٣٥٤، عن حياة جلال الدين الرومي، على الوجه الآتي: حينما جاء مولانا ذات يوم من المدرسة إلى سوق باعة القطن في قونية وكان راكبًا على بغلة يحيط به جماعة من طلّاب العلم صادفه شمس الدين التبريزي فجأة وسأله: أيهما أكبر بايزيد البسطاني أم محمّد بن عبد الله؟ فقال مولانا ما هذا السؤال؟ إنّ محمد خاتم الانبياء. فكيف يمكن أن نقارن بينه وبين بايزيد؟ فقال شمس التبريزي: فلماذا يقول النبي «ما عرفناك حقّ معرفتك» في حين يقول البسطامي: «سبحاني ما أعظم شأني». فاضطرب مولانا بحيث سقط عن بغلته واعترته دهشة وبعد ما عاد إليه وعيه ذهب مع شمس الدين إلى المدرسة واختلى به أربعين يومًا في حجرة. (المترجم).

لإنسان يستدلّ على أفكاره من كلمات غيره.

ـ كان إناء البسطامي صغيرًا نسبيًّا، وأطفأ ظمأه بعد ملء فمه منه، وكان سعيدًا في المرحلة التي هو فيها. المدهش أنّه استدلّ على الألوهيّة في نفسه، ولكن حتى في مثل تلك الحالة يظلّ هناك فرق بين الله والذات. الوحدة لم تتحقّق. أمّا بخصوص النبي، فقد اختاره الله وكان لديه وعاء أكبر ليملأه. ولهذا خاطبه الله في القرآن سائلاً إيّاه: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾(*). وبهذا فإنّ قلبه كان واسعًا، ووعاءه كبيرًا، وكان دائم الظمأ. ولهذا فإنّه ليس ممّا يبعث على الدهشة إن قال بأنّه لم يعرفه حقّ المعرفة على الرّغم من أنّه كان على وجه التوكيد يعرفه أكثر ممّا عرفه بشر غيره.

أومأ الدرويش برأسه وافترّ ثغره عن ابتسامة تنمّ عن صفاء سريرته وتوجّه بالشكر لي. ثم وضع يده فوق قلبه دليلاً على امتنانه وظلّ كذلك برهة وجيزة. ولمّا التقت أعيننا من جديد، تنبّهت إلى وجود أثر للرقّة وقد زحف إلى تحديقته.

طفت ببصري إلى ما وراء الدرويش وفي متّجه الطبيعة الرماديّة كاللؤلؤ وهو اللون النموذجي الذي تكتسبه بلدتنا في هذا الوقت من العام، وانزلقت بضع وريقات شجر يابسة من حول أقدامنا، ونظر الدرويش إليّ في اهتمام متجدّد وفي وسعي أن أحلف اليمين على أنّني رأيت هالة بلون العنبر من حوله تحت نور أشعّة الشمس التي آذنت بالمغيب.

انحنى لي انحناءة تنمّ عن احترام، فانحنيت له بدوري. لا أعرف كم بقينا واقفين على ذلك الحال، بينما كانت السماء بنفسجيّة اللون، معلّقة فوق رؤوسنا. وبعد مضي وقت قليل، بدأ الجمع الغفير من حولنا يتململ بعد أن اضطر إلى الاستماع إلى حوارنا في دهشة اقتربت من الاستهجان. فهؤلاء الناس لم تسبق لهم مشاهدتي منحنيًا لأيّ بشر من قبل، وكان انحنائي لمثل هذا الصوفي الجوّال البسيط قد جاء أشبه بصدمة لبعض الناس بينهم أقرب تلاميذي.

لا بدّ أنّ الدرويش شعر بالاستهجان الذي خيّم على الأجواء، فقال

(*) أنظر القرآن الكريم سورة الشرح (٩٤ : ١) (المترجم).

بصوت ذي جرس مخملي، يكاد يكون همسًا:

ـ يستحسن بي أن أذهب في سبيلي الآن وأتركك لمعجبيك.

غير أنّي اعترضت قائلاً:

ـ انتظر! أرجوك لا تذهب. ابق هنا!

لمحت أثر التفكير العميق على وجهه، وتغضّن شفتيه الحزين كأنّه يريد أن يسترسل في الكلام ولكنّه لا يستطيع أو لا يريد. وفي تلك اللحظة، في ذلك الصمت، سمعت السؤال الذي لم يسألني إيّاه:

ـ وأنت أيّها الخطيب المفوّه؟ قل لي، ما حجم كوبك؟

ثم لم يعد ثمّة شيء آخر ينبغي قوله، فقد نفدت كلماتنا، وتقدّمت خطوة في اتّجاه الدرويش، ولمّا اقتربت منه اقترابًا شديدًا، استطعت أن أشاهد النقاط الذهبية في عينيه السوداوين. وعلى حين بغتة داهمني إحساس غريب كأنّني مررت بمثل هذه اللحظة من قبل، ليس مرّة واحدة، بل مرّات ومرّات. فبدأت أتذكّر أشياء صغيرة، رجلاً فارع الطول، نحيل البنية، يضع قناعًا على وجهه، ومتوقّد الأصابع. ثم أدركت أنّ الدرويش الذي وقف قبالتي لم يكن سوى ذلك الرجل الذي كان يتراءى لي في أحلامي.

وعرفت أنّني عثرت على رفيقي. ولكن بدلاً من الإحساس بنشوة البهجة الذي كنت أتوقّعه، فإنّ قشعريرة باردة استبدّت بي(*).

* * *

(*) يشير الأفلاكي إلى أنّ أهمّ ما دار من حديث في تلك الخلوة بين جلال الدين الرومي وشمس التبريزي والتي دامت أربعين يومًا في حجرة المدرسة (وليس في بيت الرومي نفسه كما تقول الروائيّة في أحداث هذه الرواية) إلى أنّ شمس الدين التبريزي سأل مولانا: ما هو الغرض من تعلّم العلم؟ فأجاب مولانا: معرفة أداب الشريعة. قال شمس الدين: إنّ هذه كلّها ألفاظ، فقال مولانا: فأجب أنت. قال شمس الدين إنّما العلم هو الذي يوصلك إلى المعلوم وأنشد هذا البيت للشاعر (الصوفي المتوفي نحو ١١٣١) السنائي:

العلم الذي لا ينقذك من نفسك — خير منه الجهل مائة مرّة

فاضطربت روح مولانا بهذا الجواب واعترته الدهشة بحيث ترك قيل وقال المدرسة أي الدرس والتدريس. (المترجم).

إيلّا

نورثهامبتون، ٨ حزيران ٢٠٠٨

بعد أن حاصرت إيلّا أسئلة لا تعرف لها جوابًا، تبيّن لها أنّ ثمّة أشياء لا تعدّ ولا تحصى أدهشتها بخصوص مراسلاتها مع عزيز، ولاسيّما أنّ تلك المراسلات مستمرّة. فقد كان هذا الاثنان، هي وهو، يختلفان أحدهما عن الآخر في كلّ منحى واتّجاه اختلافًا دفعها إلى التفكير في ما لديهما من أمور مشتركة تجعلهما يتبادلان الرسائل مرارًا.

كان عزيز أشبه بأحجية من أحجيات لعبة الصور المقطّعة ويتعيّن عليها ترتيبها قطعة فقطعة. ومع ورود كلّ رسالة جديدة منه، تنزل قطعة أخرى في مكانها، ولكن ما زال عليها الانتظار حتى تكتمل الصورة وإن كانت قد اكتشفت حتى الآن بضعة أشياء عن الرجل الذي تبادله الرسائل.

فقد علمت من موقعه أنّه مصوّر محترف، وأنّه رحّالة يجوب العالم بنهم وشراهة، رأى أنّ شقّ طريقه في أقصى بقاع العالم أمر طبيعي وسهل كأنّه يتنزّه من حول حديقة الحيّ. ولَما كان رحّالة شديد العزم في صميم فؤاده، فقد ظلّ يتنقّل في كلّ مكان، يجد نفسه كأنّه في منزله إن كان في سيبيريا أو شنغهاي أو كلكتا أو الدار البيضاء. كان يسافر وليس معه سوى حقيبة ظهر وآلة فلوت مصنوعة من القصب، وتمكّن من عقد صفقات في أماكن لم تستطع إيلّا العثور عليها حتى على الخارطة. ولم يثنه شيء عن السفر شرقًا أو غربًا، شمالاً وجنوبًا حتى لو كان ذلك الشيء حرس حدود

يصعب التعامل وإيّاهم أو استحالة الحصول على تأشيرة دخول من حكومات معادية أو أمراض طفيليّة ينقلها الماء أو اضطرابات المعدة الناجمة عن الطعام الملوّث أو التعرّض لخطر الهجوم من الخلف بقصد السلب أو الصراع بين جنود حكوميّين ومتمرّدين.

فكّرت إيلّا أنّ عزيز شلّال ماء متدفّق تدفّقًا عنيفًا. فحيثما كانت تخشى أن تخطو خطوة واحدة، تجده يندفع فوق الموج اندفاعًا قويًّا. وحيثما كانت تتردّد وتقلق قبل أن تقدم على أيّ خطوة تجده يتقدّم أوّلاً ويقلق بعد ذلك، هذا إن راوده قلق ما على أيّة حال. كانت شخصيّته مفعمة بالحيويّة والنشاط، إفراطه في مثاليّته وحماسته أكثر من أن يتّصف به شخص واحد.

كانت إيلّا تعتقد أنّها ديموقراطيّة ليبراليّة عنيدة الرأي، يهوديّة ولكنّها لا تمارس أيّ شعائر دينيّة، طموحها أن تكون نباتيّة وأن تلغي كلّ أنواع اللحوم من وجباتها في يوم من الأيّام. وكانت تضع حدودًا فاصلة بين الموضوعات والقضايا التي تهمّها، وتنظّم عالمها الخاصّ بها على النحو الذي تنظّم فيه بيتها وترتّبه ترتيبًا نظيفًا ودقيقًا. وكان عقلها يعمل على وفق قائمتين شاملتين ومتساويتين في طولهما: الأشياء التي تكرهها والأشياء التي تحبّها.

وعلى الرّغم من أنّ إيلّا لم تكن ملحدة وتمارس بعض الطقوس من حين إلى حين، فقد كانت تعتقد أنّ المشكلة الرئيسيّة التي تستنزف العالم اليوم، كما في الماضي، هي الدين. كان المتديّنون يثيرون أعصابها بغطرستهم التي لا يضاهيها شيء وإيمانهم المزعوم بسموّ أساليبهم. كانت تعتقد أيضًا أنّ المتشدّدين في جميع الأديان سيّئون ولا يمكن احتمالهم، وأنّ المتطرّفين في الإسلام هم الأسوأ.

على أيّة حال، كان عزيز رجلاً روحيًّا ينظر إلى قضايا الدين والمعتقد نظرة جادّة، وينأى بنفسه عن كلّ أشكال السياسة المعاصرة ولم «يكره» أيّ شيء أو أيّ شخص. وكان عنيدًا لا يجارى في أكل اللحوم وذكر مرّة أنّه لن يرفض طبق طعام يتكوّن من الكباب المشوي جيّدًا. وقد تخلّى عن إلحاده وأسلم في منتصف سبعينيّات القرن العشرين وذلك بعد «أن أسلم

كريم عبد الجبّار وقبل إسلام كت ستيفنز»، على حدّ قوله. ومنذ ذلك الوقت، شارك في الطعام مئات الصوفيّين من كلّ البلاد ومن مختلف الأديان وقال عنهم إنّهم «إخوة وأخوات على الطريق».

وكان عزيز المسالم الملتزم صاحب الأفكار الإنسانيّة القويّة يؤمن بأنّ كلّ الحروب الدينيّة إنّما كانت في جوهرها «مشكلة لسانيّة». وقال إنّ اللغة تخفي الحقيقة أكثر ممّا تكشف عنها، ونتيجة لذلك، أساء الناس على الدوام فهم أحدهم الآخر مثلما أساءوا الحكم بعضهم على بعض. ففي عالم تحكمه الترجمات القاصرة غير الأمينة، لم تعد ثمّة فائدة في أن يكون المرء عنيدًا في أيّ موضوع، لأنّ أقوى معتقداتنا نفسها ربّما يكون سببها سوء فهم بسيط. على العموم، لا ينبغي للمرء أن يكون متزمّتًا في أيّ شيء لأنّ «الرغبة في الحياة تعني تغيّر وجهات النظر».

كان عزيز وإيلا يعيشان في منطقتين مختلفتي الزمان اختلافًا حقيقيًا ومجازيًّا. فالزمن، في رأيها، يعني المستقبل أساسًا، فكانت تنفق جزءًا لا بأس به من أيّامها وهي منهمكة في إعداد الخطط للسنة المقبلة والشهر المقبل واليوم التالي، بل حتى الدقيقة التالية. وكانت أشياء تافهة مثل التسوّق وإبدال كرسي مكسور، تدفع إيلا إلى أن تخطّط كلّ التفاصيل الدقيقة مسبقًا، كانت عند خروجها من البيت تحمل في حقيبتها عددًا من الجداول المفصّلة والقوائم الخاصّة بما ستفعله.

من الجهة الثانية، كان عزيز يرى أنّ الوقت يرتكز في اللحظة الراهنة، وكّل شيء، ما عدا الراهن، إن هو إلّا وهم من الأوهام. ولهذا السبب نفسه، كان يؤمن بأنّ الحبّ لا صلة له بـ «خطط الغد» أو «ذكريات الأمس». فالحبّ لا يمكن أن يكون إلّا هنا والآن. وكانت إحدى رسائله الأخيرة تنتهي بعبارة: «إنّني صوفي، طفل اللحظة الراهنة».

وكانت إيلا قد ردّت على رسالته بالقول:

« يا له من كلام غريب تقوله لامرأة فكّرت تفكيرًا طويلاً بالماضي، وتفكّر تفكيرًا أطول بالمستقبل ولكنّها لم يخطر ببالها التفكير باللحظة الراهنة».

* * *

علاء الدين

قونية، ١٦ كانون الأوّل ١٢٤٤

لم أكن، قضاء وقدرًا، حاضرًا عندما التقى الدرويش أبي لأنّني كنت قد ذهبت لصيد الغزلان رفقة بعض الأصدقاء ولم أرجع إلّا في اليوم التالي، وكان لقاء ابي بشمس التبريزي حديث البلدة. وتناقل الأهالي الأقاويل: من هذا الدرويش، وكيف عامله شخص متعلّم كالرومي تلك المعاملة الجادّة واضطرّ أن ينحني له؟

منذ أن كنت صبيًّا صغيرًا، كنت أشاهد الناس وهم ينحنون أمام أبي ولم يخطر ببالي يوما ما أنّ الأمر قد ينعكس، بمعنى ـ إلّا إذا كان الشخص الآخر ملكًا أو وزيرًا أعظم. لهذا السبب، رفضت أن أصدّق نصف الكلام الذي طرق سمعي ولم أسمح للأقاويل أن تهيّج أعصابي إلى أن وصلت البيت وأكّدت كيرا زوجة أبي التي لم تكذب يومًا ولم تبالغ في شيء، القصّة كاملة. نعم، الرواية صحيحة، فقد تحدّى درويش جوّال اسمه شمس التبريزي والدي أمام الناس، والأدهى من هذا كلّه هو أنّه الآن ضيفنا في البيت.

من هذا الغريب الذي هبط علينا مثل صاروخ قذفته السماء؟ سألت كيرا وأنا توّاق لمشاهدته بأمّ عيني:

ـ أين هذا الرجل إذًا؟

همست مضطربة إلى حدّ ما:

ـ اهدأ! والدك والدرويش في المكتبة.

كان في وسعي أنا وزوجة أبي أن نسمع همهمة صوتيهما البعيدين على الرّغم من صعوبة معرفة ما كان يدور بينهما من حديث فما كان منّي إلّا أن اتّجهت إلى مكانهما ولكن كيرا أوقفتني.

ـ أعتقد أنّ عليك الانتظار. فقد طلبا منّي ألّا يزعجهما أحد.

أنفقا النهار كلّه دون أن يخرجا من المكتبة، ولم يخرجا منها أيضًا لا في اليوم التالي ولا في اليوم الذي أعقبه. ما الذي يتحدّثان عنه؟ ما الذي يمكن أن يجمع بين شخص مثل أبي ودرويش بسيط الحال؟

مرّ أسبوع، وانقضى أسبوع آخر، وكانت كيرا تعدّ طعام الفطور في صباح كلّ يوم وتتركه فوق صينيّة أمام الباب. وبغضّ النظر عن الأطعمة الشهيّة التي كانت تحضّرها لهما، إلّا أنّهما كانا يرفضان تناولها ويكتفيان بشريحة من الخبز في الصباح وقدح من حليب الماعز في المساء.

خيّمت عليّ في تلك الأيّام حالة من مزاج سيّئ ممّا زاد في ضيقي وكدري. وحاولت في أوقات متباينة من النهار أن أتلصّص عليهما من كلّ ثقب وصدع في باب المكتبة. ولم أمانع بما قد يحدث لو فتحا الباب بغتة ووجداني أسترق السمع، لهذا أنفقت وقتًا طويلاً منحنيًا على الباب، محاولاً أن أفهم الكلام الذي يدور بينهما ولكن كلّ ما كان في وسعي سماعه هو همس خافت لا غير. ولم أتمكّن من رؤية الشيء الكثير أيضًا، فقد كان القمر يلقي بظلاله بسبب كون الستائر نصف مسدلة. ولمّا لم أسمع أو أرى الشيء الكثير، سمحت لذهني أن يملأ الصمت المطبق مفبركًا الأحاديث التي كانت بلا ريب دائرة بينهما.

في إحدى المرّات شاهدتني كيرا واضعًا أذني على الباب فلم تقل شيئًا ولكنّها أصبحت الآن أكثر شوقًا لمعرفة ما الذي يجري، فالنساء لا يستطعن منع أنفسهنّ من حبّ الاستطلاع لأنّه راسخ في طبعهنّ.

غير أنّ الأمر اختلف عندما ضبطني أخي سلطان ولد وأنا أسترق السمع فنظر إليّ نظرة متّقدة، وتجهّم وجهه، ونهرني قائلاً:

ـ ليس لك الحقّ في التجسّس على الآخرين، وخاصّة على أبيك.

هززت كتفي.

ـ ألست منزعجًا يا أخي لأنّ والدنا ينفق وقته رفقة هذا الغريب؟ لقد مضى على هذا الحال أكثر من شهر الآن. لقد نأى أبونا بنفسه عن أسرته. ألا يضايقك ذلك؟

ردّ أخي:

ـ إنّ أبانا لم ينأى بنفسه عن أيّ أحد. كلّ ما هنالك أنّه وجد في شمس التبريزي صديقًا جيّدًا جدًّا. وبدلاً من الشكوى والتذمّر، وكأنّك طفل رضيع، ينبغي لك أن تكون فرحًا من أجل والدنا. هذا إن كنت تحبّه حقًّا.

هذا هو نمط الكلام الذي لا يستطيع أخي التفوّه بغيره. كنت معتادًا غرابة أطباعه ولهذا لم أحسّ بالاستياء بسبب ملاحظاته المريرة اللاذعة. فقد كان طفل الأسرة والجيران المدلّل، وكان الابن المفضّل لأبي.

* * *

حدث شيء غريب بعد أربعين يومًا تمامًا من خلوة أبي والدرويش في المكتبة. كنت جاثمًا أمام الباب من جديد أسترق السمع وسط صمت أثقل من المعتاد عندما تناهى إلى سمعي الدرويش يتكلّم بصوت عال.

ـ لقد مضى على خلوتنا هنا أربعون يومًا. وفي كلّ يوم ناقشنا قاعدة أخرى من القواعد الأربعين الخاصّة بدين الحبّ. وبعد أن فرغنا الآن، أعتقد أنّه يستحسن بنا أن نخرج من هنا. فربّما أقلق غيابك أسرتك.

اعترض أبي قائلاً:

ـ لا تقلق، فزوجتي وولديّ لهم من النضج ما يمكنهم من فهم حاجتي إلى قضاء بعض الوقت بعيدًا عنهم.

ردّ شمس:

ـ حسنًا. إنّني لا أعرف شيئًا عن زوجتك، ولكن ولديك مختلفان اختلاف الليل والنهار. فالابن الأكبر يحذو حذوك. أمّا الابن الأصغر

فأعتقد أنّه ينهج نهجًا مغايرًا تمامًا، وإنّ قلبه أسود بالحسد والبغضاء.

اتّقدت وجنتاي غضبًا. كيف يمكنه أن يتفوّه بمثل هذه الكلمات الشنيعة عنّي ونحن لم نلتق بعد؟

وبعد برهة وجيزة قال الدرويش:

ـ يظنّني لا أعرفه، ولكنّي أعرفه. فعندما كان يجثم وأذناه على الباب ويراقبني من الثقوب، فإنّي كنت أراقبه أيضًا.

شعرت بقشعريرة مفاجئة تسري في بدني جعلت شعري يقف فزعًا. وبلا أيّ تفكير، دفعت الباب ودخلت الحجرة. اتّسعت حدقتا أبي وعجز عن الفهم، ولكنّه لم يستغرق وقتًا طويلاً حتى انقلبت صدمته إلى غضب وهدر:

ـ هل فقدت عقلك يا علاء الدين؟ كيف تتجرّأ على إزعاجنا على هذا النحو؟

تجاهلت السؤال وأشرت إلى شمس وهتفت:

ـ ولماذا لا تسأله أوّلاً كيف يتجرّأ على الكلام عنّي بهذا الشكل؟

لم ينبس أبي بكلمة، بل رشقني بنظرة وتنفّس تنفّسًا عميقًا كأنّ وجودي عبء ثقيل تنوء به كتفاه.

ـ أرجوك يا أبي، لقد اشتقت إليك كثيرًا مثلما اشتاق إليك تلامذتك. كيف يمكنك أن تولي ظهرك لمحبّيك من أجل درويش قذر؟

ما إن تفوّهت بهذه الكلمات حتى ندمت ولكن فات الأوان، فقد رماني أبي بنظرة تنمّ عن خيبة أمل، ولم يسبق لي أن رأيته على تلك الحالة.

قال أبي:

ـ اصنع لنفسك معروفًا واخرج من هنا ـ الآن يا علاء الدين. اذهب إلى مكان هادئ مفكّرًا في الكلام الذي نطقت به، ولا تكلّمني حتى تكون قد نظرت إلى أعماقك وأدركت غلطتك.

ـ ولكن يا أبي...

ـ حسبك أن تخرج.

قاطعني أبي وأشاح بوجهه عنّي، فما كان منّي إلّا أن غادرت الحجرة كسير الفؤاد، متعرّق اليدين ومرتجف الركبتين.

في تلك اللحظة خطر ببالي أنّ حياتنا تغيّرت على نحو غير مفهوم، ولن تعود الأمور إلى وضعها السابق. هذه هي المرّة الثانية منذ وفاة أمّي قبل ثمانية أعوام التي أشعر فيها أنّ والدي قد أهمل شأني بدوره.

* * *

الرومي

قونية، ١٨ كانون الأوّل ١٢٤٤

باطن الله ـ وجه الله الخفي. افتح لي عقلي كي أرى الحقيقة.

عندما طرح شمس التبريزي عليّ ذلك السؤال الخاصّ بالنبي محمّد والبسطامي الصوفي، شعرت كأنّني، أنا وهو، الشخصان الوحيدان اللذان بقيا على وجه الأرض وامتدّت أمامنا المراحل السبع على طريق الحقيقة ـ سبعة مقامات ولا بدّ لكلّ نفس من المرور بها حتى تصل حال التوحّد.

المرحلة الأولى، مرحلة النفس المحرومة، وهي أكثر حالات الوجود العامّة والبدائيّة حيث تكون النفس أسيرة المساعي الدنيويّة. إنّ معظم بني البشر عالقون في هذه المرحلة يكابدون ويتعذّبون خدمة لأهوائهم الذاتيّة ولكنّهم في الوقت نفسه يحمّلون الآخرين مسؤوليّة شقائهم المستمرّ.

وإذا ما أصبح شخص ما مدركًا لوضع الذات الحقير، وذلك بالبدء بالتفكير في نفسه، فإنّه يستطيع الانتقال إلى المرحلة المقبلة التي تمثّل، بشكل أو بآخر، نقيض المرحلة السابقة. وبدلاً من أن يوجّه اللوم للآخرين طوال الوقت، فإنّ الإنسان الذي يصل إلى هذه المرحلة يلوم نفسه لومًا يصل في بعض الأحيان إلى طمس الذات. وهنا تصبح الآن نفسها لوّامة وتبدأ، على هذا الأساس، رحلة نحو التطهّر الباطني.

وفي المرحلة الثالثة، يكون الفرد أكثر نضجًا، وتتطوّر الأنا أو الذات لتصبح نفسها ملهمة. وفي هذه المرحلة وحدها، وليس في أيّ وقت سابق

لها، يمكن للفرد أن يعيش حقًّا المعنى الصحيح لكلمة «تسليم»، ويتجوّل في وادي العرفان. إنّ كلّ من يصل إلى هذه المرحلة سوف يمتلك ويظهر الصبر والمواظبة والحكمة والتواضع. وسيبدو العالم جديدًا مفعمًا بالإلهام. ومع هذا، فإنّ من يصل المرحلة الثالثة يشعر بدافع قوي من أجل البقاء فيها، فيفقد بذلك الإرادة أو الشجاعة للمضيّ قُدُمًا. ولهذا، فإنّ المرحلة الثالثة تمثّل فخًّا للفرد الذي يطمح إلى الارتقاء إلى أعلى، على الرّغم من كلّ ما فيها من جمال وبركة.

إنّ الأشخاص الذين يفلحون في التقدّم إلى أبعد من هذه المرحلة سيصلون وادي الحكمة ويتعرّفون إلى النفس السامية حيث لا تكون الذات كما كانت عليه في الماضي، لأنّها تكون قد تغيّرت وتحوّلت إلى مستوى أعلى من الوعي. الكرم والعرفان والإحساس الذي لا يتزعزع بالقناعة بغضّ النظر عن مشاقّ الحياة هي الخصائص الأساسيّة التي ترافق كلّ فرد وصل إلى هذا المكان. وإلى ما وراء هذا المكان يمتدّ وادي الوحدة، والذين يصلون إليه سيكونون مسرورين بكلّ ما يفرضه الله عليهم من أوضاع، ولا تستحقّ القضايا الدنيويّة أيّة أهمّيّة في نظرهم لأنّهم في هذه المرحلة قد حقّقوا النفس الراضية.

في المرحلة التالية، مرحلة النفس الراضية، يصبح الفرد مصباحًا للبشريّة، مفعمًا بحيويّة يمنحها لكلّ من يطلبها، يعلّم وينوّر مثل معلّم حقيقي. ويمكن لمثل هذا الفرد في بعض الأحيان أن يشفي الآخرين، وفي كلّ عمل يعمله ويتوق إلى فعله، فإنّ هدفه الأسمى إنّما هو خدمة الله بخدمة الآخرين.

وأخيرًا، يصل الفرد المرحلة السابعة وهي مرحلة النفس المطهّرة ويصبح إنسانًا كاملاً، ولكن لا يعرف أحد الشيء الكثير عن هذه المرحلة، وحتى إذا ما عرف عدد قليل من الأشخاص عنها، فإنّهم لن يبوحوا بمعرفتهم لأحد.

يمكن تلخيص المراحل على الطريق بكلّ سهولة، ولكنّها صعبة التطبيق. فضلاً عن العقبات التي تنشأ على الطريق، ثمّة حقيقة تتّضح في عدم وجود أيّ ضمان على التقدّم المتواصل. فالطريق المؤدّي من المرحلة

الأولى إلى المرحلة الأخيرة ليس طريقًا مستقيمًا بأيّ حال من الأحوال. فثمّة خطر دائم بالنكوص إلى الوراء باتّجاه المراحل الأولى، وفي بعض الأحيان الارتداد من مرحلة أعلى إلى المرحلة الأولى، وفي ضوء العقبات الممتدّة على طول الطريق، فإنّه ليس ممّا يدعو إلى الدهشة أنّ عددًا قليلاً من الأشخاص يتمكّنون من الوصول إلى المراحل الأخيرة مرّة في كلّ قرن من الزمان.

* * *

وهكذا، فعندما طرح عليّ شمس ذلك السؤال، فإنّه لم يكن يبغي مقارنة من ورائه، بل أراد منّي أن أفكّر إلى أيّ مدى أرغب في التقدّم لأطمس شخصيّتي كي أفنى في الله. ثمّة سوال ثان يضمن سؤاله الأوّل، فقد سألني:

ـ وأنت أيّها الخطيب المفوّه، في أيّ مرحلة من المراحل السبع(*) أنت الآن؟ وهل تظنّ أنّ لديك العزيمة للمضيّ إلى ما هو أبعد حتى تصل النهاية؟ قل لي، ما حجم كوبك؟

* * *

(*) المنازل والمراحل الخاصّة في سلوك الطريقة متنوّعة لا تحصى بيد أنّ أكابر الصوفيّة قسّموا هذه المنازل والمراحل إلى كبرى سمّوها المقامات وقالوا إنّ على السالك أن يجتاز بالتدريج كلّ هذه المقامات حتى ينال غايته النهائيّة التي هي الوصول إلى الحقيقة أي الفناء في الحقّ و((الفناء في الله))، ويحصل له البقاء بالله. وأبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفي ٣٧٨ هـ والمعروف بطاووس الفقراء هو مؤلّف كتاب ((اللمع في التصوّف)) الذي يعدّ في نظر عديد الباحثين في التصوّف أقدم وأوضح مرجع في التصوّف الإسلامي ممّا لم يزل في أيدينا من تراث الأقدمين. يعدّد هذا الصوفي الكبير سبع درجات للمقامات ويعدّ كلّ مقام بعد المقام الأوّل نتيجة للمقامات السابقة، والمقامات السبعة هي: التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكّل والرضا. أمّا الغزالي وأبو طالب المكّي فيجعلانها تسعة مقامات. (المترجم).

كيرا

قونية، ١٨ كانون الأوّل ١٢٤٤

أعلم أنّ الحسرة على قدري لا تفيدني، ومع هذا، لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أتمنّى لو كنت أملك معرفة أوسع في الدين والفلسفة والتاريخ وكلّ المواضيع التي كان يتحدّث بها الرومي وشمس ليلاً ونهارًا. ثمّة أوقات أريد أن أتمرّد فيها بسبب كوني امرأة. عندما يولد الطفل بنتًا فإنّهم يعلّمونها كيف تطهو وتنظّف، وتغسل الثياب القذرة، وترتق الجوارب القديمة، وتصنع الزبدة والجبنة، وتطعم الأطفال. كما تلقّن بعض النساء فنّ الحبّ واجتذاب الرجال. هذا كلّ ما هنالك، دون أن يقدّم أحد الكتب للنساء لفتح عيونهنّ.

في السنة الأولى من زواجي، كنت قد دأبت على التسلّل إلى مكتبة الرومي كلّما حانت لي فرصة. فكنت أجلس وسط الكتب التي عشقتها عشقًا كبيرًا، أشمّ فيها روائح العطن والغبار، وأفكّر في الأسرار التي تنطوي عليها. كنت أعرف مدى هيام الرومي بكتبه التي منحها إيّاه والده المرحوم بهاء الدين. وكان أشدّ ولعه وعشقه بكتاب المعارف، فكان يسهر الليالي حتى الفجر، يقرأ فيه على الرّغم من أنّني أرتاب في حفظ الكتاب كلّه.

وكان الرومي يردّد:

حتى لو أعطوني أكياسًا مملوءة بالذهب فإنّني لن أقايضها بكتب أبي. فكلّ كتاب من هذه الكتب تركة لا تقدّر بثمن خلّفها أجدادي. وقد حصلت

عليها من والدي، ولسوف أهبها لأولادي.

عرفت ما كانت تعنيه كتبه له. ففي السنة الأولى من زواجنا، وبينما كنت وحيدة في الدار مرّت بخاطري فكرة تنظيف المكتبة. فما كان منّي إلّا أن أنزلت الكتب من فوق الرفوف ومسحت أغلفتها من الغبار بقطعة من المخمل مبلّلة بماء الورد. كان أهل الحيّ يعتقدون أنّ ثمّة جنّيًا يافعًا اسمه كيبيكيك يستمدّ لذّة غريبة من تخريب الكتب. لكي أبعده عنّي، فإنّ من مألوف العادة أن نكتب ملاحظة فيها تحذير في داخل كلّ كتاب: «لا تتحرّك يا كيبيكيك، ابتعد عن هذا الكتاب!» من أين لي أن أعرف أنّ كيبيكيك ليس وحده الذي يفترض به الابتعاد عن كتب زوجي فحسب، بل أنا أيضًا؟

في عصر ذلك اليوم نظّفت الكتب واحدًا إثر الآخر في المكتبة، وبينما كنت أنظّف وأشتغل قرأت في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي. ولم أدرك كم أنفقت من الوقت هناك إلّا عندما طرق سمعي صوت جافّ وبعيد من ورائي.

ـ ما الذي تظنّين أنّك فاعلة هنا يا كيرا؟

كان ذلك الرومي، أو شخصًا ما يشبهه ـ كان الصوت أشدّ خشونة في نبرته، وأقوى في تعبيره. وكانت تلك هي المرّة الوحيدة التي كلّمني فيها على ذلك النحو طوال مدّة زواجنا البالغة ثماني سنوات.

تمتمت بصوت واهن:

ـ إنّني أنظّف، وأردت أن تكون مفاجأة لك.

ردّ الرومي:

ـ أفهم، ولكن أرجوك لا تلمسي كتبي ثانية. في الحقّ، أفضل ألّا تدخلي هذه الحجرة أبدًا.

وبعد ذلك اليوم بقيت بعيدة عن المكتبة وإن لم يكن هناك أحد في الدار. وأدركت وسلّمت بأنّ عالم الكتب لم ولن يكون عالمي.

ولكن عندما جاء شمس التبريزي إلى دارنا وأغلق هو وزوجي باب المكتبة من ورائهما أربعين يومًا، شعرت بالغيظ يفور في أعماقي. وكان ذلك جرحًا لم أعرف أنّني بدأت أنزفه.

* * *

كيما

قونية، ٣٠ كانون الأوّل ١٢٤٤

بعد أن وُلدت لأبوين فقيرين من الفلّاحين في أحد الوديان القريبة من جبال طوروس، تبنّاني الرومي عندما بلغت سنّ الثانية عشرة. تحمّل أبواي الحقيقيّان مشقّة العمل وبلغ بهما الكبر قبل أوانهما. كنّا نسكن بيتًا صغيرًا، وكنت أنا وأختي نتشارك الغرفة نفسها مع أشباح أولادنا الخمسة الذين قضوا نحبهم أطفالاً بسبب أمراض بسيطة. وكنت الوحيدة في الدار التي تشاهد الأشباح. وكان الهلع ينتاب أختي ويدفع أمّي للبكاء كلّما ذكرت ما كانت تفعله الأرواح الصغيرة. حاولت أن أشرح، دون طائل، إنّهما في غنى عن القلق أو الخوف ما دام الموتى لم يبد عليهم الشقاء أو الخوف. لكنّي لم أفلح في جعل أسرتي تصدّق هذا الكلام.

وفي يوم من الأيّام، مرّ بقريتنا ناسك. ولمّا رأى أبي مقدار التعب والإنهاك عليه، دعاه لقضاء الليلة في دارنا. وفي تلك الليلة وبينما كنّا جالسين كلّنا بالقرب من المدفأة نعدّ جبن الماعز، قصّ علينا الناسك قصصًا مدهشة من بلاد بعيدة. وفي حين استمرّ صوته يدندن، أغمضت عينيّ ورحلت وإيّاه إلى صحارى الجزيرة العربيّة وخيم البدو في شمال أفريقيا وإلى بحر لا تضاهي زرقة مياهه أيّة زرقة يُدعى البحر الأبيض المتوسّط. ووجدت محارة على الشاطئ كبيرة وملتفّة، فوضعتها في جيبي. كنت عازمة على السير على امتداد الشاطئ ولكن رائحة نفّاذة، تثير النفور

والاشمئزاز أوقفتني في منتصف الطريق.

وعندما فتحت عينيّ، وجدت نفسي مستلقية على الأرض، يحيط بي كلّ أفراد الأسرة وقد بان القلق في عيونهم. كانت أمّي تمسك رأسي بإحدى يديها، فيما أمسكت نصف حبّة بصل باليد الثانية، وكانت ترغمني على أن أشمّها.

صفّقت أختي في بهجة وحبور:

ـ لقد عادت إلى وعيها!

وتنهّدت أمّي وقالت:

ـ شكرًا لله.

ثم التفتتْ إلى الناسك موضحةً:

ـ تنتاب كيما نوبات إغماء منذ أن كانت طفلة صغيرة، وتأتي هذه النوبات طوال الوقت.

وفي الصباح توجّه الناسك لنا بالشكر والعرفان على حسن ضيافتنا له، وودّعنا.

غير أنّه قبل مغادرته الدار قال لأبي:

ـ ابنتك كيما طفلة استثنائيّة، وموهوبة، ومن المؤسف أن تضيع هذه المواهب دون أن تحظى بحسن التقدير، لهذا ينبغي لك أن ترسلها إلى مدرسة...

قاطعته أمّي قائلة:

ـ ما حاجة البنت إلى التعليم؟ من أين سمعت بهذا الكلام؟ عليها أن تلازمني وأن تنسج السجّاد إلى أن تتزوّج. أتدري أنّها ماهرة في حياكة السجّاد؟

لكنّ الناسك لم يتردّد، بل مضى يقول:

ـ حسنًا، ولكن يمكنها أن تصبح يومًا ما عالمة، فالله لم يبخسها حقّها عندما جعلها بنتًا، بل منحها مواهب كثيرة. أتزعمين أنّك أفضل معرفة وعلمًا من الله؟ وإذا لم تكن المدارس متوفّرة في الجوار فما عليك إلّا أن ترسليها إلى أحد العلماء لتتلقّى التعليم الجدير بها.

هزّت أمّي رأسها، ولكنّي رأيت أنّ أبي كان له رأي آخر. فقد كنت أعرف مدى حبّه للتعليم والمعرفة، وتقديره لكفاءتي ومهارتي، ولهذا لم تستبدّ بي الدهشة عندما سمعته يطرح السؤال:

ـ إنّنا لا نعرف شيئًا عن العلماء. أين سأعثر على عالم واحد منهم؟

في تلك اللحظة نطق الناسك باسم غيّر حياتي في ما بعد.

قال:

ـ أعرف عالمًا مدهشًا في بلدة قونية اسمه مولانا جلال الدين الرومي، وأظنّه سيكون مسرورًا في تعليم فتاة مثل كيما. خذها إليه، ولن تندم على ذلك.

عندما رحل الناسك، رفعت أمّي ذراعيها إلى أعلى وقالت:

ـ إنّني حامل، وعمّا قريب سيكون لدينا فم آخر لا بدّ من إطعامه في الدار. إنّني في مسيس الحاجة إلى المساعدة. البنت لا تحتاج إلى الكتب، بل تحتاج إلى تعلّم الأعمال المنزليّة ورعاية الأطفال.

كنت أفضّل كثيرًا لو أنّ أمّي اعترضت على ذهابي لأسباب أخرى. لو أنّها قالت إنّها سوف تشتاق إليّ وأنّها لا تستطيع تحمّل فكرة إرسالي إلى أسرة أخرى، حتى لو كان ذلك لمدّة قصيرة من الزمان، فلربّما آثرت البقاء في المنزل، ولكنّها لم تقل شيئًا من هذا القبيل. على أيّة حال، لقد اقتنع أبي برأي الناسك الذي كان جديرًا بالاعتبار، وفي غضون أيّام قليلة، اقتنعت بدوري.

بعد وقت قصير، سافرت أنا وأبي إلى بلدة قونية، وانتظرنا الرومي خارج المدرسة التي كان يعلّم فيها. وعندما خرج، كنت غاية في الارتباك حتى إنّني لم أستطع أن أرفع بصري إليه، بل نظرت، بدلاً من ذلك إلى يديه. كانت أصابعه طويلة، ليّنة ونحيلة، تشبه أصابع صنائعي أكثر ممّا تشبه أصابع عالم من العلماء.

دفعني أبي في اتّجاهه قائلاً:

ـ ابنتي فتاة موهوبة جدًّا ولكنّي رجل بسيط وكذلك زوجتي. وقد قيل لنا إنّك أكثر الرجال علمًا في هذه المنطقة، فهل ترغب في تلقينها العلوم؟

كان في وسعي أن أشعر أنّ الرومي لم يندهش وإن لم أنظر إلى وجهه. لا بدّ أنّه اعتاد مثل هذه الطلبات. وبينما راح هو وأبي يتجاذبان أطراف الحديث، مشيت في متّجه الفناء حيث رأيت عدداً من الصبيان ولكن لم تكن بينهم بنات. غير أنّ الدهشة اعترتني في طريق عودتي وسررت عندما شاهدت امرأة شابّة تقف وحيدة في أحد الأركان. كانت مدوّرة الوجه، بيضاء البشرة وهادئة كأنّما قُدّت من المرمر. لوّحت لها بيدي، فبدت ذاهلة، ولكنّها ردّت على تحيّتي بعد تردّد لم يدم طويلاً.

سألتني:

ـ مرحبًا أيّتها الفتاة الصغيرة. هل يمكنك مشاهدتي؟

عندما أجبت عن سؤالها بإيماءة من رأسي، افترّ ثغرها عن ابتسامة، وصفّقت وهي تقول:

ـ مدهش! لا أحد غيرك يمكنه مشاهدتي.

مشيت أنا وهي عائدتين إلى أبي والرومي اللذين ظننت أنّهما سيتوقّفان عن الكلام عندما يشاهدانها، ولكنّها كانت على صواب، إذ لم يستطع أحد منهما مشاهدتها.

قال الرومي:

ـ تعالي إلى هنا يا كيما. يقول والدك إنّك تحبّين العلم. أخبريني، ما هو أكثر شيء تحبّينه في الكتب؟

بلعت ريقي، ولم أحر جوابًا، وألمّت بي دهشة كبيرة.

فقال أبي وقد بدا خائب الظنّ:

ـ هيّا يا حبيبتي.

أردت أن أُجيب إجابة صحيحة، إجابة تجعل والدي فخورًا بي غير أنّني لم أعرف الإجابة. وفي خضمّ ذلك القلق الذي انتابني، صدرت عنّي شهقة يائسة، كانت هي الصوت الوحيد المنبعث من فمي.

كنت أنا وأبي سنعود أدراجنا إلى قريتنا بخفّي حنين لو لم تتدخّل المرأة الشابّة، إذ أمسكت بيدي وقالت:

ـ حسبك أن تصدقي القول عن نفسك. أعدك أنّ الأمور ستسير سيرًا حسنًا.

شعرت بالتحسّن، فالتفتُّ إلى الرومي وقلت:

ـ سيكون لي شرف تعلّم القرآن على يديك أيّها الشيخ. وأنا لا أخشى العمل الشاقّ.

أشرق وجه الرومي، وقال:

ـ جيّد جدًّا.

توقّف هنيهة كأنّه تذكّر شيئًا لا يبعث على السرور وأضاف:

ـ لكنّك فتاة، إذ حتى لو درسنا دراسة مكثّفة وتقدّمنا تقدّمًا مرضيًا، فإنّك سرعان ما ستتزوّجين وتنجبين الأطفال، وستكون سنوات التعليم بلا فائدة.

وهنا لم أعرف ماذا أقول وشعرت بثبوط الهمّة، وإلى حدّ كبير بالذنب. وبدا أبي مضطربًا أيضًا، وراح بغتة يمعن النظر في حذائه. مرّة أخرى، تدخّلت المرأة الشابّة لمساعدتي وقالت:

ـ قولي له إنّ زوجته أرادت دوما أن يكون لها ابنة صغيرة، وأنّها ستكون سعيدة الآن لرؤيته وهو يلقّنها العلم.

ضحك الرومي عندما نقلت الرسالة إليه، وقال:

ـ أرى أنّك زرت بيتي وكلّمت زوجتي، ولكن دعيني أطمئنك بأنّ كيرا لا تتدخّل في مسؤوليّاتي التعليميّة.

هزّت المرأة الشابّة رأسها في بطء وحزن وهمست في أذني:

ـ قولي له إنّك لا تتكلّمين عن زوجته الثانية كيرا، بل عن جوهر، أمّ ولديه.

امتقع وجه الرومي، وقال بلهجة جافّة:

ـ جوهر ميتة يا طفلتي. لكن ماذا تعرفين عن زوجتي الراحلة؟ أهذه نكتة تافهة، لا طعم لها؟

تدخّل والدي في الكلام.

ـ إنّني متأكّد أنّها لا تضمر سوءًا أيّها الشيخ. وأطمئنك إلى أنّها طفلة

جادّة ولا تنظر إلى من هم أكبر سنًّا منها نظرة تنمّ عن قلّة احترام.

أدركت هنا أنّني يجب أن أقول الصدق.

ـ زوجتك الراحلة حاضرة في هذا المكان، وهي تمسك بيدي وتشجّعني على الكلام. وهي ذات شعر بني وعينين لوزيّتين، ويعلو وجهها نمش يروق العين، كما أنّها ترتدي جبّة طويلة، صفراء اللون...

توقّفت عن الكلام عندما لاحظت أنّ المرأة الشابّة تشير إلى نعليها.

ـ وتريدني أن أخبرك بشأن نعليها المصنوعين من الحرير البرتقالي البرّاق والمزيّنين بورود حمر صغيرة. إنّها غاية في الجمال.

قال الرومي وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

ـ كنت اشتريت لها النعال من دمشق، وكانت تحبّه.

ما إن فرغ العالم من هذا الكلام حتى تملّكه الصمت وشرع يداعب لحيته، مهيبًا ومتشامخًا. بيد أنّه استرسل في الكلام من جديد بصوت ودّي رقيق، لا أثر للحزن فيه، مخاطبًا أبي:

ـ أفهم الآن السبب الذي يجعل الناس يعتقدون أنّ ابنتك موهوبة. لنذهب إلى داري. وفي وسعنا أن نتحدّث عن مستقبلها على مائدة الطعام. إنّني واثق من أنّها ستكون تلميذة ممتازة، بل أفضل من العديد من الصبيان.

وهنا التفت الرومي إليّ وسألني:

ـ هل أخبرت جوهر بهذا الكلام؟

قلت له:

ـ لا ضرورة لذلك أيّها الشيخ، فهي تسمعك، وتقول إنّها مضطرة إلى الانصراف الآن، ولكنّها تنظر دومًا إليك بعين الحبّ.

ابتسم الرومي ابتسامة دافئة، وابتسم أبي أيضًا. وساد الجوّ إحساس بالارتياح لم يكن موجودًا سابقًا، وفي تلك اللحظة أدركت أنّ لقائي الرومي ستكون له نتائج بعيدة المدى. فأنا لم أكن قريبة جدًّا من أمّي ولكنّ الله عوضني عن افتقاري إليها بأبوين اثنين، الأوّل هو أبي الحقيقي، والثاني هو أبي بالتبنّي.

وهكذا وصلت إلى بيت الرومي قبل ثمانية أعوام، طفلة خجول،

متعطّشة للمعرفة. وكانت كيرا تحبّني وتعطف عليّ أكثر من أمّي الحقيقيّة، ورحّب بي ابنا الرومي وبخاصّة ابنه الأكبر الذي أضحى بمرور الزمن أخًا كبيرًا لي.

في نهاية المطاف، كان الناسك على حقّ. وبقدر ما اشتقت إلى أبي وأقربائي، فإنّني لم أعش أيضًا لحظة ندم واحدة بسبب مجيئي إلى قونية والانضمام إلى أسرة الرومي. لقد أنفقت أيّاما سعيدة طويلة تحت هذا السقف.

ولكن، إلى أن حلّ علينا شمس التبريزي الذي غيّر وجوده كلّ شيء.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون ٩ حزيران ٢٠٠٨

بما أنّ إيلّا لم تستمتع يومًا بالعزلة، فقد وجدت نفسها مؤخّرًا تفضّلها على غيرها. ولَما كانت مستغرقة بوضع اللمسات الأخيرة على تقريرها عن مخطوطة الرواية، فقد طلبت من ميشيل مهلة أسبوع آخر لتسليمه. كان في إمكانها إكمال كتابة التقرير منذ وقت مبكر ولكنّها لم ترغب في ذلك، إذ منحها هذا العمل مبرّرًا كي تلوذ بذهنها وتتجنّب الواجبات الأسريّة والمواجهات المادّيّة التي طال انتظارها. وللمرّة الأولى تجاوزت في هذا الأسبوع نادي الطبخ، عن غير رغبة في الدردشة مع خمس عشرة امرأة يعشن حياة متشابهة في وقت لم تكن فيه متأكّدة ممّا ستفعله في حياتها. وادّعت أنّها مريضة في اللحظة الأخيرة.

كانت إيلّا تعامل اتّصالاتها بعزيز على أنّها سرّ، ولكنّها أدركت بغتة أنّ هذا السرّ بات أسرارًا كثيرة جدًّا. ولم يعرف عزيز أنّها لم تكن تقرأ مخطوطة روايته فحسب، بل إنّها تكتب تقريرًا عنها. ولم تعرف دار النشر أنّها كانت تغازل سرًّا مؤلّف الكتاب الذي خصّص لها كي تكتب عنه تقريرًا، ولم يعرف أبناؤها ولا زوجها أيّ شيء بخصوص فحوى الرواية أو المؤلّف أو المغازلة. وفي غضون أسابيع قليلة تحوّلت من امرأة كانت لحياتها شفافيّة بشرة طفل وُلد حديثًا إلى امرأة تزخر بالأسرار والأكاذيب. وكان الذي أثار دهشتها أكثر من هذا التحوّل هو أنّها لم تضطرب قطّ، وبدا

كلّ شيء لها وكأنّها تنتظر، في ثقة وصبر، شيئًا ما، في منتهى الخطورة، كي يحدث. وكان هذا الانتظار أو التوقّع الذي يفتقر إلى العقلانيّة جزءًا من السحر الذي تلبّس حالها الجديد، بل كان انتظارًا ساحرًا ومذهلاً على الرّغم من كلّ الأسرار.

في هذه الأثناء لم يعد تبادل الرسائل كافيًا. فقد بدأت إيلّا بنفسها الاتّصال هاتفيًّا بعزيز. وعلى الرّغم من فرق التوقيت بمقدار خمس ساعات، فقد استمرّا في الحديث على الهاتف يوميًّا تقريبًا. وأخبرها عزيز أنّ صوتها رقيق وناعم، ولمّا ضحكت، جاءت ضحكتها متقطّعة تشوبها شهقات قصيرة كأنّها غير متأكّدة، لا تعرف كم يتعيّن عليها أن تضحك. كانت ضحكتها ضحكة امرأة لم تتعلّم قطّ إلّا تولّي الكثير من الاهتمام لأحكام الآخرين.

قال:

ـ اضحكي ضحكة طويلة، اتركيها تتدفّق!

غير أنّ سريان ضحكتها من حولها كان متقطّعًا يفتقر إلى الاستمراريّة لأنّ أشياء كثيرة كانت تحدث في منزلها في ذلك الوقت. فقد بدأ آفي يتلقّى دروسًا خصوصيّة في مادّة الرياضيّات، وبدأت أورلي تراجع استشاريًّا لمعالجة اضطرابات الأكل التي تعانيها. ففي هذا الصباح، تناولت نصف طبق من عجّة البيض ـ وكان هذا أوّل طبق طعام تتناوله منذ أشهر ـ وعلى الرّغم من أنّها ظلّت تسأل وتستفسر عن عدد السعرات الحراريّة التي يحتويها ذلك الطبق، فإنّ التهامها له كان أعجوبة إلى حدّ ما لأنّها لم تشعر بالذنب ولم تعاقب نفسها باللجوء إلى التقيّؤ بعد ذلك. وفي هذا الوقت، فجّرت جانيت قنلبة بالإعلان عن قطع صلتها بسكوت. ولم توضح سببًا لذلك باستثناء أنّهما بحاجة إلى مدّة من الزمان. وفكّرت إيلّا في نفسها إن كانت «مدّة من الزمان» شفرة تدلّ على حبّ جديد خاصّة أنّ جانيت وسكوت لم يضيّعا وقتًا في العثور على بديل.

أثارت حيرة إيلّا السرعة التي تتحقّق فيها العلاقات الإنسانيّة وتتبخّر، أكثر من أيّ وقت آخر، ومع هذا فقد حاولت ألّا تصدر حكمًا على الآخرين بعد اليوم. فإذا كان ثمّة شيء واحد تعلّمته من تبادل الرسائل مع

عزيز فهو أنّها كلّما ظلّت هادئة ومتماسكة أكثر من ذي قبل، ازدادت مشاركة أبنائها معها. فما إن توقّفت عن متابعتهم حتى توقّفوا عن الهروب من أمامها. لقد بدأت الأوضاع تسير سيرًا سلسًا بعيدًا عن الإزعاج، وقريبًا من ميولها وأهوائها أكثر من تلك الأوقات التي حاولت بلا تعب أو كلل أن تقدّم المساعدة وتصلح ما هو بحاجة إلى إصلاح.

وفكّرت في أنّها لم تفعل شيئًا لتحقيق هذه النتيجة! فبدلاً من أن تنظر إلى دورها في المنزل على أنّه أشبه بالصمغ والرباط غير المرئي، وإن كان أساسيًا، الذي كان يربط أفراد الأسرة ارتباطًا وثيقًا، فقد تحوّلت إلى مشاهد صامت، فرأت الأحداث تدور أمامها، والأيّام تمرّ وتمضي على نحو ليس بالضرورة باردًا أو من دون اكتراث، بل بتجرّد واضح ومرئي. واكتشفت أنّها ما إن قبلت بألّا تحشر نفسها في قضايا لا تستطيع السيطرة عليها، حتى ظهرت نفس أخرى من الداخل ـ نفس أكثر حكمة وهدوءًا ومنطقًا وتمتمت في نفسها مرّات ومرّات أثناء النهار:

ـ العنصر الخامس. حسبك أن تقبلي بالفراغ!

ولم يستغرق زوجها وقتًا طويلاً حتى أدرك أنّ إيلّا باتت غريبة ولم تعد كما كانت سابقًا. أهذا هو السبب الذي جعله يرغب على حين بغتة في قضاء وقت أطول وإيّاها؟ فكان يعود إلى المنزل في وقت مبكر في هذه الأيّام وساورت إيلّا الشكوك من أنّه لم يخرج مع نساء أخريات منذ مدّة.

وسألها ديفيد باستمرار:

ـ أأنت على ما يرام يا حبيبتي؟

فكانت تجيب مبتسمة في كلّ مرّة:

ـ إنّي في صحّة وعافية.

يبدو الأمر وكأنّ انسحابها إلى فضاء هادئ وخاصّ بها قد أزال ذلك الوقار المهذّب الذي رقد وراءه زواجها دون أن يقلقه شيء على مدى سنوات طويلة. أمّا الآن، وبعد أن زالت كلّ تلك المظاهر التي كانت قائمة بينهما، بات في مقدورها رؤية عيوب تلك المظاهر وأخطائها بكلّ وضوح. لم تعد تتظاهر، وشعرت أنّ ديفيد نفسه سيحذو حذوها.

تكلّما من حول مائدة الفطور والغداء عن أحداث اليوم بأصوات

البالغين الهادئين وكأنّهما يناقشان الأرباح السنويّة لاستثماراتهما. ثم كان الصمت يستقرّ بينهما، ليكون إقرارًا بحقيقة كليلة مفادها أنّهما لم يعد في جعبتهما ما يتحدّثان عنه. ليس بعد الآن.

ضبطت أحيانًا زوجها ينعم النظر فيها عمدًا، منتظرًا أن تقول له شيئًا ما، أيّ شيء. وراود إيلّا الإحساس بأنّها لو سألته عن مغامراته، لخرج منها نظيفًا بكلّ سرور، ولكنّها لم تكن متأكّدة أنّها تريد أن تسأله.

في الماضي، كانت معتادة التظاهر بالجهل كي لا تقلق مركب زواجها. أمّا الآن فإنّها لم تعد تتصرّف وكأنّها لا تعرف ماذا كان يفعل عندما يكون خارج البيت. وأوضحت بجلاء أنّها كانت تعلم وأنّها لا تكترث. كان هذا الترفّع هو الذي أثار رعب زوجها. في وسع إيلّا أن تفهمه لأنّها كانت في داخلها مذعورة أيضًا.

لو اتّخذ ديڤيد قبل شهر واحد فقط خطوة صغيرة لتحسين وضع زواجهما لشعرت بالعرفان والامتنان. وكان من شأن أيّة محاولة يبذلها أن تثير بهجتها وسرورها. ولكن ليس بعد الآن. فقد بدأت الشكوك تساورها في أنّ حياتها لم تكن حياة حقيقيّة بما يكفي. كيف وصلت إلى هذا الاستنتاج؟ كيف اكتشفت أمّ الأبناء الثلاثة الراضية المرضيّة جزعها وقنوطها؟ الأهمّ من هذا كلّه، لو كانت غير سعيدة، كما أخبرت جانيت ذات مرّة، فما السبب في أنّها لم تفعل ما يفعله الناس غير السعداء في كلّ وقت؟ فما من بكاء على أرض الحمّام ولا إجهاش في البكاء من فوق حوض الغسيل في المطبخ ولا نزهات طويلة كئيبة بعيدًا عن المنزل ولا رمي الأغراض على الجدران... لا شيء.

هدوء غريب خيّم على إيلّا، وشعرت أنّها أكثر استقرارًا ممّا كانت عليه في الماضي حتى عندما كانت تبتعد بسرعة عن الحياة التي كانت تعرفها. كانت تنظر صباحًا إلى المرآة نظرة صارمة وطويلة لتتأكّد من أيّ تغيير ملحوظ في وجهها. هل بدت أصغر سنًّا؟ أكثر جمالاً؟ أم ربّما مفعمة بالحيويّة والنشاط أكثر ممّا كانت عليه سابقًا؟ ولكنّها لم تستطع ملاحظة أيّ فرق. لم يتغيّر شيء، ومع هذا، لم يعد أيّ شيء كما كان عليه في الماضي.

* * *

كيرا

قونية، ٥ أيّار ١٢٤٥

الأغصان التي تهدّلت ذات مرّة تحت وطأة الثلج، تفتّحت الآن خارج نافذتنا ولا يزال شمس التبريزي في بيتنا. في غضون ذلك، كنت أراقب زوجي وهو يتحوّل إلى إنسان آخر، مبتعدًا في كلّ يوم مسافة أكبر عنّي وعن أسرته. في البدء راودتني فكرة أنّهما سوف يشعران بالملل عمّا قريب من رفقة أحدهما الآخر ولكن لم يحدث أيّ شيء من هذا القبيل. وإذا كان قد حدث أيّ شيء، فإنّ صلتهما ازدادت قربًا وعندما كانا معًا، فإنّهما إمّا يصمتان صمتًا غريبًا، أو يتحدّثان بصوت خافت باستمرار، تقطعه جلجلة الضحك ممّا يدفعني إلى التفكير عن السبب في عدم نفاد كلماتهما. كان الرومي يسير على أثر كلّ حديث يتجاذبه وشمس قد تحوّل إلى إنسان آخر، منعزلاً ومنغمسًا، كأنّه نشوان بمادّة لا أستطيع تذوّقها ولا رؤيتها.

الرباط الذي يوحّدهما عشّ لاثنين، لا مجال فيه لشخص ثالث. كانا يومئان برأسيهما أو يبتسمان أو يضحكان ضحكًا متقطّعًا أو يعقدا حواجبهما على النحو نفسه وفي الوقت نفسه، ويتبادلان نظرات طويلة ذات مغزى أثناء الكلام. يبدو أنّ مزاج كلّ واحد منهما يعتمد على الآخر. ففي بعض الأيّام، تراهما أشدّ هدوءًا من ترنيمة الأطفال، فلا يأكلان طعامًا، ولا يتفوّهان بكلمة في حين أنّهما يدوران، في أيّام أُخر، من حول نفسيهما دورانًا تخالهما مجنونين من فرط حماستهما. وفي كلتا الحالتين، لم أعد

أعرف زوجي بعد الآن. فالرجل الذي تزوّجته قبل أكثر من ثمانية أعوام، الرجل الذي ربّيت أطفاله وكأنّهم أطفالي والذي رُزقت منه ولدًا، تحوّل إلى شخص غريب. الوقت الوحيد الذي أشعر أنّني قريبة منه هو الوقت الذي يستغرق فيه في نوم عميق. فعلى مدى ليال طوال في الأسابيع الماضية، بقيت مستلقية وأنا يقظة أصغي إلى إيقاع أنفاسه، وأشعر بهمس أنفاسه الناعم على بشرتي، وقلبه المرتاح ينبض في أذني، لا شيء إلّا ليذكّرني أنّه ما زال الرجل الذي تزوّجني.

لبثت أقول لنفسي إنّ هذه المرحلة موقّتة وإنّ شمسًا سيرحل يومًا ما، فهو درويش جوّال على أيّة حال. أمّا الرومي فسوف يبقى في هذا المكان بصحبتي، وهو ينتمي إلى هذه البلدة وإلى تلامذته، وليس لي ما أفعله سوى الانتظار. لكنّ الصبر ليس سهلاً، بل يزداد صعوبة بمرور كلّ يوم. وعندما أشعر بالقنوط أكثر ممّا ينبغي، أحاول أن أتذكّر سالف الأيّام ـ خاصّة عندما وقف الرومي بجانبي على الرّغم من كلّ المصاعب.

فقد انهمك الأهالي في القيل والقال عندما نمى إلى علمهم نبأ زواجنا المرتقب وقالوا:

ـ كيرا نصرانيّة، وحتى لو اهتدت إلى دين الإسلام، فإنّها لن تكون واحدة منّا، إنّ عالمنا كبيرًا من علماء الإسلام لا ينبغي له الزواج بامرأة من غير دينه.

لكنّ الرومي لم يكترث لأقاويلهم، لا في ذلك الوقت ولا لاحقًا. ولهذا السبب سأظلّ وفيّة له.

تتألّف الأناضول من خليط من الأديان والناس والأطباق، فإذا كنّا نأكل الطعام نفسه، ونشدو بالأغاني الحزينة نفسها، ونؤمن بالخرافات نفسها، ونحلم بالأحلام ذاتها ليلاً، فما المانع في أن نعيش معًا؟ أعرف أنّ ثمّة أطفالاً من النصارى يحملون أسماء المسلمين، وأطفالاً من المسلمين أرضعتهم الحليب أمّهات من النصارى. عالمنا هو عالم سائل في معظمه حيث يتدفّق كلّ شيء ويمتزج. ولو كان ثمّة حدّ بين النصرانيّة والإسلام، فإنّ هذا الحدّ ينبغي أن يكون أكثر مرونة ممّا يعتقده العلماء من كِلاَ الطرفين.

ولأنّني زوجة عالم ذائع الصيت، فإنّ الأهالي يتوقّعون منّي أن أكنّ احترامًا شديدًا للعلماء، لكنّ الحقيقة هي أنّني لا أحترمهم. فالعلماء يعرفون الشيء الكثير. هذا مؤكّد، لكن هل تنفع المعرفة الزائدة عن اللزوم عندما يتعلّق الأمر بالدين؟ إنّهم يتفوّهون دومًا بكلمات كبيرة يصعب فهمها. العلماء المسلمون ينتقدون الديانة النصرانيّة لأنّها تؤمن بالثالوث، وعلماء النصرانيّة ينتقدون الإسلام لأنّه يرى القرآن كتابًا مثاليًّا. إنّهم يجعلون الأمور تبدو وكأنّ الدينين على طرفي نقيض. ولكن لو سألتموني عن وجهة نظري لقلت إنّ النصارى الاعتياديّين والمسلمين الاعتياديّين تجمع بينهم، في الأساسيّات، أمور مشتركة أكثر ممّا تجمعهم بعلمائهم.

يقولون إنّ أصعب شيء عند المسلم الذي يتحوّل إلى النصرانيّة يتمثّل في إيمانه بالثالوث، وأنّ أصعب شيء عند النصراني الذي يهتدي إلى الإسلام هو التخلّي عن إيمانه بالثالوث. أمّا في القرآن، فإنّ عيسى يقول: إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا(*).

لكن على الرّغم من ذلك، فإنّ فكرة أنّ عيسى ليس ابن الله بل هو عبد الله ليست فكرة يصعب الإيمان بها. ولكنّي أجد أنّ الأصعب من هذا هو التخلّي عن مريم. أنا لم أخبر أحدًا بهذا الرأي، ولا حتى الرومي، ولكنّي أشتاق أحيانًا إلى رؤية عيني مريم البنيّتين المفعمتين بالحنين. إنّ لنظرتها أثر مسكّن فيّ.

في الحقّ، أنّني منذ مجيء شمس التبريزي إلى بيتنا، حزنت واضطربت على نحو بتّ أجد نفسي مشتاقة إلى مريم أكثر من أيّ وقت آخر. إنّ حاجتي إلى الصلاة من أجل مريم تلحّ عليّ بقوّة خارجة عن سيطرتي كأنّها حمّى مشتعلة في عروقي. وفي مثل هذه الأوقات، يهلكني الإحساس بالذنب كأنّني أخون ديني الجديد.

لا أحد يعرف هذا. ولا حتى جارتي صفيّة المؤتمنة على أسراري في كلّ القضايا، لأن ليس في وسعها أن تفهم، أتمنّى لو أنّني أستطيع أن أخبر زوجي بذلك ولكنّي لا اعرف سبيلاً إلى ذلك، فقد ابتعد عنّي ابتعادًا كثيرًا،

(*) انظر سورة مريم (١٩ : ٣٠) (المترجم).

وأخشى أن أبعده عنّي أكثر. كان الرومي يمثّل كلّ شيء عندي، أمّا الآن فهو غريب. لم أعلم قطّ أنّ في الإمكان العيش مع شخص آخر تحت سقف واحد والنوم في سرير واحد، ومع هذا يظلّ الإحساس بأنّه ليس موجودًا حقًّا.

* * *

شمس التبريزي

قونية، ١٢ حزيران ١٢٤٥

مؤمن مشوّش! إذا كان الفرد يصوم كلّ رمضان باسم الله ويضحّي في كلّ عيد شاه أو معزاة تكفيرًا عن ذنوبه، وإذا سعى طوال حياته من أجل الحجّ إلى مكّة، ويصلّي جاثيًا خمس مرّات في اليوم من فوق سجّادة الصلاة ولكن لا مكان للحبّ في قلبه. فما فائدة كلّ هذا؟ الإيمان ليس سوى كلمة، إن كانت لا تحتوي على الحبّ في جوهرها، كلمة غامضة، بلا حياة ـ فلا يستطيع المرء أن يحسّ بها.

أيعتقدون أنّ الله يُقيم في مكّة أو المدينة؟ أو في أحد المساجد في مكان ما؟ كيف يمكنهم أن يتخيّلوا أنّ الله يمكنه أن يكون محدودًا بمكان معيّن؟

مسكين من يظنّ أنّ حدود عقله الفاني هي نفسها حدود الله القدير، ومساكين هم الجهلة الذين يدّعون أنّ بإمكانهم التفاوض مع الله وتسديد الديون له. أيظنّ مثل هؤلاء الناس أنّ الله بقّال يحاول أن يزن حسناتنا مقابل سيّئاتنا في ميزانين منفصلين؟ أهو الكاتب الذي يدوّن تفاصيل كلّ خطايانا في دفتر حساباته ليجعلنا نسدّد له يومًا ما؟ أهذا هو رأيهم في الوحدة؟

لا. ليس الله ببقّال ولا كاتب. إنّ إلٰهي إلٰه عظيم، إلٰه حيّ. فلماذا أريد إلٰهًا لا وجود له؟ إنّه حيّ. وصفته الحيّ. فلماذا أتمرّغ في مخاوف وهموم لا أوّل لها ولا آخر وأضع نفسي بين الحدود والمحظورات؟ إنّ الله

رحيم بلا حدود، وصفته الودود، وهو الشكور، وهو الجدير بالحمد والثناء، وأنا أحمده وأشكره بكلّ كلماتي وأفعالي على نحو طبيعي دون مشقّة مثلما أتنفّس، واسمه الحميد. فكيف يمكنني أن أُشيع القيل والقال وأن أفتري إذا كنت أعلم في صميم فؤادي أنّ الله يسمع كلّ شيء ويراه؟ إنّ اسمه البصير وهو جميل لا تتصوّره الأحلام ولا الآمال.

الجميل والقيّوم والرحمٰن والرحيم. سوف أتغنّى به وأرقص له أثناء المجاعة والفيضان والجفاف والعطش حتى تلتوي ركبتاي وينهار جسدي ويتوقّف فؤادي عن الخفقان. وسأحطّم ذاتي أشتاتًا حتى أصبح ذرّة من العدم لا أكثر، وعابر سبيل في الفضاء الخاوي وذرّة من ذرّات معماره العظيم. إنّني أحمده على عظمته وعلى كرمه حمدًا كثيرًا بهيجًا لا ينقطع. إنّني أحمده على كلّ الأشياء التي منحني إيّاها وحرمني منها لأنّه هو وحده الذي يعلم ما هو خير لي.

شعرت بموجة جديدة من السعادة والأمل وأنا أتذكّر قاعدة أخرى في قائمتي: (للبشر مكانة عظيمة بين خلق الله. يقول الله: «فنفخنا فيه من روحنا»(*) إنّ كلّ واحد منّا، بلا استثناء، أُعدّ ليكون مندوبًا من الله على هذه الأرض. اسألوا أنفسكم. كم مرّة تتصرّفون على هذا الأساس، إن كنتم حقًّا تتصرّفون؟ تذكّروا، المسؤوليّة ملقاة على عاتقنا في اكتشاف الروح المقدّسة الكامنة فينا، وأن نعيش بها).

وبدلاً من أن يهيم المتعصّبون المتديّنون في حبّ الله ويخوضون حربًا ضدّ نفوسهم، تراهم يحاربون غيرهم من الناس مولّدين بذلك موجات من الخوف والرعب الواحدة تلو الأخرى. وإذا ما نظرنا إلى الكون بعيون خاشية، فإنّه ليس من عجب أنّهم يرون أشياء كثيرة يخشونها. فأينما حدثت هزّة أرضيّة أو جفاف أو أيّة مصيبة أخرى ينظرون إليها على أنّها غضب من الله وكأنّ الله لم يقل صراحة: (ورحمتي وسعت كلّ شيء)(**). ولَما كان هؤلاء الناس يتضايقون من شخص ما لهذا السبب أو ذاك، فيبدو أنّهم

(*) أنظر سورة التحريم (٦٦: ١٢) (المترجم).
(**) أنظر سورة الأعراف (٧: ١٥٦) (المترجم).

يتوقّعون من الله العزيز أن يتدخّل بالإنابة عنهم وينتقم لهم. حياتهم حالة لا تتوقّف من المرارة والعداء ومن عدم الرضا الذي يبلغ مدى هائلاً حتى إنّه يلاحقهم أينما ذهبوا مثل سحابة سوداء تسوّد لهم ماضيهم ومستقبلهم.

ثمّة أمر ما في الدين يجعل الفرد عاجزًا عن التمييز بين الغابة والأشجار. إنّ شموليّة الدين أعظم وأعمق من جزيئاته ومكوّناته الصغيرة. لهذا تنبغي قراءة القواعد الفرديّة في ضوء المجموع الكلّي، كما أنّ هذا الكلّي خاف في الجوهر.

وبدلاً من أن يبحث المتعصّبون عن جوهر القرآن ويأخذون به بمجموعة، تراهم يلتقطون آية معيّنة أو آيتين توضحان أهمّيّة الأوامر الإلٰهيّة فيظنّون أنّها تنجسم وأفكارهم المختفية. فيظلّون يذكّرون كلّ فرد بأنّ كلّ بني البشر سوف يجبرون في يوم القيامة على السير على جسر الصراط الأرقّ من الشعرة والأمضى من الشفرة، وسيسقط الخطاة العاجزون عن العبور في مهاوي جهنّم من تحتهم حيث يتعذّبون إلى ما لا نهاية. أمّا الذين عاشوا حياة فضيلة فسوف يعبرون إلى الجهة الأخرى حيث ثوابهم الثمار اللذيذة والمياه العذبة والعذارى. باختصار، هذه هي فكرتهم عن الآخرة. إنّهم شديدو الهوس بالعقاب والثواب، النار والفاكهة، الملائكة والشياطين حتى تجدهم في رغبتهم للوصول إلى مستقبل يبرّر هويّتهم اليوم وقد نسوا الله! ألا يعرفون إحدى القواعد الأربعين؟ (الجحيم هنا والآن، وكذلك السماء. كفّ عن التفكير في جهنّم أو الحلم بالسماء لأنّهما موجودتان في هذه اللحظة الراهنة. وفي كلّ مرّة نغرم فيها، نرتقي إلى السماء، وفي كلّ مرّة نكره فيها، أو نقاتل أحدًا ما، نهوي إلى نار جهنّم). هذا ما تنصّ عليه القاعدة الخامسة والعشرون.

أهناك ما هو أسوأ من حجيم العذاب الذي يعانيه الفرد عندما يعلم في أعماق نفسه أنّه ارتكب خطأ، خطأ جسيمًا. اسألوا ذلك الرجل. وسيخبركم ما الجحيم. أهناك ما هو أحسن من جنّة النعيم الذي يهبط على الإنسان في تلك اللحظات النادرة من حياته عندما تفتح أبواب الكون ويشعر أنّه يعرف كلّ أسرار الأبديّة وأنّه توحّد توحّدًا تامًّا مع الله؟ اسألوا ذلك الرجل، وسيخبركم ما الجنّة.

لِمَ هذا القلق الشديد من الآخرة والمستقبل المتخيّل في حين أنّ اللحظة الراهنة هي الوقت الوحيد الذي يمكننا أن نعيش فيه عيشة تامّة مصادقة في وجود الله وغيابه عن حياتنا. وهكذا فإنّ الصوفيّين لا تحفّزهم مخاوف العقاب في جهنّم ولا الرغبة في الثواب في السماء، فتراهم يعشقون الله لأنّهم بكلّ بساطة يحبّونه حبًّا صافيًا وسهلاً لا تشوبه شائبة ولا يمكن اختراقه.

الحبّ هو السبب. الحبّ هو الهدف.

وعندما تحبّ الله حبًّا جمًّا، عندما تحبّ كلّ مخلوق من مخلوقاته بسببه وتشكر له ذلك، فإنّ التصنيفات الخارجيّة الغريبة تذوب في الهواء الرقيق. ومن هذه النقطة لا يمكن أن تكون هناك بعد الآن «الأنا»، وكلّ ما ترقى إليه هو أنّك صفر، لك من كبر الحجم ما يملأ كيانك كلّه.

في ذلك اليوم كنت أنا والرومي نناقش هذه القضايا ونتأمّل فيها، وعلى حين غرّة أغمض عينيه ونطق بالعبارة الآتية:

«لا أنا بالمسيحي ولا باليهودي ولا بالمسلم، لا بالهندوسي أو البوذي أو الصوفي أو الصيني. ولا من أيّ دين أو نظام ثقافي. لست شرقيًّا ولا غربيًّا... مكاني اللامكان، علامة العلامات»(*).

(*) يبدو أنّ الروائيّة اعتمدت على ترجمة نيكلسون لمثنوي جلال الدين الرومي، ونظرًا لاختلاف النصّ الإنكليزي، الذي ترجمناه حرفيًّا أعلاه للقرّاء العرب، عن النصّ العربي المعتمد، فإنّنا للأمانة العلميّة نورد النص كما ورد في كلّيّات شمس التبريزي لجلال الدين الرومي:

ما التدبير أيّها المسلمون فإنّني لا أعرف من أنا   لا أنا بالمسيحي ولا باليهودي ولا بالمجوسي ولا بالمسلم
ولا أنا بالشرقي ولا بالغربي ولا بالبرّي ولا بالبحري   ولا أنا من عناصر الطبيعة ولا أنا من الأفلاك الدوّارة
ولا أنا من تراب ولا من هواء ولا من ماء ولا من نار   ولا أنا من العرش ولا من الفرش ولا أنا من الكون ولا أنا من المكان
ولا أنا من الهند ولا من الصين ولا من البلغار ولا من السكسون   ولا أنا من بلاد العراقين ولا من أرض خراسان
ولا أنا من الدنيا ولا من العقبى ولا من الجنّة ولا من النار   ولا من آدم ولا من حوّاء ولا من فردوس رضوان
مكاني في اللامكان وعلامتي أن ليس لي علامة   لست جسمًا ولا روحًا بل إنّني روح من روح الحبيب
(المترجم).

يعتقد الرومي انه لا يمكن له أنّ يصبح شاعرًا. ولكن الشاعر في أعماقه، بل هو شاعر مدهش! والان، لقد انكشف الشاعر.

نعم الرومي على حقّ. فهو ليس بالشرقي ولا بالغربي، بل ينتمي إلى مملكة الحبّ. انه ينتمي إلى المحبوب.

* * *

t.me/read4lead

إيلّا

نورثهامبتون، ١٢ حزيران ٢٠٠٨

فرغت إيلّا الآن من قراءة مخطوطة الرواية وبدأت تضع اللمسات الأخيرة على تقريرها التحريري. وعلى الرّغم من أنّها كانت في توق شديد لمناقشة عزيز في تفاصيل روايته، فإن إحساسها بالمهنيّة حال دون ذلك، لأنّه عمل غير صائب. ولا ينبغي لها مناقشته قبل أن تنجز مهمّتها. كما أنها لم تخبر عزيز بأنّها اشترت على أثر قراءتها مخطوطة روايته نسخة من ديوان الرومي وأنّها الآن منهمكة في قراءة بضع قصائد في الأقلّ كلّ ليلة قبل أن تخلد للنوم. لقد فصّلت فصلاً دقيقًا بين اشتغالها على الرواية عن تبادل الرسائل والاتّصال مع المؤلّف. ولكن شيئًا ما حدث في الثاني عشر من حزيران جعل الحدّ الفاصل بين الاثنين مشوّشًا إلى ما لا نهاية.

لم تكن إيلّا قد رأت صورة عزيز حتى ذلك النهار، ولم تكن لديها أيّة فكرة عن شكله لأنّ موقعه على الشبكة العنكبوتيّة لم يتضمّن أيّ صورة له. وقد استمتعت في بادئ الأمر بلغز الكتابة إلى رجل لا وجه له. ولكن حبّ استطلاعها بدأ يستولي عليها بمرور الوقت. وجذبتها جذبًا قويًّا ضرورة وضع صورة على رسائله. وقد رأت في عدم طلبه منها وضع صورة لها أمرًا غريبًا، غريبًا حقًّا. وبغتة أرسلت له صورتها، تمثّلها هي وكلبها العزيز على الشرفة، مرتدية ثوبًا لازوردي اللون يكشف قليلاً عن تضاريس جسدها. كانت مبتسمة في الصورة ـ ابتسامة تنمّ عن قدر من السرور وقدر من

الاضطراب. أصابعها تمسك طوق الحيوان في قوّة كأنّها تريد أن تستمدّ بعض القوّة منه. وكانت السماء من فوقهما مزيجًا بين اللونين الرمادي والأرجواني. لم تكن تلك الصورة بأفضل صورها ولكنّها توحي بقدر من الروحانيّة، قدر من الأخرويّة إلى حدّ كبير. أو ربّما هكذا تمنّت، فأرسلتها رفقة رسالة إلكترونيّة وانتظرت. إنّه أسلوبها في الطلب إلى عزيز أن يرسل إليها صورته.

فأرسلها.

عندما شاهدت إيلّا الصورة التي أرسلها إليها عزيز فكّرت أنّها لا بدّ قد التقطت له في مكان ما من الشرق الأقصى الذي لم تزره قطّ. كانت الصورة تمثّل عزيزًا واقفًا يحفّ به أكثر من نصف دزينة من أطفال المنطقة من ذوي الشعر الأسود ومن مختلف الأعمار. وكان عزيز مرتديًا قميصًا أسود اللون وبنطالاً أسود أيضًا، نحيف البنية، دقيق الأنف، عظام وجنته عالية وشعره الأسود الطويل المتموّج ينسدل إلى كتفيه. عيناه زمرديّتان طافحتان بالحيويّة والنشاط فضلاً عن شيء آخر عدّته إيلّا حنانًا. وكان يضع قرطًا في إحدى أذنيه وقلادة غريبة الشكل لم تتمكّن إيلّا من فهمها. وفي الجزء الخلفي من الصورة، بحيرة يحفّ بها حشيش متسامق في طوله، وفي إحدى الزوايا يخيّم شبح شيء ما أو شخص ما خارج نطاق الصورة.

أنعمت إيلّا النظر في الرجل في الصورة واستوعبت كلّ تفاصيله وخالجها شعور أنّها تعرفه من مكان ما. وبقدر ما كان شعورها غريبًا، فقد كان في مستطاعها أن تقسم اليمين على أنّها شاهدته من قبل.

وعلى حين بغته عرفت.

إنّ شمس التبريزي يحمل أكثر من شبه عابر بعزيز زد. زاهارا. وكان مظهره يبدو كمظهر شمس الموصوف في المخطوطة قبل سفره إلى قونية لمقابلة الرومي. وفكّرت إيلّا في نفسها إن كان عزيز قد تعمّد في أن يجعل مظهر بطله على غرار مظهره الشخصي. ربّما رغب بوصفه كاتبًا في أن يخلق شخصيّة مركزيّة على صورته، تمامًا مثلما خلق الله البشر على صورته.

وبينما كانت مستغرقة في هذه الأفكار، خطر ببالها احتمال آخر هو أنّ

شمس التبريزي كان يبدو تمامًا مطابقًا للوصف الذي ذكر به في الكتاب، وفي هذه الحالة، فإنّ المعنى الوحيد هو أنّ ثمّة تشابهًا مدهشًا بين الرجلين اللذين تفصل بينهما زهاء ثمانمئة سنة. هل كان التشابه يا ترى خارج سيطرة المؤلّف وربّما حتى خارج علمه؟ كلّما ازداد تفكير إيلّا في هذه المعضلة، راودتها شكوك في أنّ صلة ما يمكن أن تكون قد ربطت بين شمس التبريزي وعزيز زد. زاهارا على نحو يتجاوز الحيلة الأدبيّة البسيطة لجذب القارئ.

كان لهذا الاكتشاف أثران غير متوقّعين في نفس إيلّا. فهي شعرت أوّلاً بضرورة الرجوع إلى مخطوطة الرواية وقراءتها من جديد بعين مختلفة، لا من أجل القصّة هذه المرّة، بل من أجل أن تعثر على المؤلّف متواريًا داخل الشخصيّة المركزيّة، أن تعثر على عزيز في شخص شمس التبريزي.

كما أنّ إيلّا أصبحت، ثانيًا منجذبة أكثر فأكثر إلى شخصيّة عزيز. من هو؟ ما حكايته؟ لقد سبق له أن أخبرها في إحدى رسائله السبّاقة إنّه اسكتلندي، ولكن لماذا يحمل اسمًا شرقيًّا ـ عزيز؟ أهو اسمه الحقيقي؟ أم تراه اسمه الصوفي؟ وعلى فكرة، ما معنى أن يكون المرء صوفيًّا؟

شيء آخر شغل ذهنها. أوّل علامة من علامات الرغبة غير المحسوسة تقريبًا. لقد انقضى زمن طويل منذ أن شعرت بالرغبة آخر مرّة، ولهذا لم تستغرق سوى لحظات قصيرة حتى أدركت مشاعرها. إنّها مشاعر تحسّ بها الآن. قويّة ومحفّزة ومتمرّدة. عرفت أنّها رغبت بالرجل الماثل في الصورة وفكّرت في طعم القبلة التي قد تقبّله بها.

كان إحساسها غير متوقّع ومربكًا على نحو دفعها إلى اغلاق حاسوبها من فورها كأنّ الرجل الماثل في الصورة يمكن أن يجذبها داخل الحاسوب.

* * *

المحارب بيبرس

قونية ١٠ تموز ١٢٤٥

ـ بيبرس، لا تثق بأحد يا بنيّ.

قال عمّي وأضاف:

ـ لأنّ العالم يزداد فسادًا يومًا بعد يوم.

وأوضح أنّ الزمان الوحيد الذي كانت فيه الأحوال مختلفة إنّما هو العصر الذهبي، عندما كان النبيّ محمد ﷺ يتولّى زمام الأمور على الوجه المطلوب. ولكن منذ وفاته بدأت الأحوال تتدهور. غير أنّك لو طرحت عليّ سؤالاً لأجبتك بأنّ أيّ مكان يوجد في أكثر من شخصين اثنين سوف يتحوّل إلى ساحة معركة. فحتى في زمن النبيّ، كان للناس نصيبهم من الحروب. صحيح؟ الحرب جوهر الحياة. فالأسد يأكل الغزال، والنسور تحيل ما تبقّى من جثّة الحيوان إلى عظام رميم. الطبيعة قاسية. برًّا أو بحرًا أو جوًّا، ليس إلّا من وسيلة واحدة لكلّ مخلوق بلا استثناء كي يبقى على قيد الحياة وهي أن يكون أشرس وأقوى من عدوّه. فإذا أردت أن تبقى على قيد الحياة، لا بدّ لك أن تقاتل. هكذا بكلّ بساطة.

يجب علينا القتال. وفي وسع أشدّ الناس سذاجة أن يدرك أن لا سبيل آخر في هذه الأيّام وفي هذا العصر. لقد تغيّرت الأمور نحو الأسوأ قبل خمسة أعوام عندما ذبح مئة دبلوماسي مغولي أرسلهم جنكيز خان

للتفاوض من أجل السلام. ووقتئذ تحوّل جنكيز خان إلى كرة ملتهبة من العنف وأعلن الحرب على الإسلام. كيف قتل أولئك الدبلوماسيّون ولماذا؟ لا أحد يستطيع الجواب. ساورت بعض الناس الشكوك في أنّ جنكيز خان نفسه هو الذي أصدر أوامره بقتل دبلوماسيّيه كي يتمكّن من حملته الحربيّة الكبرى في المقام الأوّل. وقد يكون هذا الرأي صائبًا. لا أحد يعرف. لكنّني أعرف أنّ المغول اجتاحوا كلّ منطقة خراسان وألحقوا الموت والدمار في كلّ مكان انطلقوا إليه. وقبل عامين اثنين ألحقوا الهزيمة بقوّات السلاجقة في كوسيداغ وجعلوا السلطان تابعًا لهم يدفع لهم الجزية. والسبب الوحيد الذي حال دون قضاء المغول علينا قضاء مبرمًا هو أنّ إبقائنا تحت نيرانهم أكثر نفعًا وفائدة لهم.

ربّما وجدت الحروب من غابر العصور، في الأقلّ منذ أن قتل قابيل شقيقه هابيل ولكن جيش المغول لم يكن مثل أيّ جيش سبق لنا أن رأيناه. فأفراده متخصّصون في أكثر من صنف، ويستخدمون مختلف أنواع الأسلحة، لكلّ سلاح هدف محدّد. وكلّ جندي مغولي مدجّج بالسلاح كالقضيب الشائك والفأس والسيف والرمح فضلاً على السهام التي يمكنها أن تخترق الدروع. وكان أولئك الجنود يضرمون النيران في القرى، ويسمّمون ضحاياهم أو يثقبون أصلب عظام جسد الإنسان. كانت لديهم سهام تطلق صفيرًا يستعملونها لإرسال الإشارات من فوج إلى آخر. كان المغول يهاجمون بمثل هذه المهارات الحربيّة المتقدّمة وعدم خوفهم من الله، القرى والبلدات والمدن يدمّرونها واحدة إثر الأخرى أثناء تقدّمهم. كما أنّ المدن القديمة مثل بخارى حوّلوها إلى أكوام من الأنقاض. ولم يقتصر الأمر على المغول وحدهم، إذ ينبغي استعادة القدس من الصليبيّين فضلاً عن ضغوط البزنطيّين والتنافس بين الشيعة والسنة. فإذا كنّا محاطين بأعداء متوحّشين من كلّ جانب، فكيف يمكننا أن نكون مسالمين؟

لهذا السبب فإنّ الناس الذين يشبهون الرومي يضايقونني، ولا يهمّني الفرد مهما كان تفكيره في نفسه كبيرًا. ففي نظري، هو جبان ولا ينشر سوى الجبن. لعلّه كان عالمًا جيّدًا في الماضي ولكنّه اليوم تحت تأثير واضح من ذلك المهرطق شمس. ففي حين كان أعداء الإسلام يحيطون بنا

من كلّ جانب، ما الذي يا ترى كان يردّده الرومي في خطبه؟ السلام! والمسالمة! التسليم!

يا أخي، تحمّل الألم. اهرب من سموم نزواتك
فالسماء ستنحني لجمالك. إذا ما فعلت ذلك
هكذا تتحوّل الشوكة إلى وردة. نقطة تتوهّج مع الكلّي.

الرومي يخطب في موضوع التسليم محوّلاً المسلمين إلى قطيع من الأغنام، خنوعين وجبناء. ويقول إنّ لكلّ نبي جماعة من التابعين وإنّ لكلّ جماعة وقتًا معلومًا. وبخلاف كلمة «الحبّ»، يبدو أنّ الكلمات المفضّلة لديه هي «الصبر» و«التوازن» و«التسامح». لو كان الأمر متروكًا له، لجلسنا في بيوتنا وانتظرنا أعداءنا كي يذبحونا أو تحلّ بنا كارثة أخرى. وأنّني لعلى ثقة بأنّه سيأتي ساعتئذ ليلقي نظرة سريعة على الدمار ويقول إنّ ما حلّ بنا بركة. بعض الناس سمعوه يقول: «عندما يلحق الدمار بالمدرسة والمسجد والمنارة فإنّ الدراويش سيبدأون وقتئذ بتأسيس جماعتهم». ما هذا الكلام؟

عندما يتأمّل الفرد في هذا الكلام، يجد أنّ السبب الأوحد الذي جعل الرومي ينتهي به المطاف إلى هذه المدينة هو أنّ أسرته هاجرت من أفغانستان قبل عقود من الزمان بحثًا عن ملاذ له في الأناضول(*)، وتلقّى عدد كبير من الأثرياء وأصحاب النفوذ في ذلك المكان دعوة مفتوحة من سلطان السلاجقة، وكان بينهم والد الرومي. وهكذا استقرّت أسرة الرومي وحظيت بالاهتمام والامتيازات في بساتين قونية الهادئة بعد رحيلها عن جنوب أفغانستان وضجيجها. ومن السهل على الفرد أن يخطب عن التسامح إن كان تاريخه الشخصي على هذا النحو.

(*) المعروف أنّ جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣) ولد بمدينة بلخ، غربي مزار شريف وجنوبي مجرى آمودريا. توالى عليها الاخمينيّون والاسكندر والسلوقيّون وأصبحت عاصمة دولة يونانيّة هنديّة قويّة ومركزًا للبوذية. دخلها الإسلام في القرن الأوّل الهجري، فغدت عاصمة خراسان ومن مراكز الثقافة الإسلاميّة المزدهرة لا سيّما في عهد السامانيّين والسلاجقة والغزنويّين. خرّبها جنكيز خان في ١٢٢٠ فضعف مركزها. وقد تركت أسرة الرومي بلخ بسبب الغزو المغولي واستقرّت في قونية عاصمة سلاجقة الروم (١٠٨١ ـ ١٣٠٢). (المترجم).

قبل أيّام سمعت رواية تُفيد أنّ شمس التبريزي أخبر طائفة من الناس في السوق أنّ عليًا، خليفة النبيّ ورفيقه، كان يحارب أحد الكفّار في ميادين المعركة. وكاد عليّ أن يغمد سيفه في قلب ذلك الرجل عندما رفع الكافر رأسه بغتة وبصق عليه، فما كان من عليّ إلّا أن أنزل سيفه وتنهّد تنهيدة عميقة ومضى في سبيله. فصعق الكافر من شدّة ذهوله وركض في اتّجاه عليّ وسأله عن السبب الذي جعله يتركه ويمضي في طريقه. فقال عليّ:

ـ لأنّني كنت شديد الغضب منك.

فسأل الكافر:

ـ ولماذا لم تقتلني إذًا؟ لا أفهم.

فشرح له عليّ.

ـ عندما بصقت عليّ، غضبت غضبًا شديدًا، فقد استنفرت ذاتي فتاقت إلى الانتقام. فلو قتلتك لسرت في أهواء ذاتي، وتلك لعمري غلطة كبيرة.

وهكذا أطلق علي سراح الرجل، فتأثّر الكافر تأثّرًا بليغًا وأصبح صديق عليّ وأحد أتباعه واهتدى إلى الإسلام بملء إرادته.

هذا هو نمط القصص التي كان يحلو شمس التبريزي أن يرويها. فما رسالته؟ دع الكافر يبصق في وجهك! بل أقول ما من شخص يمكنه أن يبصق في وجه المحارب بيبرس، كافرًا كان أم غير كافر، حتى لو كلّفني ذلك حياتي.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ١٣ حزيران ٢٠٠٨

عزيزي عزيز

ستظنّ أنّني مجنونة. لكنّي سأطرح عليك سؤالاً:

أأنت شمس؟

أم أنّ الآية معكوسة؟ أشمس أنت؟

المخلصة إيلّا

* * *

عزيزتي إيلّا

شمس هو الشخص المسؤول عن تحوّل الرومي من رجل دين محلّي إلى شاعر وصوفي طبقت شهرته الآفاق.

كان الشيخ صمد يقول لي: حتى لو كان ثمّة مكافئ لشمس عند بعض الناس، فإنّ الشيء المهمّ هو أين هم من أتباع الرومي لنراهم.

ارقّ تحيّاتي

عزيز

عزيزي عزيز،

من هو الشيخ صمد؟

أطيب الأمنيات

إيلّا

* * *

عزيزتي إيلّا .

إنّها قصّة طويلة. أتريدين أن تعرفيها؟

أرقّ التحيّات

عزيز

* * *

عزيزي عزيز.

لديّ متّسع من الوقت.

محبّتي

إيلّا

* * *

الرومي

قونية، ٢ آب ١٢٤٥

فيّاضة حياتك، مفعمة وكاملة، أو هكذا يتراءى لك إلى أن يأتي أحدهم ويجعلك تدرك ما الذي ينقصك طوال هذا الوقت. وكما هو شأن المرآة التي تعكس ما هو غائب أكثر ممّا تعكس ما هو حاضر، فإنّه سيريك الفراغ في نفسك ـ الفراغ الذي رفضت أن تراه. يمكن لذلك الفرد أن يكون عاشقًا أو صديقًا أو معلّمًا روحيًا. أحيانًا قد يكون طفلاً يحتاج إلى عناية. المهمّ هو أن تجد تلك الروح التي تكمل روحك. لقد أعطي الأنبياء جميعًا النصيحة نفسها: فتّش عن الشخص الذي سيكون مرآتك! أمّا أنا، فمرآتي شمس التبريزي. فأنا حتى مجيئه وإرغامه إيّاي لأنظر في أعماق صدوع روحي، لم أواجه الحقيقة الجوهريّة عن نفسي: فأنا على الرّغم من أنّني ناجح ومرفّه من الخارج، فإنّني وحيد، لم تتحقّق رغباتي من الباطن.

هذا الأمر أشبه بمن ينفق سنوات متواصلة في تأليف معجم شخصي. ففيه تضع تعريفاتك لكلّ مفهوم يهمّك، مثل «الحقيقة» و«السعادة» و«الجمال». وفي كلّ منعطف رئيس من منعطفات حياتك، ترجع إلى هذا المعجم وقلّما يراودك الإحساس بضرورة الشكّ في طروحاته. ثم يأتي إليك في يوم ما أحد الغرباء ويخطف معجمك الثمين ويرمي به بعيدًا. ويقول لك:

ـ كلّ تعريفاتك تتطلّب تعريفًا جديدًا، وقد آن الأوان كي تنسى كلّ ما تعرفه.

وأنت، ولسبب من الأسباب يجهله عقلك، وإن كان واضحًا لقلبك، وبدلاً من أن تعترض أو تخاصم هذا الشخص، توافقه بكلّ سرور. هذا ما فعله شمس بي. فقد علّمتني صداقتنا الشيء الكثير، ولكنّ الأهمّ من هذا، علّمني أن أطرح من عقلي كلّ ما أعرفه.

عندما تحبّ شخصًا ما إلى هذا الحدّ، فإنّك تتوقّع من كلّ الذين من حولك أن يشعروا بالشعور نفسه، فيشاركوك فرحتك وبهجتك. وإذا لم يحدث هذا الشيء، تستبدّ بك الدهشة وتشعر بعدئذ أنّك مهان ومخدوع.

كيف يمكنني أن أجعل أسرتي وأصدقائي يرون ما أرى؟ كيف يمكنني وصف ما يتعذّر على الوصف؟ شمس هو بحر رحمتي ونعمتي. وهو شمس حقيقتي وإيماني، وأنا أسمّيه ملك ملوك الروح، هو ينبوع حياتي وشجرة سروري الباسقة المهيبة الدائمة الخضرة. وصداقته رحلة لا يمكن أن يعيشها المرء إلّا داخليًّا ولا يمكن فهمها من الخارج.

لسوء الحظّ، يسند معظم الناس أحكامهم إلى صور وهرطقة. فشمس، في رأيهم، درويش غريب الأطوار ويظنّون أنّه يتصرّف تصرّفات شاذّة، خارجة عن المألوف، ويجدف، ولا يمكن التنبّؤ به أو الاعتماد عليه. ولكنّه في رأيي عنوان الحبّ، يطوف الكون كلّه، يتقهقر إلى الوراء محافظًا على تماسك الأشياء أحيانًا وينفجر قويًّا أحيانًا أخرى. إنّ مثل هذا اللقاء لا يحدث إلّا مرّة واحدة في العمر، مرّة واحدة كلّ ثمان وثلاثين سنة.

منذ أن دخل شمس حياتنا، دأب الناس على سؤالي عن الشيء الذي أراه مميّزًا فيه. لكن يصعب عليّ أن أُجيب عن سؤالهم. ففي نهاية المطاف، لن يفهم هؤلاء الناس الذين يطرحون السؤال، أمّا الذين يفهمون حقًّا، فلا يوجّهون أسئلة عن مثل هذا الموضوع.

تذكّرني الحيرة التي أنا فيها بحكاية ليلى وهارون الرشيد، الخليفة العبّاسي المشهور. فعندما طرق سمعه أنّ شاعرًا بدويًّا اسمه قيس أُغرم غرامًا يائسًا بليلى وأنّه جُنّ بسببها ولهذا سُمّي «مجنون»، استبدّ الفضول

بالخليفة العبّاسي لمعرفة تلك المرأة التي تسبّبت بمثل هذا الشقاء.

وفكّر في نفسه بأنّ ليلى لا بدّ أن تكون امرأة مميّزة جدًّا، امرأة تتفوّق على غيرها من النساء، ولعلّها ساحرة لا تضاهيها امرأة أخرى في جمالها وسحرها.

فتحمّس وازداد فضولاً ورغبة، وجرّب كلّ حيلة من أجل العثور على وسيلة لرؤية ليلى بأمّ عينيه.

وأخيرًا، وفي يوم ما جاءوا بليلى إلى قصر الخليفة. وعندما أزاحت الخمار عن وجهها، خاب ظنّ هارون الرشيد. لم تكن قبيحة أو مقعدة أو عجوزًا، ولم تكن جذّابة أكثر ممّا ينبغي، بل كانت امرأة عاديّة، لها حاجاتها ومتطلّباتها وعيوبها مثل أيّ بشر. امرأة بسيطة كغيرها من النساء اللواتي لا حصر لهنّ.

لم يخف الخليفة خيبة أمله.

ـ أأنت المرأة التي جُنّ بسببها ذلك المجنون؟ لماذا؟ يبدو عليك أنّك امرأة اعتياديّة. ما الذي يميّزك؟

افترّ ثغر ليلى عن ابتسامة وأجابت:

ـ نعم، أنا ليلى ولكنّك لست بمجنون ليلى. المطلوب منك أن تراني بعينَيْ مجنون وإلّا فلن تتمكّن من حلّ هذا اللغز الذي يسمّونه الحبّ.

كيف يمكنني أن أوضح هذا اللغز نفسه لأسرتي أو لأصدقائي أو لتلامذتي؟ إذا أرادوا أن يفهموا الشيء المميّز الذي يمتاز به شمس التبريزي فينبغي لهم أن ينظروا إليه بعيني مجنون.

هل هناك من وسيلة لفهم معنى الحبّ دون أن يصبح المرء عاشقًا أوّلاً؟

الحبّ لا يمكن تفسيره، بل يمكن عيشه فقط.

الحبّ لا يمكن تفسيره، لكنّه يفسر كلّ شيء.

* * *

كيميا

قونية، ١٧ آب ١٢٤٥

أنتظر متقطّعة الأنفاس كي يستدعيني الرومي ولكنّه لم يعد يملك الوقت لتعليمي بعد الآن. وبقدر ما أشتاق إلى دروسنا وأشعر أنّي مهملة الشأن، إلّا أنّني لست منزعجة منه. ربّما لأنّني أحبّه حبًّا جمًّا فلا أستطيع خصامه أو ربّما لأنّني أفهم أفضل من أيّ إنسان آخر حقيقة مشاعره لأنّني أنا شخصيًّا جرفني ذلك التيّار المذهل الذي اسمه شمس التبريزي.

عينا الرومي تتابعان شمس على النحو الذي تتابع فيه زهرة الشمس قرص الشمس. الحبّ الذي يربطهما واضح وقوي. الشيء الذي يجمع بينهما نادر جدًّا فلا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من الإحساس بالقنوط خاصّة إذا ما عرف أنّ رابطة بمثل هذا الحجم مفقودة في حياته. ولا يمكن لكلّ من في الدار أن يغضّ النظر عن هذه الرابطة ولا سيّما علاء الدين. فقد ضبطته مرّات ومرّات وهو ينظر شزرًا إلى شمس. أمّا كيرا، فكانت مضطربة، قلقة، تشعر بشيء من الحرج ولكنّها لم تتفوّه بكلمة ولم أسألها بدوري. كنّا كلّنا نجلس على برميل بارود، إمّا غير مدركين للوضع أو غير مكترثين له.

كان جزء منّي متألّمًا لأنّ شمس أبعد عنّا الرومي. أمّا الجزء الآخر، فكان يتحرّق شوقًا لمعرفته معرفة أفضل. كنت أكابد هذه المشاعر المختلطة

التي تخالجني منذ مدّة غير قصيرة، ولكنّني خائفة اليوم، فربّما أفضح نفسي.

في ساعة متأخّرة من عصر أحد الأيّام، أخرجت القرآن الذي كان معلّقًا على الجدار وقد عزمت على دراسته بطريقتي الخاصّة. في ماضي الأيّام، كنت أنا والرومي نتابع التسلسل الذي نزلت به الآيات علينا، ولكن لمّا لم يعد اليوم من أحد يرشدني، وانقلبت حياتنا رأسًا على عقب، فإنّني لم أجد حرجًا ولا ضررًا في القراءة دون الالتزام بالتسلسل. وهكذا فتحت القرآن كيفما اتّفق ووضعت إصبعي على أوّل سورة ظهرت فيه فتبيّن لي أنّها سورة النساء التي كانت تقلقني كثيرًا. كنت أجد صعوبة في فهم سورة النساء. وبينما كنت واقفة أقرأ فيها، خطر ببالي أن أطلب المساعدة. صحيح أنّ الرومي قد فاتته دروسنا ولكن ليس من مبرّر يمنعني من طرح الأسئلة عليه. فأمسكت بالقرآن ودخلت حجرته.

ولدهشتي البالغة لم أجد الرومي، بل وجدت شمسًا جالسًا قرب النافذة وبيده سبحة، بينما انعكس ضوء الشمس الغاربة خافتًا على وجهه. بدا لي بهيّ الطلعة على نحو دفعني إلى أن أشيح بنظري عنه.

قلت في سرعة:

ـ المعذرة. كنت أبحث عن مولانا، وسأحضر لاحقًا.

قال شمس:

ـ ولِمَ العجلة؟ ابقي هنا، إذ يبدو أنّك جئت إلى هنا سعيًا وراء شيء ما. ربّما في وسعي مساعدتك.

لم أجد سببًا يحول بيني وبين مكاشفته. فقلت على سبيل المحاولة:

ـ حسنًا، ثمّة سورة في القرآن أجد صعوبة قليلة في فهمها.

تمتم شمس كأنّه يحدّث نفسه:

ـ القرآن مثل عروس خجول، لا تزيح خمارها إلّا إذا رأت الناظر رقيق القلب، رحيمًا.

ثم تمطّى واعتدل وسأل:

ـ ما السورة؟

أجبت:

ـ النساء. ثمّة أجزاء منها تتحدّث عن أفضليّة الرجال على النساء، وتفيد أيضًا بأنّ في وسع الرجال ضرب زوجاتهم.

سأل شمس باهتمام مبالغ فيه لم أكن واثقة إن كان جادًّا أم مداعبًا:

ـ هكذا إذًا؟

بعد برهة وجيزة من الصمت، افترّ ثغره عن ابتسامة لطيفة وبدأ يرتّل الآيات عن ظهر قلب:

الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ فإن أطعناكم فلا تبغوا عليهم سبيلاً إنّ الله كان عليًّا كبيرًا(*).

عندما فرغ شمس من تلاوته، أغمض عينيه وتلا الآية نفسها ولكن بتفسير مغاير هذه المرّة، ثم سأل:

ـ هل لاحظت الفرق الآن؟

قلت:

ـ نعم. التفسير مختلف. في البدء يبدو الأمر وكأنّ ثمّة موافقة على قيام المتزوّجين من الرجال بضرب زوجاتهم في حين تفسيرك ينصحهم بهجرهنّ. أعتقد أنّ ثمّة اختلافًا كبيرًا. لماذا؟

ردّ شمس أكثر من مرّة كأنّ السؤال أعجبه.

ـ لماذا؟ لماذا؟ قولي لي يا كيميا. هل سبق لك أن سبحت في نهر؟

أومأت برأسي متذكّرة أيّام طفولتي. ومرّت بخاطري ذكرى جداول الماء البارد الذي يروي الظمأ في جبال طوروس. ولكن لم يعد باقيًا اليوم أيّ شيء من تلك البنت الصغيرة التي أمضت أوقات بعد الظهر العديدة والسعيدة في تلك الجداول رفقة أختها وصديقاتها. أشحت بوجهي جانبًا كي لا أدع شمسًا يرى الدموع مترقرقة في عيني.

(*) سورة النساء (٤ : ٣٤) (المترجم).

ـ عندما تنظرين إلى نهر من مسافة بعيدة يا كيرا، فلربّما تظنّين أنّ ثمّة مجرى نهريًّا واحدًا ولكن إذا ما غصت إلى أعماق الماء فسوف تجدين أكثر من نهر. إنّ النهر مختلف التيّارات، وكلّها تجري منجسمة وإن كان أحدها منفصلاً عن الآخر.

دنا شمس التبريزي منّي بعد أن فرغ من حديثه وأمسك بذقني بإصبعيه مرغمًا إيّاي على النظر إلى عينيه الغائرتين السوداوين الفيّاضتين بالعاطفة. توقّف قلبي لحظة ولم أستطع التنفّس.

قال:

ـ القرآن نهر هادر. فالذين ينظرون إليه عن بعد لا يرون فيه إلّا نهرًا واحدًا. أمّا الذين يسبحون فيه، ففيه أربعة تيّارات، مثل أربعة أنواع من السمك. البعض منّا يسبح قريبًا من السطح بينما يسبح آخرون في المياه العميقة، في القاع.

قلت على الرّغم من أنّني بدأت أفهم:

ـ أعتقد أنّني لم أفهم.

ـ الذين يهوون السباحة على مقربة من سطح الماء يكتفون بمعنى القرآن الظاهري. الكثيرون يحذون هذا الحذو، ويأخذون الآيات بمعناها الحرفي أكثر ممّا ينبغي. لهذا، ليس من عجب أنهم عندما يقرأون سورة كسورة النساء يصلون إلى استنتاج مفاده أنّ الرجال أعلى شأنًا من النساء، لأنّ هذا ما يريدون رؤيته.

سألت:

ـ والتيّارات الأخرى؟

تنهّد شمس في رقّة وتؤدة فلم أستطع منع نفسي من النظر إلى فمه الساحر والغامض كأنّه حديقة محفوفة بالأسرار.

ـ ثمّة ثلاثة تيّارات أخرى. التيّار الثاني أعمق من التيّار الأوّل ولكنّه قريب أيضًا من السطح. وبازدياد وعيك، يزداد فهمك للقرآن. ولكن يتطلّب ذلك منك المغامرة.

شعرت بالخواء والامتلاء وأنا مصغية له. ثم قلت في حذر:

ـ ما الذي يحدث عندما تغامر؟

ـ التيّار الثالث هو القراءة المقصورة على فئة معيّنة من الناس، القراءة الباطنيّة. فإذا ما قرأت سورة النساء وعيناك الداخليّتان مفتوحتان، فسوف ترين أنّها ليست سورة النساء والرجال بل عن الأنوثة والرجولة. إنّ كلّ واحد منّا، بضمنهم أنا وأنت، يشتمل على خاصّتي الأنوثة والرجولة بدرجات وظلال متباينة. ولا يمكننا الوصول إلى مرحلة التوحّد المتناغمة إلّا بعد أن نعرف كيف نتقبّل الاثنين.

ـ أتريد القول إنّ في أعماقي صفة الرجال؟

ـ آه، نعم، على وجه التأكيد. وأنا أيضًا لديّ صفة النساء.

لم أستطع منع ضحكة خفيفة.

ـ والرومي؟ أهو كذلك أيضًا؟

فابتسم ابتسامة خاطفة.

ـ لكلّ رجل درجة من الأنوثة في داخله.

ـ حتى الرجال الفحول؟

وهنا قال شمس موشيًا كلماته ومخفضًا صوته حدّ الهمس كأنّه يأتمنني على سرّ من الأسرار:

ـ حتى الفحول يا عزيزتي.

كتمت ضحكة وأنا أشعر كأنّني طفلة صغيرة. ذلك هو تأثير شمس عندما يكون قريبًا جدًّا: رجل غريب، ساحر الصوت على نحو عجيب، يداه رشيقتا الحركة، عضليّتان، تحديقته أشبه بشعاع من الشمس تجعل كلّ من تسقط عليه أكثر حيويّة وقوّة. وشعرت وأنا إلى جانبه بأنوثتي بكلّ ما فيها من امتلاء، ولكنّي على الرّغم من ذلك، أحسست في مكان ما في داخلي بغريزة الأمومة وقد امتدّت، تضوع بعبق الأمومة اللبني القوي. أردت أن أحميه، ولكن كيف؟ وممّن؟ لا أدري.

وضع شمس يده على كتفي وقرّب وجهه من وجهي على نحو جعلني أحسّ بأنفاسه الدافئة. وبانت في عينيه الآن تحديقة جديدة حالمة. لقد أسرني بلمسته، وداعب وجنتي، أطراف أصابعه حارّة كاللهب على بشرتي،

وغشيني الذهول، وتحرّكت أصابعه إلى أسفل فلامست شفتي السفلى. أغمضت عيني مرتبكة ودائخة، وشعرت بلذّة تساوي العمر كلّه وقد تفجّرت في معدتي. ولكن ما إن لمس شفتي حتى جذب يده.

وتمتم وهو يلفظ اسمي لفظًا يجعله يبدو مثل كلمة حزينة:

ـ يجب أن تذهبي الآن يا عزيزتي كيميا.

خرجت من الحجرة، دائخة، متورّدة الخدّين.

وبعد أن رجعت إلى حجرتي واستلقيت على ظهري على حصيرة نومي وحدّقت في السقف وأنا أفكّر كيف سيكون شعوري لو قبّلني شمس، أدركت عندئذ أنّني نسيت أن أساله عن التيّار الرابع في الماء ـ القراءة الأعمق في القرآن(*). ما هي؟ كيف يمكن للمرء أن يصل إلى ذلك النوع من العمق؟

ثم ما الذي يحدث لأولئك الذين يقومون بالمغامرة؟

* * *

(*) يتلو الصوفي القرآن بكثير من التفكير والتدبّر، وهدفه من التلاوة معرفة أسرار القرآن الباطنيّة ومعانيه، ومعنى ذلك أنّه يريد بمنطق القلب، وبفضل المكاشفة التي يحصل عليها نتيجة للرياضة والتوبة والتوجّه إلى الله وتصفية الباطن والوصول إلى باطن القرآن الخفي بالقراءة الأعمق في القرآن، وأن يجري تلك المعاني على لسانه. ويعتقد الصوفي أنّ أهل الظاهر يطالعون حروف القرآن فقط ويفسّرونها بينما العارف، أي الصوفي، يرى باطنه ومعناه ويقوم بتأويله. (المترجم).

سلطان ولد

قونية، ٤ أيلول ١٢٤٥

بما أنّني أخو علاء الأكبر، فإنّ القلق بشأنه كان يساورني دومًا، ولكنّه لم يبلغ من الشدّة ما بلغ به الآن. فمزاجه على الدوام سيّئ حتى عندما كان طفلاً صغيرًا. وعندما كبر ازداد حبًّا في الخصام، وانفلاتًا في الأعصاب. فكان على أهبّة الاستعداد للشجار لأيّ سبب، مهما كان تافهًا، لا منطقيًّا. وبات في هذه الأيّام نكدًا رديء الخلق حتى إنّ الأطفال في الشارع كانوا يصابون بالذعر لمرآه وهو قادم. ولم يبلغ من عمره سوى السابعة عشرة حتى أحاطت التجاعيد بعينيه لكثرة عبوسه وشزره. وفي هذا الصباح تنبّهت إلى ظهور تغضّن جديد بالقرب من فمه لأنّه يزمّ شفتيه طوال الوقت.

كنت منشغلاً بالكتابة على لفافة من جلد الغنم عندما ترامى إلى مسمعي صوت طقطقة ضعيفة من خلفي، وعندما التفتّ شاهدت علاء الدين وقد زمّ شفتيه وعبس عبوسًا شديدًا. الله يعلم كم مضى عليه من الوقت وهو على ذلك الحال يراقبني بنظرات كليلة من عينيه البنيّتين. وسألني عمّا كنت أفعله.

أجبت:

ـ إنّني أنسخ محاضرة قديمة من محاضرات أبي، إذ يستحسن أن يكون لديّ نسخة إضافيّة من كلّ واحدة منها.

زفر علاء الدين زفرة مسموعة وقال:

ـ وما نفعها؟ فالوالد لم يعد يُلقي المحاضرات أو الخطب. وإذا لم تكن قد تنبّهت، فإنّه لم يعد يلقّن العلوم في المدرسة. ألا ترى أنّه تخلّى عن كلّ مسؤوليّاته؟

قلت:

ـ هذه حالة موقّتة وسرعان ما سيبدأ التدريس من جديد.

ـ إنّك لا تضحك إلّا على نفسك. ألا ترى أنّ والدنا لا يملك الوقت لأيّ شيء أو لأيّ شخص باستثناء شمس؟ أليس هذا مضحكًا؟ فالرجل الذي يفترض به أن يكون درويشًا جوّالاً بات اليوم راسخ الجذور في دارنا.

أطلق علاء الدين ضحكة صغيرة منتظرًا منّي أن أوافقه على رأيه، ثم بدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا عندما رآني صامتًا، واستطعت أن أشعر بالغضب المتّقد في عينيه دون أن أنظر إليه.

استرسل علاء الدين كالح الوجه متجهّمًا:

ـ الناس منهمكون في القيل والقال، ويسألون كلّهم السؤال نفسه: كيف يمكن لعالم محترم أن يجعل نفسه ألعوبة بين يدَيْ مهرطق؟ إنّ سمعة والدنا أشبه بالثلج الذائب تحت أشعّة الشمس. وما لم يتمالك نفسه عمّا قريب، فلربّما لن يتمكّن من العثور على تلاميذ في هذه البلدة، ولن يقبل أحد به معلّمًا، وأنا لا ألومهم في ذلك.

وضعت اللفافة جانبًا ونظرت إلى أخي. لم يكن سوى صبيّ على الرّغم من أنّ تلميحاته وعباراته تشي بأنّه على أبواب الرجولة. لقد تغيّر كثيرًا منذ السنة الماضية، وبدأت الشكوك تخامرني بأنّه قد يكون عاشقًا. لكن من تلك الفتاة؟ لا أعرف. كما أنّ تلاميذه يرفضون الإفصاح لي.

ـ أدرك أنّ شمس لا يروقك يا أخي ولكنّه ضيف على دارنا وخليق بنا أن نحترمه. لا تصغي إلى ما يقوله الآخرون. بصراحة، لا ينبغي لنا أن نهوّل الأمور كثيرًا ونجعل من الحبّة قبّة.

ما إن تفوّهت بهذه الكلمات حتى ندمت على لهجتي الاستعلائيّة ولكنّ الأوان فات، فعلاء الدين يحترق بسهولة مثل قطعة جافّة من الخشب.

نخر علاء الدين غاضبًا:

ـ حبّة؟ أهكذا تصف الكارثة التي حلّت بنا؟ كيف يمكنك أن تكون أعمى إلى هذا الحدّ؟

أخرجت لفافة أخرى وداعبت سطحها الرقيق. كانت البهجة تغمرني على الدوام عندما أُعيد نسخ كلمات أبي، لأنّني كنت أعتقد أنّني بمثل هذا العمل إنّما أساعد تلك الكلمات كي تعيش عمرًا أطول. فبعد انقضاء مائة سنة، سيتمكّن الناس من قراءة تعاليم أبي التي ستكون ملهمة لهم. لقد جعلني أداء هذا الدور في عمليّة النقل فخورًا جدًّا بغض النظر عن صغره.

ظلّ علاء الدين واقفًا إلى جانبي متذمّرًا وناظرًا إلى عملي بعينين تنمّان عن التأمّل والتفكير من جهة والمرارة من جهة ثانية. وفي لحظة خاطفة، شاهدت حنينًا في عينيه ولاحظت وجهه الطفولي المحتاج إلى حبّ أبيه. وأدركت بقلب غمرته الأحزان والهموم أنّ أخي لم يكن غاضبًا حقًّا من شمس، بل من أبي.

كان علاء الدين غاضبًا من أبي لأنّه لم يلق منه ما يكفي من الحبّ ولأنّه أصبح ما هو عليه. يمكن أن يكون أبي مميّزًا، بارزًا وذائع الصيت، ولكنّه كان أيضًا مغلوبًا على أمره، لا حول له ولا قوّة أمام الموت الذي خطف أمّنا في مثل تلك السنّ المبكّرة.

وقال علاء الدين:

ـ يقال إنّ شمسًا سحر أبي. ويقال إنّ الحشّاشين هم الذين أرسلوه.

قلت محبًّا:

ـ الحشّاشون! هراء!

كان الحشّاشون طائفة مشهورة بأساليب القتل الدقيقة واستخدام الموادّ السامّة بكثرة. وكانوا يستهدفون أصحاب النفوذ من الناس، ويقتلون ضحاياهم علنًا كي يزرعوا الخوف والرعب في قلوب الناس. وأوغلوا في أفعالهم حتى إنّهم وضعوا كعكة مسمومة داخل خيمة صلاح الدين وعليها ملاحظة تقول: أنت بين أيدينا. وهكذا نجد أنّ صلاح الدين، وهو القائد الإسلامي العظيم الذي حارب بكلّ بسالة الصليبيّين من النصارى وحرّر القدس من جديد، لم يتجرّأ على محاربة الحشّاشين مفضّلاً السلام معهم.

كيف يمكن للناس أن يفكّروا في أنّ شمسًا يرتبط بهذه الطائفة الإرهابيّة؟

وضعت يدي على كتف علاء الدين وأجبرته على النظر إليّ.

ـ يضاف إلى ذلك، ألا تعلم أنّ هذه الطائفة لم تعد كما كانت من قبل؟ إنّها لم تعد سوى اسم لا غير.

استغرق علاء الدين في التفكير في هذا الاحتمال برهة وجيزة.

ـ نعم. ولكنّ الناس تردّد أنّه كان لحسن بن الصبّاح(*) ثلاثة قادة مخلصين له الإخلاص كلّه. وقد غادروا قلعة ألموت بعد أن قطعوا عهدًا على أنفسهم بأن ينشروا الرعب ويثيروا الاضطرابات أينما حلّوا. والناس يعتقدون أنّ شمسًا هو زعيمهم.

بدأت أفقد صبري. فقلت:

ـ ليساعدني الله! هل في وسعك أن تخبرني من فضلك عن السبب الذي يدفع الحشّاشين إلى قتل أبينا؟

ردّ علاء الدين:

ـ لأنّهم يكرهون أصحاب النفوذ، ويحبّون إثارة الفوضى. هذا هو السبب.

كان أخي تثيره كثيرًا نظريّات المؤامرة، فظهرت البقع الحمر على وجنتيه.

كنت أدرك أنّني لا بدّ من معالجة هذه القضيّة بعناية أكبر. فقلت:

ـ أنظر! الناس يتقوّلون بمختلف الأقاويل في كلّ وقت. ولا يمكنك أن تأخذ هذه الشائعات الفظيعة على محمل الجدّ. نظّف عقلك من الأفكار التوّاقة إلى الإغاظة، فهي تدسّ السمّ فيك وتقتلك.

تأوّه علاء الدين ممتعضًا ولكنّي مضيت في الكلام برغم ذلك.

ـ ربّما لا يروقك شمس شخصيًا، فأنت لست مضطرًّا إلى ذلك،

(*) الحسن بن الصبّاح: داع فاطمي من أنصار نزار في خلافه مع أخيه المستعلي. فرّ إلى قلعة ألموت بعد مقتل نزار وأسّس حكم الإسماعيليّين النزاريّين أو الصباحيين الذين قضى عليهم هولاكو في ١٢٥٦. توفي ١١٢٤ م. (المترجم).

ولكن يجدر بك أن تظهر له قدرًا من الاحترام من أجل والدنا.

رشقني علاء الدين بنظرة تنمّ عن مرارة واحتقار، وفهمت أنّ أخي الأصغر منّي ليس في حالة خصام مع والدنا أو أنّه كان حانقًا على شمس فحسب، بل كان يائسًا منّي أيضًا. فقد رأى في احترامي لشمس علامة تنمّ عن الضعف. وربّما ذهبت به الظنون إلى أنّني كنت خنوعًا ذليلاً، ضعيف الشخصيّة لا لشيء إلّا لأكسب رضا أبي. كان ذلك شكًّا راودني، ولكنّه شكّ جرحني جرحًا بليغًا.

وعلى الرّغم من ذلك، لم أستطع أن أغضب عليه، وإنْ غضبت، فإنّ غضبي لم يدم طويلاً. فهو أخي الأصغر، وسيظلّ في نظري ذلك الصبي الذي يطارد القطط في الشوارع، ويوسخ قدميه في برك الأمطار ويقضم شرائح الخبز المغطّاة باللبن طوال النهار. ولم أستطع منع نفسي من أن أرى في وجهه صباه الذي شهدته. فقد كان صبيًّا ممتلئ الجسم، قصير القامة على نحو لا يناسب عمره، صبيًّا تلقّى نبأ وفاة أمّه من دون أن يذرف دمعة واحدة. وكلّ ما فعله هو أنّه نظر إلى قدميه وكأنّه خجل لأوّل مرّة في حياته من حذائه وزمّ شفته السفلى حتى فقدت لونها. ولم تصدر عن فمه أيّ كلمة أو بكاء. وكم تمنّيت لو أنّه بكى.

سألت:

ـ هل تتذكّر ذلك اليوم الذي تشاجرت فيه مع بعض أولاد الجيران؟ لقد جئت إلى الدار باكيًا مدمّى الأنف. ما الذي قالته لك أمّنا يومئذ؟

ضاقت عينا علاء الدين في بادئ الأمر قبل أن تتّسعا عندما أدرك ما قلته له، ولكنّه لم يتفوّه بكلمة.

ـ قالت لك إنّك إذا غضبت من شخص ما فإنّه يجدر بك أن تستبدل وجه ذلك الشخص الكامن في ذهنك بوجه شخص آخر تحبّه. هل حاولت أن تجرّب استبدال وجه شمس بوجه أمّنا؟ ربّما ستجد شيئًا يروقك فيه.

ارتسمت على شفتَيْ علاء الدين ابتسامه خاطفة، سريعة وخجولة مثل سحابة عابرة، فاعترتني الدهشة عندما لاحظت أنّها غيّرت ملامحه تغييرًا هائلاً.

رقّ قلبي وعانقت أخي، لا أدري ما أقول بعد هذا كلّه. وعندما عانقني بدوره شعرت بثقة أنّه سيرمّم علاقته بشمس وأنّ دارنا سرعان ما ستستعيد الانسجام.

ولكن في ضوء الأحداث التي جرت بعد ذلك، لم أكن مخطئًا أكثر من ذلك.

* * *

كيرا

قونية، ٢٢ أيلول ١٢٤٥

كان شمس والرومي يتحدّثان وراء الباب الموصد حديثًا متحمّسًا منذ ذلك اليوم. طرقت الباب ودخلت من دون انتظار ردّ، حاملة صينيّة وعليها طبق حلاوة. وقد كان من أدب شمس ألّا يقول شيئًا عندما أكون قريبة كأنّ حضوري يرغمه على التزام الصمت. ولا يعلّق على مهاراتي في الطبخ. على أيّة حال، كان لا يأكل إلّا النزر اليسير، وكان يخامرني الإحساس أحيانًا أنّه لا يكترث سواء قدّمت له وجبة فاخرة أم رغيف خبز يابسًا، ولكنّه ما إن قضم قطعة من الحلاوة حتى أشرقت عيناه.

وسأل:

ـ إنّها لذيذة يا كيرا. كيف؟

لا أدري ما أصابني، فبدلاً من أن أفهم الامتنان والتقدير من فحوى كلامه، وجدت نفسي أردّد:

ـ لماذا تسأل؟ حتى لو أخبرتك فلن تتمكّن من صنعها.

حدّق شمس في عينيّ وأومأ برأسه إيماءة صغيرة كأنّه وافقني على قولي. انتظرته كي يقول شيئًا ما، ردًّا على ما تفوّهت به ولكنّه لبث واقفًا في مكانه، صامتًا وهادئًا.

وبعد برهة وجيزة، غادرت الحجرة وعدت أدراجي إلى المطبخ معتقدة

أنّ الحادثة انتهت. ولربّما ما كنت لأتذكّرها من جديد لولا ما حدث في هذا الصباح.

* * *

كنت أعدّ الزبد قرب الموقد في المطبخ عندما طرق سمعي صوت غريب في فناء الدار، فاندفعت مهرولة إلى الخارج لأرى أكثر المناظر مدعاة إلى الجنون. كانت الكتب منتشرة في كلّ مكان، مكوّمة على هيئة أبراج متداعية مترنّحة، فضلاً عن كتب أخرى طافية في النافورة التي تحوّل لون مائها إلى الأزرق الفاتح بسبب تحلّل الحبر فيها.

كان الرومي يقف في ذلك المكان عندما التقط شمس أحد الكتب من الكومة، وكان الكتاب هو ديوان المتنبّي، ورمقه بنظرة متجهّمة وقذف به إلى الماء. وما إن غطس الكتاب في الماء حتى أمسك بكتاب آخر، وكان في هذه المرّة كتاب الأسرار للعطّار.

شهقت شهقة ملؤها الذعر والهلع، فقد كان شمس يتلف كتب الرومي المفضّلة واحدًا بعد الآخر. وكان الكتاب الآخر الذي رمى به إلى الماء هو كتاب العلوم الإلٰهيّة وهو من تأليف والد الرومي. ولَما كنت أدرك مدى حبّ الرومي لأبيه وإعجابه به وشغفه بهذه المخطوطة القديمة، فقد رنوت إليه متوقّعة أن يُصاب بنوبة عصبيّة.

ولكنّني بدلاً من ذلك وجدت الرومي قد تنحّى جانبًا وكان ممتقع الوجه كالشمع، مرتعش اليدين، ولم أستطع، مهما حاولت أن أفهم السبب الذي كان يمنعه من قول أيّ شيء. فالرجل الذي نهرني يومًا ما لأنّني رتّبت كتبه ونظّفتها بات الآن يشهد تدميرًا جنونيًا لمكتبته برمّتها، وعلى الرّغم من ذلك لم ينبس ببنت شفة، ما يحدث لا ينجسم وطبيعة الحال، وإذا لم يتدخّل الرومي فسوف أتدخّل أنا شخصيًا.

سألت شمس التبريزي:

ـ ماذا تفعل؟ ليست لهذه الكتب نسخ أخرى، وهي كتب ذات قيمة. لماذا ترمي بها في الماء؟ هل جننت؟

وبدلاً من أن يردّ شمس عليّ، رفع رأسه في متّجه الرومي وسأله:

ـ أهذا هو رأيك أيضًا؟

زمّ الرومي شفتيه وابتسم ابتسامة واهنة ولكنّه ظلّ صامتا.

فصرخت في وجه الرومي:

ـ لِمَ لا تقول شيئًا؟

وهنا دنا الرومي منّي وأمسك بيدي في قوّة وقال:

ـ اهدئي يا كيرا أرجوك. إنّني أثق بشمس.

نظر شمس إليّ شزرًا، مسترخيًا وواثقًا، وشمّر عن ساعديه وبدأ بإخراج الكتب من الماء. ولدهشتي الكبيرة، كان كلّ كتاب يخرجه من الماء ناشفًا تمامًا.

سألته:

ـ هل هذا سحر؟ كيف فعلت هذا؟

أجاب شمس:

ـ لكن لماذا تسألين؟ فحتى لو أخبرتك لما تمكّنت من فعل ذلك.

اختنقت بالعبرات وارتعدت من فرط غضبي، فأسرعت إلى المطبخ الذي أضحى ملاذي في هذه الأيّام. وفي المطبخ، وفي وسط القدور والمقالي وأكداس الأعشاب والتوابل، جلست وبكيت بكاءًا حارًّا ومريرًا.

* * *

الرومي

قونية، كانون الأوّل ١٢٤٥

عزمت أنا وشمس على أداء فريضة صلاة الفجر معًا في الهواء الطلق، فخرجنا من البيت بعد انبلاج الفجر بوقت قليل. امتطينا صهوتي جوادينا برهة من الزمان وشققنا طريقنا وسط المروج والوديان والجهة الثانية من جداول الأنهار الباردة برودة الثلج، مستمتعين بنسمات الهواء الهابّة على وجهَيْنا. وحيّتنا الفزّاعات المنتشرة في حقول القمح بوقفتها المتوازنة الموحشة التي تقبض الصدر. ورفرفت الملابس النظيفة المعلّقة أمام أحد بيوت المزرعة رفرفة جنونيّة تحت النسيم أثناء مرورنا بها، وكانت ترفرف في كلّ متّجه مشيرة إلى الظلمة الجزئيّة.

وفي طريق العودة، شدّ شمس لجام حصانه وأشار إلى شجرة بلّوط عظيمة شامخة خارج البلدة. جلست أنا وهو تحت الشجرة، والسماء معلّقة من فوق رؤوسنا بظلالها الأرجوانيّة. وضع شمس جبّته على الأرض، وما إن تردّد صدى المؤذّن مناديًا للصلاة من جميع المساجد القريبة والبعيدة حتى أدّينا معًا صلاة الجماعة.

قال شمس:

ـ عندما جئت إلى قونية أوّل مرّة، جلست تحت هذه الشجرة.

ثم ابتسم ابتسامة لذكرى بعيدة، ولكنّه غرق في الأفكار واستغرق في التأمّل وأضاف:

ـ وأوصلني أحد الفلّاحين، وكان واحدًا من أشدّ المعجبين بك، وأخبرني أنّ خطبك تشفي من الجنون.

قلت:

ـ كانوا يسمّونني ساحر الكلمات. على أيّة حال، مضى زمن طويل على ذلك الحال، ولا أريد بعد اليوم أن أُلقي أيّ خطب. أشعر كأنّني انتهيت.

قال شمس بحزم وإصرار:

ـ بل أنت ساحر الكلمات، وبدلاً من أن تكون عقلاً خطيبًا، فقد أصبحت الآن قلبًا منشدًا.

لم أعرف ما الذي كان يعنيه بكلامه، ولم أسأله. كان الفجر قد محا ما تبقّى من الليلة الماضية وحوّل السماء إلى لون برتقالي لا غبار عليه. وكانت البلدة تنهض من نومها على مسافة بعيدة منّا، والغربان تنقضّ على البساتين الخاملة لتلتقط كلّ ما يمكنها سرقته، والأبواب تصرّ والحمير تنهق والمدافئ تستعرّ بعد أن استعدّ الناس جميعًا ليوم جديد.

وتمتم شمس هازًّا رأسه:

ـ يكابد الناس في كلّ مكان وحدهم من أجل تحقيق ما يصبون إليه ولكن من دون أيّ مشورة عن كيفيّة التوصّل إلى ما يريدون. كلماتك تساعدهم، وسوف أبذل قصارى جهدي لمساعدتك. فأنا خادمك.

أعربت عن احتجاجي بالقول:

ـ لا تقل هذا الكلام، فأنت صديقي.

غير أنّ شمسًا استرسل في كلامه غير مكترث لاحتجاجي:

ـ إنّ شغلي الشاغل هو القوقعة التي تعيش في داخلها. فأنت بصفتك خطيبًا ذائع الصيت، يحفّ بك المعجبون المتزلّفون. لكن إلى أيّ حدّ تعرف الناس العاديّين، كالسكارى والشحّاذين واللصوص والبغايا والمقامرين، وهم أكثر الفئات التي لا ينقطع دمعها، وأشدّها مظلوميّة واضطهادًا؟ أفي مستطاعنا أن نحبّ كلّ خلق الله؟ يا له من اختبار قاس، لا يستطيع اجتيازه إلّا القليلون.

وبينما هو ماض في كلامه، لاحت لي على وجهه رقّة وقلق وشيء آخر أشبه ما يكون بعاطفة الأمومة.

قلت مذعنًا:

ـ أنت على صواب، فطالما عشت حياة مصونة من الخطر والأذى، ولا أعرف حتى كيف يعيش الناس العاديّون.

التقط شمس حفنة من الرمل، ودعكها بيده وأردف برقّة:

ـ إذا ما استطعنا أن نحصّن العالم برمّته، بكلّ ما فيه من فروق وتناقضات، فإنّ كلّ شيء سيذوب ويتحلّل إلى مادّة واحدة.

التقط شمس غصنًا ميتًا ورسم دائرة كبيرة من حول شجرة البلّوط. ولمّا فرغ من ذلك، رفع ذراعيه نحو السماء كأنّه يتمنّى لو يجذبه حبل غير مرئي إلى أعلى، وذكر أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين. وبدأ في الوقت نفسه يدور داخل الدائرة، دورانًا بطيئًا ورقيقًا أوّل الأمر، ازداد سرعة على نحو مطّرد مثل نسمة من نسمات الأصيل. وسرعان ما بات يدور ويدور بسرعة الريح العاتية وقوّتها. كانت ثورته آسرة، تخلب اللبّ، ولم تمنعني من الإحساس بأنّ الكون كلّه ـ الأرض والنجوم والقمر ـ تدور وإيّاه. شاهدت تلك الرقصة البالغة الغرابة، تاركًا الطاقة التي تشعّ منها تغمر روحي وبدني.

وأخيرًا خفض شمس من سرعة دورانه حتى توقّف، وصدره يعلو ويهبط عند كلّ نفس من أنفاسه المرهقة، شاحب الوجه، عميق الصوت على حين بغتة كأنّه قادم من بقعة نائية. «الكون كينونة واحدة، كلّ شيء وكل شخص فيه مترابط ترابطًا داخليًّا بشبكة غير مرئيّة من الحكايات. وسواء كنّا مدركين لذلك أم غير مدركين، فنحن نتحدّث حديثًا صامتًا أجمعين. لا تلحق الضرّ بأحد، وارحم، وتجنّب القيل والقال من خلف ظهور الناس ـ حتى لو كان ذلك على سبيل الملاحظة غير المؤذية على ما يظهر! الكلمات التي تخرج من أفواهنا لا تتبخّر، بل تخزّن باستمرار في فضاء لانهائي، وستعود إلينا في الوقت المناسب. إنّ عذاب إنسان واحد يؤذينا كلّنا، وفرحة إنسان واحد تجعلنا نبتسم كلّنا».

وهذا ما يذكّرنا به نصّ إحدى القواعد الأربعين.

ثم حول نظرته الفضوليّة إليّ. ثمّة ظلّ من ظلال اليأس في أعماق عينيه السحيقة، موجة من الحزن لم يسبق لي أن رأيتها فيهما من قبل.

قال شمس ملاحظًا:

ـ يومًا ما ستشتهر بأنّك صوت الحبّ، والذين لم يروا وجهك، شرقًا أو غربًا، سيلهمهم صوتك.

وسألته معبّرًا عن شكوكي:

ـ وكيف سيحدث هذا؟

فأجاب شمس:

ـ بكلماتك، ولكنّي لا أتكلّم عن محاضراتك أو خطبك بل عن شعرك.

قلت بصوت أجشّ:

ـ الشعر؟ إنّني لا أنظم الشعر، بل أنا عالم.

فابتسم شمس ابتسامة خبيثة وقال:

ـ أنت يا صديقي واحد من أعذب الشعراء الذين سيعرفهم العالم.

كدت أن أعترض لكن نظرة العزم والتصميم التي رشقتني بها عينا شمس حالتا دون ذلك. فضلاً عن أنّني لم أشعر برغبة في الجدال.

قلت:

ـ وإن يكن. أنا وأنت سنفعل معًا كلّ ما هو مطلوب منّا. وسنسير على هذا الدرب معًا.

أومأ شمس برأسه شارد الذهن وتملّكه صمت مقبض للصدر وتفرّس في ألوان الأفق الخافية. وعندما تكلّم في نهاية المطاف، نطق بهذه الكلمات المنذرة بالشؤم والتي لم تبارحني، بل بقيت تثير رعبي على الدوام: على قدر ما أحبّ أن أنضمّ إليك، أعتقد أنّ الواجب يقتضيك بأن تفعل الأشياء وحدك.

سألت:

ـ ماذا تعني؟ إلى أين أنت ذاهب؟

خفض شمس من تحديقته وهو يزمّ شفتيه لهفة وحزنًا:

ـ ليس الأمر بيدي.

هبّت ريح باردة في اتّجاهنا وانقلب الجوّ باردًا كأنّه يحذّرنا بأنّ الخريف يشارف نهايته. كما بدأت السماء الزرقاء الصافية تمطر قطرات خفيفة دافئة، واهية ورقيقة مثل لمسة فراشات. تلك هي المرّة الأولى التي صدمتني فكرة رحيل شمس عنّي مثل ألم حادّ في الصدر.

* * *

سلطان ولد

قونية، كانون الأوّل ١٢٤٥

إذا كان بعض الناس يرون في القيل والقال متعة فإنّي أشعر بالألم لسماعه. كيف يمكن للناس أن يكونوا بهذه الدرجة من الازدراء والاحتقار بخصوص الأشياء التي لا يعرفون عنها إلّا الشيء القليل؟ إنّ ابتعاد الناس عن الحقيقة أمر غريب إن لم يكن مثيرًا للرعب! إنّهم لا يدركون عمق الرابطة التي تربط أبي بشمس. الواضح أنّهم لم يقرأوا القرآن، لأنّهم لو كانوا قد قرأوه لعرفوا أنّ ثمّة حكايات مشابهة عن روابط روحيّة مثل حكاية موسى والخضر.

وهي قصّة وردت في سورة الكهف، واضحة وبسيطة. فقد كان موسى رجلاً نموذجيًا يحتذى به، له من القوّة ما يكفي لأن يصبح نبيًّا يومًا ما، وقائدًا أسطوريًّا ومشترع قوانين. ولكنّه كان في وقت ما في مسيس الحاجة إلى رفيق روحي ليفتح له عينه الثالثة، ولم يكن ذلك الرفيق سوى الخضر.

قال الخضر مخاطبًا موسى: إنّني أقضي عمري في السفر، وقد كتب الله عليّ أن أطوف في العالم وأن أفعل ما يجب فعله. وأنت تقول إنّك تريد أن ترافقني في سفري، ولكن إذا ما تبعتني فلا تسألني عن أيّ عمل أقوم به. فهل تستطيع أن تتحمّل رفقتي دون أن تسألني؟ أيمكنك أن تثق بي ثقة تامّة؟

فطمأنه موسى قائلاً:

ـ نعم، يمكنني. دعني آتِ معك، وأعدك ألّا أطرح عليك أيّ سؤال.

وهكذا انطلقا في رحلتهما وزارا مختلف المدن في طريقهما ولكن عندما شاهد موسى الخضر يفعل أفعالاً لا يفهمها مثل قتل الغلام أو إغراق السفينة، لم يستطع السكوت وسأل في يأس:

ـ لماذا فعلت هذه الأشياء الشنيعة؟

فردّ عليه الخضر متسائلاً بدوره:

ـ ما الذي جرى لوعدك؟ ألم أخبرك بألّا تسألني أيّ سؤال؟

وفي كلّ مرّة كان موسى يعتذر، ويقطع العهد على ألّا يطرح أيّ سؤال ولكنّه كان في كلّ مرّة ينكث بوعده. وفي نهاية المطاف شرح الخضر السبب الذي دفعه إلى كلّ فعل من تلك الأفعال. وفهم موسى أنّ الأشياء التي قد تبدو ضارّة أو سيّئة غالبًا ما تكون بركة مقنعة في حين أنّ الأشياء التي قد تبدو باعثة على السرور يمكن أن تكون مضرّة على المدى البعيد، فكانت رفقته القصيرة الأمد مع الخضر أكثر التجارب التي فتحت عينيه في حياته(*).

وكما هو الحال في مثل هذه القصّة الرمزية، ثمّة صداقات في هذا العالم تبدو غير مفهومة للناس العاديين ولكنّها تدلّ بطبيعة الحال على حكمة وبصيرة أعمق. هكذا أنظر إلى وجود شمس في حياة أبي.

ولكنّني أعرف أنّ الآخرين لا يرون ما أراه، ولهذا ينتابني القلق. لسوء الحظّ، لا يبذل شمس من جانبه أيّ مسعى كي يجعل الناس يحبّونه. فهو في جلوسه عند بوّابة المدرسة جلسة تثير الارتباك، تراه يوقف ويستنطق كلّ من يريد الدخول للتحدّث مع أبي.

فكان يسأل:

ـ لماذا تريد رؤية مولانا العظيم؟ ما الهديّة التي أتيت بها؟

(*) الواضح أنّ الروائيّة أوردت قصّة الخضر مع موسى عليهما السلام اعتمادًا على ترجمة معاني القرآن إلى الإنكليزيّة أو غيرها من المصادر. أمّا نحن فنتمنّى من القارئ مراجعة القصّة كما وردت في سورة الكهف تحديدًا (المترجم).

فكان الناس يتلعثمون، لا يحيرون جوابًا، بل يطلبون الصفح، فيبعدهم شمس عن المكان.

ويأتي بعض هؤلاء الناس بعد بضعة أيّام حاملين هدايا، والفواكة المجفّفة والدراهم الفضّيّة والسجّاد الحريري والحملان المولودة حديثًا. لكن شمس كان ينزعج انزعاجًا أكبر وأشدّ لدى رؤيته هذه الأشياء. فتتّقد عيناه السوداوان ويتألّق وجهه حماسة، ويطاردهم من جديد.

وفي يوم من الأيّام، انزعج أحد الرجال انزعاجًا كبيرًا من شمس وصرخ فيه:

ـ بأيّ حق تعرقل الطريق إلى باب مولانا؟ إنّك تسأل على الدوام ماذا جلبنا وإيّانا؟ ولكن ماذا عنك أنت؟

ما الذي جلبته له؟

فقال شمس في صوت مسموع:

ـ لقد أتيت له بنفسي، وضحّيت برأسي من أجله. فما كان من الرجل إلّا أن مشى مجهدًا يدمدم بصوت خفيف وبدا عليه الاضطراب أكثر ممّا بدا عليه الغضب.

* * *

وفي اليوم نفسه سألتُ شمسًا إن كان يشعر بالانزعاج بسبب عدم فهم الآخرين له وعدم تقديرهم لمكانته، ولم أتمكّن من احتواء هواجسي إلّا قليلاً، فأوضحت له بأنّه قد اكتسب عددًا كبيرًا من الأعداء في الآونة الأخيرة.

رماني شمس بنظرة تنمّ عن عدم الفهم كأنّه لا يدري عمّا أتحدّث وقال هازًّا كتفيه:

ـ ولكن ليس لديّ أعداء. يمكن أن يكون لعشّاق الله نقّاد ومنافسون ولكن لا يمكن أن يكون لهم أعداء.

قلت معترضًا:

ـ نعم، لكنّك تخاصم الناس.

فالتهب شمس متحمّسًا.

ـ إنّني لا أخاصم الناس، بل أخاصم ذواتهم، وهذا أمر مختلف.

ثم أردف في طيبة:

ـ هذه واحدة من القواعد الأربعين: «إنّ هذا العالم أشبه ما يكون بجبل من الثلج يردّد صدى صوتك. وكلّ ما تتفوّه به، خيرًا أو شرًّا، سيرجع إليك على نحو ما. لهذا السبب إذا كان ثمّة من يضمر لك أفكارًا سيّئة، فإنّ التفوّه بالسوء عنه سيزيد الأمور تعقيدًا. وستجد نفسك داخل حلقة مفرغة قوتها الخبث. وبدلاً من ذلك، قل وفكّر بأشياء جميلة عنه على مدى أربعين يومًا. وسيكون كلّ شيء مختلفًا في نهاية الأيّام الأربعين لأنّك ستكون إنسانًا مختلفًا في باطنك».

وهنا قلت له في صوت أخذ يخونني في نهاية العبارة:

ـ لكنّ الناس يتقوّلون عليك بشتّى الأقاويل، ووصل بهم الكلام إلى أنّ مثل هذا الحبّ ناشئ بين رجلين يشي برابطة لا يمكن الإفصاح عنها.

بعد أن سمع شمس عبارتي، وضع يده على ذراعي وابتسم ابتسامته الهادئة المعهودة، ثم أخبرني بهذه القصّة:

«كان ثمّة مسافران في طريقهما من بلدة إلى بلدة، فوصلا إلى جدول ماء ارتفع منسوبه بسبب هطول أمطار غزيرة. وبينما يوشكان أن يعبرا، لاحظا امرأة شابّة على قسط من الجمال تقف وحيدة وبحاجة إلى مساعدة. فما كان من أحد الرجلين إلّا أن أسرع من فوره وصار إلى جانبها، ثم رفعها عن الأرض وحملها بين ذراعيه وعبر جدول الماء. وبعد أن أوصلها إلى الضفّة الأخرى حيّاها مودّعًا، ومضى الرجلان في طريقهما.

وعلى امتداد ما تبقّى من الرحلة، لبث المسافر الثاني صامتًا، واجمًا على غير عادته لا يردّ حتى على أسئلة صديقه. وبعد مضيّ بضع ساعات على وجومه وعدم قدرته على البقاء صامتًا أكثر ممّا بقي، قال: لماذا لمست تلك المرأة؟ كان في وسعها أن تغويك! فالرجال والنساء لا يمكنهم الملامسة على ذلك النحو!

فما كان من الرجل الأوّل إلّا أن ردّ بهدوء: يا صديقي، لقد حملت تلك المرأة وعبرت بها جدول الماء، وتركتها عند الضفّة الأخرى، أمّا

أنت، فإنّك ما تزال تحملها منذ ذلك الوقت!

قال شمس:

ـ بعض الناس من أمثال هذا الشخص، يحملون مخاوفهم وتعصّباتهم على ظهورهم، فينسحقون تحت وطأتها. فإذا طرق سمعك أنّ شخصًا ما لا يمكنه فهم عمق الرابطة التي تربطني بأبيك فقل له أن يغسل ذهنه!

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ١٥ حزيران ٢٠٠٨

عزيزتي إيلّا .

سألتني كيف أصبحت صوفيًّا . لم أصبح بين ليلة وأخرى .

وُلدت فسمّوني كريغ ريتشاردسن في كينلوخبيرفي ، وهي قرية ساحليّة من قرى منطقة الهايلاندز باسكتلندا . وكلّما فكّرت بالماضي ، أتذكّر بوله قوارب الصيد ، والشباك المثقلة بالأسماك ، وخيوط أعشاب البحر المتدلّية منها كأنّها أفاعي خضراء اللون ، وطيور زمار الرمل تنطلق مسرعة على امتداد الشاطئ تلتقط بمناقيرها الدود ، ونباتات زهرة الشيخ النامية في أكثر الأماكن غير المتوقّعة ، ورائحة البحر في مؤخّر المشهد ، لاذعة وحادّة . كانت تلك الرائحة ، فضلاً عن رائحة الجبال والبحيرات والسكينة الموحشة للحياة التي عرفت بها أوروبا عقب الحرب العالميّة ، قد شكّلت المهد الذي يؤطّر طفولتي .

وفي حين كان العالم يندفع اندفاعًا قويًّا إلى عقد الستّينيّات من القرن العشرين ، ليصبح بعد ذلك مشهدًا من مشاهد اضرابات الطلبة وخطف الطائرات واندلاع الثورات ، فإنّني كنت يومئذ منقطعًا عن كلّ تلك الأحداث في ركن هادئ أخضر . كان أبي يملك مكتبة لبيع الكتب القديمة وكانت أمّي تربّي الأغنام التي كانت تنتج صوفًا عالي الجودة . في طفولتي ، كنت أملك لمسة من لمسات وحدة راعي الأغنام والاستغراق في الأفكار ،

وهي من سمات بائع الكتب. وكنت على مدى أيّام طويلة أتسلّق شجرة معمّرة لأحدّق بنظري بعيدًا نحو الطبيعة، مقتنعًا تمامًا أنّني سأنفق حياتي كلّها في تلك البقعة من الأرض. وبين حين وحين كان قلبي ينحصر بتوق إلى المغامرات ولكنّني كنت أهوى كينلوخبيرفي، وكنت مبتهجًا وسعيدًا بإمكانيّة التنبّؤ بمستقبل حياتي. لكن من أين لي أن أعلم أنّ الله قيّض لي خططًا أخرى لمستقبلي؟

فبعد أن ناهزت سنّ العشرين بمدّة قصيرة، اكتشفت شيئين غيّرا مجرى حياتي إلى النهاية. الأوّل هو احتراف التصوير. فقد التحقت بأحد الصفوف لتعليم التصوير الفوتوغرافي وكنت لا أعلم أنّ الهواية التي ظننتها بسيطة ستضحي هوسًا يلازمني طوال حياتي. أمّا الشيء الثاني فكان الحبّ ـ فقد أحببت امرأة هولّنديّة كانت تزور أوروبا رفقة أصدقائها. وكان اسمها مارغوت.

كانت تكبرني بثمانية أعوام، على قسط من الجمال، فارعة القدّ، وصلبة الرأي على نحو لافت للنظر. كانت مارغوت ترى نفسها امرأة بوهيميّة ومثاليّة ومتطرّفة، مسترجلة ويساريّة الهوى، فوضويّة تدعو إلى الفردانيّة، متعدّدة الثقافات ومناصرة لحقوق الإنسان، ناشطة في ميدان الثقافة المضادّة، ومن مؤيّدي الحركة النسويّة والبيئيّة ـ وكلّها صفات أجهل تعريفها إذا ما سألني فرد ما عن معانيها. غير أنّني لاحظت منذ وقت مبكّر أنّها كانت تتمتّع بصفة أخرى، وهي أنّها امرأة متذبذبة، قادرة على أن تتحوّل من أقصى درجات الفرح إلى أقصى درجات الاكتئاب في غضون دقائق قليلة. كانت مارغوت امرأة لا يمكن التنبّوء بتصرّفاتها أبدًا. وكانت على الدوام تثور ضدّ ما تسمّيه «نفاق أسلوب حياة الطبقة البورجوازيّة» وتستنطق كلّ تفاصيل الحياة، وتخوض المعارك ضدّ المجتمع. أعتقد أنّ عدم هروبي منها ما زال حتى يومنا هذا لغزًا محيّرًا. لم أهرب، بل على العكس من ذلك، تركت نفسي تمتصّها دوّامة شخصيّتها المفعمة بالحياة. لقد أغرمت بها، وغرقت في حبّها حتى أذنيّ.

كانت تركيبتها أمرًا محالاً، تحتشد بالأفكار الثوريّة والشجاعة المنقطعة النظير والإبداع الخلّاق، ولكنّها كانت في الوقت عينه رقيقة رقّة

زهرة شفافّة. وقطعت عهدًا على نفسي أن أبقى إلى جانبها وأن أحميها لا من العالم الخارجي فحسب، بل من نفسها أيضًا. هل أحبّتني يا ترى بمقدار ما أحببتها؟ لا أعتقد ولكنّي أعرف أنّها أحبّتني على وفق طريقتها التي تتمظهر بمظهرين هما التدمير الذاتي والاستقلال الذاتي.

وهكذا انتهى بي المطاف في أمستردام وأنا في سنّ العشرين. وتزوّجنا هناك. ووهبت مارغوت نفسها ووقتها لمساعدة اللاجئين الذين وجدوا أنفسهم في أمستردام لأسباب سياسيّة أو إنسانيّة، واشتغلت في منظّمة متخصّصة باحتياجات المهاجرين، ومدّت يد العون للناس الذين صدموا صدمات نفسيّة من أكثر مناطق العالم اضطرابًا ليجدوا موطئ قدم لهم في هولندا. فكانت ملاكهم الساهر عليهم، وسمّت أسر كثيرة من أندونيسيا والصومال والأرجنتين وفلسطين بناتها باسمها.

أمّا أنا، فلم أكن مهتمًّا بالقضايا الكبرى، فقد كنت منشغلاً انشغالاً كبيرًا ولا وقت لي بتسلّق سلّم العمل التضامني المشترك. فبعد أن تخرّجت من كلّيّة إدارة الأعمال، بدأت أشتغل في إحدى الشركات العالميّة. في الحقّ، إنّ عدم اهتمام مارغوت بمكانتي أو مرتّبي جعلني أتطلّق إلى أتفه النجاحات. ولَما كنت متعطّشًا للسلطة، فقد أردت أن أجرّب نفسي في أعمال مهمّة.

كنت قد رسمت خططي كاملة من أجل حياتنا. ففي بحر سنتين، سننجب أطفالاً، وهكذا أكملت طفلتان جميلتان صورة الحياة المثاليّة، وكنت واثقًا الثقة كلّها من المستقبل الذي كان ينتظرنا. فنحن على الرّغم من كلّ شيء، نعيش في بقعة من أكثر بقاع الأرض أمنًا وأمانًا وليس في أحد البلدان المضطربة التي تستمرّ في ضخّ المهاجرين إلى القارّة الأوروبيّة مثل حنفيّة مكسورة. كنّا في ريعان الشباب، مفعمين بالصحّة والعافية وغارقين في الحبّ، فلا يمكن أن يحدث أيّ خطب. يصعب عليّ أن أصدّق أنّني في سنّ الرابعة والخمسين الآن بينما مارغوت قد فارقت الحياة.

كانت امرأة موفورة الصحّة، صحيحة البدن، ومن أشدّ المناصرين للنزعة النباتيّة في وقت لم تكن فيه هذه النزعة قد ظهرت إلى حيّز الوجود

بعد. كانت لا تأكل غير الأغذية الصحّيّة، وتمارس التمارين البدنيّة باستمرار، ولا تتناول الأدوية. كان وجهها الملائكي يفيض بالعافية، وكان جسدها نحيفًا، بارز العظام ونشيطًا. كانت تعتني بنفسها عناية شديدة، فكنت أكبر سنًّا منها على الرّغم من فارق العمر بيننا.

فارقت الحياة على نحو غير متوقّع، غاية في البساطة. ففي ليلة من الليالي، وفي طريق عودتها من زيارتها لأحد الصحافيّين الروس المشهورين، والذي كان يتقدّم بطلب اللجوء، تعطّلت سيّارتها في وسط الطريق السريع. وعلى الرّغم من أنّها كانت ملتزمة دومًا بالقوانين، فقد فعلت شيئًا لم يكن من صفات شخصيّتها. فبدلاً من أن تضيء مصابيح سيّارتها ذات الوميض المتقطّع وانتظار من يأتي لمساعدتها، ترجّلت من السيّارة وقرّرت أن تسير على قدميها باتّجاه أقرب قرية. لم يكن لديها أيّ مصباح يدوي أو أيّ شيء يجعلها واضحة للعيان، وكانت مرتدية معطفًا واقيًا من المطر، رمادي اللون. فجاءت مركبة وصدمتها ـ مركبة مقطورة من يوغسلافيا. وأفاد السائق أنّه لم يرها قطّ. وهكذا تلاشت مارغوت في الليل البهيم وتبدّدت.

كنت صبيًّا في يوم ما. وفتح الحبّ عينَيّ على حياة أكثر كمالاً. ولكن بعد أن فقدت المرأة التي أحببت، انقلبت انقلابًا جذريًّا. ولم أعد صبيًّا ولا بالغًا، بل تحوّلت إلى حيوان أسير. في هذه المرحلة من حياتي، التقيت الحرف «ص» في كلمة «صوفي».

أرجو ألّا أكون قد أثقلت عليك بمثل هذه الرسالة الطويلة.

محبّتي

عزيز

* * *

الغانية زهرة الصحراء

قونية، كانون الثاني ١٢٤٦

صاحبة المبغى لا تدعني أذهب إلى أيّ مكان بعد أن حظّرت عنّي أشياء كثيرة في هذه الأيّام، منذ الفضيحة التي تسبّبت بها في المسجد. وهكذا أصبحت أسيرة المكان إلى ما لا نهاية ولكن ذلك لم يثبط عزيمتي. في الحقّ، لم أعد أشعر بأيّ شيء في الآونة الأخيرة.

فالوجه الذي يحييني كلّ يوم في المرآة يبدو أشدّ شحوبًا وامتقاعًا. ولم أعد أمشّط شعري أو أقرص وجنتي كي تزداد حمرة. فكانت بقيّة الفتيات يتذمّرن باستمرار من مظهري السيّئ ويردّدن بأنّه يبعد عنّي الزبائن. ربّما كنّ على صواب. ولهذا السبب اعترتني الدهشة في ذلك اليوم الذي قيل لي فيه إنّ أحد الزبائن أصرّ على رؤيتي.

ولشدّة ذعري وهلعي، تبيّن لي أنّ ذلك الزبون لم يكن سوى بيبرس.

وما إن اختلينا أنا وهو في الحجرة حتى سألته:

ـ ما الذي يفعله حارس أمني في هذا المكان؟

قال بصوت مثقل بالإيحاءات:

ـ حسنًا، إنّ مجيئي إلى المبغى لا يقلّ غرابة وعجبًا عن ذهاب غانية إلى أحد المساجد.

قلت:

ـ أنا متأكّدة أنّك كنت تحبّ لو شنقوني في ذلك اليوم. إنّني مدينة بحياتي لشمس التبريزي.

ـ لا تذكري ذلك الاسم المثير للاشمئزاز. فالرجل مهرطق منشقّ عن العقيدة.

ـ لا، ليس مهرطقًا أو منشقًّا عن العقيدة.

لم أعرف ما الذي ألمّ بي، ولكنّي سمعت نفسي وأنا أسترسل:

ـ إنّ شمس التبريزي يأتي إلى زيارتي منذ ذلك اليوم مرّات ومرّات.

نخر بيبرس وقال:

ـ هه! درويش في مبغى! لمَ لا تستبدّ بي الدهشة؟

قلت:

ـ ليس الأمر كذلك. ليس كذلك قطعًا.

لم يسبق لي أن أخبرت أحدًا بهذا من قبل، ولم تكن لديّ أيّ فكرة عن السبب الذي دفعني لإخبار بيبرس الآن، ولكن شمسًا كان يأتي لزيارتي حقًّا كلّ أسبوع أثناء الأشهر القليلة المنصرمة. أمّا كيف أفلح في التسلّل إلى داخل المبغى دون أن يشاهده أحد، لا سيّما صاحبة المبغى، فذلك يفوق قدرتي على الفهم. وسيقول أيّ فرد إنّه أفلح في المجيء إلى هنا بفضل السحر الأسود ولكنّني أعرف أنّ السحر الأسود لا دور له في مجيئه. فشمس رجل طيّب القلب، ورجل مؤمن، ويتمتّع بمواهب مميّزة وباستثناء أمّي التي أتذكّرها عندما كنت طفلة، فإنّ شمس التبريزي كان الرجل الوحيد الذي عاملني بمحبّة غير مشروطة. فقد علّمني ألّا أستسلم لليأس والقنوط، بغض النظر عن كلّ شيء. وكلّما أخبرته أنّ امرأة مثلي لا يمكن لها أن ترمي بأيّ وسيلة ماضيها بعيدًا عنها، أجده يذكّرني بإحدى قواعده: «الماضي تفسير والمستقبل وهم، والعالم لا يسير في الزمان سيرًا مستقيمًا وينتقل من الماضي إلى المستقبل، بل يتحرّك عوضًا عن ذلك، فنيًّا ومن داخلنا بحركات لولبيّة لا نهاية لها.

الأبديّة لا تعني زمنًا لامتناهيًا بل خلودًا بكلّ بساطة. وإذا أردت أن تجرّبي الإشراق الذي لا نهاية له، فلا بدّ لك من وضع الماضي والمستقبل

خارج ذهنك والبقاء داخل اللحظة الراهنة».

وكان شمس يكرّر عليّ دائمًا بقوله: اللحظة الراهنة هي كلّ ما هنالك وكلّ ما سيكون. وعندما تدركين هذه الحقيقة، لن يعود أمامك ما تخشين منه. وعندئذ يمكنك مغادرة هذا المبغى إلى النهاية.

* * *

كان بيبرس يراقب وجهي بعناية. وعندما نظر إليّ، كانت عينه اليمنى تتّجه إلى الجانب، وفكّرت أنّ ثمّة شخصًا آخر في الحجرة، شخصًا لا أتمكّن من رؤيته. لقد بثّ الرعب في قلبي.

وعندما أدركت أنّ المستحسن عدم الحديث عن شمس بعد الآن، قدّمت له كأسًا من الجعة فشربه على عجل.

ثم سألني بيبرس بعد أن احتسى الكأس الثانية:

ـ وما هي ميزتك؟ أليست لكلّ واحدة منكنّ موهبة ما؟ هل في وسعك الرقص؟

أخبرته أنّني لا أملك مثل تلك المواهب، وأنّ أيّ موهبة كنت أتمتّع بها في ما مضى من الزمان فهي قد ولّت الآن، لأنّني أعاني مرضًا مجهولاً. ولو سمعت صاحبة المبغى مثل هذه الأشياء وأنا أتفوّه بها لأحد الزبائن، فمن شأنها أن تقتلني، لكنّي لا أكترث. في الحقّ، كان الأمل يراودني في أن يقضي بيبرس ليلته رفقة فتاة أخرى.

ولكن لخيبة ظنّي، هزّ بيبرس كتفيه وقال إنّه لا يبالي. ثم أخرج محفظته ونثر مادّة بنّيّة تميل إلى الاحمرار في راحة كفّه وحشرها في فمه وبدأ يمضغ مضغًا بطيئًا. وسأل:

ـ أتريدين قليلاً؟

هززت رأسي لأنّني عرفت ما هي تلك المادّة.

ـ أنت تعرفين ما الذي ينقصك.

ثم كشّر عن أسنانه وهو يتّكئ على السرير، وانسلخ عن جسده، وراح في غيبوبة الحشيش.

في ذلك المساء، وبعد أن احتسى بيبرس كمّيّات كبيرة من الجعة

وشرب الحشيش، تباهى بالأحداث الرهيبة التي شهدها في ميادين القتال. وقال بيبرس إنّ شبح جنكيز خان ما زال يطارد جيوش المغول حتى بعد وفاته وتفسّخ جسده. وكان جيش المغول يهاجم بتحريض الشبح، القوافل ويسلب القرى وينهبها ويذبح النساء والرجال على حدّ سواء. وأخبرني عن قناع الصمت الناعم والهادئ كملمس بطّانيّة في ليلة شتائيّة باردة، الذي خيّم على ساحة القتال بعد مقتل وجرح المئات وبقاء الآخرين وهم يوشكون على لفظ أنفاسهم الأخيرة.

قال وهو يخلط في كلامه:

ـ إنّ الصمت الذي يعقب مصيبة كبرى هو أكثر الأصوات التي يمكن سماعها على وجه البسيطة هدوءًا.

تمتمت:

ـ يا له من أمر مثير للحزن.

وعلى حين بغتة لم تعد لديه أي كلمات يتلفّظ بها، ولم يعد لديه ما يتحدّث به، فأمسك بيدي ودفعني فوق السرير وجذب ردائي. اتّقدت عيناه، واخشوشن صوته، وكانت رائحته منفرة، مزيجًا من الحشيش والعرق والجوع. فغشيني بدفعة واحدة قويّة، وحاولت أن أتحرّك جانبًا وأسترخي لأخفّف الألم، ولكنّه ضغط يديه على صدري بقوّة حالت دون قدرتي على الحركة. وواصل حركاته إلى الأمام وإلى الخلف، حتى بعد أن بلغ ذروة تهيّجه في داخلي، وكأنّه دمية تتحرّك بخيوط غير مرئيّة ولا تستطيع التوقّف. ويبدو أنّه لم يُشبع رغبته إذ ظلّ يتحرّك بقوّة وخشونة خشيت معهما أن يأتيني من جديد، ولكنّه انتهى على حين بغتة، إذ نظر إلى وجهي نظرة ملؤها الحقد والكراهية كأنّ الجسد الذي أثار اهتياجه قبل لحظة أصبح الآن موضع اشمئزازه.

اندفع جانبًا وقال بلهجة آمرة:

ـ البسي شيئًا ما.

ارتديت ردائي وراقبته بطرف عيني وهو يضع كمّيّة من الحشيش فيّ. وقال وقد برز فكّه إلى أعلى.

ـ أريدك من الآن فصاعدًا أن تكوني خليلتي.

لم يكن غريبًا على الزبائن أن يتقدّموا بمثل هذه المطاليب. وكنت أعرف كيف أعالج هذه المواقف الحرجة، فأعطي الزبون انطباعًا كاذبًا بأنّني أتمنّى أن أكون خليلته وأن أقدّم خدماتي له وحده، ولكن في مثل هذه الحالة ينفق أموالاً طائلة فيُرضي صاحبة المبغى ويجعلها سعيدة أوّلاً. أمّا اليوم، فلم أشعر بأيّة رغبة في التظاهر على هذا النحو.

فقلت له:

ـ لا يمكنني أن أكون خليلتك، لأنّني عمّا قريب سأترك هذا المكان.

أغرق بيبرس في الضحك كأنّ ما قلته هو أكثر الأشياء مدعاة للضحك، فقال مؤكّدًا:

ـ لا يمكنك تركه.

كنت أعلم أنّني لست مضطرّة إلى مشاجرته، ولكنّي لم أستطع منع نفسي من ذلك.

ـ أنا وأنت لسنا مختلفين كثيرًا. فقد فعلنا في الماضي أشياء نندم عليها الآن ندمًا شديدًا. ولكنّك أصبحت حارسًا أمنيًا بفضل مركز عمّك. أمّا أنا فليس لديّ عمّ يساندني.

تصلّب وجه بيبرس واتّسعت عيناه غضبًا على حين غرّة بعد أن كانتا لامباليتين وشاردتين، واندفع إلى الأمام وأمسك بي من شعري وقال بصوت راعد:

ـ كنت لطيفًا وإيّاك. صحيح؟ فمن تظنّين نفسك؟

فتحت فمي لأقول شيئًا ما ولكن طعنة حادّة من الألم أسكتتني. وضربني بيبرس بقبضة يده على وجهي ودفعني إلى الحائط.

لم تكن تلك هي المرّة الأولى. فقد ضربني زبائن من قبل، ولكن ليس كهذه الضربة.

* * *

هويت على الأرض وبدأ بيبرس يركلني ركلات موجعة على صدري وساقي ويهيل عليّ الشتائم. في تلك اللحظة وفي ذلك المكان عشت أغرب تجربة في حياتي. فبينما كنت منكمشة من شدّة الخوف، انسحق جسدي

تحت ثقل ضربة من ضرباته، وانفصلت روحي - أو ما شعرت أنّها روحي - عن جسدي وحوّلته إلى طائرة ورقيّة، خفيفة وحرّة.

وسرعان ما حلّقت في الأثير وكأنّ هناك من قذف بي إلى فضاء هادئ ليس فيه ما يستدعي المقاومة وليس فيه من مكان أذهب إليه. كلّ ما هنالك أنّني حلّقت فحسب. واجتزت حقولاً من قمح حصدت قبل مدّة وجيزة، وكانت الريح تداعب أوشحة رؤوس الفلّاحات، في الليل، تألّقت الحباحب(*) هنا وهناك مثل أضواء الحوريّات. بدأت أشعر وكأنّني أسقط ولكن سقوطي كان إلى أعلى، في متّجه السماء التي لا قرار لها.

أتراني كنت أحتضر؟ إن كان هذا هو الموت، فهو ليس مرعبًا أبدًا. وتلاشى قلقي، وتدحرجت نحو فضاء يغمره الضوء والصفاء، منطقة سحريّة لا شيء فيها يمكنه أن يجذبني إلى أسفل. وبغتة، أدركت أنّني كنت أعيش خوفي، ولكنّه، لدهشتي، لم يكن مثيرًا للهلع والرعب. أو ليس الخوف من الأذى هو الذي أرعبني كي أترك المبغى طوال هذا الوقت؟ لو تمكّنت من عدم الإحساس بالخوف من الموت لأدركت بقلب مفتوح، أنّ في وسعي ترك حجر الجرذان الذي أعيش فيه.

كان شمس التبريزي على حقّ. القذارة الوحيدة هي قذارة الباطن. لهذا أغمضت عينيّ وتخيّلت الأنا الأخرى لشخصيّتي، الأنا البدائيّة النقيّة والتائبة، التي تبدو أصغر سنًّا بكثير، وهي تخرج من المبغى باتّجاه حياة جديدة. لو أنّني عشت الأمان وعرفت الحبّ في حياتي لكان وجهي مفعمًا بالشباب والثقة. كانت الرؤية غاية في الجاذبيّة، وحقيقيّة إلى أبعد الحدود، على الرّغم من الدماء التي أراها بعينيّ، والنبض الذي يختلج به صدري وأضلاعي. لهذا كلّه لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

* * *

(*) الحباحب: ذباب يُضيء في الليل. (المترجم).

كيميا

قونية، كانون الثاني ١٢٤٦

كنت محمرّة الوجه ارتباكًا، أتصبّب عرقًا ولكنّي تمكّنت من أن ألمّ أطراف شجاعتي لأكلّم شمس التبريزي. كنت مصمّمة على أن أسأله عن أعمق قراءات القرآن، ولكن مرّت أسابيع دون أن تسنح لي فرصة. وعلى الرّغم من أنّنا كنّا نعيش تحت سقف واحد، فلم يصادف أحدنا الآخر قطّ. غير أنّ شمس ظهر على مقربة منّي في هذا الصباح وأنا أكنس الفناء، وحيدًا، رائق المزاج لتجاذب أطراف الحديث. وفي هذه المرّة، لم أفلح في الكلام وإيّاه كلامًا طويلاً فحسب، بل تمكّنت من أن أحدّق إلى عينيه أيضًا.

سألني في بشاشة:

ـ كيف الأحوال عزيزتي كيميا؟

تنبّهت إلى أنّ شمسًا كان يبدو دائخًا، كأنّه استيقظ من النوم لتوّه، أو لعلّ رؤيا أخرى راودته. كنت أعلم أنّ الرؤى لا تبارحه، خاصّة في الأيّام الأخيرة، أكثر من أيّ وقت مضى. وأصبحت أعرف الآن قراءة العلامات. ففي كلّ مرّة تأتيه رؤيا، ترى وجهه ممتقعًا، حالم العينين. تمتم شمس وهو ينظر إلى السماء حيث ندف السحب الرماديّة اللون تلتفّ وتدور مثل دوّامة، مبشّرة بتساقط الثلج أوّل مرّة في هذا العام:

ـ السماء تنذر بعاصفة.

بدا لي أنّ هذا الوقت الملائم لأطرح عليه السؤال الذي كنت أتشبّث به في داخلي. فسألته في رقّة وحذر:

ـ هل تتذكّر عندما أخبرتني أنّنا نفهم القرآن جميعًا حسب عمق بصيرتنا؟ منذ ذلك الوقت وأنا أحاول أن أوجّه إليك سؤالاً عن العمق الرابع.

وهنا التفت شمس إليّ، واسترق نظرة خاطفة إليّ، فراقني عندما رمقني بنظرة اهتمام. وفكّرت في أنّه أكثر وسامة في مثل هذا الوقت وقد زمّ شفتيه وتغضّنت جبهته قليلاً.

قال:

ـ المستوى الرابع لا يمكن الحديث عنه. فثمّة مرحلة تخذلنا اللغة بعدها. فعندما تتقدّمين إلى منطقة الحبّ، لن تكوني بحاجة إلى اللغة.

قلت من غير تفكير:

ـ أتمنّى لو أنّ لديّ القدرة على ولوج عالم الحبّ في يوم من الأيّام.

غير أنّني سرعان ما شعرت بالحرج والارتباك، فأردفت:

ـ أعني، كي أتمكّن من قراءة القرآن ببصيرة أعمق.

افترّ ثغر شمس عن ابتسامة صغيرة غريبة، وقال:

ـ لو كانت القدرة متوفّرة لديك، فإنّني على ثقة من أنّك ستتمكّنين. ولسوف تندفعين نحو التيّار الرابع ثم تصبحين أنت تيّار الماء نفسه.

كنت نسيت هذا الشعور المختلط الذي لا يستطيع أحد تحريكه في أعماقي سوى شمس. وأحسست وأنا إلى جانبه مثل طفلة تتعلّم الحياة من جديد، ومثل امرأة جاهزة لتنشأ حياة جديدة في رحمها.

سألته:

ـ ماذا تعني بكلامك لو كانت القدرة متوفّرة لديّ؟ أتعني القدر؟

أومأ شمس برأسه:

ـ نعم، أنت على صواب.

ـ لكن ما معنى القدر؟

ـ لا يمكنني أن أخبرك عن معنى القدر. لكن كلّ ما في وسعي أن

أقوله لك هو عن الأشياء التي ليس للقدر يد فيها. في الحقّ، ثمّة قاعدة أخرى تخصّ هذا السؤال: «القدر لا يعني أنّ حياتك مقدّرة سلفًا تقديرًا تامًّا. ولهذا، فإن ترك كلّ شيء في يد القدر وعدم الإسهام إسهامًا فاعلاً في موسيقى الكون علامة من علامات الجهل المطبق. إنّ موسيقى الكون منتشرة وعامّة ومؤلّفة على أربعين مستوى وهي غاية في الاختلاف. وقدرك هو المستوى الذي تعرفين فيه لحنك. ربّما لن تغيّري أداتك الموسيقيّة لكن مدى الإتقان في العزف يعتمد عليك اعتمادًا كاملاً».

لا بدّ أنّني نظرت إلى شمس نظرة مرتبكة، مشوّشة، لأنّه شعر بضرورة تقديم شرح. فوضع يده على يدي وضغط عليها في رفق، وومضت عيناه السوداوان الغائرتان وهو يقول:

ـ اسمحي لي أن أحكي لك حكاية.

وها هي الحكاية التي رواها لي:

في يوم من الأيّام سألت امرأة شابّة درويشًا عن معنى القدر. فقال لها الدرويش: «تعالي معي. ولننظر إلى العالم نظرة مشتركة». وسرعان ما صادفا موكبًا في طريقهما، أُقتيد فيه أحد القتلة إلى الميدان العامّ لكي يُشنق. فسأل الدرويش: «سوف يشنق ذلك الرجل، ولكن هل السبب هو أنّ شخصًا ما أعطاه المال ليشتري به أداة الجريمة؟ أم السبب هو أنّ ما من أحد أوقفه عندما كان يرتكب الجريمة؟ أم السبب هو أنّ فردًا من الأفراد ألقي القبض عليه بعدئذ؟ أين العلّة والمعلول في هذه القضيّة»؟

قاطعته وقلت:

ـ إنّ ذلك الرجل سيُشنق لأنّ ما ارتكبه فعل شنيع. وهو يدفع ثمن جريرته. هذه هي العلّة والمعلول أيضًا. ثمّة أشياء جيّدة وأشياء سيّئة، وثمّة فرق بينها.

ردّ شمس بصوت خفيف كأنّه شعر بالوهن على حين بغتة:

ـ آه يا عزيزتي كيميا. أنت تحبّين الفروق لأنّك تعتقدين أنّها تجعل الأمور أسهل وأيسر، ولكن ما رأيك لو أنّ الأشياء غير واضحة على هذا النحو دائمًا؟

ـ لكنّ الله يريد منّا أن نكون واضحين، وإلّا فقد تنتفي فكرة الحلال

والحرام، ولن تكون هناك جنّة ولا نار. تخيّل لو أنّك لا تستطيع إخافة الناس بالنار، أو تشجيعهم على الجنّة. عندئذ سيكون العالم برمّته أسوأ بكثير.

انزلقت ندف ثلج بسبب الريح، ومال شمس إلى أمام ليشدّ وشاحي شدًّا أقوى. ولبرهة من الزمن تجمّدت في مكاني، وتنشّقت عبيره. كان مزيجًا من خشب الصندل والكهرمان فضلاً عن نكهة تشبه رائحة التراب بعد سقوط المطر. وشعرت بتوهّج حارّ في أعماقي ورغبة قويّة بين ساقي. يا له من أمر مربك ـ ولكنّه على الرّغم من ذلك، ويا للعجب، لم يكن مربكًا البتّة.

قال شمس وهو يتفرّس فيّ عن شغف وعن قلق:

ـ في الحبّ، الحدود مشوّشة.

أتراه يتحدّث عن حبّ الله أم عن الحبّ بين رجل وامرأة؟ أتراه يشير إلى كلينا؟ أهناك شيء بمعنى «كلينا»؟

استرسل شمس في حديثه غير مكترث لما أفكّر فيه:

ـ لا يهمّني الحلال أو الحرام. بل يهمّني أن أطفئ النار في الجحيم وأشعل السماء كي يبدأ الناس بعشق الله لا لسبب إلّا الحبّ وحده.

قلت له غير مدركة أنّه ينبغي عليّ التفكير بتحذيره قبل أن يغيب مضمونه:

ـ لا ينبغي لك أن تسير وأنت تتكلّم مثل هذا الكلام. فالناس أوغاد، ولن يفهمك الجميع.

ابتسم شمس ابتسامة شجاعة وباسلة، وسمحت له أن يبقيني أسيرة وأنا أشعر بكفّه متّقدة وثقيلة في كفّي.

ـ ربّما أنت على صواب ولكن ألا تعتقدين أنّ ذلك يمنحني سببًا يمكّنني من الإفصاح عن أفكاري. يضاف إلى ذلك، أنّ أصحاب العقول الضيّقة مصابون بالصمم على أيّة حال. فآذانهم مسدودة وكلّ ما أقوله يرونه تجديفًا.

ـ في حين أرى أنّ كلّ ما تقوله عذب لا أكثر.

رماني شمس بنظرة تنمّ عن عدم تصديق كادت أن تصل حدّ الدهشة. ولكنّني صدمت أكثر منه. كيف تمكّنت من البوح بمثل هذا الرأي؟ هل خرجت عن طوري؟ لا بدّ أنّ الجنّ تلبّسني.

قلت وأنا أنهض على قدمَيّ:

ـ أرجو المعذرة. لا بدّ لي من الانصراف.

كان وجهي يتّقد خزيًا، قلبي يدقّ دقًّا عنيفًا بكلّ ما قلناه أو تركناه من دون أن نتفوّه به. وهرولت خارجة من الفناء وعدت أدراجي إلى الدار. ولكنّني أدركت حتى في أثناء ذلك أنني اجتزت عتبة، وبعد هذه اللحظة لن أتمكّن من تجاهل حقيقة كنت أدركها تمامًا طوال الوقت وهي أنّني قد أُغرمت بشمس التبريزي.

* * *

شمس

قونية، كانون الثاني ١٢٤٦

الغيبة هي الطبيعة الثانية التي يتّصف بها عدد كبير من الناس. فقد سمعت شائعات تدور عنّي. فمنذ وصولي بلدة قونية انتشرت تلك الشائعات انتشارًا واسعًا، ولكنّها لم تدهشني. وعلى الرّغم من أنّ القرآن يقول بكلّ وضوح أنّ الكذب من الخطايا الكبيرة فإنّ معظم الناس لا يبذلون أيّ جهد لتجنّبه، وهم يدينون الذين يشربون الخمرة أو الذين يبحثون عن الزانيات لرميهنّ بالحجارة(*)، ولكن عندما يخصّ الأمر الغيبة والكذب، وهما أشدّ خطورة في نظر الله، فإنّهم لا يعيرون أهمّيّة لعمل أيّ شيء.

يذكّرني هذا كلّه بإحدى القصص:

«في يوم من الأيّام أتي رجل مهرولاً إلى أحد الصوفيّين وقال له وهو يلهث: إنّهم يحملون الصواني. أنظر هناك! فأجابه الصوفي في هدوء: وما شأننا؟ أهذا شأني؟ فهتف الرجل متعجّبًا: لكنّهم يأخذون هذه الصواني إلى بيتك؟ فقال الصوفي: إذًا فهذا شأنك أنت!

(*) ليس في القرآن ما يشير إلى أنّ عقوبة الزنى هي رجم الزاني أو الزانية إذ إنّه ينصّ على القول: «الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة» (سورة النور (٢٤ : ٢)، ولكنّ الأحاديث النبويّة الشريفة تؤكّد ضرورة الرجم (أنظر صحيح مسلم، باب الحدود). (المترجم).

لسوء الحظّ، الناس يراقبون على الدوام صواني الآخرين. وبدلاً من الاهتمام بشؤونهم، تراهم يصدرون الأحكام على غيرهم من الناس. وإنّني حائر دومًا من الأكاذيب التي يخترعونها! ولا يعرف خيالهم حدودًا عندما يخصّ الأمر الشكوك أو الافتراء.

يبدو أنّ بعض الناس في هذه البلدة يعتقدون أنّني زعيم سرّي لتنظيم الحشّاشين. ويذهب البعض إلى الزعم بأنّني ابن آخر أئمّة الإسماعيليّين في قلعة ألموت. ويقولون إنّني من المهارة في السحر والسحر الأسود بحيث إنّ كلّ من أصبّ عليه اللعنات يقضي من فوره. كما أنّ آخرين يتّهمونني اتّهامًا فظيعًا بأنّني مارست السحر على الرومي، وأنّني أرغمه على شرب حساء الحيّة فجر كلّ يوم لأطمئنّ إلى أنّه لن يبطل السحر.

عندما أسمع مثل هذا الهراء، أضحك وأمضي في سبيلي. ماذا يمكنني أن أفعل سوى ذلك؟ أيّ ضرر يلحق بدرويش من نكد الآخرين؟ لو أنّ البحر ابتلع العالم كلّه، فهل يضير ذلك البطّ؟

على أيّة حال، يمكنني أن ألاحظ بأنّ الناس من حولي قلقون وخاصّة سلطان ولد، فهو شابّ ذكي وسيصبح يومًا معين والده الأفضل. ثم هناك كيميا، كيميا اللطيفة التي تبدو قلقة مشغولة البال. ولكن أسوأ ما في الغيبة هو أنّ للرومي نصيبه من التشويه بسمعته. فهو خلافًا لما هو عليه من حال، لم يألف حديث الناس عنه بالسوء. وإنّني لا أتعذّب وأتألّم عندما أراه مكروبًا محزونًا بسبب ألفاظ يتلفّظ بها الجهلاء من الناس. إنّ مولانا يتمتّع بقدر هائل من الجمال في داخله. أمّا أنا، فعلى العكس من ذلك، أتمتّع بالجمال والقبح في الوقت نفسه. وأجد التعامل مع قباحة الآخرين أسهل ممّا يجده هو نفسه. لكن كيف يمكن لعالم كبير اعتاد خوض غمار مناقشات جادّة ورصينة ويتوصّل إلى استنتاجات منطقيّة أن يتعامل مع هراء الجاهلين؟

لا عجب في أنّ النبيّ محمد قال إنّ ثلاثة من الناس يستحقّون الشفقة في هذا العالم، الغني الذي ضاعت ثروته والمحترم الذي فقد احترامه والحكيم المحاط بالجهلة.

لكنّني على الرّغم من ذلك، لا أستطيع أن أحول بيني وبين التفكير من

وجود بعض الخير الذي يعود على الرومي من كلّ هذا. فالافتراء مؤذ وإن كان عنصرًا ضروريًّا في تحوّل الرومي الداخلي. كانت خطبه كلّها محطّ إعجاب واحترام وموضع تقليد، سمعته لا تشوبها شائبة، ولكنّه لا يعلم مدى الأذى الذي يشعر به الفرد إذا ما أساء الآخرون فهمه وتعرّضوا له بالانتقاد. كما أنّه لا يتضايق بسبب القابليّة على الانجراح والوحدة اللذين يشعر بهما الفرد بين حين وحين. ولم يتعرّض الناس لذاته بأيّ أذى، ولم يلحقوا بها أيّ ضرر. لكنّه بحاجة إلى ذلك. فبقدر ما تكون الفرية أو الغيبة مؤذية وجارحة، فإنّها جيّدة في نهاية المطاف لمن هو سالك الطريق. تقول القاعدة الثلاثون: «الصوفي الصادق هو الذي يتحمّل بصبر ولا ينبس بكلمة سيّئة واحدة ضدّ منتقديه حتى إذا اتّهمه الناس أجمعين اتّهامًا ظالمًا وانتقدوه ودانوه. إنّ الصوفي لا يوزّع الاتّهامات أبدًا. كيف يمكن أن يكون ثمّة معارضون أو منافسون أو حتى «آخرون» بينما لا توجد ثمّة «نفس» في المقام الأوّل؟

كيف يمكن أن يكون هناك من يوجّه إليه اللوم في حين لا يوجد سوى الواحد الأحد؟

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ١٧ حزيران ٢٠٠٨

عزيزتي إيلّا

كنت غاية في الرقّة عندما طلبت منّي أن أخبرك بأشياء أخرى. إنّني بصراحة لا أجد الكتابة عن هذه الحقبة من حياتي سهلة لأنّها تذكّرني بأحداث وذكريات لا أريد أن أتذكّرها. لكن ها هي الذكريات:

فبعد وفاة مارغوت طرأ على حياتي تغيير درامي مثير. فقد ضيّعت نفسي رفقة حلقة من المدمنين وأضحيت معتادًا حضور حفلات ورقص تستمرّ طوال الليل في مدينة أمستردام التي لم أعرفها من قبل، ولهذا فقد بحثت عن الراحة والطمأنينة في كلّ الأماكن غير المناسبة، وأصبحت مخلوقًا من مخلوقات الليل وصادقت الناس الضالّين الذين لا أخلاق لهم، واستيقظت من نومي في أسرّة الغرباء، وانخفض وزني أكثر من خمسة وعشرين رطلاً في بضعة أشهر.

وفي اليوم الأوّل الذي تعاطيت فيه الهيروين، تقيّأت، وأصبت بالغثيان، ولم أستطع رفع رأسي إلى أعلى طوال النهار. فقد رفض جسدي ذلك المخدّر، وكانت تلك إشارة لي ولكنّني لم أكن في حالة تسمح لي بفهم ما حدث. فقبل أن أعرف ذلك كنت قد استبدلت تنشّق المخدّر بالحقن، وجربت كلّ ما كانت تقع عليه يدي ـ الماريجوانا، والحشيش، والحامض، والكوكايين. ولم أستغرق زمنًا طويلاً حتى أتلفت نفسي إتلافًا

عقليًا وجسديًا. وكلّ ما فعلته، إنّما كان كرغبتي في أن أبقى ثملاً ومخمورًا.

وعندما كنت في تلك الحالة من الثمالة وضعت خططًا مدهشة لأنتحر. فحاولت أيضًا أن أتناول نبتة الشوكران السامّة على طريقة سقراط، ولكن سمّها لم يؤثّر فيّ، أو أنّ العشبة التي اشتريتها خفيفة من أحد مطاعم الوجبات السريعة الصينيّة كانت نبتة عاديّة. ربّما باعوني نوعًا من أنواع الشاي الأخضر وسخروا منّي. كنت أستيقظ في صباح كلّ يوم في أماكن غير مألوفة، وإلى جانبي شخص غريب، ولكنّ الخواء كان يمزّقني في داخلي. واعتنت بعض النساء بي، وكنّ أصغر سنًّا منّي، أو أكبر. عشت في بيوتهنّ، ونمت في أسرّتهنّ، ومكثت في مصايفهنّ وتناولت الطعام الذي كنّ يقمن بإعداده، وارتديت ثياب أزواجهنّ، وتسوّقت ببطاقات الائتمان الخاصّة بهنّ، ورفضت أن أمنحهنّ ذرّة من الحبّ الذي كنّ يطلبنه وكنّ جديرات به بلا أدنى ريب. وسرعان ما ظهرت نتائج الأسلوب الذي نهجته في حياتي، ففقدت وظيفتي، وخسرت أصدقائي، وأخيرًا خسرت الشقّة التي قضيت أنا ومارغوت أيّامًا طويلة سعيدة فيها. ولمّا اتّضح لي أنّني لم أعد أتحمّل هذا النمط من الحياة بعد الآن، سكنت في بيوت كان كلّ شيء فيها عملاً جماعيًا مشتركًا. وهكذا أنفقت أكثر من خمسة عشر شهرًا في واحد من تلك البيوت في مدينة روتردام. وكان المبنى بلا أبواب، لا من الداخل ولا من الخارج، ولا حتى في الحمّام. وكنّا نتشارك في كلّ شيء: أغنياتنا وأحلامنا ومصروفنا اليومي ومخدّراتنا وطعامنا وأسرّتنا. . . كلّ شيء سوى الألم.

وبعد أن أمضيت سنوات في تعاطي المخدّرات والانغماس في الملذّات الحسّيّة، تدهورت أحوالي إلى أدنى مستوى لها، وأصبحت شبح الإنسان الذي كان الآخرون يعرفونه. وبينما كنت أغسل وجهي في يوم من الأيّام، حدّقت إلى المرآة، فوجدت وجه شابّ لم يسبق لي أن رأيت مثل حزنه ووهنه. فما كان منّي إلّا أن عدت إلى سريري وبكيت بكاء الأطفال. وفي اليوم التالي فتّشت في الصناديق التي كانت مارغوت تركت فيها حاجيّاتها ومقتنياتها، كتبها وثيابها وأسطواناتها ودبابيس شعرها وملاحظاتها

وصورها، فودّعتها كلّها قطعة فقطعة، ووضعتها من جديد في صناديقها ووهبتها إلى أطفال المهاجرين الذين كانت تهتمّ بهم الاهتمام كلّه. حدث ذلك في العام ١٩٧٧.

وعثرت بواسطة أحد الأصدقاء الذين أرسلهم الله لي على وظيفة مصوّر فوتوغرافي في إحدى المجلّات السياحيّة الذائعة، وهكذا بدأت رحلة إلى شمال أفريقيا، حاملاً حقيبة من القماش وصورة مؤطّرة لمارغوت، وهاربًا من الإنسان الذي آل إليه حالي.

ثم التقيت على إثر ذلك عالمًا بريطانيًا من علماء الأنثروبولوجيا في صحارى أطلس واقترح عليّ فكرة. فسألني إن كنت فكّرت يومًا ما أن أكون أوّل مصوّر فوتوغرافي غربي يدخل خفية أقدس مدينتين في الإسلام. لم أكن أعرف عمّا كان يتكلّم، وأخبرني أنّ القانون السعودي(*) يحرّم على غير المسلمين دخول مكّة والمدينة، وليس مسموحًا لليهود أو النصارى دخولهما إلّا إذا وجد الفرد طريقة لدخول المدينة والتقاط الصور. وإذا ما أُلقي القبض عليّ فقد يزجّ بي في السجن أو ربّما قد يحدث ما هو أسوأ من ذلك. أصخت السمع له وأثارتني فكرة التجاوز على أراض ممنوع دخولها وإنجاز ما لم ينجزه أحد من قبل، فضلاً عن تنبّه مشاعري وأحاسيسي على الشهرة وجني الأموال التي سأحصل عليها بعد ذلك. كانت فكرة غاية في الجاذبيّة وشعرت كأنّني نحلة جذبها قدر من العسل.

وأخبرني عالم الأنثروبولوجيا أنّه لا يمكنني تحقيق المهمّة بمفردي وأنّني أحتاج إلى أحد المعارف أو الأصدقاء. واقترح عليّ أن أدقّق في الجمعيّات الصوفيّة في المنطقة، وقال: من يدري، لعلّهم يوافقون على مدّ يد العون لك.

لم أكن أعرف شيئًا عن الصوفيّة، وما كان ليهمّني أمرها. ولكن ما دام أنّهم سيساعدونني، فقد شعرت بالسعادة إذا ما التقيت الصوفيّين. فهم

(*) القانون ليس قانونًا سعوديًا كما تظنّ المؤلّفة، ولكنّه قانون إلٰهي إذ ورد في القرآن الكريم: ((يا أيّها الذين آمنوا إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام)) (سورة التوبة ٩: ٢٨) (المترجم).

في نظري ليسوا سوى وسيلة من أجل غاية. كان الناس أجمعين على هذا الرأي في ذلك الوقت وذلك المكان.

الحياة غريبة يا إيلّا. وأنا لم أسافر في نهاية المطاف إلى مكّة أو المدينة، لا في ذلك الوقت ولا في وقت آخر. ولا حتى بعد أن اهتديت إلى الإسلام، فقد اتّجه بي القدر وجهة أخرى مغايرة تمامًا، وجهة ذات منعطفات ومسارات ملتوية غير متقنة، غيّرت كلّ واحدة منها حياتي تغيّرًا عميقًا ونهائيًا حتى إنّ هدف الرحلة الأولى أمسى بعد برهة من الزمان غير ذي فائدة. وعلى الرّغم من أنّ حافزي الأوّل كان يرجع إلى أسباب مادّيّة في بداية الأمر، فقد أصبحتُ بعد انتهاء الرحلة إنسانًا آخر.

أمّا بخصوص الصوفيّين، فمن منهم كان ليعلم أنّ ما رأيته في البداية وسيلة لغاية سيصبح أخيرًا غاية في ذاتها. إنّني أسمّي هذا الفصل من حياتي: لقائي بالحرف (و) في كلمة صوفي.

محبّتي

عزيز

الغانية زهرة الصحراء

قونية، شباط ١٢٤٦

كان النهار الذي غادرت فيه المبغى قارصًا، موجعًا، وكئيبًا، وكان أكثر الأيّام برودة منذ أربعين سنة، ولمعت الشوارع الضيّقة الملتوية كالأفاعي بثلوج تساقطت حديثًا، وتدلّى الثلج الحادّ من سطوح البيوت ومنائر المساجد على نحو بالغ الجمال وإن كان ينطوي على مخاطر جمّة. ومع تقدّم النهار وحلول منتصف العصر، ازدادت شدّة البرودة زيادة جعلت القطط تتجمّد في الشوارع وتحوّلت شواربها إلى خيوط رفيعة من الثلج، وانهارت بعض البيوت التي كانت مهلهلة وآيلة للسقوط تحت وطأة الثلج. وإلى جانب هذه المعاناة، تُضاف معاناة أهل قونية الذين لا مأوى لهم، وكانت معاناتهم هي الأشدّ. فثمّة عدد من الأجساد المتجمّدة والمنكمشة على نفسها كالأجنّة وقد لاح طيف ابتسامات بهيّة على وجوههم وكأنّهم يتوقّعون ولادتهم من جديد في حياة أخرى أحسن حالاً وأكثر دفئًا.

وفي وقت متأخّر من عصر ذلك اليوم، وفي حين كان الناس أجمعين في قيلولة قبل أن يحلّ المساء وضجيجه، تسلّلت خارج حجرتي. ولم آخذ معي سوى بعض الثياب البسيطة تاركة ورائي كلّ الملابس الحريريّة والزينة التي كنت معتادة استخدامها من أجل زبائن مميّزين. فكلّ ما تحصل عليه الواحدة منّا في المبغى، ينبغي أن يبقى في المبغى.

وفي منتصف طريق نزولي الدرج، شاهدت ماغنوليا تقف عند الباب

الرئيسي تلوك أوراقًا صفراء اللون كانت قد أدمنت على تعاطيها. وكانت أكبر فتيات المبغى، وتذمّرت في الآونة الأخيرة من وميض الأضواء الحارّة. وسمعتها في الليل وهي تتقلّب في فراشها. لقد نضبت أنوثتها، وهذا لم يعد سرًّا خافيًا على أحد. وكانت الفتيات الأصغر سنًّا يقلن مزاحًا أنّهنّ كنّ يحسدن ماغنوليا ما دام أنّها لن تقلق بعد اليوم من الدورة الشهريّة والحمل أو الإجهاض وأنّ في إمكانها أن تضاجع الرجال كلّ يوم من أيّام الشهر، ولكنّنا كنّا نعلم أنّ البغي العجوز فرصتها ضئيلة في البقاء في قيد الحياة.

عندما شاهدت ماغنوليا واقفة في ذلك المكان، أدركت أنّ أمامي أحد خيارين: فإمّا العودة إلى غرفتي والتخلّي عن فكرة الهروب، أو اجتياز ذلك الباب وتحمّل التبعات. واختار قلبي الخيار الثاني.

قلت في صوت كنت أؤمل من نبرته أن يكون مسترخيًا واعتياديًّا:

ـ أهلاً ماغنوليا. هل تشعرين بتحسّن؟

أشرق وجه ماغنوليا ولكنّه انقلب أسود بعد أن لاحظت الحقيبة في يدي. لا فائدة من الكذب، إذ كانت تعلم أنّ صاحبة المبغى كانت قد منعتني من مغادرة غرفتي، فكيف مغادرة المبغى؟

شهقت ماغنوليا كأنّ السؤال أخافها:

ـ أأنت راحلة؟

لم أقل شيئًا، فقد حان دورها للاختيار: فإمّا أن تمنعني من الخروج وتنبّه الأخريات بخطّتي أو تتركني وشأني، فأذهب. حدّقت إليّ تحديقة طويلة، وبدت المرارة والصرامة على سحنتها.

وقالت:

ـ عودي إلى غرفتك يا زهرة الصحراء، وإلّا فإنّ صاحبة المبغى سترسل في أثرك جاكال هيد. ألا تدرين ما الذي اقترفته بشأن...

ولكنّها توقّفت ولم تنه جملتها. ذلك هو أحد قوانين المبغى غير المكتوبة، فنحن لا نحكي الحكايات عن الفتيات السيّئات الحظّ اللواتي يعملن في هذا المكان أمامنا وينتهي بهنّ المطاف إلى نهاية مبكرة. وفي

الحالات النادرة، عندما نأتي حقًّا على ذكرها، فإنّنا نحاذر في ألّا نتفوّه بأسمائهنّ. لا فائدة من إزعاجهنّ وهنّ في قبورهنّ بعد أن عشن حياة صعبة أصلاً. والأفضل تركهنّ للراحة.

أصرّت ماغنوليا:

ـ حتى لو تمكّنت من الهروب، فكيف ستعيشين. سوف تهلكين من شدّة الجوع.

شاهدت في عيني ماغنوليا الخوف ـ ليس الخوف من احتمال فشلي وتعرّضي للعقاب على يدي صاحبة المبغى، بل الخوف من إمكانيّة نجاحي. سوف أفعل الشيء الوحيد الذي كانت تحلم به على الدوام ولكنّها في الوقت نفسه لم تتجرّأ على تنفيذه، ولهذا بدأت الآن تكرهني وتحترمني بسبب صفاقتي وسفاهتي. وخامرني إحساس بالشكّ والريبة وكان من شأني أن أعود أدراجي داخل المنزل لولا أنّ صوت شمس التبريزي ظلّ يتردّد في أذني.

قلت:

ـ دعيني أذهب وشأني يا ماغنوليا، فأنا لن أبقى يومًا واحدًا في هذا المكان.

بعد أن ضربني بيبرس وشاهدت الموت بعينيّ، راودني الإحساس بأنّ شيئًا ما في داخلي قد تغيّر تغيّرًا لا رجعة عنه، وكأنّني لم أعد خائفة في أعماقي، بل على العكس من ذلك، لم أكترث البتّة. كنت قد وطّدت العزم على أن أهب ما تبقّى من عمري لله، سواء أكان الباقي يومًا واحدًا أو سنوات طويلة. ذلك ليس مهمًّا. وأتذكّر أنّ شمس التبريزي قال لي إنّ الدين والحبّ يحوّلان البشر إلى أبطال لأنّهم يزيلون كلّ المخاوف والقلق من أفئدتهم. لقد بدأت أفهم ما كان يعنيه.

الأمر الغريب هو أنّ ماغنوليا فهمت ذلك أيضًا، فرمقتني بنظرة طويلة، معذّبة، وتنحّت جانبًا، وفسحت لي الطريق للخروج.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ١٩ حزيران ٢٠٠٨

عزيزتي إيلّا.

شكرًا لمودّتك الكبيرة، وإنّني غاية في السرور لأنّ قصّتي أثارت إعجابك، وأنّك منشغلة البال بها. فأنا إنسان لم أتعوّد الحديث عن ماضي لأيّ إنسان، ولكن هذا الحديث يجعلني، يا للغرابة، منشرح الصدر عندما أشاركك فيه.

أنفقت صيف العام ١٩٧٧ رفقة طائفة من الصوفيّين في المغرب. وكانت غرفتي بيضاء وصغيرة وبسيطة. ولم تكن تحتوي إلّا على أهمّ الأشياء الضروريّة: حصيرة نوم ومصباح زيتي ومسبحة من الكهرمان وزهرة في أصّ نباتات على مقربة من النافذة وتعويذة لطرد الحسد ومنضدة كتابة مصنوعة من خشب الجوز مع ديوان شعر للرومي في الدرج. لم يكن في الغرفة جهاز هاتف ولا تلفاز ولا ساعة ولا كهرباء. لم أعترض، فقد سبق لي أن عشت في بيوت فقيرة لسنوات ولم أجد ما يحول دون بقائي في قيد الحياة إذا ما عشت في تكيّة دراويش. في مساء اليوم الثاني، جاء الشيخ صمد إلى غرفتي متفقّدًا أحوالي. وقال إنّني موضع ترحيب إذا ما بقيت وإيّاهم إلى أن يحين موعد سفري إلى مكّة ولكن ثمّة شرطًا واحدًا: لا مخدّرات!

أتذكّر أنّني أحسست بأنّ وجهي اتّقد لحظتئذ مثل طفل ضبط متلبسًا ويده في علبة الكعك. كيف عرفوا؟ هل كانوا يفتّشون في حقيبة ثيابي عندما

كنت خارج الغرفة؟ ولن أنسى ما حييت ما تفوّه به الشيخ بعد ذلك: إنّنا لا نحتاج إلى التدقيق والتفتيش في حاجيّاتك حتى نعرف إن كنت تتعاطى المخدّرات أم لا أيّها الأخ كريغ. فعيناك تفضحان حقيقة كونك مدمن على المخدّرات.

المضحك في هذا يا إيلّا هو أنّني لم أنظر إلى نفسي حتى ذلك اليوم بوصفي مدمنًا. فقد كنت واثقًا الثقة كلّها بأنّني أسيطر على حالي وأنّ المخدّرات تساعدني في مشكلاتي. وقال الشيخ صمد: «إنّ تخدير الألم يختلف عن علاجه، لأنّ الألم يظلّ موجودًا بعد زوال مفعول المخدّر»؟

كنت أعرف أنّه على صواب. ولهذا سلّمت إليهم كلّ ما كنت أحمله من مخدّرات وكلّ حبّة منوّم، ولكن سرعان ما اتّضح أنّ تصميمي أو عزمي لم يكن من القوّة بحيث يجعله يجذبني إلى ما سيحدث بعدئذ. ففي غضون الأشهر الأربعة التي أمضيتها في تلك التكيّة الصغيرة، نكثت بوعدي وتصرّفت تصرّفًا سيّئًا لأكثر من اثنتي عشرة مناسبة. فالذي يفضّل الثمالة على الصحو لا يصعب عليه العثور على المخدّرات، حتى لو كان أجنبيًّا غريبًا. وفي ليلة ما، عدت إلى التكيّة وأنا غاية في الثمالة، لأجد كلّ الأبواب موصدة من الداخل. فاضطررت إلى النوم في الحديقة. وفي اليوم التالي، لم يسألني الشيخ صمد عن أيّ شيء، ولم أطلب الصفح.

باستثناء هذه الأحداث المخزية، فإنّني أفلحت في الانسجام انسجامًا تامًّا مع الصوفيّين، واستمتعت بالهدوء الذي خيّم على التكيّة في الأماسي. يراود الفرد الإحساس بالغرابة في ذلك المكان، ولكن على الرّغم من كلّ ذلك، فقد كان المكان هادئًا هدوءًا عجيبًا، وإذا كنت قد ألفت السكن رفقة عدد كبير من الناس تحت سقف واحد، فقد وجدت في تلك التكيّة شيئًا لم يسبق لي أن مررت به أو عشت فيه: الهدوء الداخلي.

عشنا ظاهريًّا حياة جماعيّة، فقد كنّا نأكل ونشرب ونمارس النشاطات نفسها في الوقت نفسه. ولكنّنا كنّا نلقى التشجيع من تحت هذا كلّه، على أن نبقى وحيدين وأن ننظر إلى الداخل. فالمرء يكتشف أوّلاً، وهو على درب الصوفيّة، فنّ الانفراد وسط الحشد. ثم يكتشف ثانية الحشد داخل عزلته ـ الأصوات في الداخل.

وبينما كنت أنتظر الصوفيّين في المغرب ليدخلوني خفية إلى مكّة والمدينة، قرأت كثيرًا عن الفلسفة الصوفيّة والشعر الصوفي، وكان دافعي الأوّل في تلك القراءة هو إحساسي بالسأم والضجر وافتقاري إلى عمل أيّ شيء أفضل من القراءة. ولكنّ اهتمامي تطوّر ونما بعدئذ واكتشفت أنّ تعرّفي إلى الصوفيّة جعلني أزداد توقًا إليها وكأنّني رجل لم يعرف كم كان ظمأه إلى الماء شديدًا حتى رشف أوّل رشفة منه. ومن بين كلّ الكتب التي قرأتها في ذلك الصيف الطويل هو ديوان الرومي الذي أثّر فيّ تأثيرًا بالغًا.

وبعد ثلاثة أشهر، وعلى حين بغتة، أخبرني الشيخ صمد بأنّني أذكّره بشخص ما ـ بدرويش جوّال اسمه شمس التبريزي، وقال إنّ بعض الناس ينظرون إلى شمس على أنّه مهرطق صفيق، ولكن إذا ما سألتم الرومي عنه، فإنّه الشمس والقمر(*).

أثار ذلك اهتمامي، وحيّر لبّي، ولكنّ الأمر كلّه خرج عن دائرة الفضول وتجاوزها. فبينما كنت أصغي إلى الشيخ صمد وهو يخبرني بتفاصيل أكثر وأكثر عن شمس، أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، إنّه إحساس غريب بشيء سبق لي أن شعرت به.

والآن، ستظنّين أنّني مجنون، ولكنّني أقسم بالله أنّني سمعت في تلك اللحظة حفيف حرير في الجانب الخلفي من المكان، كان بعيدًا أوّل الأمر، ثم اقترب أكثر، وشاهدت ظلّ شخص ما ولكنّه لم يكن موجودًا. لعلّه نسيم ذلك المساء الذي يتحرّك بين الأغصان، أو لعلّه جناحا ملاك من الملائكة. وفي كلتا الحالتين، أدركت بغتة، أنّني غير مضطرّ إلى الذهاب إلى أيّ

(*) في الحقّ إنّ جلال الدين الرومي كان ينظر إلى شمس التبريزي على أنّه أكثر من الشمس والقمر، بل هو يعدّه المظهر التامّ الكامل لله تعالى. ويأتي هذا في سياق ديوان الرومي المعروف (كلّيّات شمس التبريزي) المشتمل على عدّة آلاف بيت مشحونة بمدح شمس الدين التبريزي، ومنها على سبيل المثال:

إنّ شمس التبريزي الذي هو نور مطلق — إنّما هو شمس ونور من أنوار الحقّ
لمّا جاء حديث وجه شمس الدين — غربت شمس السماء الرابعة
مشرق شمس البروج المعتم الظلام — أمّا نور شمسنا فهي خارجة عن المشارق
(المترجم).

مكان، ليس بعد الآن. كنت مريضًا ومرهقًا لأنّني أتوق دومًا إلى أن أكون في مكان آخر، في مكان بعيد عن هذا المكان، وفي عجالة دائمًا على الرّغم منّي.

كنت في المكان الذي أردت أن أكون فيه. وكلّ ما أحتاج إليه هو أن أبقى وأن أنظر في داخلي. إنّ هذا الجانب الجديد من نفسي أسمّيه لقائي بالحرف «ف» من كلمة «صوفي».

محبّتي

عزيز

* * *

شمس

قونية، شباط ١٢٤٦

توقّعت أن يكون النهار حافلاً بالأحداث وأنا أرى الصباح يمضي بسرعة أكبر ممّا هو مألوف، والسماء مكتئبة، رماديّة اللون. وفي أواخر العصر، وجدت الرومي جالسًا في غرفته على مقربة من النافذة، متغضّن الجبين، مستغرقًا في التفكير، تتحرّك أصابعه على نحو قلق مع كلّ خرزة من مسبحته. كانت الغرفة معتمة بسبب الستائر المخمليّة السميكة التي كانت مسدلة إلى النصف فضلاً على شعاع غريب من ضوء النهار سقط على المكان الذي كان يتّخذ الرومي منه مجلسًا له، مضفيًا على المشهد كلّه مسحة حالمة. ولم أتمكّن من منع نفسي من التفكير إن كان الرومي سيفهم قصدي الحقيقي من وراء السؤال الذي سأطرحه عليه أو سيُصاب بصدمة وانزعاج.

وبينما كنت أقف في مكاني مستوعبًا سكينة اللحظة التي كان ينتابني فيها شيء من التوتّر، شاهدت رؤيا. شاهدت الرومي وقد تقدّم به العمر كثيرًا، وازداد نحولاً، ولبس جبّة خضراء داكنة، وجلس في البقعة نفسها وقد بدا أكثر مودّة وعطفًا وكرمًا من أيّ وقت مضى، ولكن ثمّة ندبة لا تزول محفورة في فؤاده، يماثل شكلها هيئتي. وفهمت شيئين من فوري: أنّ الرومي سيمضي شيخوخته هنا في هذا المنزل وأن الجرح الذي تركه فيه غيابي لن يشفى منه. فترقرقت الدموع في عينيّ.

قال الرومي:

ـ هل أنت على ما يرام؟ تبدو ممتقع الوجه.

أرغمت نفسي على أن أبتسم، ولكن وطأة ما خطّطت للتفوّه به بعد قليل كانت ثقيلة جدًّا على كتفي. وبدا صوتي غريبًا إلى حدّ ما، وأقلّ شدّة ممّا كنت أريد.

ـ لا، ليس على ما يرام. فأنا شديد الظمأ، ولا يوجد في هذا البيت ما يرويني. t.me/read4lead

فسألني الرومي:

ـ أتحبّ أن أطلب من كيرا أن تفعل ما هو مناسب لحالتك؟

ـ لا، لأنّ ما أريده غير موجود في المطبخ، بل في الحانة، إنّني في حالة أرغب فيها أن أشرب حتى الثمالة. هل فهمت؟

تظاهرت بأنّني لم ألحظ وجود ظلّ من ظلال عدم الفهم الذي اكتسبه وجه الرومي. فاسترسلت في كلامي:

ـ بدلاً من الذهاب إلى المطبخ لتناول الماء، هلّا تذهب إلى الحانة من أجل الخمر.

سألني الرومي وهو يلفظ الكلمة الأخيرة بحذر كأنّه خشي أن تنكسر!

ـ أتعني أنّك تريد منّي أن آتيك بالخمرة؟

ـ صحيح. سوف أقدّر لك صنيعك لو أحضرت لنا بعض الخمرة. زجاجتان تكفيان، واحدة لك وواحدة لي. لكن اصنع لي معروفًا من فضلك. فعندما تذهب إلى الحانة، لا تشتري الزجاجتين وتعود أدراجك، بل امكث مدّة من الزمان فيها، وتحدّث إلى الناس. وسأنتظرك هنا. لا ضرورة للعجلة.

رماني الرومي بنظرة تنمّ عن قدر من الانزعاج والحيرة. فتذكّرت وجه المبتدئ في بغداد الذي أراد مرافقتي، ولكنّه كان شديد الاهتمام بسمعته فلم يقبل المغامرة، وكان انشغال باله بآراء الآخرين حائلاً دون مرافقتي. والآن فكّرت في نفسي إن كانت سمعة الرومي ستحول دون ذهابه أيضًا.

ولكنّ الرومي نهض واقفًا على قدميه وأومأ برأسه ممّا جعلني أشعر بارتياح كبير.

ـ لم يسبق لي أن دخلت حانة من قبل، ولم أشرب الخمر قطّ، ولا أظنّ أنّ تناول المشروبات عملاً صائبًا، ولكنّي أثق بك ثقة كاملة لأنّني اثق بالحبّ الذي يجمع بيننا. لا بدّ أنّ سببًا ما دفعك إلى أن تطلب منّي أن أتولّى مثل هذا العمل. وأنا مضطر إلى معرفة السبب. سأذهب وأحضر الخمرة لي ولك.

قال ذلك الرومي وودّعني وخرج.

ما إن خرج الرومي من الغرفة حتى هويت على الأرض في حالة من النشوة العميقة. وأمسكت بالمسبحة الكهرمان التي تركها الرومي وراءه وشكرت الله مرّات ومرّات لأنّه منحني صديقًا حقيقيًّا وصلّيت كي لا تصحو روحه الوسيمة من حالة الثمالة بالحبّ الإلٰهي.

* * *

القسم الرابع

النار

الأشياء التي تتلف وتخرّب وتدمّر

سليمان السكّير

قونية، شباط ١٢٤٦

ضلّلتني الخمرة، وراودتني أوهام كثيرة عندما ثملت، ولكن مشاهدتي الرومي يدخل من باب الحانة كان شيئًا عظيمًا حتى في نظري شخصيًّا. قرصت نفسي ولكنّ الرؤيا لم تنحسر.

صحت بأعلى صوتي:

ـ ما الذي سقيتني إيّاه يا خريستوس؟ لا بدّ أنّ زجاجة الخمرة الأخيرة كانت شرابًا مسكرًا هائلاً. إنّك لن تعرف أبدًا الهلوسات التي راودتني.

همس أحدهم من خلفي:

ـ اسكت أيّها الغبي!

نظرت من حولي لأرى من الذي يحاول أنّ يهدّئني، فصعقت من فوري عندما رأيت كلّ من في الحانة، بينهم خريستوس، يحدّق ببله إلى الباب، وساد صمت غريب على المكان برمّته، جعل كلب الحانة نفسه ذاهلاً عندما استلقى ولصق أذنيه بالباب. وتوقّف تاجر السجّاد الفارسي عن الشدو بتلك الألحان الفظيعة التي كان يسمّيها أغاني، وعوضًا عن ذلك، هزّ قدميه ورفع رأسه إلى أعلى كأنّه سكّير يبالغ بجدّه ورزانته في محاولة لكي يبدو أنّه ليس مخمورًا.

كان خريستوس هو الذي كسر حاجز الصمت، إذ قال بصوت يقطر أدبًا:

ـ أهلاً بك في حانتي يا مولانا. يشرّفني أن أراك تحت سقف هذا المكان. كيف يمكنني أن أساعدك؟

طرفت عيني باستمرار بعد أن أدركت أنّ الرومي كان يقف بلحمه ودمه في الحانة.

فردّ الرومي بابتسامة عريضة ولكنّها فاترة:

ـ شكرًا لك. أحبّ أن اشتري قليلاً من الخمرة.

بلغ انشداه خريستوس المسكين حدًّا جعل فكّه يتدلّى عند سماعه ما قاله الرومي. وعندما تمكّن من الحركة قليلاً، قاد الرومي إلى أوّل طاولة شاغرة، وكانت مصادفة مجاورة لي!

حيّاني الرومي بعد أن اتّخذ مجلسًا مباشرة.

ـ السلام عليكم!

رددت عليه التحيّة وتفوّهت ببعض الكلمات الطيّبة، ولكنّني لست متأكّدًا أنّ الكلمات كانت مناسبة. كان الرومي يبدو جالسًا في مكان لا يناسبه أبدًا، بسحنته الهادئة وجبّته الباهظة الثمن، وقفطانه البنّي الغامق الأنيق.

انحنيت إلى أمام وخفضت من صوتي حتى بات همسًا وقلت:

ـ أتراني قليل الحياء إذا ما سألتك عمّا يفعل رجل مثلك في هذا المكان؟

ردّ الرومي وهو يغمز بعينيه كأنّنا صديقان حميمان:

ـ إنّني أمرّ الآن باختبار صوفي. فقد أرسلني شمس إلى هذا المكان كي يلحق الأذى بسمعتي وتتشوّه.

سألت:

ـ وهل هذا شيء حسن؟

فضحك الرومي.

ـ حسنًا، ذلك يعتمد على أسلوبك في النظر إلى المسألة. في بعض

الأحيان، يكون ضروريًّا تدمير كلّ الأواصر والارتباطات كي تفوز بذاتك. فإذا ما كنّا مرتبطين أشدّ الارتباط بأسرنا وبمراكزنا الاجتماعيّة، وحتى مدرستنا ومسجدنا في الحيّ الذي نسكنه، إلى الحدّ الذي تقف فيه هذه الأشياء في طريق الاتّحاد بالله، فإنّنا نضطر عندئذ إلى إزالة هذه الروابط.

لم أكن متأكّدًا أنّني أتابع كلامه متابعة صحيحة، ولكن هذا التفسير كان له معناه التامّ بالنسبة لعقلي المشوّش. فقد ظللت أرتاب في أنّ الصوفيّين مجموعة مرحة من المجانين قادرة على ارتكاب كلّ ما هو شاذّ.

وحان الآن دور الرومي كي يميل إلى أمام ويسأل بالطريقة الخافتة نفسها:

ـ أتراني قليل الحياء لو سألتك عن كيفيّة حدوث هذه الندبة على وجهك؟

أجبت:

ـ إنّها قصّة لا تثير الاهتمام كثيرًا. فقد كنت عائدًا إلى داري في وقت متأخّر من إحدى الليالي، فصادفت حرّاسًا ليليين، ضربوني ضربًا مبرحًا.

سأل الرومي، وبدا عليه الاهتمام حقًّا:

ـ لكن لماذا؟

قلت مشيرًا إلى الزجاجة التي وضعها خريستوس أمام الرومي:

ـ لأنّني احتسيت الخمرة.

هزّ الرومي رأسه، وبدا أوّل وهلة في حيرة من أمره تمامًا وكأنّه لم يصدّق أنّ مثل هذه الأمور قد تحدث، ولكن سرعان ما افترّ ثغره عن ابتسامة ودّيّة. واسترسلنا في حديثنا على ذلك النحو، وأكلنا الخبز وجبن الماعز وتكلّمنا عن الدين والصداقة وغيرهما من أمور الحياة التي ظننت أنّني نسيتها منذ زمن طويل وابتهجت الآن لأنّها عادت لتنطلق من أعماق فؤادي.

وبعد أن أزفّت ساعة الغروب بقليل نهضت لأغادر الحانة، فوقف روّادها لتوديعي. كان مشهدًا قلّ نظيره.

قلت:

ـ لا يمكنك الرحيل قبل أن تخبرنا عن سبب تحريم الخمرة.

هرع خريستوس إلى جانبي مقطّب الجبين، مشغول البال لأنّ سؤالي قد يزعج الزبون صاحب الحانة الرفيقة:

ـ اسكت يا سليمان. لماذا ترغب في توجيه مثل هذه الأسئلة؟

قلت مصرًّا وأنا أحدّق إلى الرومي:

ـ لا، عن جدّ. لقد شاهدتنا، فنحن لسنا أشرار، ولكن يصفوننا بهذه الصفة على الدوام. قل لي، ما وجه الخطأ في شرب الخمرة شريطة أن نحسن التصرّف وألّا نؤذي الآخرين؟

على الرّغم من النافذة المفتوحة في ركن الحانة، فإنّ الهواء داخلها بات نتنًا عابقًا بالدخان، والتوقّعات. كان في وسعي أن أرى الآخرين وقد لاح عليهم حبّ الاستطلاع لسماع جواب. وتقدّم الرومي إلى جهتي، مستغرقًا في التفكير، رقيقًا وصاحيًا. وقال:

إذا كان شارب الخمرة
رقيقًا في باطنه،
فسوف تظهر رقّته
عندما يشرب.
ولكن إذا كان يخفي غضبًا وغطرسة،
فسوف تظهر هذه أيضًا.
ولَما كانت تظهر عند معظم الناس
فقد حرّمت الخمرة على الناس أجمعين.

ران صمت قصير ونحن نفكّر في تلك الكلمات.

خاطبنا الرومي في صوت متجدّد، آسر، وهادئ، قوي النبرات في الوقت نفسه:

ـ أيّها الأصدقاء، الخمرة ليست مشروبًا بريئًا لأنّها تخرج كلّ السيّئات من باطننا. أعتقد أنّه يستحسن بنا أن نمتنع عن الشراب. وبعد أن قلت هذا الكلام، فإنّنا لا يمكننا أن نوجّه اللوم للمشروبات الكحوليّة بسبب ما نحن مسؤولون عنه. إنّ غطرستنا وغضبنا هما اللذان ينبغي لنا

معالجتهما. وهذا أمر عاجل جدًّا.

ففي نهاية المطاف، من يريد أن يشرب، سيشرب، ومن يريد أن ينأى بنفسه عن الخمرة، فإنّه سيبقى بعيدًا عنها. ليس لنا الحقّ في فرض أساليبنا على الآخرين، ولا إكراه في الدين.

تسبّب كلامه في ظهور إيماءات قويّة من بعض الزبائن. أمّا أنا، ففضّلت أن أرفع كأسي مؤمنًا بأنّ ما من ذرّة حكمة إلّا وينبغي تذوّقها.

قلت:

ـ أنت رجل صالح بقلب كبير. ومهما يقول الناس عمّا فعلته في هذا اليوم، وأنا واثق من أنّهم سيتقوّلون بالشيء الكثير، فإنّني أعتقد أنّك، بصفتك خطيبًا، كنت غاية في الشجاعة عندما جئت إلى الحانة لتتحدّث إلينا من دون إصدار أحكام.

أرسل الرومي إليّ نظرة ودّيّة، ثم أمسك بزجاجتي الخمرة اللتين كان قد تركهما على الطاولة من دون أن يمسّهما ومضى في سبيله نحو نسيم المساء.

* * *

علاء الدين

قونية، شباط ١٢٤٦

بقيت في الأسابيع الثلاثة المنصرمة أنتظر اللحظة المناسبة لأطلب من أبي يد كيميا للزواج بعد أن طال انتظاري. وأنفقت ساعات طويلة أتحدّث إليه في خيالي، معيدًا صياغة الجمل مرّات ومرّات، باحثًا عن أفضل وسيلة للتعبير عمّا يجيش في صدري. وكان لديّ جواب لكل اعتراض محتمل يمكن أن يطرحه. فإذا قال إنّ كيميا وأنا أشبه بالأخوين، فسوف أذكّره أنّنا لا تربطنا صلة دم. ولمّا كنت أعرف مدى هيام أبي بكيميا، فقد وضعت نصب عينيّ أن أقول إنّه لو تركنا وشأننا نتزوّج، فإنّه لن يضطر إلى الذهاب والعيش في أيّ مكان آخر، وأنّه يمكنه البقاء وإيّانا ما دامت هي في قيد الحياة. لقد خطّطت لكلّ شيء تخطيطًا جيّدًا في ذهني باستثناء عدم قدرتي على إيجاد لحظة مؤاتية أختلي فيها بأبي.

ولكنّني صادفته في هذا المساء، وكانت مصادفة بالغة السوء. كنت على وشك مغادرة البيت لرؤية أصدقائي عندما صرّ الباب وانفتح ودخل والدي حاملاً في كلّ يد زجاجة.

وقفت ساكنًا مذهولاً وسألته:

ـ ما هذا الذي تحمله يا أبي؟

ردّ أبي دون أن يلوح في كلامه أيّ أثر للحرج أو الارتباك:

ـ آه، هذا. إنّه خمر يا بنيّ.

هتفت مندهشًا:

ـ أهكذا إذًا؟ أهذا هو المصير الذي آل إليه مولانا العظيم؟ شيخ مسنّ ابتلي بالخمرة؟

وهنا طرق سمعي صوت يكتنفه الوجوم من ورائي:

ـ انتبه لما تقول.

كان الصوت صوت شمس الذي حدّق إليّ وأضاف:

ـ ليس هذا هو الأسلوب المناسب الذي تتحدّث به إلى أبيك، فأنا الذي طلبت منه أن يذهب إلى الخمّارة.

وهنا لم أستطع منع نفسي من الابتسام وسألت:

ـ هذا هو السبب الذي لا يجعلني مندهشًا.

إذًا كان شمس قد أُهين بكلماتي، فإنّه حاول ألّا يظهر بمظهر المُهان. وقال بصوت يخلو من أيّ نبرة:

ـ يمكننا أن نتكلّم في هذا الموضوع يا علاء الدين شريطة ألّا تترك غضبك يفسد رؤيتك.

ثم التفت جانبًا وطلب منّي أن أرقّق قلبي. وقال:

تفيد إحدى القواعد بأنّك (إذا أردت أن تقوّي إيمانك فإنّ عليك أن تكون رقيقًا في باطنك. فإذا كنت تريد أن يكون إيمانك قويًّا كالصخر، تعيّن على قلبك أن يكون رقيقًا مثل ريشة. ففي المرض والحوادث المؤسفة والخسارة والخوف ترانا نواجه كلّنا، على نحو ما، أحداثًا تعلّمنا كيف نكون أقلّ أنانيّة وتعصّبًا في أحكامنا، وأن نكون أكثر رحمة وكرمًا. بعضنا يتلقّى الدرس ويصبح أشدّ قسوة عن ذي قبل. إنّ الأسلوب الوحيد الذي يساعد على الاقتراب من الحقيقة هو أن توسع مدى قلبك كي يضمّ البشريّة جمعاء وتظلّ فيه على الرّغم من ذلك فسحة الحبّ أكبر).

قلت:

ـ ابقَ بعيدًا عن هذا الموضوع، فأنا لا أتلقّى أوامر من دراويش سكارى، أي من أولئك الذين لا يشبهون أبي.

وهنا تدخّل أبي:

ـ عار عليك هذا الكلام يا علاء الدين.

أحسست من فوري بوخزة الذنب المفاجئة ولكن فات الأوان. واسترجعت حالات كثيرة من الامتعاض ظننت يومًا ما أنّني تركتها ورائي، ولكنّها عادت الآن كالطوفان.

قال شمس:

ـ لا شكّ عندي في أنّك تكرهني كراهية شديدة كما تقول، لكنّني لا أظنّ أنّك توقّفت عن الإحساس بالحبّ لأبيك حتى لو دقيقة واحدة. ألا ترى أنّك تؤذيه؟

رددت من فوري:

ـ ألا ترى أنّك تدمّر حياتنا؟

وهنا تقدّم أبي إلى أمام، متجهّم الوجه، رافعًا يده فوق رأسه، وظننت أنّه سيصفعني، ولكنّه لم يصفعني فشعرت بقلق وارتباك عظيمين.

قال أبي من دون أن ينظر إلى وجهي:

ـ أنت عار عليّ.

ترقرق الدمع في عينيّ، وأشحت بوجهي جانبًا لأجد نفسي بغتة وجهًا لوجه أمام كيميا. كم من الوقت يا ترى مضى عليها وهي واقفة في ذلك المكان تراقبنا من الركن بعينين اغرورقتا بالدمع؟ كم من المشاجرات والمشاحنات يا ترى سمعت من قبل؟

تألّمت كثيرًا وأحسست بالخجل من الإهانة التي وجّهها إليّ أبي أمام الفتاة التي كنت أرغب في الزواج بها، وشعرت كأنّ الحجرة تدور بي، مهدّدة إيّاي بالانهيار.

لم أعد قادرًا على البقاء لحظة واحدة أكثر من ذلك، لذلك أمسكت بمعطفي، ودفعت شمس جانبًا، واندفعت خارج البيت، بعيدًا عن كيميا وبعيدًا عن الجميع.

* * *

شمس

قونية، شباط ١٢٤٦

بيني وبينه زجاجتا خمر معبقتان برائحة التربة الحارّة والأعشاب البرّيّة والعلّيق القاتم اللون. وما إن انصرف علاء الدين، حتى بان الحزن الشديد على وجه الرومي ولم يعد قادرًا على الكلام برهة وجيزة، فما كان منّي ومنه إلّا أن خرجنا من الحجرة إلى الفناء المغطّى بالثلوج. كان الوقت مساء من مساءات شهر شباط الكئيبة، الجوّ فيه ثقيل الوطأة بسبب هدوئه الغريب. وقفنا في مكاننا نرقب السحاب يتحرّك، ونصغي إلى عالم لا يمنحنا سوى الصمت. وحملت إلينا الريح نفحة من الغابات البعيدة، نفحة عطرة من المسك. وشعرت لحظة من الزمان أنّنا نريد معًا مغادرة هذه البلدة دون رجعة.

ثم أخذت إحدى زجاجتي الخمر وجثوت بجانب شتلة ورد متسلّق أصبحت عارية إلّا من الشوك وسط الثلوج وبدأت أسكب الخمرة على التربة من تحتها، وهنا أشرق وجه الرومي. وابتسم ابتسامته المعهودة المتأمّلة والمتحمّسة في آن واحد.

وبغتة تفتّحت شجرة الورد العارية في بطء وعلى نحو يبعث على الدهشة، وبات لحاؤها رقيقًا رقّة بشرة الإنسان وظهرت للعيان وردة واحدة. وبينما واصلت سكب الخمرة تحت الشجرة، كشفت الوردة عن ظلّ برتقالي دافئ غاية في الجمال.

ثم أمسكت الزجاجة الثانية وسكبتها على النحو نفسه، فتحوّل لون الوردة البرتقالي إلى قرمزي برّاق، متوهّج بالحياة. لم يعد الآن سوى كأس واحدة من الخمرة في أسفل الزجاجة، فما كان منّي إلّا أن سكبتها في قدح وشربت نصف الكمّيّة، وعرضت على الرومي أن يشرب النصف الباقي.

أمسك الرومي بالكأس بيدين مرتعشتين وردّ على إشارتي برقّة ورباطة جأش، ردّ علي ذلك الرجل الذي لم يلمس الكحول في حياته.

وقال:

ـ التعاليم الدينيّة والمحرّمات مهمّة ولكن لا ينبغي أن تتحوّل إلى قضايا لا تجوز المناقشة فيها. إنّني أحتسي بمثل هذا الوعي الخمرة التي تقدّمها إليّ في هذا اليوم، مؤمنًا من صميم فؤادي أنّ ثمّة صحوًا وراء الثمالة في العشق.

وبينما كان الرومي يحاول أن يقرب الكأس من شفتيه، خطفته من يده ورميت به فوق الأرض، فانسكب الخمر على الثلج مثل قطرات من دم.

قلت وأنا أشعر بأنّ الضرورة انتفت من الاستمرار في هذه المحاولة:

ـ لا تشربها.

سأل الرومي بلهجة تنمّ عن العطف أكثر ممّا تنمّ عن حبّ الفضول:

ـ إن كنت لا تريد منّي أن أشرب هذه الخمرة، فلماذا أرسلتني إلى الخمّارة في المقام الأوّل؟

قلت مبتسمًا:

ـ انت تعرف السبب. فالنماء الروحي يخصّ مجمل وعينا، وليس عن هوسنا بصغائر الأمور. القاعدة الثانية والثلاثون: (ما من شيء ينبغي له أن يقف بينك وبين الله، لا أئمّة ولا كهنة ولا حاخامات ولا أيّ وصيّ آخر يتمتّع بسلطة أخلاقيّة أو دينيّة، ولا أيّ زعيم روحي، ولا حتى مذهبك. عليك أن تؤمن بقيمك وتعاليمك ولكن إيّاك أن تفرضها على الآخرين. وإذا ما واصلت كسر قلوب الآخرين، فلا فائدة من الفروض الدينيّة التي تؤدّيها. ابقَ بعيدًا عن كلّ شكل من أشكال الوثنيّة وعبادة الأصنام، لأنّها ستضفي غشاوة على بصرك. اجعل الله، الله وحده مرشدك ودليلك. اعرف

الحقيقة يا صديقي، ولكن حذار أن تبالغ في تقديرك لحقائقك).

طالما أدهشتني شخصيّة الرومي، وطالما عرفت أنّ رحمته الاستثنائيّة التي لا يحدّها حدّ، هي التي كنت أفتقر إليها في حياتي. ولكن إعجابي به اليوم ازداد زيادة هائلة.

إنّ هذا العالم يحتشد بأناس مهووسين بالثروة والامتياز أو السلطة. وكلّما ازدادت علامات نجاحهم، ازدادت على ما يظهر حاجتهم إلى الإكثار منها، وهم في خضمّ جشعهم ونهمهم، جعلوا من كلّ الممتلكات الدنيويّة «قبلة لهم»، ينظرون دومًا إلى اتّجاهها، غير مدركين أنّهم باتوا عبيدًا للأشياء التي كانوا يتعطّشون إليها. ذلكم نموذج شائع، وهو نموذج نراه في كلّ زمان ومكان، لكن من النادر، ندرة الياقوت، على الإنسان الذي شقّ طريقه إلى أعلى، الإنسان الذي امتلك ثروة طائلة من الذهب ومن الشهرة ومن السلطة، أن يتخلّى عمّا يمتلكه على حين بغتة يومًا ما، ويعرّض سمعته للخطر من أجل رحلة باطنيّة، رحلة ليس في وسع الفرد أن يحكي كيف ستنتهي وأين. كان الرومي تلك الياقوتة النادرة.

قلت:

ـ يريد الله منّا أن نكون متواضعين بلا ادّعاء.

وأضاف الرومي برقّة ولطف:

ـ ويريد الله أن يكون معلومًا. يريد منّا أن نعرفه بكلّ نسيج من أنسجة كينونتنا. هذا هو السبب الذي يستحسن فيه أن نكون حذرين وصاحين وليس سكارى دائخين.

وافقته على كلامه. وبقينا حتى هبوط الليل وبرودة الجوّ جالسين في الفناء تفصل بيننا وردة حمراء وحيدة. ولكن من تحت برودة المساء، ثمّة عبق منعش وعذب: خمرة الحبّ التي أدارت رأسينا بلطف وأدركت بحبور وامتنان أنّ الريح لم تعد تهمس باليأس.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٢٤ حزيران ٢٠٠٨

قال ديڤيد:

ـ ثمّة مطعم تايلندي جديد في البلدة. يُقال إنّه مطعم جديد، فلماذا لا نرتاده في هذه الليلة؟ أنا وأنت لا غير.

كان آخر شيء ترغب أن تفعله إيلّا في هذا اليوم الثلاثاء هو الخروج لتناول طعام العشاء رفقة زوجها. غير أنّ زوجها ألحّ عليها إلحاحًا شديدًا فلم تتمكّن من رفض اقتراحه.

كان مطعم القمر الفضّي (سيلفر مون) مطعمًا صغيرًا يحتوي على مصابيح كهربائيّة أنيقة ومقصورات من الجلد وأغطية مناضد سوداء اللون وعلى عدد كبير من المرايا المتدلّية إلى أسفل ومثبّتة فوق كلّ جدار من جدران المطعم ما كان يدفع الزبائن إلى الاعتقاد بأنّهم يتناولون الطعام مع انعكاساتهم على تلك المرايا. ولم يمض وقت طويل حتى شعرت إيلّا أنّ المكان لا يناسبها. في الحقّ، ليس المكان هو الذي تشعر بذلك بل زوجها. فقد لمحت في عيني ديڤيد وميضًا لم تألفه، شيئًا ما غير طبيعي. كان يبدو منشغل البال، قلقًا. وكان تلعثمه في الكلام بضع مرّات هو أكثر الأمور التي دفعتها إلى الارتباك والاضطراب، إذ كانت إيلّا تعرف جيّدًا أنّ ظهور إعاقته في الكلام، التي ترجع إلى أيّام طفولته يعني أنّه في حالة قلق وانزعاج.

تقدّمت منهما نادلة شابّة ترتدي ثياب الخدمة التقليديّة لتدوّن طلباتهما من الطعام. فطلب ديفيد طبقًا من إسكالوب بالريحان والفلفل الحارّ، فيما قرّرت إيلّا أن تطلب طبقًا من الخضروات وخثارة الفاصوليا بصلصة جوز الهند، ملتزمة بذلك قرارها الذي اتّخذته في عيد ميلادها الأربعين بالامتناع عن أكل اللحوم. كما طلب الاثنان أيضًا شراب النبيذ.

تكلّما بضع دقائق عن أناقة المطعم وتناقشا في أثر أغطية الموائد السوداء بإزاء الأغطية البيض. ثم استقرّ الصمت بينهما. عشرون سنة من الزواج، عشرون سنة من النوم في السرير نفسه، والمشاركة في الحمّام نفسه وتناول الطعام نفسه وتربية الأطفال الثلاثة... كلّها انتهت هنا بالصمت. أو هكذا ظنّت إيلّا.

قال ديفيد ملاحظًا:

ـ أرى أنّك تقرأين عن الرومي.

أومأت إيلّا برأسها، وإن كانت مندهشة قليلاً. ولم تعرف ما الذي أثار دهشتها على نحو أكبر: هل هو سماعها بأنّ ديفيد يعرف عن الرومي أو أنّه مهتمّ بما كانت تقرأ.

قالت إيلّا موضحة:

ـ بدأت بقراءة شعره لأتمكّن من كتابة تقرير عن مخطوطة رواية تجديف عذب. ولكنّني وجدت نفسي بعد ذلك مهتمّة به، وها أنا الآن أقرأ شعره قراءة شخصيّة.

تشتّت انتباه ديفيد عندما لاحظ بقعة نبيذ على غطاء المائدة، ثم تنهّد وبان على وجهه ما يُشير إلى أنّ كلامه سيكون أشبه بخطبة وداع:

ـ إنّني أعرف ما الذي يجري يا إيلّا، أعرف كلّ شيء.

سألت إيلّا على الرّغم من أنّها كانت غير متأكّدة إن كانت تريد أن تسمع جوابًا منه أم لا:

ـ ما الذي تتكلّم عنه؟

تلعثم ديفيد:

ـ عن... علاقتك، فأنا أعلم بها.

رمقت إيلّا زوجها بنظرة تنمّ عن الذهول والحيرة. وشاهدت وجه ديڤيد وقد ظهرت عليه علامات اليأس المطبق تحت نور الشمعة التي أشعلتها لهما النادلة قبل قليل. ونطقت دون تبصّر على نحو أسرع وبصوت أعلى ممّا كانت ترغب فيه:

ـ علاقتي؟

ثم تنبّهت إلى أنّ الشخصين الجالسين إلى المائدة المجاورة التفتا في اتّجاههما. فما كان منها إلّا أن خفضت من صوتها بعد أن شعرت بالحرج والارتباك وهمست مكرّرة:

ـ أيّ علاقة؟

قال ديڤيد:

ـ لست غبيًّا. لقد بحثت في رسائلك الإلكترونيّة وقرأت مراسلاتك مع ذلك الرجل.

هتفت إيلّا متعجّبة:

تجاهل ديڤيد سؤالها وتقلّص وجهه تحت وطأة ما سيعلنه وقال:

ـ إنّني لا ألومك يا إيلّا. فأنا أستحقّ ذلك. لقد أهملت شأنك، فبحثت عن العاطفة في مكان آخر.

خفضت إيلّا من بصرها ونظرت إلى كأسها، كان للنبيذ لون ساحر، أخّاذ ـ مثل ياقوتة غامقة اللون. وفكّرت في لحظة من الزمان أنّها لمحت ذرّات من قوس قزح تومض على سطحه كأنّها أثر من أضواء ترشدها إلى الطريق. لعلّها حقًّا أثر. فكلّ شيء يبدو لها سورياليًّا.

توقّف ديڤيد عن الكلام، مفكّرًا في أفضل السبل للكشف عمّا يفكّر فيه. وأخيرًا قال ملاحظًا:

ـ إنّني على استعداد لأن أغفر لك وأنسى كلّ شيء.

كثيرة هي الأشياء التي أرادت إيلّا البوح بها في تلك اللحظة العنيفة الساخرة، الدراميّة والمشحونة بالتوتّر. إلّا أنّها آثرت الحلّ الأسهل. فسألته متألّقة العينين:

ـ وماذا عن علاقاتك أنت! هل ستنساها أيضًا؟

في هذه اللحظة جاءت النادلة حاملة الطعام، فاتّكأ كلّ من ديفيد وإيلا إلى الوراء في مقعديهما وراقباها وهي تضع الأطباق فوق المنضدة وتملأ القدحين من جديد بأدب مبالغ فيه. وعندما انصرفت رفع ديفيد بصره إلى إيلّا وسألها:

ـ أهذا هو السبب إذًا؟ أهو انتقام؟

قالت إيلّا هازّة رأسها وقد خاب ظنّها:

ـ لا، ليست القضيّة قضيّة انتقام. ولم تكن انتقامًا قطّ.

ـ ما هي إذًا؟

عقدت إيلّا يديها وراودها الإحساس بأنّ كلّ شيء وكلّ فرد في المطعم ـ الزبائن والنُدل والطهاة وحتى الأسماك المداريّة في حوض الأسماك ـ قد توقّفت لتصيخ السمع لما ستفصح عنه.

أخيرًا قالت:

ـ إنّها قضيّة حبّ. إنّني أحبّ عزيزًا.

توقّعت إيلّا أن ينفجر زوجها ضاحكًا. ولكن واتتها الشجاعة أخيرًا لتسدّد له نظرة مفترسة، لم تجد سوى الهلع وقد ارتسم على وجهه، ليحلّ محلّه بأسرع ما يكون ما يشير إلى أنّه إنسان كان يحاول أن يجد حلًّا لمشكلة بأقلّ ما يمكن من الضرر. وعلى حين بغتة مرّت بها لحظة شعرت فيها أنّها لحظة معرفة أو عرفان. «الحبّ» كلمة خطيرة، غير مألوفة، ومحمّلة بالمعاني، خاصّة عندها هي، المرأة التي تفوّهت بأشياء كثيرة سلبيّة عن الحبّ في الماضي.

قال ديفيد بصوت متثاقل:

ـ لدينا ثلاثة أولاد.

قالت إيلّا وقد تهدّل كتفاها:

ـ نعم، وأنا أحبّهم حبًّا جمًّا، ولكّنني أحبّ عزيزًا أيضًا...

قاطعها ديفيد:

ـ كفّي عن استعمال هذه الكلمة.

ثم كرع من كأسه قبل أن يسترسل قائلاً:

ـ لقد ارتكبت أخطاء كبيرة ولكنّني لم أتوقّف عن حبّك يا إيلّا، كما أنّني لم أحبّ امرأة غيرك. في إمكاننا أن نتعلّم من أخطائنا. من جهتي، أستطيع أن أعاهدك بألّا يحدث هذا الشيء مرّة أخرى، وأنت لست مضطرّة إلى الخروج والبحث عن الحبّ بعد الآن.

غمغمت إيلّا مخاطبة نفسها أكثر ممّا كانت تخاطب ديفيد:

ـ أنا لم أخرج للبحث عن الحبّ. فالرومي يقول إنّنا غير مضطرّين لمطاردة الحبّ خارج نفوسنا. كلّ ما ينبغي لنا عمله هو إزالة الحواجز الداخليّة التي تبعدنا عن الحبّ.

صاح ديفيد:

ـ آه يا إلهي، ماذا جرى لك؟ فأنت لست أنت! كفّي عن هذه الرومانسيّة، وعودي إلى نفسك الأولى.

ثم أضاف:

ـ أرجوك!

قطّبت إيلّا جبينها وراحت تنعم النظر في أظافرها كأنّ فيها ما يثير قلقها وانزعاجها. في الحقّ تذكّرت لحظة أخرى من لحظات الزمان عندما قالت هي نفسها الكلمات ذاتها مخاطبة بها ابنتها.

وشعرت كأنّ دائرة ما قد اكتملت. هزّت رأسها في بطء ووضعت منديلها جانبًا، وقالت:

ـ هل يمكننا الذهاب الآن من فضلك. إنّني لست جائعة.

في تلك الليلة نام الاثنان في سريرين منفصلين. وفي وقت مبكّر من صباح اليوم التالي، كان أوّل شيء فعلته إيلّا هو أنّها كتبت رسالة إلى عزيز.

* * *

المتعصّب

قونية، شباط ١٢٤٦

هتف بي عبد الله وهو والد أحد تلاميذي عندما اقترب منّي في الشارع:

ـ سدّ الثغرات سدًّا محكمًا! شيخ ياسين! شيخ ياسين! هل طرقت سمعك الفضيحة؟ لقد شوهد بالأمس الرومي في إحدى الخمّارات في الحيّ اليهودي!

قلت:

ـ نعم سمعت بذلك، لكنّني لست مندهشًا، فللرجل زوجة نصرانيّة، وأفضل أصدقائه مهرطق. فماذا تتوقّع؟

أومأ عبد الله برأسه إيماءة جادّة ورصينة.

ـ أعتقد أنّك على حقّ. كان ينبغي لنا أن نتوقّع حدوث الأمر.

تجمهر عدد من المارّة من حولنا، يسترقون السمع لحديثنا. واقترح أحد المارّة عدم السماح للرومي بإلقاء الخطب بعد اليوم في المسجد الكبير، إلّا بعد أن يقدّم اعتذارًا علنًا. فوافقت. ولَما كنت قد تأخّرت عن الصفّ في المدرسة، فقد تركتهم يتحدّثون ومضيت مسرعًا.

طالما ساورتني الشكوك في أنّ للرومي جانبًا مظلمًا على أهبّة الاستعداد لأن يطفو على السطح في يوم ما. بيد أنّني لم أتوقّع منه أن

يشرب الخمرة. يا له من أمر مقرف تمامًا. يقول الناس إنّ شمسًا هو السبب الرئيسي لسقوط الرومي، ولو لم يأت إلى هذا الجوار، لكان الرومي عاد إلى وضعه الطبيعي، غير أنّ لي وجهة نظر مغايرة وهي أنّني لست أشكّ في أنّ شمسًا رجل شرّير ـ لأنّه شرّير حقًّا ـ أو أنّه لا يؤثّر تأثيرًا سيّئًا في الرومي ـ لأنّه يؤثّر فيه تمامًا ـ لكنّ القضيّة هي ما يأتي: لماذا لا يستطيع شمس أن يضلّل العلماء الآخرين، مثلي؟ ففي نهاية المطاف، هذان الاثنان من نمط واحد في أمور مختلفة لا يدركها الآخرون.

ثمّة أُناس طرق سمعهم شمس وهو يقول: «العالم يحيا على ما يكتبه والصوفي يحبّ آثار الأقدام ويعيش عليها!» والآن، ما معنى هذا الكلام؟ يبدو جليًّا أنّ شمسًا يعتقد أنّ العالم تنحصر مهمّته في الكلام، وأنّ الصوفي تنحصر مهمّته في السير. لكنّ الرومي عالم بذاته، صحيح؟ أم تراه لا ينظر إلى نفسه على أنّه واحد منّا؟

وإذا ما دخل شمس حجرة الدرس خاصّتي، فسوف أخرجه منها وأطرده كالذبابة، ولن أمنحه فرصة للتفوّه بالتفاهات في حضرتي. لِمَ لا يفعل الرومي الشيء نفسه؟ لا بدّ أنّ ثمّة خطأ فيه. بادئ ذي بدء، للرجل زوجة نصرانيّة، ولا يهمّني إن كانت اعتنقت الإسلام أم لا. فالنصرانيّة في دمها، وفي دم طفلها. ولسوء الحظّ، أنّ سكّان البلدة لا يأخذون تهديد النصرانيّة على محمل الجدّ، ويزعمون أنّ في إمكاننا أن نعيش جنبًا لجنب، لكنّني أقول لأولئك السذّج الذين يصدّقون مثل هذا الكلام: «هل يمكن للماء والزيت أن يمتزجا يومًا ما؟ بهذا القدر من الامتزاج يمكن للمسلمين والنصارى أن يمتزجوا!».

إن الرومي باتّخاذه زوجة نصرانيّة وبما عرف عنه من ليونة إزاء الأقلّيّات أجده شخصيًا رجلاً لا سبيل إلى الاعتماد عليه، ولكن عندما بدأ شمس التبريزي يسكن تحت سقف بيته، أجده قد انحرف انحرافًا شديدًا عن جادّة الصواب. إنّني أكرّر على مسامع تلاميذي يوميًّا أنّ على المرء أن يتنبّه من الشيطان وما الرومي إلّا تجسيد للشيطان. وإنّني على ثقة أنّ ذهاب الرومي إلى الخمّارة من بنات أفكاره. الله وحده يعلم كيف تمكّن من

إقناعه. ولكن أليس الشيطان بارعًا في تضليل المؤمنين وجرّهم إلى تدنيس المحرّمات وخرق الشرائع الدينيّة؟

لقد فهمت الجانب الشرّير في شمس منذ البداية. كيف يتجرّأ على مقارنة النبيّ ﷺ الصوفي بالبسطامي المستخفّ بأصول الدين؟ أليس البسطامي هو القائل: «انظروا إليّ! ما أعظم شأني!» أوليس هو القائل أيضًا: «شاهدت الكعبة تطوف من حولي؟» وذهب الأمر بهذا الرجل حدّ القول: «أنا صائغ نفسي». فإذا لم يكن هذا الكلام كفرًا، فما هو إذًا؟ هذا هو مستوى الرجل الذي استشهد به شمس. فهو مهرطق، شأنه شأن البسطامي.

الخبر السعيد الوحيد هو أنّ سكّان البلدة أدركوا الحقيقة. أخيرًا! إنّ نقّاد شمس يزدادون بمرور الأيّام، ويزداد ما يقولونه! يساورني الرعب والهلع في بعض الأحيان. فالناس يمزّقونه إربًا إربًا في الحمّامات والمقاهي وحقول القمح والبساتين.

* * *

وصلت المدرسة متأخّرًا أكثر من المعتاد، وكان رأسي مثقلاً بهذه الأفكار. وما إن فتحت باب صفّي حتى أحسست بشيء مريب، فقد كان تلاميذي يجلسون في هدوء، شاحبين وصامتين صمتًا غريبًا كأنّهم شاهدوا شبحًا.

ثم أدركت السبب. فقد كان شمس التبريزي جالسًا قرب النافذة المفتوحة، مسندًا ظهره إلى الجدار، ووجهه الحليق يشرق بابتسامة تدلّ على غطرسة.

قال محدّقًا إليّ من الجانب الآخر من الحجرة:

ـ سلام عليكم يا شيخ ياسين.

تردّدت في أوّل الأمر، لا أدري أأحيّيه أم لا؟ فقرّرت ألّا أحييه والتفتّ إلى تلاميذي وسألتهم:

ـ ما الذي يفعله هذا الرجل في هذا المكان؟ لماذا سمحتم له بالدخول؟

لم يتجرّأ أيّ من التلاميذ على الردّ بعد أن استبدّ بهم الذهول والقلق. فما كان من شمس إلّا أن مزّق الصمت بنفسه.

كانت لهجته وقحة، تحديقته ثابتة.

ـ لا تؤنّبهم يا شيخ ياسين، فالفكرة فكرتي. فكما ترى، كنت في الجوار، فقلت لنفسي: لِمَ لا أتوقّف في المدرسة وأزور أشدّ الأشخاص كراهية لي في هذه البلدة؟

* * *

التلميذ حسام

قونية، شباط ١٢٤٦

جلسنا جميعًا صفًّا طويلاً، وضّائي العيون، فوق أرضيّة حجرة الدرس عندما فتح الباب ودلف شمس التبريزي. وهنا صعق الحاضرون. ولَما كنت قد سمعت بدوري الكثير من الحكايات السيّئة السمعة والبشعة عنه، وأغلبها من معلّمنا، فإنّني لم أستطع الحيلولة دون الانكماش خوفًا ورهبة عندما شاهدته في صفّنا بدمه ولحمه. ولكنّه كان، على الرّغم من كلّ ذلك، يبدو مسترخيًا وودودًا. وبعد أن حيّانا كلّنا، أخبرنا بأنّه جاء ليكلّم الشيخ ياسين.

قلت مؤملاً تفادي مواجهة لا تحمد عقباها:

ـ إنّ معلّمنا لا يروقه حضور الغرباء في حجرة الدرس. ربّما ينبغي لك أن تكلّمه في وقت آخر.

ردّ شمس كأنّه قرأ أفكاري:

ـ شكرًا لاهتمامك أيّها الشابّ، ولكنّ المواجهات التي لا تحمد عقباها ليست حتميّة فحسب، بل مطلوبة وضروريّة. لكن لا عليك، فلن يستغرق ذلك وقتًا طويلاً.

غمغم أرشد الجالس إلى جانبي وهو يصرّ أسنانه:

ـ أنظر إلى وقاحته وصفاقته! إنّه شيطان مجسّد.

أومأت برأسي وإن كنت غير متأكّد أنّ شمس التبريزي يبدو كالشيطان في رأيي. ولم أستطع منع نفسي من الإعجاب بصراحته وسفاهته.

وبعد مرور بضع دقائق، دخل الشيخ ياسين عاقدًا حاجبيه، مستغرقًا في التفكير. ولم يتقدّم سوى خطوات قليلة داخل الحجرة حتى توقّف ورفّت عيناه مشتّت الذهن في متّجه الزائر الذي جاء من غير دعوة.

ـ ما الذي يفعله هذا الرجل هنا؟

تبادلت أنا وأصدقائي نظرات سريعة تنمّ عن الصدمة، وهمسات توحي بالهلع، ولكن قبل أن يتمكّن أيّ واحد منّا من لمّ أطراف شجاعته ليقول شيئًا ما، نطق شمس التبريزي من غير تبصّر قائلاً إنّه كان يمرّ في الحيّ فقرّر أن يزور أكثر إنسان يكنّ له كراهية في قونية!

تناهى إليّ أصوات عدد من التلاميذ وهم يسعلون سعالاً يوحي بالتوتّر ورأيت أرشدًا يأخذ نفسًا عميقًا. كان التوتّر بين الرجلين من الشدّة ممّا جعل قطع هواء حجرة الدرس بسكين أمرًا سهلاً.

وبّخه الشيخ ياسين قائلاً:

ـ لا أدري ما الذي تفعله هنا ولكنْ لديّ أمور أريد أن أنجزها أفضل من الكلام وإيّاك. والآن، لِمَ لا تخرج من هنا كي نتمكّن من مواصلة دراستنا؟

لاحظ شمس:

ـ تقول إنّك لا تريد أن تكلّمني، ولكنّك كنت تتكلّم عنّي. وكثيرًا ما تحدّثت بسوء عنّي وعن الرومي وعن كلّ الصوفيّين السالكين درب الصوفيّة.

نخر شيخ ياسين من خلال أنفه العظمي الكبير وضيّق من فمه وكأنّ في فمه مادّة مرّة. وقال:

ـ كما قلت. ليس لديّ ما أقوله لك، فأنا أعرف ما ينبغي لي أن أعرفه. ولديّ آرائي الخاصّة بي.

في هذه اللحظة التفت إلينا شمس ورمانا بنظرة سريعة هازئة، وقال:

ـ رجل ذو آراء كثيرة بلا أسئلة! ثمّة خلل في هذا الجانب.

بدا الشيخ ياسين مسرورًا، مفعمًا بالحيويّة، وقال:

ـ حقًّا؟ إذًا لِمَ لا نسأل التلاميذ بأيّ واحد منّا يريدون أن يتشبّهوا: الرجل الحكيم الذي يعرف الأجوبة أم الرجل الحائر الذي لا يملك سوى الأسئلة؟

وقف جميع أصدقائي إلى جانب الشيخ ياسين ولكنّني شعرت أنّ كثيرين منهم وقفوا ذلك الموقف لا بسبب أخلاقهم وولائهم بل للحصول على نعمة الشيخ. لهذا آثرت البقاء صامتًا.

قال شمس هازًّا كتفيه وهو يلتفت إلى معلّمنا:

ـ من يظنّ أنّه يملك كلّ الأجوبة هو الأكثر جهلاً. لكن ما دمتَ ممتازًا في الأجوبة، فهل تسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً؟

وهنا بدأ القلق يساورني بخصوص المسار الذي بدأت تسلكه هذه المناقشة، ولكن لم يكن في وسعي عمل أيّ شيء للحيلولة دون تصعيد التوتّر.

قال شمس متسائلاً:

ـ ما دمتَ زعمت أنّني خادم الشيطان، فهل في وسعك أن تتكرّم علينا وتخبرنا ما مفهومك عن الشيطان؟

قال الشيخ ياسين دون أن تفوته فرصة إملاء خطبة:

ـ مؤكّدًا ولا أدنى شكّ. إنّ ديننا الذي هو آخر الأديان وأفضل جميع الأديان الإبراهيميّة، يخبرنا أنّ الشيطان هو الذي كان سبب طرد آدم وحوّاء من الجنّة. وبما أنّنا أبناء أبوين آثمين، فلا لا بدّ أن نكون حذرين لأنّ الشيطان يأتي بأشكال متعدّدة. ففي بعض الأحيان يأتي في صورة مراهن يدعونا إلى الرهان. وفي أحيان أخرى، يأتي في صورة شابّة حسناء تحاول إغواءنا. إنّ الشيطان يمكنه أن يأتي بأقلّ الأشكال المتوقّعة مثل دوريش جوّال.

ابتسم شمس ابتسامة ذات مغزى كأنّما كان يتوقّع هذه الملاحظة، وقال:

ـ أفهم كلامك. لا بدّ أنّ الاعتقاد بوجود الشيطان خارجًا عنّا مدعاة لارتياح كبير، وهو مخرج سهل.

سأل الشيخ ياسين:

ـ ماذا تعني؟

ـ حسنًا. لو كان الشيطان شرّيرًا، لا يعرف معنى الخضوع أو الاستسلام كما تقول، فعندئذ لا ينبغي لنا نحن أبناء الجنس البشري أن نوجّه اللوم لأنفسنا بسبب أفعالنا السيّئة. إنّنا نعزو كلّ خير إلى الله ونعزو كلّ الأشياء السيّئة في الحياة إلى الشيطان. وفي كلتا الحالتين سنكون خارج نطاق النقد والتمحّص الذاتي. ما أسهل ذلك!

واصل شمس كلامه وهو يذرع الحجرة جيئة وذهابًا، وارتفع صوته عند كلّ كلمة:

ـ ولكن دعنا نتخيّل لحظة واحدة أنّ الشيطان غير موجود، وما من شياطين تنتظر كي تحرقنا في قدور لاهبة. إنّ كلّ هذه الصور التي تجمّد الدم في العروق هدفها أن تكشف لنا عن شيء ما. ولكنّها تغدو مبتذلة وتفقد رسالتها الأوّليّة.

سأل الشيخ ياسين في وهن عاقدًا ذراعيه فوق صدره:

ـ وما هي تلك الرسالة؟

قال شمس مجيبًا:

ـ آه، إذًا لديك أسئلة أخيرًا. الرسالة هي أنّ العذاب الذي يمكن للفرد أن يلحقه بنفسه لا نهاية له. فالجحيم في باطننا وكذلك السماء. القرآن يقول إنّ البشر أكرم الخلق، ونحن أعلى من الأعلى، ولكنّنا أيضًا أوطأ من الأوطأ. ولو استطعنا أن نفهم مغزى هذا كلّه، فسوف نتوقّف عن البحث عن الشيطان خارجنا ونركّز بدلاً من ذلك في نفوسنا. إنّنا في حاجة إلى الاستبطان، إلى فحص أفكارنا ودواخلنا، وليس إلى مراقبة أخطاء الآخرين.

أجاب الشيخ ياسين:

ـ اذهب واستبطن أفكارك، وإن شاء الله ستخلّص نفسك في يوم ما

ولكن على العالم أن يراقب رعيّته.

فقال شمس بلباقة أحسسنا وإيّاها أنّنا غير واثقين إن كان مخلصًا في كلامه أم ساخرًا:

ـ إذًا دعني أحكي لك حكاية:

وها هي القصّة التي رواها لنا:

(كان ثمّة أربعة تجّار يصلّون في أحد المساجد عندما شاهدوا المؤذّن يدخل. فتوقّف التاجر الأوّل عن صلاته وسأل:

ـ أيّها المؤذّن! هل نودي على الصلاة أم لا يزال أمامنا وقت؟

توقّف التاجر الثاني عن الصلاة وهتف إلى صاحبه:

ـ أنت تتكلّم وأنت في الصلاة، صلاتك باطلة، وعليك أن تبدأها من جديد!

عندما سمع التاجر الثالث ذلك تدخّل قائلاً:

لماذا توجّه له اللوم أيّها الأحمق؟ كان عليك أن تهتمّ بصلاتك. والآن، صلاتك أيضًا باطلة.

وهنا تدخّل التاجر الرابع وقال بصوت عال وهو يبتسم:

ـ انظروا إلى هؤلاء! لقد أفسدوا كلّ شيء. الحمد لله أنّني لست واحدًا من الضالّين.

وبعد أن روى شمس الحكاية وقف أمام الصفّ وسأل:

ـ ما رأيك الآن؟ أيّ صلاة من صلوات هؤلاء التجّار غير صحيحة في رأيك؟

عمّت الإثارة حجرة الدرس برهة وجيزة عندما بدأنا نناقش الجواب بيننا. وأخيرًا نطق أحدهم وكان جالسًا في المؤخّرة:

ـ إنّ صلوات التاجر الثاني والثالث والرابع باطلة، في حين أنّ صلاة التاجر الأوّل صحيحة لأنّ كلّ ما أراد هو أن يعرف من المؤذّن عن موعد الصلاة.

قاطعه أرشد:

ـ نعم، ولكن لم يكن يتعيّن عليه ترك صلاته على ذلك النحو.

الواضح أنّ كلّ التجّار كانوا مخطئين باستثناء التاجر الرابع الذي كان يحدّث نفسه لا أكثر.

حوّلت من بصري ولم أؤيّد أيًّا من الجوابين. ولكنّني كنت مصمّمًا على البقاء صامتًا. ساورني الإحساس أنّ آرائي قد لا تلقى الترحيب.

ولكن ما إن انشغل ذهني بهذا الخاطر حتى أشار إليّ شمس التبريزي وسألني:

ـ وأنت أيّها الجالس في ذلك المكان، ما رأيك؟

ازدردت ريقي بصعوبة قبل أن أتمكّن من الكلام وأقول:

ـ إن كان هؤلاء التجّار قد ارتكبوا غلطة، فإنّ السبب لا يرجع إلى أنّهم تكلّموا أثناء الصلاة بل لأنّهم بدلاً من أن يهتمّوا بشؤونهم وبصلتهم بالله، فإنّهم كانوا أكثر اهتمامًا بما كان يدور من حولهم. على أيّة حال، إذا أردنا أن نصدر حكمًا عليهم، فإنّني أعتقد أننا سنقع في الخطأ الفادح نفسه.

سألني الشيخ ياسين وقد ازداد اهتمامًا بالنقاش على حين بغتة:

ـ إذًا ما جوابك؟

ـ جوابي هو أنّ التجّار الأربعة أخطأوا جميعًا للسبب نفسه، ومع هذا، لا يمكن القول إنّ أيّ واحد منهم كان مخطئًا لأنّنا لسنا نحن الذين نحكم عليهم في نهاية المطاف.

تقدّم شمس التبريزي خطوة واحدة منّي ورمقني بنظرة حنان وعطف أشعرتني أنّني مثل صبي صغير السنّ يستسيغ حبّ الأبوين غير المشروط. وسألني عن اسمي، ولمّا أخبرته به، قال ملاحظًا:

ـ لصديقك حسام هنا قلب الصوفي.

احمرّ وجهي عندما سمعت هذا الكلام. ممّا لا شكّ فيه أنّ الشيخ ياسين سيوبّخني بعد انتهاء الدرس، وسيسخر منّي أصدقائي ويجعلونني أضحوكة. لكن مخاوفي تبدّدت كلّها على وجه السرعة، فجلست معتدلاً وابتسمت لشمس، فما كان منه إلّا أن غمز لي بعينه وهو ما يزال يبتسم واسترسل في شرحه.

ـ يقول الصوفي: (ينبغي لي أن أهتمّ بمواجهتي الداخليّة مع الله بدلاً من الحكم على الآخرين) إنّ العالم المتزمّت يبحث دومًا عن أخطاء الآخرين. ولكن لا تنسوا أيّها التلاميذ أنّ من يشتكي من الآخرين على الدوام إنّما هو المخطئ.

تدخّل الشيخ ياسين قائلاً:

ـ توقّف عن تشويش أفكار تلاميذي. فنحن العلماء لا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدي إزاء ما يفعله الآخرون. الناس تسألنا أسئلة كثيرة وتتوقّع منّا إجابة مناسبة كي يتمكّنوا من العيش عيشة دينيّة تامّة وصحيحة. إنّهم يسألوننا إن كان يتعيّن عليهم الوضوء من جديد إذا ما نزفت أنوفهم دمًا، أو إن كان الصوم صحيحًا أثناء السفر، إلخ. إنّ التعاليم الشافعيّة والحنفيّة والحنبليّة والمالكيّة تختلف بعضها عن بعض عند طرح مثل هذه المسائل. ولكلّ مدرسة فقهيّة مجموعة من الإجابات الدقيقة التي ينبغي دراستها وتعلّمها.

تنهّد شمس، وقال:

ـ حسن، ولكن لا تتمسّكوا تمسّكًا شديدًا بالفروق الاسميّة. فالعقل الإلٰهي كامل، فلا تبحثوا عن التفاصيل على حساب الكلّ.

صاح الشيخ ياسين غير مصدّق:

ـ تفاصيل؟ إنّ المؤمنين يأخذون القوانين على محمل الجدّ. ونحن العلماء نرشدهم في سعيهم.

قال شمس:

ـ واصل الإرشاد، ما دمت لن تنسى أنّ إرشادك محدود وأنّ ما من كلمة تعلو كلمة الله.

ثم أضاف:

ـ ولكن حاول ألّا تلقي الخطب على أولئك الذين حصلوا على الاستنارة لأنّهم يستمدّون متعة مغايرة في آيات القرآن ولهذا ليسوا بحاجة إلى إرشاد شيخ من الشيوخ.

عندما سمع الشيخ ياسين هذا الكلام، استشاط غضبًا واكتسبت

وجنتاه الذابلتان موجات قرمزيّة اللون واندفعت حنجرته إلى أمام، وقال:

ـ إنّ الإرشاد الذي نقدّمه ليس موقّتًا. فالشريعة تصنع القوانين والأنظمة التي ينبغي لكلّ مسلم أن يرجع إليها من المهد إلى اللحد.

ـ ما الشريعة إلّا قاربًا يبحر في محيط الحقيقة. إنّ الباحث الحقيقي عن الله سيتخلّى عاجلاً أم آجلاً عن المركب ويغوص في البحر.

قال الشيخ ياسين ضاحكًا:

ـ كي يتسنّى لأسماك القرش أن تلتهمه. هذا ما سيحدث للفرد الذي يرفض الإرشاد.

انضمّ عدد من التلاميذ إلى ضحكة الشيخ، أمّا البقيّة الباقية منّا فظلّت جالسة والتزمت السكون والصمت. كنّا نشعر بازدياد قلقنا وعدم ارتياحنا. كان الدرس يشارف نهايته، ولم أتمكّن من معرفة الطريقة التي سينتهي بها الدرس نهاية إيجابيّة.

لا بدّ أنّ شمس التبريزي شعر بالوجوم نفسه لأنّه بدا مستغرقًا في التفكير، حزينًا إلى حدّ كبير. فأغمض عينيه كأنّه تعب على حين بغتة من كثرة الكلام والحديث. فكانت حركة عينيه دقيقة، لا يكاد يراها أحد.

قال شمس:

ـ صادفت وعرفت عددًا كبيرًا من الشيوخ في أثناء سفري وترحالي، بعضهم كان مخلصًا، والآخرون كانوا يتصرّفون بكياسة ولطف، ولم يكونوا على بيّنة من الإسلام. أنا أقايض غبار الحذاء القديم الذي يحتذيه عاشق الله الحقيقي برؤوس شيوخ اليوم. فحتى الممثّلون في مسرحيّات الظلّ الذين يعرضون الصور من وراء الستائر أفضل منهم لأنّهم يعترفون في الأقلّ بأنّ ما يقدّمون ليس سوى وهم من الأوهام.

قال الشيخ ياسين معلنًا:

ـ كفى! أظنّنا سمعنا ما يكفي من لسانك السليط، والآن، أخرج من صفّي.

قال شمس في خبث ولؤم:

ـ لا تبتئس، فأنا على وشك الانصراف.

ثم التفت إلينا وأردف قائلاً:

ـ إنّ ما شهدتموه اليوم في هذا المكان إنّما هو جدال قديم يمتدّ إلى زمن النبيّ ﷺ. بيد أنّ هذا الجدال ليس له صلة وثيقة بتاريخ الإسلام فحسب، بل هو يكمن في قلب كلّ ديانة تفرّعت عن إبراهيم. إنّه صراع بين العالم والصوفي، بين العقل والقلب. وعليكم الاختيار!

توقّف شمس برهة وجيزة عن الكلام ليتركنا نحسّ بقوّة تأثير ألفاظه، وشعرت أنّ تحديقته منصبّة عليّ، وكانت أشبه بالمشاركة في سرّ ـ في دخول إخوانيّة غير مكتوبة وغير منطوقة.

ثم استرسل في كلامه:

ـ لكن في نهاية المطاف، لا يمكن لمعلّمكم ولا لي أن يعرف أيّ واحد منّا أكثر ممّا يسمح لنا الله بمعرفته. إنّنا نؤدّي أدوارنا جميعًا، ولكن ثمّة قضيّة واحدة ذات شأن، وهي أنّ نور الشمس لا يمكن أن يتجاوزه عمى العين التي تنكره، عين الفرد الذي يرفض أن يرى.

وهنا وضع شمس التبريزي يده اليمنى على قلبه وودّعنا كلّنا وودّع الشيخ ياسين الذي تنحّى جانبًا متجهّمًا دون أن يردّ بكلمة واحدة. وخرج الدرويش وأغلق الباب وراءه، تاركًا إيّانا يلفّنا الصمت الذي كان له من العمق ما جعلنا نعجز عن الكلام أو التململ زمنًا طويلاً.

وجذبني أرشد من حالة الغيبوبة التي غشيتني، ولاحظت أنّه كان يحدّق إليّ على نحو يشبه الاستهجان. ولم أدرك ذلك إلّا لاحقًا. أنّ يدي اليمنى كانت ثابتة فوق قلبي تحيّة لحقيقة أعترف بها.

* * *

المحارب بيبرس

قونية، أيّار ١٢٤٦

ملطّخ بالدماء دون استسلام. لم أصدّق أذنيّ عندما سمعت أنباء شمس الذي بلغت به الصفاقة والوقاحة حدًّا جعله يواجه عمّي أمام تلاميذه. أليس لهذا الرجل أيّ إحساس باللياقة والأدب؟ كم تمنّيت لو أنّني كنت حاضرًا في المدرسة عند وصوله إليها، لطردته شرّ طردة قبل أن تؤاتيه الفرصة لفتح فمه القبيح، ولكنّني لم أكن هناك، ويبدو أنّه تجادل وعمّي جدالاً طويلاً ما زال التلاميذ أنفسهم يثرثرون ويهذرون به منذ حدوثه. لكنّني على الرّغم من ذلك لا أنظر إلى ما يقولون على محمل الجدّ، بل بقدر كبير من الشكّ والتحفّظ لأنّ رواياتهم غير متماسكة، وتضفي على ذلك الدرويش النتن قدرًا مبالغًا به من المصداقيّة.

إنّني غاية في التوتّر في هذه الليلة وسبب ذلك التوتّر كلّه هو الغانية زهرة الصحراء، لأنّني لا أستطيع أن أخلّص عقلي منها. إنّها تذكّرني بعلب المجوهرات ذات المخابئ السرّيّة الصغيرة. فأنت تظنّ نفسك وقد امتلكتها ولكن ما لم تحصل على المفتاح، فإنّها تظلّ داخل أبواب موصدة لا يمكن الوصول إليها حتى إذا طوّقتها بذراعيك.

كان استسلامها هو أكثر الأمور التي أثارت اضطرابي وانزعاجي. ولهذا تجدني أتساءل على الدوام عن السبب الذي منعها من مقاومتي. كيف شاءت أن تكتفي بالاستلقاء على الأرض تحت قدمَيّ، لا حول لها

ولا قوّة، مثل سجّادة قذرة عفا عليها الزمن؟ لو بادلتني الضربات أو صرخت تطلب النجدة لتوقّفت عن ضربها، ولكنّها تمدّدت بلا حراك، جاحظة العينين، مطبقة الشفتين كأنّها مصمّمة على تقبّل الضربات على ذقنها مهما كان مصدرها. هل تراها لم تهتمّ قط إن كنت عازما على قتلها؟

كنت أبذل قصارى جهدي كي لا أذهب إلى المبغى ثانية، لكنّني استسلمت اليوم لرغبتي الشديدة في رؤيتها. وفي الطريق، ظللت أتساءل عن ردّ فعلها إذا ما رأتني. وإذا ما كانت قد اشتكت منّي وساءت الأمور، فسوف أرشو صاحبة المبغى البدينة أو أهدّدها. خطّطت لكلّ شيء في ذهني وتأهّبت لكلّ احتمال باستثناء احتمال هروبها.

أخذت في الكلام فجأة وفي عنف:

ـ ماذا تعنين بأنّ زهرة الصحراء ليست هنا؟ أين هي؟

قالت صاحبة المبغى وهي تدفع بقطعة من اللقم في فمها وتمتصّ حلاوتها من على إصبعها:

ـ انسَ أمر تلك الغانية.

ولكنّها عندما رأت سخطي واستيائي، قالت مضيفةً بصوت أرقّ:

ـ لمَ لا تلقي نظرة على غيرها من الفتيات يا بيبرس؟

ـ لا أريد عاهراتك الرخيصات أيّتها العجوز الشمطاء البدينة. إنّني مضطرّ إلى رؤية زهرة الصحراء، ولا بدّ لي من رؤيتها الآن.

رفعت من حاجبيها السوداوين المدبّبين بعد أن سمعت ما قلت ولكنّها لم تتجرّأ على الجدال وإيّاي.

وخفت صوتها حتى انقلب إلى همس كأنّها تخجل ممّا ستقوله:

ـ لقد رحلت. الواضح أنّها هربت عندما كان الآخرون نيامًا.

كان الوضع غير معقول إلى حدّ كبير فلا يستدعي الضحك.

سألتها:

ـ منذ متى تهرب العاهرات من المبغى؟ عليك أن تعثري عليها حالاً!

رمتني صاحبة المبغى بنظرة كأنّها تراني أوّل مرّة حقًّا. وقالت بصوت خافت في الوقت الذي ظلّت عيناها الصغيرتان المتحدّيتان، بخلاف عيني

زهرة الصحراء، مسمّرتين عليّ:

ـ من أنت كي تصدر لي الأوامر؟

قلت وأنا أمدّ يدي إلى الطاس في حضنها والتقطت قطعة من اللقم ناعمة ولذيذة:

ـ أنا من حرّاس الأمن ولعمّي مكانة مرموقة، وفي إمكاني أن أغلق هذا الوكر وأشرّدكنّ جميعًا في الشوارع.

مسحت أصابعي الدبقة بوشاح صاحبة المبغى الحريري، فتميّزت غضبًا وغيظًا، ولكنّها لم تتجرّأ على خوض معركة.

قالت:

ـ لماذا توجّه اللوم إليّ؟ وجّه اللوم إلى ذلك الدرويش الذي أقنع زهرة الصحراء بترك المبغى والبحث عن الله.

لم أفهم أوّل وهلة عمّن كانت تتكلّم، ولكنّني أدركت بعدئذ أنّ شمس التبريزي هو المعني بكلامها.

في البدء أُهين عمّي أمام تلامذته، والآن هذه الحالة. الواضح أنّ ذلك المهرطق لا يعرف حدوده.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٢٦ حزيران ٢٠٠٨

عزيزي عزيز

قرّرت أن أكتب الآن رسالة إليك. أنت تدري، على الطريقة القديمة: بقلم حبر، وورق معطّر ومغلّف مناسب وطابع. وسوف أرسلها إلى أمستردام بعد ظهر هذا اليوم. إنّني مضطرّة لهذا الإجراء من فوري لأنّني إن تأخّرت في إرسال رسالتي، أعتقد بأنّني لن أتمكّن من إرسالها بعد ذلك.

في البدء تقابل فردًا ما ـ فردًا يختلف الاختلاف كلّه عن كلّ من هو حولك، فردًا ينظر إلى الأشياء كلّها من ضوء آخر ويضطرّك إلى تغيير زاوية رؤيتك فتلاحظ كلّ شيء من جديد، من الداخل ومن الخارج. وتعتقد أنّ في وسعك أن تحتفظ بمسافة معقولة بعيدًا عنه. وتظنّ أنّ في ميسورك أن تشقّ طريقك وسط هذه العاصفة الجميلة إلى أن تدرك إدراكًا مفاجئًا تمامًا أنّ هناك من قذف بك إلى عرض البحر وأنّك لا تملك سيطرة على أيّ شيء.

لا أستطيع أن أحدّد متى أسرتني كلماتك أوّل مرّة، لكن كلّ ما أعرفه هو أنّ مبادلتنا الرسائل قد غيّرتني، منذ البداية. من المرجّح أنّني سأندم على قول هذا الكلام، ولكن بما أنّني أنفقت أيّام حياتي كلّها نادمة على

أشياء لم أتمكّن من فعلها، فلا أرى ضررًا في فعل شيء يدعو إلى الندم على سبيل التغيير ليس إلّا.

منذ أن «التقيتك» على صفحات روايتك ورسائلك الإلكترونيّة، وأنت تهيمن على أفكاري. وفي كلّ مرّة أقرأ فيها إحدى رسائلك المرسلة إليّ، أشعر بشيء ما في داخلي يدور كالدوّامة وأدرك أنّني لم أعرف مثل هذه الحماسة وهذا الاطمئنان منذ زمن طويل. فعلى امتداد النهار، أفكّر فيك طوال النهار، وأحدّثك حديثًا صامتًا وأتساءل في نفسي عن الأسلوب الذي سترد فيه على كلّ حافز جديد في حياتي. وعندما أتوجّه إلى مطعم لطيف، فإنّني أريد أن أذهب إلى هناك بمعيّتك. وعندما أشاهد شيئًا مثيرًا للاهتمام ينتابني الحزن بسبب عدم قدرتي على أن أُريك إيّاه. قبل أيّام سألتني ابنتي إن كنت قد صفّفت شعري على نحو ما، علمًا أنّني لم أغيّر من تصفيفته منذ زمان، لكنّ الحقّ أنّني أبدو مختلفة، لأنّني أشعر أنّني مختلفة.

ثم أذكّر نفسي أنّني لم ألتقِك قطّ ممّا يجعلني أعود إلى أرض الواقع، والواقع هو أنّني لا أدري ما أفعل معك. لقد فرغت من قراءة روايتك وأرسلت تقريري. (آه، نعم، إنّني أكتب تقرير مراجعة عنها. ثمّة أوقات أردت أن أشاركك في أفكاري، أو في الأقلّ إرسال التقرير الذي كتبته لدار النشر إليك، ولكنّني فكّرت أنّ ذلك ليس بالعمل المناسب. وعلى الرّغم من أنّني لا أتمكّن من مشاركتك في التفاصيل التي أوردتها في تقريري، ينبغي لك أن تعرف أنّني أحببت روايتك حبًّا جمًّا. شكرًا لك ولما وفّرته من متعة لي، وسوف تبقى كلماتك رفيقة لي على الدوام).

على أيّة حال، إنّ روايتك لا شأن لها بقراري لكتابة هذه الرسالة، أو ربّما كانت ذات شأن بها، لكنّ الذي أرغمني على ذلك هو هذا الشيء الذي جمع بيننا، بصرف النظر عن مسمّياته، وأنّ أثره الطاغي في نفسي يفقدني سيطرتي، وبات من الخطورة ممّا يجعلني أعجز عن معالجته. في البدء، أحببت خيالك وقصصك، ولكنّني أدركت بعدئذ أنّني أحببت الإنسان الذي يقف وراء القصص.

والآن، لا أدري ماذا أفعل معك.

كما قلت لك، أريد إرسال هذه الرسالة على وجه السرعة، وإلّا فسوف أمزّقها إربًا إربًا، وسأتصرّف وكأن لا شيء جديدًا في حياتي، لا شيء غير مألوف.

نعم، يمكنني أن أفعل ما أفعله دومًا، وأن أتظاهر بأنّ كلّ شيء اعتيادي.

ويمكنني أن أتظاهر لولا هذا الوجع العذب في فؤادي.

محبّتي

إيلّا

* * *

كيرا

قونية، أيّار ١٢٤٦

معموديّة النار(*). لا أعرف كيف أعالج هذا الموقف. ففي هذا الصباح ظهرت امرأة من المجهول وجاءتني تسأل عن شمس التبريزي، ولكنّها قالت إنّها لا تملك مكانًا تلجأ إليه وإنّها تفضّل الانتظار في الفناء. فراودتني الشكوك ساعتئذ وبدأت الاستفسار عن هويّتها وعن المكان الذي قدمت منه. فما كان منها إلّا أن خرّت على ركبتيها وأماطت الخمار عن وجهها، لتريني وجهًا كثرت فيه الندب والأورام من شدّة الضرب. ولكن على الرّغم من كدماتها وجروحها فإنّها كانت غاية في الحسن والرشاقة. وأكّدت وسط الدموع والعبرات التي أجهشت بها على نحو واضح يدعو إلى الدهشة، المخاوف والشكوك التي ساورتني قبل قليل: إنّها غانية من غانيات المبغى.

وقالت:

ـ غير أنّني هجرت ذلك المكان الرهيب، وذهبت إلى الحمّام العمومي واستحممت أربعين مرّة وأدّيت أربعين صلاة، وأقسمت على البقاء بعيدة عن الرجال. ومن اليوم فصاعدًا، وهبت نفسي لله.

(*) معموديّة النار: Baptism of fire، المقصود منها أوّل معركة يخوضها الجندي، أو هي محنة قاسية واختبار عسير (المترجم).

لم أعرف ما الذي يتعيّن عليّ قوله، لهذا حدّقت إلى عينيها الجريحتين وفكّرت في نفسي كيف وجدت هذه الشابّة الرقيقة والضعيفة الشجاعة للتخلّي عن الحياة التي لم تعرف سواها. أنا شخصيًا لم أكن أرغب في مشاهدة امرأة منحلّة الأخلاق على مقربة من منزلي، لكنّني وجدت فيها شيئًا فطر قلبي، شيئًا بسيطًا، وبريئًا إلى حدّ كبير، لم يسبق لي أن وجدته في أيّ امرأة أخرى. وذكّرتني عيناها البنّيّتان بعيني مريم العذراء. ولم أتمكّن من طردها. وتركتها تنتظر في الفناء. وكان ذلك هو أقصى ما أستطيع عمله. فجلست قرب الجدار محدّقة إلى الفضاء، ساكنة سكون تمثال من المرمر.

وبعد مرور ساعة من الزمان، عاد شمس والرومي من نزهتهما، فأسرعت لإخبارهما عن الزائرة غير المتوقّعة.

سأل الرومي حائرًا:

ـ هل ذكرت أنّ غانية تنتظر في فناء دارنا؟

ـ نعم، وقالت إنّها غادرت المبغى لتبحث عن الله.

قال شمس متعجّبًا، نبرته تنتشي بالسرور أكثر ممّا تشي بالدهشة:

ـ آه، لا بدّ أنّها زهرة الصحراء. لماذا جعلتها تنتظر في الخارج؟ أدخليها!

اعترضت بصوت يتهدّج توتّرًا:

ـ لكن ما الذي سيقوله الجيران إذا ما عرفوا أنّ ثمّة غانية تحت سقف بيتنا؟

قال شمس مشيرًا إلى السماء العالية:

ـ ألسنا نحيا جميعًا تحت سقف واحد ملوكًا وشحّاذين، عذارى وبغايا؟ كلّهم تحت سقف واحد!

كيف يمكنني أن أجادل شمسًا؟ فهو يمتلك على الدوام جوابًا جاهزًا لكلّ سؤال.

أرشدت الغانية داخل المنزل متضرّعة ألّا تسقط عيون الجيران

الفضوليّة عليها. وما إن دخلت زهرة الصحراء الحجرة حتى هرعت لتقبيل يدي شمس وتجهش بالبكاء.

أشرق وجه شمس وكأنّه يكلّم صديقًا قديمًا:

ـ إنّني غاية في السرور لوجودك هنا، ولن تذهبي إلى ذلك المكان ثانية، فقد انتهت تلك المرحلة من حياتك إلى غير رجعة. أرجو من الله أن يجعل رحلتك إلى الحقيقة رحلة مثمرة!

وهنا بدأت زهرة الصحراء تبكي بكاء مُرًّا.

ـ لكن صاحبة المبغى لن تتركني في سلام. ولسوف ترسل جاكال هيد في إثري. إنّك لا تعرف...

قاطعها شمس قائلاً:

ـ ابعدي عنك هذه الأفكار، وتذكّري قاعدة أخرى: (في حين يحاول كلّ فرد في هذا العالم الوصول إلى مكان ما وأن يصبح ذا شأن ليترك كلّ شيء وراءه بعد مماته، فإنّك تتّجهين نحو مرحلة سامية من الهدم. عيشي هذه الحياة عيشة خفيفة وخالية مثل الصفر. إنّنا لا نختلف عن القدر. وما يعمل على ثبات اعتدالنا ليس المظهر الخارجي الجميل بل الفراغ الموجود في باطننا. كذلك، فإنّ ما يدفعنا إلى المضي قُدُمًا هو الوعي بالعدم وليس أمنياتنا لتحقيق شيء ما.

* * *

وفي وقت متأخّر من المساء رافقت زهرة الصحراء إلى سريرها حيث تخلد إلى النوم. وعندما استسلمت للنوم من فورها، عدت إلى الحجرة الرئيسيّة حيث وجدت الرومي وشمسًا يتجاذبان أطراف الحديث.

قال شمس عندما رآني قادمة:

ـ ينبغي لك أن تأتي إلى عرضنا.

سألت:

ـ وأيّ عرض هذا؟

ـ إنّه رقصة روحيّة يا كيرا، حيث ستشاهدين ما لم تسبق لك رؤيته في حياتك من قبل.

رمقت زوجي بنظرة دهشة. ما الذي يجري؟ ما الرقصة التي يتحدّثان عنها؟

سألت متّقدة الوجه:

ـ أنت سيّد محترم يا مولانا ولست مسامرًا. ما الذي سيظنّه الناس فيك؟

قال الرومي:

ـ لا تقلقي. كنت أنا وشمس نتحدّث في هذا الموضوع منذ زمن طويل. ونريد أن نقدّم رقصة الدراويش الدائريّة التي يطلق عليها سمة. إنّ كلّ من يسعى إلى العشق الإلٰهي سيجد نفسه موضع ترحيبنا الكبير.

أخذ رأسي يؤلمني ألمًا فظيعًا، ولكنّه كان ألمًا بسيطًا مقارنة بالوجع الذي كان في قلبي.

قلت لشمس بأمل كبير أن يكون لكلامي من الأثر ما يجعله يتوقّف عن كلّ ما يريد قوله:

ـ وإذا لم يعجب الناس ذلك؟ فليس الناس كلّهم يروقهم الرقص. فكّر في تأجيل هذا العمل.

قال شمس من دون أن يفوته شيء:

ـ وليس الناس كلّهم يروقهم الله. فهل هذا يعني أنّ علينا أن نؤجّل الإيمان به أيضًا؟

كانت عبارته مسك الختام في ذلك النقاش، ولم يتبادل أحد بعد ذلك الكلمات، وملأ صوت الريح البيت، مخترقًا الجدران، مدمدمًا في أذنيّ.

* * *

سلطان ولد

قونية، حزيران ١٢٤٦

ظلّ شمس يردّد: الجمال في عين الناظر. كلّ فرد سيشاهد الرقصة الدائريّة نفسها ولكن كلّ واحد منهم سيراها على نحو مختلف. فما دواعي القلق إذًا؟ ستروق بعض الناس ولا تروق البعض الآخر.

ولكن في مساء السمة، أخبرت شمسًا أنّني قلق خشية عدم حضور أحد.

قال مؤكّدًا:

ـ لا تقلق. قد أروق أهل البلدة، وقد يكونون فقدوا اهتمامهم بأبيك أيضًا، ولكن ليس في وسعهم تجاهلنا. ولسوف يأتي بهم إلى هذا المكان حبّ فضولهم.

وهكذا كان. ففي مساء العرض، احتشدت الساحة بجمهور غفير ضمّ التجّار والحدّادين والنجّارين والفلّاحين وقاطعي الحجارة وصانعي الصبغ وبائعي الأدوية وسادة التجّار والصنّاع والموظّفين والخزّافين والخبّازين والمعزّين والعرّافين وصيّادي الجرذان وبائعي العطور ـ وحتى الشيخ ياسين جاء بنفسه رفقة طائفة من تلاميذه. وكانت النسوة قد اتّخذن مجلسهنّ في الأماكن الخلفيّة.

أحسست بارتياح بالغ عند رؤيتي حاكم البلدة كيخسرو جالسًا رفقة

مستشاريه في الصفّ الأمامي. إنّ تأييد رجل بمثل منزلته لأبي ودعمه إيّاه سيخرسان كلّ لسان.

استغرق جلوس الحاضرين وقتًا طويلاً، وحتى بعد أن استقرّوا في أماكنهم، لم تهدأ الضوضاء الداخليّة هدوءًا تامًّا، وظلّت تتناهى إلى المسامع همسات القيل والقال الحامية. وفي محاولتي الجلوس بجوار من لا يتحدّث بسوء عن شمس، فقد وجدت لي مكانًا بالقرب من سليمان السكّير وكانت تفوح منه رائحة الخمرة، ولكنّني لم أعر الأمر كبير أهمّيّة.

كانت أطرافي السفلى متوتّرة، راحتا يدي تتصبّبان عرقًا. وعلى الرّغم من أنّ الهواء كان دافئًا إلى الحدّ الذي دفعنا إلى خلع جببنا فإنّ أسناني اصطكّت. فقد كان هذا العرض على درجة بالغة من الأهمّيّة لسمعة أبي المتدهورة. وتضرّعت إلى الله، ولكن لما كنت لا أدري ما أتمنّى باستثناء أن تسير الأمور على ما يرام، فإنّ دعائي بدا ناقصًا.

وبعد مرور وقت قصير، ترامى إلى أذاننا صوت، جاء أوّل الأمر من مسافة بعيدة حتى اقترب. كان صوتًا ساحرًا وأخّاذًا أدّى بالحاضرين جميعًا إلى أن يحبسوا أنفاسهم، ويستمتعوا.

همس سليمان بصوت مرتفع امتزج فيه الخوف والفرح:

ـ ما هذه الأداة الموسيقيّة؟

قلت متذكّرًا حديثًا سبق أن دار بين أبي وشمس:

ـ الناي كما يقولون، وصوته ليس سوى تنهيدة عاشق يتحسّر على محبوبه.

عندما خفّ صوت الناي وهدأ، ظهر والدي على خشبة المسرح، واقترب في خطوات واثقة ومعتدلة وحيّا الحاضرين وتبعه ستّة دراويش، كلّهم من تلامذته، يرتدون أردية طويلة بيضاء اللون، وتنّورات عريضة. كانوا يعقدون أذرعهم على صدورهم، ينحنون أمام أبي ليحصلوا على بركاته. ثم صدحت الموسيقى، وبدأ الدراويش يدورون ويدورون واحدًا إثر الآخر، دورانًا بطيئًا أوّل الأمر، ولكنّه انقلب سريعًا يخطف الأنفاس، فتنفتح تنّوراتهم مثل زهور اللوتس.

كان مشهدًا يغشي الأبصار. ولم أتمالك نفسي من الابتسام ابتسامة

تنمّ عن فخر وابتهاج. وأمعنت النظر من طرف عيني في ردود فعل الحاضرين فرأيت أكثر الناس إثارة للقيل والقال وهم يرقبون المشهد بإعجاب ملحوظ.

ودار الدراويش مرّات ومرّات إلى ما لانهاية كما يبدو. وصدحت الموسيقى عاليًا، وامتزج صوت الربابة من وراء الستارة بصوت الناي وقرع الطبول. وعندئذ ظهر شمس التبريزي على خشبة المسرح كأنّه ريح صحراويّة عنيفة، وكان يرتدي جبّة غامقة اللون، وبدا طويل القامة، وبدأ يدور ويدور بسرعة كبيرة. كانت يداه مبسوطتين ومرفوعتين باتّجاه السماء، مثل وجهه تمامًا، وكأنّه زهرة شمس تبحث عن الشمس.

سمعت عددًا كبيرًا من الحاضرين يشهقون إعجابًا وخشية، وبدا حتى أولئك الذين يكرهون شمس التبريزي وقد أصبحوا مأخوذين بسحر اللحظة. نظرت نظرة خاطفة إلى أبي، ففي حين كان شمس يدور في سرعة جنونيّة فيما الدراويش يدورون في سرعة أقلّ في أفلاكهم، ظلّ أبي ساكنًا سكون شجرة بلّوط معمّرة، حكيمًا وهادئًا، تتمتم شفتاه باستمرار مردّدة دعاء من الأدعية.

وأخيرًا هدأت الموسيقى، وسرعان ما توقّف الدراويش عن الرقص، وانغلقت تنّوراتهم من فورها. وبارك أبي محيّيًا تحيّة رقيقة كلّ الحاضرين على خشبة المسرح وجمهور المشاهدين. ولوهلة من الزمن، تبيّن أنّنا كلّنا قد ارتبطنا ارتباطًا بالغ الانسجام بعضنا ببعض. واستقرّ صمت مفاجئ وثقيل، ولم يعرف أحد كيف يتصرّف، إذ لم يسبق لأيّ مشاهد أن شاهد مثل هذا المشهد.

واخترق صوت أبي الصمت:

ـ هذه الرقصة يا أصدقائي هي السمة وهي رقصة الدراويش الدائريّة. ومن اليوم فصاعدًا، سوف يرقص الدراويش من كلّ الأعمار هذه الرقصة. يد واحدة مرفوعة إلى السماء واليد الأخرى مشيرة إلى الأرض، وكلّ ذرّة حبّ نحصل عليها من الله فإنّنا نتعهّد توزيعها على الناس.

ابتسم الجمهور وتهامسوا موافقين. وسادت حماسة دافئة وودّيّة في جميع أرجاء القاعة. وتأثّرتُ تأثّرًا بالغًا بهذه الاستجابة التي تبعث على

الاطمئنان، وترقرقت الدموع في عينيّ. ففي نهاية المطاف، بدأ أبي وشمس يحظيان بالاحترام والحبّ اللذين يستحقّان على وجه التوكيد.

كان من شأن ذلك المساء أن ينتهي تلك النهاية الرائعة وكان من شأني أن أرجع إلى البيت سعيدًا، واثقًا من أنّ الأمور قد تحسّنت لولا ما جرى بعد ذلك فدمّر كلّ شيء.

* * *

سليمان السكّير

قونية، حزيران ١٢٤٦

دم ورعد. يا له من مساء لا يُنسى! لم أزل تحت تأثيره حتى الآن. وكانت النهاية هي أكثر الأمور إثارة للخوف في هذه الليلة.

فبعد السمة، وقف كيخسرو الثاني على قدميه، يدير عينيه من حول الحجرة دورانًا مهيبًا. وتقدّم من المسرح معتدًّا بنفسه اعتدادًا من الطراز الأوّل. وقال بعد أن انفجر ضاحكًا:

ـ تهانينا أيّها الدراويش! لقد أعجبني أداؤكم إعجابًا شديدًا.

فشكره الرومي بلباقة، كما شكره كلّ الدراويش الذين كانوا على خشبة المسرح. ثم نهض العازفون على أقدامهم نهضة واحدة وحيّوا الحاكم باحترام بالغ. كان وجهه مشرقًا بالرضا والامتنان عندما أشار إلى أحد حرّاسه فتقدّم منه وناوله كيسًا مخمليًّا. راح كيخسرو يقلّب الكيس في يده بضع مرّات ليظهر مدى ثقل وزنه بالنقود الذهبيّة، ثم رمى به على خشبة المسرح. فما كان من الحاضرين من حولي إلّا أن تنهّدوا وصفّقوا. وتأثّرنا كلّنا تأثّرًا شديدًا بكرم حاكمنا.

كان الحاكم كيخسرو مطمئنًّا وواثقًا عندما استدار ليمضي في سبيله، ولكن ما إن خطا خطوة واحدة في متّجه باب الخروج حتى رأينا من يقذف بالكيس الذي رماه على خشبة المسرح وقد رمي به، فسقطت النقود عند قدميه، ترنّ مثل أساور عروس جديدة. حدث كلّ شيء بسرعة جعلتنا نقف

ساكنين، ذاهلين دقيقة كاملة من الزمان، عاجزين عن فهم ما يحدث أمامنا. لكنّ الواضح أنّ أكثر الناس الذين صدموا بما حدث هو كيخسرو نفسه، إذ كانت الإهانة شديدة الوضوح، وموجّهة إليه شخصيًا ممّا لا يمكنه غفرانها. نظر من فوق كتفه غير مصدّق ليعرف من الذي يمكنه أن يتصرّف مثل هذا التصرّف.

كان الشخص هو شمس التبريزي بلحمه ودمه. كانت الرؤوس قد اتّجهت نحوه عندما كان واقفًا على خشبة المسرح واضعًا يديه على خاصرته، وكانت عيناه متّقدتين محتقنتين.

هدر بصوت عميق:

ـ نحن لا نرقص طمعًا بالنقود. رقصتنا رقصة روحيّة نؤدّيها من أجل الحبّ والحبّ وحده. فخذ نقودك الذهبيّة أيّها الحاكم! نقودك لا نفع لها في هذا المكان! استقرّ صمت مهيب في القاعة. وبدا ابن الرومي الأكبر يرتعش ارتعاشًا، وغابت عنه الدماء حتى امتقع وجهه الشابّ. ولم يتجرّأ أحد على إصدار أيّ صوت. حبسنا كلّنا أنفاسنا، لا شهيق ولا زفير وبدأت السماء تمطر مطرًا غزيرًا وكأنّها كانت في انتظار تلك الإشارة. وأغرقت قطرات المطر كلّ شيء وكلّ فرد بصوتها الثابت المتواصل.

صاح كيخسرو في رجاله:

ـ هيّا بنا.

اتّجه نحو باب الخروج وكان خدّاه يرتعشان من فرط الإهانة التي لحقت به، شفتاه ترتجفان على نحو يتعذّر السيطرة عليه في حين غارت كتفاه على نحو ملحوظ. ولحق به جنده وخدمه الكثر، واحدًا تلو الآخر يدوسون على النقود المبعثرة على الأرض بأحذيتهم الثقيلة. فما كان من الحاضرين إلّا أن أسرعوا لجمع النقود متدافعين، يجذب أحدهم الآخر.

وما إن غادر الحاكم حتى علت همهمة الاستهجان وخيبة الأمل وسط الجماهير.

وهدر بعض الناس قائلين:

ـ من يظنّ نفسه يا ترى؟

وانضمّ آخرون متسائلين:

- كيف يتجرّأ على إلحاق الإهانة بحاكمنا؟ ما الذي سيحدث لو جعل كيخسرو البلدة برمّتها تدفع الثمن الآن؟

نهض بعض الناس واقفين وهزّوا رؤوسهم غير مصدّقين، وساروا في اتّجاه باب الخروج في دلالة واضحة على الاحتجاج. وكان على رأس المحتجّين الشيخ ياسين وتلامذته. ولدهشتي البالغة، شاهدت بينهم اثنين من تلاميذ الرومي القدامى - فضلاً عن ابنه علاء الدين.

* * *

علاء الدين

قونية، حزيران ١٢٤٦

والله لم أشعر في حياتي كلّها بمثل هذا الاضطراب العظيم. يبدو أنّني مضطر إلى مشاهدة والدي على نحو مؤلم وهو يقود الراقصين على المسرح وكأنّ اتّفاقه مع ذلك المهرطق لا يكفي عارًا وخزيًا علينا. كيف يمكنه أن يلوّث سمعته على هذا النحو أمام أهل البلدة أجمعين؟ الأهمّ من هذا كلّه، لقد ساورني رعب شديد عندما سمعت أنّ ثمّة غانية من المبغى حضرت بين الحشود المتجمهرين من الناس. وفيما كنت جالسًا في مكاني مفكّرًا بالجنون والأذى اللذين سيحدثهما لنا حبّ أبي لشمس، فقد تمنّيت للمرّة الأولى في حياتي أن أكون ابن شخص آخر.

لقد كان التمثيل الراقص من وجهة نظري انتهاكًا للحرمات وللشعائر. ولكنّ الذي حدث بعد ذلك كان أمرًا خارج نطاق كلّ شيء. كيف يمكن لذلك الرجل أن يكون صفيقًا وسفهًا إلى حدّ يدفعه إلى إلحاق الإهانة بحاكمنا؟ إنّه محظوظ تمامًا لأنّ كيخسرو لم يأمر بالقبض عليه من فوره وإرساله إلى المشنقة.

عندما شاهدت الشيخ ياسين يخرج من وراء الحاكم كيخسرو علمت أنّ عليّ أن أحذو حذوه، إذ كان آخر شيء أريده هو أن يعتقد أهل البلدة أنّني منحاز إلى جهة مهرطق وعلى كلّ فرد أن يدرك مرّة واحدة وإلى ما لا نهاية أنّني، على العكس من أخي، لست ألعوبة بيد أبي.

لم أرجع إلى البيت في تلك الليلة ومكثت في بيت أرشد رفقة بعض الأصدقاء. غلبتنا العاطفة ونحن نتحدّث عن أحداث اليوم وناقشنا مناقشة مفصّلة ما الذي يتعيّن علينا عمله.

قال أرشد متوتّرًا:

ـ لذلك الرجل أثر بالغ السوء على أبيك. والآن أتى بمومس إلى منزلكم. لا بدّ لك من تنظيف سمعة أسرتكم يا علاء الدين.

بينما كنت واقفًا أصغي إلى الأقوال، شعرت بوجهي يتّقد حمرة من شدّة الخجل والإحساس بالخزي والعار. ثمّة أمر واحد واضح لي: لم يأت لنا شمس إلّا بالتعاسة.

وتوصّلنا بالإجماع إلى إقرار مفاده أنّ على شمس أن يرحل عن البلدة إمّا طوع إرادته أو بالقوّة.

* * *

وفي اليوم التالي، رجعت إلى البيت مصمّمًا على أن أكلّم شمس التبريزي وجهًا لوجه. فوجدته وحيدًا في فناء الدار، يعزف على الناي، مطأطأ الرأس، مغمض العينين، موليًا ظهره إيّاي. ولم يلحظ وجودي نظرًا لانغماسه في الموسيقى. فاقتربت منه هادئًا هدوء فأر، منتهزًا الفرصة لمراقبته ولمعرفة عدوّي معرفة أفضل.

وبعد مرور ما يقرب من بضع دقائق، توقّفت الموسيقى، ورفع شمس رأسه قليلاً وغمغم دون أن ينظر في اتّجاهي كأنّه يحدّث نفسه:

ـ أهلاً يا علاء الدين. أكنت تبحث عنّي؟

لم أنبس بكلمة. ولَما كنت أعرف مقدرته على الرؤية من وراء الحجاب، فإنّ الدهشة لم تستبدّ بي إذا كانت لديه عينان في مؤخّرة رأسه.

سأل شمس بعد أن التفت إليّ:

ـ هل استمتعت بالعرض يوم أمس؟

أجبت من فوري:

ـ أعتقد أنّه كان عرضًا مشينًا. دعنا نبصر الأمر على حقيقته. أنت لا

تروقني، ولم ترقني قطّ، ولن أسمح لك أن تدمّر سمعة أبي أكثر ممّا دمّرتها بعد الآن.

لمعت عينا شمس بومضة وهو يضع الناي جانبًا وقال:

ـ أهذا هو الموضوع الذي تريد أن تكلّمني فيه؟ إذا تحطّمت سمعة الرومي، فإنّ الاهالي لن ينظروا إليك بوصفك ابن رجل بارز ذي مكانة كبيرة بعد اليوم. أهذا هو ما يخيفك؟

تجاهلت ملاحظته اللاذعة وأنا مصمّم على ألّا أدعه يثير أعصابي فيضايقني. ومع هذا، مرّت برهة وجيزة قبل أن أتمكّن من الردّ عليه بقوّة:

ـ لِمَ لا ترحل وتتركنا في سلام؟ كنّا في أحسن حال قبل مجيئك. إنّ أبي عالم وربّ أسرة محترم. وما من شيء مشترك يجمع بينكما.

اشرأب بعنقه إلى أمام، وعقد حاجبيه في تركيز شديد، وتنفّس تنفّسًا عميقًا، وبدا على حين بغتة طاعنًا في السنّ، سريع التأثّر. وخطر ببالي أنّ في وسعي أن أسدّد له لكمة، أن أضربه ضربًا مبرّحًا وأحوّله إلى عجينة قبل أن يتمكّن أحد من الحضور لإنقاذه. كانت الفكرة رهيبة وخبيثة ولكنّها مغرية إلى حدّ كبير ممّا دفعني إلى أن أشيح بنظري جانبًا.

ولمّا حدّقت إليه من جديد، وجدته يتفحّصني بنظرات نهمة مشرقة. أيمكنه أن يقرأ أفكاري؟ وساورني إحساس ترتعد منه الفرائص وسرى في بدني من قمّة رأسي حتى قدمَيّ، كأنّ ألف إبرة وخزتني وخزًا موجعًا وشعرت بركبتيّ تتمايلان وترتعشان وغير قادرتين على حملي. لا بدّ أنّه سحر أسود. لا ريب عندي في أنّ شمس التبريزي كان ماهرًا في أكثر أنواع السحر سوادًا.

قال شمس بعد برهة من الزمان:

ـ أنت خائف يا علاء الدين. أتدري بمن تذكّرني؟ بالمساعد الأحول!

قلت:

ـ ماذا تقول؟

ـ إنّها حكاية. أتهوى الحكايات؟

هززت كتفي.

ـ ليس لديّ وقت لها.

لاحت على شفتي شمس ومضة تنمّ عن اطمئنان، وقال:

ـ إنّ من ليس له وقت لسماع الحكايات لا وقت له يكرّسه لله. ألا تعلم أنّ الله أعظم القصاصين؟

وقبل أن ينتظر لأقول ما لديّ، أخبرني بالقصّة الآتية:

(كان ثمّة حرفيّ ماهر وله مساعد متهوّر فضلاً عن أنّه أحول. وكان هذا يرى الأشياء مزدوجة. وفي يوم من الأيّام طلب منه الحرفي أنّ يأتيه بجرّة عسل من المخزن ولكنّ المساعد عاد بخفّي حنين، وقال متذمّرًا: هناك جرّتان أيّها الأسطى، فأيّهما تريد أن آتيك بها؟ فقال الحرفي وهو يعرف مساعده معرفة جيّدة: لِمَ لا تكسر إحدى الجرّتين وتأتيني بالثانية؟ ممّا يؤسف له أنّ المساعد كان ضحل التفكير لم يفهم الحكمة الكامنة في تلك الكلمات، ففعل ما أمره به معلّمه، وكسر إحدى الجرّتين ولكنّ الدهشة استبدّت به عندما شاهد الجرّة الثانية وقد انكسرت أيضًا).

سألت:

ـ ما الذي تحاول أن تخبرني به؟

كان إظهار مزاجي الحادّ أمام شمس غلطة، ولكنّني لم أستطع منع نفسي من القول مضيفًا:

ـ اللعنة عليك وعلى قصصك. ألا يمكنك أن تتكلّم كلامًا مباشرًا؟

قال شمس:

ـ ولكنّ الأمر واضح غاية في الوضوح يا علاء الدين. إنّني أخبرك أنّك مثل المساعد الأحول تشاهد الازدواجيّة في كلّ شيء. فأنا ووالدك شخص واحد، وإذا ما حطّمتني، فسوف تحطّمه معي أيضًا.

رددت ردًّا سريعًا يدلّ على حضور سرعة البديهة:

ـ ليس بينك وبين والدي ما يجمعكما معًا. وإذا ما كسرت الجرّة الأولى فسوف أحرّر الثانية.

كنت أستشيط غضبًا وعنفًا وامتعاضًا فلم أدرك عواقب كلماتي في ذلك الوقت، ولكنّني أدركتها بعد ذلك بوقت طويل.

أدركتها بعد فوات الأوان.

* * *

شمس

قونية، حزيران ١٢٤٦

على العموم، يقول أصحاب العقول الضيّقة إنّ الرقص انتهاك للحرمات، ويعتقدون أنّ الله أعطانا الموسيقى ـ ليست الموسيقى التي نصنعها بأصواتنا وأدواتنا الموسيقيّة فحسب، بل الموسيقى التي تنطوي عليها أشكال الحياة وهكذا منعنا من الاستماع إليها. ألا يرون أنّ الطبيعة كلّها تنشد بالغناء؟ كلّ شيء في هذا الكون يتحرّك على وفق إيقاع معيّن ـ نبض القلب وخفقان جناحي الطائر، والريح في ليل عاصف، والحدّاد الذي يشتغل بالحديد أو الأصوات التي تحيط بالطفل داخل الرحم من قبل أن يولد. . . إنّ كلّ شيء يشترك اشتراكًا عفويًا ووجدانيًّا في لحن واحد غاية في الروعة. وما رقصة الدراويش إلّا حلقة في تلك السلسلة الدائميّة. إنّ رقصنا، شأنه شأن قطرة من ماء البحر تحمل في داخلها المحيط برمّته، تعكس أسرار الكون وتغطّيها.

قبل أن يبدأ الرقص، دلفت أنا والرومي إلى حجرة هادئة للتوصّل إلى اتّفاق. وانضمّ إلينا الدراويش الستّة الذين سيرقصون وإيّانا في المساء، فتوضّأنا وصلّينا معًا. ثم ارتدينا ملابسنا. وكنّا قبل ذلك قد تحدّثنا حديثًا طويلاً عن الثياب الملائمة التي ينبغي لنا ارتداؤها، وآثرنا اختيار ملابس بسيطة بلون التراب. اللون العسلي الذي يرمز إلى شاهد القبر والتنّورة البيضاء الطويلة ترمز إلى الكفن والجبّة السوداء ترمز إلى القبر. وكانت

رقصتنا تعكس عدم اهتمام الصوفيّين بالنفس برمّتها، وكانت أشبه بمن يطرح عنه قطعة يابسة من الجلد.

وقبل مغادرة القاعة والذهاب إلى المسرح ألقى الرومي قصيدة:

يهرب الغنوسطي من الحواسّ الخمس

والاتّجاهات الستّة ويجعلك واعيًا بما وراءها.

بمثل هذه المشاعر كنّا على أهبّة الاستعداد. وفي البدء صدح صوت الناي، ثم اعتلى الرومي خشبة المسرح بوصفه رئيس فرقة الراقصين، فلحق به الدراويش واحدًا في إثر الآخر، وقد طأطأ الجميع رؤوسهم تواضعًا. وكان الشيخ هو آخر من يتعيّن عليه الظهور على المسرح. وبقدر ما رفضت مثل هذا المقترح فإنّ الرومي أصرّ على أن أؤدّي بنفسي ذلك الدور في هذه الليلة.

ورتّل الحافظ آيات من القرآن: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾(*).

ثم رتّل قصيدة صحبة عزف على الناي والربابة:

اِصغِ إلى القصب والحكاية التي يرويها

وكيف يغنّي للفراق

منذ أن قطعوني عن منبت القصب

ونواحي يدفع الرجال والنساء إلى البكاء.

بدأ الدرويش الأوّل يدور ويدور بعد أن سلّم أمره بين يدي الله، وكانت حافّات تنّورته تهسهس بحياة خاصّة بها. وشاركنا كلّنا وبدأنا ندور وندور ونرقص حتى لم يعد ثمّة شيء من حولنا سوى الواحد. نتلقّى ما في السماء لنوزّعه على الأرض من الله إلى البشر. وأصبح كلّ واحد منّا حلقة وصل تربط العاشق بالمعشوق. ولمّا توقّفت الموسيقى، انحنينا أمام قوى الكون الأساسيّة: النار والريح والأرض والماء، فضلاً عن العنصر الخامس وهو الفراغ.

* * *

(*) سورة الذاريات (٥١: ٢٠ ـ ٢١). (المترجم).

لست نادمًا على ما حدث بيني وبين كيخسرو في نهاية العرض، ولكنّني غاية في الأسف لأنني وضعت الرومي في موقف بالغ الصعوبة. فبوصفه رجلاً حظي على الدوام بالامتياز والحماية، لم يشعر يومًا ما أنّه غريب في الشيء الذي يعرفه الناس الاعتياديّون طوال الوقت وهو الفجوة الكبيرة والعميقة بين الطبقة الحاكمة والجماهير.

أظنّني بهذا قد اقتربت من نهاية حقبتي الزمانيّة في قونية.

إنّ كلّ صداقة حقيقيّة وكلّ حبّ حقيقي قصّة تحوّل لا يمكن توقّعها. ولو كنّا أنفسنا لا نتغيّر قبل الحبّ وبعده، لعنى ذلك أنّنا لم نحبّ بما يكفي.

بالشعر والموسيقى والرقص يكون جزء كبير من تحوّل الرومي قد اكتمل. فبعد أن كان الرومي عالمًا متزمّتًا يكره الشعر، وخطيبًا يستمتع بصوته شخصيًّا عند إلقاء خطبه أمام الآخرين ويعظهم، فقد تحوّل الآن إلى شاعر بذاته، وأضحى صوت الفراغ الخالص على الرّغم من أنّه قد لا يكون مدركًا لهذا الأمر إدراكًا شاملاً. أمّا أنا، فقد تغيّرت وما زلت أتغيّر. إنّني أتحرّك من الوجود والكينونة إلى العدم، من فصل إلى آخر، من مرحلة إلى أخرى، من الحياة إلى الموت.

كانت صداقتنا بركة، هبة من الله. فقد انتعشنا وابتهجنا وتفتّحنا في صداقة أحدنا الآخر، وتذوّقنا الامتلاء والهناء.

تذكّرت ما كان قد أخبرني به بابا زمان في يوم من الأيّام. لا بدّ لدودة القزّ من أن تموت كي نحصل منها على الحرير. وفي أثناء جلوسي وحيدًا في قاعة الرقص بعد أن غادر جميع الحاضرين وخبا كلّ صوت وضجيج، أدركت أنّ زماني رفقة الرومي شارف نهايته. لقد عشت أنا والرومي في رفقتنا جمالاً استثنائيًّا وتعلّمنا معنى مواجهة اللانهاية من خلال مرآتين تعكس إحداهما الأخرى إلى ما لا نهاية. لكن لا تزال البديهيّة القديمة نافعة: حيثما يوجد الحبّ، لا بدّ من مرض القلب.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ٢٩ حزيران ٢٠٠٨

قال عزيز إنّ أشياء غريبة حدثت للناس تفوق أشدّ الاحلام عنفًا عندما كانوا مهيّئين لما هو غير مألوف وغير متوقّع. لكن لم تكن ذرّة في جسد إيلّا مهيّأة لأمر غريب واحد حدث في هذا الأسبوع: فقد جاء عزيز زد. زاهارا إلى بوسطن لرؤيتها.

كان الوقت مساء يوم الأحد، وكان آل روبنشتاين قد جلسوا من حول المائدة قبل قليل عندما تنبّهت إيلّا إلى رسالة نصّيّة مرسلة إلى هاتفها الخلوي. ولم تسرع في قراءتها لأنّها ظنّت أنّها حتمًا مرسلة من إحداهنّ في نادي الطبخ. لهذا قدّمت طبق المساء الخاصّ وكان يتألّف من بطّ مشويٍّ بالعسل والبطاطا المقليّة في قليل من الدهن والبصل المكرمل فوق طبق من الرزّ الأسمر. وعندما وضعت البطّة على المنضدة، ومدّ الجالسون رؤوسهم إلى أمام. وبدت جانيت توّاقة إليها علمًا أنّها كانت مكتئبة على أثر مشاهدتها سكوت رفقة صديقته الجديدة ومدركة أنّها ما تزال تعشقه.

كان عشاء بطيئًا وطويلاً، متبّلاً بنبيذ لذيذ وحديث مألوف. وكانت إيلّا على علم بكلّ حديث يدور من حول المائدة. فناقشت زوجها إعادة صبغ الشرفة باللون الأزرق الفاتح، وتحدّثت إلى جانيت في خصوص برنامجها المزدحم في الكلّيّة، وإلى التوأمين بشأن استئجار عدد من الأشرطة السينمائيّة ومنها (قراصنة الكاريبي). ولم يخطر ببالها أن تُلقي

نظرة على الرسالة المرسلة إلى هاتفها الخلوي إلّا بعد أن وضعت الأطباق القذرة في حوض الغسيل وقدّمت حلوى الشوكولا بالكريما:

مرحبًا إيلّا. إنّني في بوسطن في مهمّة لمجلّة
سميثسونيان، وقد غادرت الطائرة قبل
قليل. أترغبين في لقائي؟ إنّني في فندق
أونيكس، وأحبّ أن أراك. عزيز

تركت إيلّا هاتفها واتّخذت مكانها من حول المائدة لتناول الحلوى، غير أنّها شعرت بدوار خفيف.

سأل ديڤيد رافعًا رأسه من فوق طبقه:

ـ هل تلقّيت رسالة؟

ردّت إيلّا دون تردّد:

ـ نعم، رسالة من ميشيل.

أشاح ديڤيد بوجهه متألّمًا ومسح فمه وطوى منديل المائدة في بطء ودقّة يبعثان على الدهشة وقال:

ـ فهمت.

كانت إيلّا تعلم أنّ زوجها لم يصدّقها البتّة، ولكنّها شعرت أنّها لا بدّ أن تلتزم بما قالته لا من أجل إقناع زوجها أو خداع أولادها، بل من أجل نفسها هي، لتتمكّن من الخروج من البيت والذهاب إلى فندق عزيز. لهذا استرسلت في كلامها وهي تحسب حساب كلّ كلمة تنطق بها:

ـ اتّصلت لتخبرني أنّ ثمّة اجتماعًا يعقد صباح يوم غد في دار النشر لمناقشة خطّة العام المقبل، وهي ترغب في أن أنضمّ إلى الاجتماع.

قال ديڤيد وعيناه تومضان في إشارة إلى أنّه جزء من اللعبة:

ـ حسنًا، ينبغي لك أن تذهبي. لمَ لا أوصلك في الصباح ونذهب معًا إلى هناك؟ بإمكاني أن أُعيد جدولة بعض المواعيد.

حدّقت إيلّا إلى زوجها ذاهلة، ما الذي يحاول أن يفعله؟ أتراه يريد إشعال ثورة أمام الأولاد؟

قالت مرغمة نفسها على الابتسام:

ـ هذا جميل. ولكنّنا مضطرّون لمغادرة المنزل في الساعة السابعة صباحًا لأنّ ميشيل أخبرتني بأنّها تريد أن تكلّمني على انفراد قبل الاجتماع.

تدخّلت أورلي وهي تعلم أنّ والدها يكره كثيرًا النهوض من النوم باكرًا:

ـ حسنًا، لننس الموضوع، فأبي لا يمكنه الاستيقاظ في الوقت المحدّد!

تبادل ديفيد وإيلّا النظرات وحدّق أحدهما إلى الآخر تحديقًا طويلاً من فوق رؤوس الأولاد منتظرًا كلّ واحد منهما أن يبدأ الثاني بالحركة الأولى.

أقرّ ديفيد في نهاية المطاف:

ـ هذا صحيح.

أومأت إيلّا رأسها بارتياح شديد على الرّغم من أنها شعرت بقليل من الخجل بسبب تهوّرها وجرأتها، لأنّ فكرة أخرى خطرت ببالها، فكرة أشدّ جرأة.

وقالت:

ـ نعم، في الحقّ، الوقت مبكّر جدًّا. لمَ لا أذهب الآن؟

كانت فكرة الذهاب إلى بوسطن صباح يوم الغد وتناول وجبة الفطور رفقة عزيز كافية لأن تجعل قلبها يدقّ دقّات سريعة. ومع هذا، كانت تريد أن تلتقي عزيز حالاً، الآن وليس غدًا، الغد الذي بدا لها على حين بغتة أبعد ممّا تتحمّل. المسافة من بيتها إلى بوسطن بالسيّارة تستغرق زهاء الساعتين، ولكنّها لم تمانع. فقد قطع الطريق كلّه من أمستردام من أجلها، ولهذا يمكنها أن تقود السيّارة مدّة ساعتين على وجه التأكيد.

ـ يمكنني أن أصل بوسطن قبل العاشرة ليلاً، ويمكنني أن أصل دار النشر في وقت مبكّر من صباح يوم غد وأقابل ميشيل قبيل الاجتماع.

لاح ظلّ من ظلال الألم والعذاب على وجه ديفيد. وبدا له أنّه يحتاج إلى وقت لا نهاية له كي يقول أيّ شيء. وفي تلك اللحظة الطويلة، كانت عينا رجل ليست لديه القوّة ولا العاطفة للحيلولة دون ذهاب زوجته إلى رجل آخر.

قالت إيلّا لأولادها على ما يبدو ولكنّها كانت توجّه كلامها لزوجها ليس إلّا:

ـ يمكنني أن أقود السيّارة إلى بوسطن في هذه الليلة وقضاء الليلة في شقّتنا.

كان ذلك هو أسلوبها في طمأنة زوجها بعدم إمكانيّة حصول أيّ اتّصال جسدي بينها وبين أيّ رجل يتخيّل أنّها ستلتقيه.

نهض ديڤيد من على كرسيّه وكأس النبيذ في يده. وبعد أن أشار إلى الباب إشارة عابرة، ابتسم لإيلّا مطمئنًا وأضاف بتوق ولهفة إلى حدّ ما:

ـ حسنًا إذًا يا حبيبتي. إن كان هذا هو رأيك فعليك الذهاب الآن.

احتجّ آفي:

ـ لكن يا أمّاه! ظننت أنّك سوف تساعدينني في درس الرياضيّات في هذا المساء.

شعرت إيلّا بوجهها يتّقد احمرارًا:

ـ أعرف ذلك يا عزيزي. لمَ لا أساعدك يوم غد؟

التفتت أورلي إلى شقيقها مناكدة إيّاه:

ـ آه، دعها تذهب. إنّك لست في حاجة إلى أن تكون أمّك بجوارك طوال الوقت. متى ستكبر؟

قطّب آفي جبينه ولم يقل شيئًا بعد ذلك، أمّا أورلي فكانت مؤيّدة لأمّها، في حين لم تعر جانيت الأمر أيّة أهمّيّة. فما كان من إيلّا إلّا أن أمسكت بالهاتف واندفعت إلى الطابق العلوي. وما إن أغلقت باب غرفتها حتى رمت بنفسها فوق السرير وأرسلت رسالة نصّيّة إلى عزيز:

لا يمكنني أن أصدّق أنّك هنا. سأكون
في فندق أونيكس بعد ساعتين

حدّقت إيلّا إلى هاتفها في ذعر متصاعد وهي ترى رسالتها وقد أرسلتها. ما الذي تفعله؟ لكن لا وقت للتفكير. إذا كان لها أن تندم على هذا المساء، وهو ما كانت ترتاب فيه، ففي وسعها أن تندم لاحقًا. أمّا الآن فينبغي لها أن تسرع. واستغرقت عشرين دقيقة كي تستحمّ وتجفّف

شعرها وتنظّف أسنانها وتختار ثوبًا سرعان ما رمته جانبًا لتبحث عن آخر، وتمشّط شعرها، وتضع بعض مساحيق التجميل على وجهها، وتنظر إلى قرطيها الصغيرين اللذين أهدتهما إليها الجدّة روث في عيد ميلادها الثامن عشر، ثم تغيّر ثوبها من جديد.

تنفّست إيلّا تنفّسًا عميقًا وتعطّرت ببعض العطور، من طراز إيترنيتي لشركة كالفن كلين. كانت الزجاجة تنتظر في درج الحمّام منذ زمن طويل، إذ لم يكن ديڤيد من هواة العطور وكان يردّد أنّ رائحة النساء يجب أن تكون رائحة نساء وليست رائحة عطر الڤانيلّا أو عيدان القرفة. واعتقدت إيلّا أنّ الأوروبيين من الرجال قد تكون لهم وجة نظر مغايرة لوجهة نظر زوجها. أليست العطور شيئًا كبيرًا في أوروبا؟

ولمّا فرغت من كلّ شيء، رمقت هيئتها بنظرة في المرآة. وفكّرت: لماذا لم يخبرها بأنّه سيأتي؟ لو كانت قد علمت من قبل لذهبت إلى صالون لتصفيف الشعر وتقليم الأظافر وتجميل الوجه ولربّما جرّبت تسريحة شعر أخرى مغايرة. ماذا لو لم ترق في عيني عزيز؟ ماذا لو لم تكن بينهما خصائص كيميائيّة فيندم على قطعه كلّ تلك المسافة إلى بوسطن؟

وعلى حين بغتة ثابت إلى رشدها. ما الذي يدفعها إلى تغيير مظهرها؟ ما الفرق إن كانت بينهما خصائص كيميائيّة أم لم تكن؟ من شأن أيّ مغامرة مع هذا الرجل أن تكون مغامرة موقّتة مصيرها الزوال. فهي امرأة ولها أولاد، ولها حياتها الخاصّة، وماضيها وحاضر أمامها، وكذلك مستقبلها. انزعجت من نفسها واضطربت لخوضها في مثل هذه السيناريوهات غير المحتملة، وأوصدت أبواب عقلها، وهو ما كان يبدو لها على الدوام الطريق الأسهل.

في الساعة الثامنة إلّا ربعًا، قبّلت إيلّا أطفالها متمنّية لهم ليلة هانئة وغادرت المنزل. أمّا ديڤيد فكان قد توارى عن الأنظار ولم تشاهده.

وعندما اتّجهت نحو سيّارتها ومفاتيح الشقّة في بوسطن ترنّ في يدها، كان عقلها لا يزال في حالة خدر ولكن دقّات قلبها تسارعت.

***

القسم الخامس

الفراغ

الأشياء الموجودة من خلال غيابها

سلطان ولد

قونية، تمّوز ١٢٤٦

جاء أبي إلى حجرتي يتنفّس تنفّسًا ثقيلاً، غير قادر على الوقوف معتدلاً، وبدا كأنّه ظلّ الرجل الذي عرفناه. ثمّة جيوب من تحت عينيه، سوداء اللون، تنذر بسوء، كأنّه أمضى الليل ساهرًا، جفاه النوم. لكنّ الذي أدهشني أكثر من أيّ شيء آخر هو أنّ لحيته أضحت بيضاء اللون.

قال بصوت لا يشبه صوته:

ـ ساعدني يا بنيّ.

هرعت إليه وأمسكت بذراعه وقلت:

ـ أيّ شيء يا أبي. حسبك أن تخبرني.

لزم أبي الصمت دقيقة واحدة كأنّه منسحق تحت وطأة ما سيقول بعد قليل.

ـ رحل شمس. تركني.

لأوّل وهلة، غمرني الإحساس بالارتباك والتشوّش فضلاً عن إحساس غريب بالارتياح، ولكنّني لم أنطق بكلمة. لكن على الرّغم من الحزن الذي ألمّ بي والصدمة التي وقعت عليّ، فإنّني فكّرت أيضًا أنّ ما حدث قد يكون هو الأفضل. ألن تكون الحياة أسهل وأهدأ الآن؟ لقد اكتسب أبي أعدادًا غفيرة من الأعداء في المدّة الأخيرة وكلّ ذلك بسبب شمس.

كنت أريد أن تعود الأمور إلى سابق عهدها، إلى ما قبل مجيئه إلى هنا. أيمكن أن يكون علاء الدين على حقّ؟ ألم نكن في أفضل حال من دون شمس؟

قال والدي وكأنّه أحسّ بما يجول في خاطري:

ـ لا تنسَ كم كان عظيم الفائدة لي. أنا وهو شخص واحد. للقمر نفسه وجه مضيء ووجه معتم. وما شمس إلّا جانبي المتمرّد.

أومأت براسي شاعرًا بالخجل. وهمد قلبي، ولم يكن أبي مضطرًّا إلى الاسترسال في الكلام، فأنا لم أشاهد مثل هذا الألم الكبير في عيني أيّ إنسان. وأحسست بلساني ثقيلاً في فمي، ولم أتمكّن من النطق بشيء برهة وجيزة.

ـ أريدك أن تجد شمسًا ـ هذا إن كان يريد أن نجده، وَعُدْ به إلى هنا. أخبره بالعذاب الذي حلّ بقلبي.

وهنا خفت صوت أبي ليتحوّل إلى همس:

ـ قل له إنّ غيابه يقتلني.

وعدته أن أُعيد شمسًا. وتشبّث بيدي وضغط عليها امتنانًا وعرفانًا ممّا اضطرني إلى أن أشيح عنه بناظري، لأنّني لم أرغب في أن يرى التردّد في عينَيْ.

* * *

أنفقت الأسبوع كلّه وأنا أطوف في شوارع قونية، مقتفيًا أثر خطوات شمس. في هذه الأثناء، كان أهل البلدة قد سمعوا جميعًا نبأ اختفاء شمس وتردّدت التكهّنات بشأن مكان اختفائه. والتقيت أحد المجذومين وكان يحبّ شمس حبًّا جمًّا، فدلّني على عدد كبير من الناس البائسين القليلي الحظّ الذين سبق للدراويش الجوّالين أن مدّوا لهم يد المساعدة. فتبيّن لي أنّني لم أكن أعرف أنّ ثمّة مثل هذا العدد الكبير من الأهالي الذين كانوا يحبّون شمسًا، فقد كانوا من تلك الفئة من الناس التي لم أشاهدها قطّ حتى يومنا هذا.

وفي مساء يوم ما، عدت إلى المنزل مرهقًا، مشتّت الانتباه،

فأحضرت لي كيرا طبقًا من الرزّ متبّلاً بماء الورد. وجلست بجانبي وراقبتني وأنا أتناول الطعام، والابتسامة على ثغرها مؤطّرة بالألم والعذاب. وتنبّهت إلى مدى تقدّمها في السنّ أثناء العام الماضي.

سألتني:

ـ سمعت أنّك كنت تحاول إعادة شمس إلى هنا. أتعلم إلى أين ذهب؟

ـ ثمّة شائعات تفيد أنّه رحل إلى دمشق ولكنّني سمعت أيضًا بعض الناس يقولون إنّه سافر إلى أصفهان أو إلى القاهرة أو حتى إلى مسقط رأسه تبريز. وما علينا إلّا أن نتأكّد. وسأذهب أوّلاً إلى دمشق، وسيغادر بعض تلاميذ أبي إلى المدن الثلاث الأخرى.

بانت على وجه كيرا أمارات الجدّ وتمتمت كأنّها تفكّر في صوت عالٍ:

ـ مولانا ينظم الشعر، شعرًا جميلاً. لقد حوّله غياب شمس إلى شاعر.

خفضت من بصرها إلى السجّادة الفارسيّة، مخضّلة الخدّين، مبوّزة الفم وتنهّدت، ثم ألقت البيتين الآتيين:

شاهدت الملك ذا الوجه العظيم

الذي هو عين السماء وشمسها

ساد في الجوّ الآن شيء ما لم يكن موجودًا قبل لحظة واحدة من الزمان. كان في وسعي أنّ ألاحظ أنّ كيرا كانت ممزّقة في داخلها. وما على المرء إلّا أن ينظر إلى وجهها كي يدرك مدى تألّمها وهي تشاهد زوجها يتعذّب. كانت على أهبّة الاستعداد لفعل كلّ ما في وسعها كي تراه مبتسمًا من جديد. ولكنّها كانت أيضًا مرتاحة ومطمئنة، بل وسعيدة للتخلّص من شمس خلاصًا نهائيًا.

وسمعت نفسي أسألها هذا السؤال:

ـ وإذا لم أعثر عليه؟

قالت ووميض الأمل يبرق في عينيها:

ـ عندئذ ليس أمامك ما تفعله. سنواصل حياتنا كما كنّا في السابق.

في تلك اللحظة، أدركت بوضوح تامّ وبلا أدنى ريب ما كانت تلمّح إليه: لست مضطرًّا إلى العثور على شمس التبريزي، بل لست مضطرًّا إلى الذهاب إلى دمشق. يمكنني أن أسافر يوم غد من بلدة قونية وأتجوّل مدّة من الزمان، وأعثر على خان لطيف على قارعة الطريق فأمكث فيه، ثم أعود أدراجي بعد بضعة أسابيع متظاهرًا بأنّني بحثت عن شمس في كلّ مكان، وسيصدّق أبي كلامي وسينسى الموضوع نهائيًّا. ربّما هذا هو أفضل الحلول، ليس من أجل كيرا وعلاء الدين اللذين ساورتهما الشكوك بشأن شمس فحسب، بل من أجل تلامذة أبي ومريديه، ومن أجلي أنا أيضًا.

وهكذا رنت إليّ تلك المرأة ورمقتني بنظرة تنمّ عن ألم وعذاب ولم تنبس بكلمة، تلك المرأة التي اهتدت إلى الإسلام لتتزوّج من أبي، والتي كانت أروع أمّ لي ولأخي، وقد أحبّت زوجها حبًّا جعلها تحفظ عن ظهر قلب الأشعار التي نظمها من أجل شخص آخر. وبغتة تبيّن لي أنّ خزينها من الكلمات قد نضب.

وعليّ أن أجد الجواب لنفسي.

* * *

الرومي

قونية، آب ١٢٤٦

عقيم هذا العالم، بلا شمس ما دام شمس قد رحل. هذه المدينة أرض حزينة، باردة، وروحي خاوية. لا يمكنني النوم ليلاً، وفي النهار أهيم في الجوار. أنا هنا، ولست هنا، أنا شبح وسط الناس. لا أستطيع أن أمنع نفسي من الانزعاج من الآخرين. كيف يمكنهم الاستمرار في العيش كأنّ شيئًا لم يتغيّر؟ كيف تكون الحياة على ما كانت عليه من دون شمس التبريزي؟

في كلّ يوم، أجلس في المكتبة وحيدًا منذ غروب الشمس حتى شروقها، لا أفكّر في شيء سوى شمس، أتذكّر ما قاله لي في يوم ما بصوت فيه لمسة خشونة: «يومًا ما ستكون صوت الحبّ».

لا أعرف شيئًا عن ذلك ولكنّني أجد الصمت عذابًا حقًّا في هذه الأيّام. الكلمات تمنحني ثغرات لاقتحام الظلمة الكامنة في قلبي. هذا ما كان يبغيه شمس على الدوام. صحيح؟ أن يجعل منّي شاعرًا(*)!

الحياة هي عن الكمال. وكلّ حادثة تحدث، مهما كانت صغيرة الشأن

(*) المصادر التاريخيّة عن التصوّف الإسلامي تشير، على اختلافها، أنّ جلال الدين الرومي استطاع أن يؤلّف الغزليّات بعد أكثر من عشر سنين على لقائه شمس التبريزي، وقد جمعت في مجلّد سُمّي الديوان الكبير. (المترجم).

أو عظيمة الأثر، وكلّ مشقّة تواجهنا فنحتملها، إنّما هي مظهر من مظاهر خطّة ربّانيّة هدفها الوصول إلى تلك الغاية. والكفاح أمر جوهري لأن يصبح الإنسان إنسانًا. ولهذا يقول القرآن: (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا)[*]. ولا وجود للمصادفة في نظام الله. وليست مصادفة أنّ شمس التبريزي التقاني في طريقي في ذلك اليوم من شهر تشرين الأوّل قبل نحو عامين اثنين.

وكان شمس قد قال: أنا لم أحضر إليك بسبب الريح.

ثم أخبرني ساعتئذ بهذه القصّة:

(في يوم من الأيّام، كان ثمّة شيخ صوفي واسع المعرفة، منحه الله القدرة على نفخ الروح مثل النبيّ عيسى. وكان له تلميذ واحد، وكان سعيدًا بما أُعطي له. لكن كان للتلميذ رأي آخر. فقد كان يرغب في أن يستبدّ العجب في كلّ شخص عند مرأى القوى التي يتمتّع بها شيخه. لهذا السبب ظلّ يتوسّل إليه كي يجعل له تابعين وتلاميذ أكثر عددًا.

وأخيرًا وافق الشيخ قائلاً:

ـ حسنًا، سأفعل ما تقول إن كان هذا يسعدك.

فذهبا إلى ساحة السوق في ذلك اليوم. وشاهدا على إحدى منصّات السلع حلوى بهيئة الطير. فما إن بادر الشيخ إلى النفخ عليها حتى دبّت الحياة في أجسامها وطارت بعيدًا وسط الريح. فتجمّع أهل البلدة من فورهم ذاهلين، حائرين، وقد أخذهم العجب كلّ مأخذ. ومنذ ذلك اليوم، بدا أهل البلدة يردّدون دعوات الشيخ، وسرعان ما كثر عدد الأتباع والمعجبين من حوله حتى صعب على تلميذه القديم أن يراه بعد ذلك اليوم.

وقال التلميذ في حزن وغمّ:

ـ آه يا شيخي، كم كنت مخطئًا. كانت الأيّام الغابرة أفضل كثيرًا من هذه الأيّام. افعل شيئًا ما، اجعلهم يذهبون بعيدًا، أرجوك.

ـ حسنًا، سأبعدهم عنّي إن كان هذا يسعدك.

وفي اليوم التالي، وفي حين كان الشيخ يلقي خطبته، أخرج ريحًا من أمعائه. فانتاب أتباعه ذعر شديد، وخرجوا وابتعدوا عنه واحدًا تلو الآخر،

(*) سورة العنكبوت (٢٩ : ٦٩). (المترجم).

ولم يبق جالسًا سوى تلميذه القديم.

فسأله الشيخ:

ـ لماذا لم تخرج رفقة الآخرين؟

فأجاب التلميذ:

ـ أنا لم أحضر إليك بسبب الريح الأولى، ولن أغادرك بسبب الريح الأخيرة».

* * *

كلّ ما فعله شمس إنّما كان من أجل كمالي. هذا ما لم يتمكّن أهل البلدة من فهمه قطّ. لقد تعمّد شمس إثارة المزيد من القيل والقال وأن يحرج مشاعر الآخرين، وتلفّظ بكلمات كانت تبدو تجديفًا في رأي الناس الاعتياديين، فصدمهم واستفزّهم، وبينهم أولئك الذين أحبّوه. ورمى كتبي في الماء، مرغمًا إيّاي على التخلّي عن كلّ ما أعرف.

وعلى الرّغم من أنّ الآخرين تناهت إلى مسامعهم أنّه ينتقد الشيوخ والعلماء، فإنّ عددًا قليلاً من الناس عرفوا مقدرته البارعة في التفسير. كانت لشمس معرفة واسعة بالكيمياء والتنجيم واللاهوت والفلسفة والمنطق ولكنّه احتفظ بعلمه ومعرفته بعيدًا عن عيون الجهلة. وعلى الرّغم من أنّه كان فقيهًا، فقد سلك سلوك الفقراء.

فتح أبوابنا أمام بغي وجعلنا نقتسم الطعام وإيّاها. وأرسلني إلى الخمّارة وشجّعني على أن أكلّم السكارى. وفي إحدى المرّات، جعلني أتسوّل وأشحذ في الجهة المقابلة من المسجد الذي كنت أخطب فيه مرغمًا إيّاي بذلك على أن أضع نفسي موضع الشحّاذ المجذوم. حجبني أوّل الأمر عن المعجبين بي، ثم عن الطبقة الحاكمة، ووصلني بعامّة الناس، وبفضله عرفت أُناسًا ما كان من شأني أن ألتقيهم في يوم من الأيّام. وبسبب إيمانه العميق بوجوب تحطيم كلّ الأصنام التي تقف بين العبد والله، وبينها الشهرة والثروة والمنزلة، حتى الدين نفسه، قطع كلّ الحبال التي كانت تربطني بالحياة التي كنت أحياها وأعرفها. وحيثما رأى حدًّا من الحدود العقليّة أو انحيازًا وتعصّبًا أو محرّمًا من المحرّمات، كان يواجهه مواجهة المصارع

لقرن ثور أمامه. حسب رأيه، مررت شخصيًّا بتجربة واختبرت، حالات ومراحل، جعلتني كلّ واحدة منها أبدو أكثر جنونًا حتى في عيون أخلص أتباعي. كان لي في ما مضى من الزمان عدد كبير من المعجبين. أمّا اليوم فقد تخلّصت من حاجتي إلى جمهور. وتمكّن شمس من تحطيم سمعتي بضربات الواحدة تلو الأخرى. وتعلّمت بسببه قيمة الجنون وأصبحت أعرف طعم الوحدة واليأس والافتراء والعزلة، وأخيرًا انفطار القلب:

كلّ ما تراه مربحًا، ابتعد عنه!
اشرب السمّ واسكب بعيدًا ماء الحياة!
اهجر الأمان وعش في أماكن مخيفة!
اهجر السمعة الحسنة وكن بلا حياء!

ألسنا كلّنا سنخضع إلى المحاكمة في نهاية المطاف؟ ففي كلّ يوم، وفي كلّ دقيقة، يسألنا الله إن كنّا نذكر الميثاق الذي أخذناه على أنفسنا قبل أن يرسلنا إلى هذا العالم.

إنّنا في معظم الأحيان غير مستعدّين للإجابة عن هذه الأسئلة، فهي أسئلة تثير خشيتنا، لكنّ الله صبور، فيسألنا مرّات ومرّات.

وإذا كان وجع القلب هذا جزءًا من اختبار، فإنّ أمنيتي الوحيدة هي العثور على شمس في نهاية هذا الاختبار. وأنا على أتمّ الاستعداد للتخلّي عن كتبي أو خطبي أو أسرتي أو ثروتي أو اسمي أو أيّ شيء وكلّ شيء من أجل أن أحظى برؤية وجهه مرّة أخرى.

إنّ فمي يفيض بأبيات من الشعر فيضًا دائمًا وطوعًا، وإذا ما أصغى الفرد لها فقد يستنتج أنّني أصبحت شاعرًا حقًّا. سلطان اللغة! لكنّ الحقيقة، على قدر ما يمكنني أن أقول إنّ القصائد ليست من تأليفي، بل أنا لست سوى واسطة للحروف التي وُضعت في فمي، فشأني شأن القلم الذي يدوّن الكلمات التي يؤمر بتدوينها أو شأن الناي الذي يعزف النغمات التي تنفخ فيه، كلّ ما هنالك هو أنّني أؤدّي دوري فحسب.

يا شمس تبريز المدهش! أين أنت؟

* * *

شمس

دمشق، نيسان ١٢٤٧

في الوقت الذي كان فيه فصل الربيع في قمّة أوجه في دمشق، وكان قد مضى على رحيلي عن قونية عشرة أشهر، عثر سلطان ولد علي. كنت ألعب الشطرنج تحت سماء زرقاء صافية مع ناسك نصراني اسمه فرنسيس. وكان هذا رجلاً تصعب إمالة توازنه الداخلي، رجلاً عرف معنى التسليم، ولَما كان الإسلام يعني السلام الداخلي الذي يأتي من التسليم، فإنّ فرنسيس كان في نظري أكثر إسلامًا من عدد كبير ممّن يزعمون أنّهم مسلمون. تُفيد واحدة من القواعد الأربعين:

(التسليم لا يعني أن تكون ضعيفًا ولا سلبيًا، ولا تؤدّي إلى القدريّة ولا إلى الاستسلام، بل على العكس من ذلك. إنّ القوى الحقيقيّة تكمن في التسليم ـ القوّة تأتي من الداخل. فالذين يستسلمون لجوهر الحياة الربّاني سيعيشون في سلام وطمأنينة لا تشوبها شائبة حتى عندما يمرّ العالم الواسع كلّه في فوضى، الواحدة تلو الأخرى).

حرّكت وزيري كي أرغم ملك فرنسيس على تغيير موقعه، وبقرار سريع وشجاع حرّك قلعته، فبدأ الشكّ يخامرني بأنّني سوف أخسر اللعبة عندما رفعت رأسي فوقعت عيناي على سلطان ولد.

قلت:

ـ تسرّني رؤيتك. إذًا قرّرت أن تبحث عنّي في نهاية المطاف.

رمقني بابتسامة يرثى لها، ثم تجهّم وجهه وألمّت به الدهشة عندما سمعني أخبره أنّني كنت أدرك الصراع الداخلي الذي مرّ به. بما أنّه رجل معروف بنزاهته، فإنّه لم ينكر الحقيقة.

ـ أنفقت بعض الوقت هائمًا في الجوار بدلاً من البحث عنك، ولكنّني لم أعد قادرًا على الاستمرار في التجوال بعد برهة من الزمان. لم أستطع الكذب على أبي، فجئت إلى دمشق وبدأت البحث عنك، ولكنّ العثور عليك لم يكن سهلاً.

قلت:

ـ أنت إنسان شريف وابن صالح. وستكون يومًا ما رفيقًا عظيمًا لوالدك.

هزّ سلطان ولد رأسه مكتئبًا.

ـ انت الصديق الوحيد الذي يحتاج إليه. أريدك أن ترجع إلى قونية في رفقتي. أبي بحاجة إليك.

تزاحمت أشياء كثيرة في ذهني لدى سماعي هذه الدعوة غير أنّها كانت كلّها أشياء غير واضحة في بادئ الأمر. وكانت ردّة فعل نفسي مشوبة بالخوف من فكرة العودة إلى مكان لم اكن فيه، على ما يبدو، موضع ترحيب:

(لا تصغ إليه، فقد انتهت مهمّتك، ولست مضطرًّا إلى الرجوع إلى قونية، وتذكّر ما قاله لك بابا زمان. إنّها محفوفة بمخاطر، وإذا ما رجعت إلى تلك البلدة، فلن تخرج منها ثانية).

كنت أبغي السفر من حول العالم، أن ألتقي أُناسًا جددًا، وأن أرى مدنًا جديدة. وكنت قد شغفت بدمشق أيضًا، وفي أماني أن أظلّ فيها بكلّ سهولة حتى يحين فصل الشتاء المقبل. إنّ السفر إلى مكان جديد يولّد في نفس الإنسان دومًا إحساسًا رهيبًا بالوحدة والحزن، ولكن وجود الله إلى جانبي جعلني راضيًا مرضيًّا في وحدتي وعزلتي.

لكنّني على الرّغم من ذلك كنت أعلم أنّ قلبي في قونية وأنّني اشتقت إلى الرومي شوقًا هائلاً حتى بات ذكر اسمه يعذّبني عذابًا شديدًا لا يمكن احتماله. وفي كلّ الأحوال، ما الفرق بين المدن التي أعيش فيها ما دام

الرومي ليس بجانبي؟ فحيثما يَعِش اِتّجه إليه.

حرّكت مليكي على رقعة الشطرنج، فتطايرت عينا فرنسيس على سعتهما وهو يتنبّه للوضع القاتل. لكنّ الشطرنج، كما في الحياة، فيه من الحركات التي تلجأ إليها من أجل الربح وثمّة حركات يتعيّن عليك الإقدام عليها لأنّها الحركات الصحيحة الواجب اتّخاذها.

أردت أن أقول له: لا يمكنك يا بنيّ أن تتعهّد مثل هذه التعهّدات. لا أحد يمكنه ذلك!

لكنّني بدلاً من ذلك، أومأت برأسي وقلت:

ـ أودّ أن أشهد غروب الشمس في دمشق مرّة أخرى. وفي وسعنا أن نرحل إلى قونية يوم غد.

انفرجت أسارير سلطان ولد ارتياحًا وقال:

ـ حقًّا؟ شكرًا لك. أنت لا تعرف ما يعني هذا لأبي.

ثم التفتّ إلى فرنسيس الذي كان ينتظر بفارغ الصبر كي أعود إلى اللعبة. ولمّا منحته جلّ اهتمامي، افترّ ثغره عن ابتسامة شيطانيّة، وقال بصوت يشي بالنصر:

ـ تنبّه يا صديقي. مات الشاه!

* * *

كيميا

قونية، أيّار ١٢٤٧

عاد شمس التبريزي إلى حياتي حاملاً نظرة غامقة في عينيه ونأيًا في سلوكه لم يكن من صفاته قبلاً. يبدو أنّه تغيّر تغيّرًا كبيرًا، فشعره طويل يصل إلى عينيه، بشرته سمراء بتأثير شمس دمشق، كما يبدو أصغر سنًّا وأكثر بهاء. لكن ثمّة شيئًا آخر فيه تغيّر لا أستطيع أن أفهمه. فضلاً عن جسارة عينيه السوداوين ووميضهما، فقد لاحظت الآن ألقًا جديدًا ينبعث منهما. لا أستطيع منع نفسي من الارتياب في أنّ له عينَيْ رجل شاهد بهما كلّ شيء ولم يعد راغبًا في الكفاح بعد اليوم.

لكنّني أعتقد أنّ تحوّلاً أشدّ عمقًا كان يحدث في شخص الرومي نفسه. فقد ظننت أنّ كلّ متاعبه ستتلاشى برجوع شمس، ولكن يبدو أنّ السبب لم يكن كذلك. ففي اليوم الذي رجع فيه شمس، حيّاه الرومي خارج أسوار المدينة بالزهور، ولكن ما إن خفّت الفرحة باللقاء في اليوم الأوّل حتى بات الرومي أشدّ قلقًا وعزلة من ذي قبل. أعتقد أنّني أعرف السبب، فبعد أن فقد شمسًا في المرّة الأولى، خشي أن يفقده ثانية. في وسعي أن أفهمه كما لم يفهمه أحد لأنّني أنا أيضًا أخشى أن أفقده.

الشخص الوحيد الذي أطلعه على مشاعري هي زوجة الرومي الراحلة جوهر. حسنًا، إنّها ليست شخصًا من الناحية الفنّيّة، ولكنّني لا أدعوها

شبحًا أيضًا. وهي تتحرّك حركة بطيئة مثل سريان ماء بطيء من حولي منذ اليوم الذي جئت فيه إلى هذا المنزل. وعلى الرّغم من أنّنا نتجاذب أطراف الحديث في كلّ المواضيع، فإنّ الموضوع الوحيد الذي كان مدار حديثنا مؤخّرًا هو شمس.

قلت لجوهر اليوم:

ـ يبدو الرومي شقيًّا اليوم، كم أتمنّى لو أستطيع مساعدته.

قالت جوهر على نحو مبهم:

ـ ربّما في وسعك مساعدته. ثمّة شيء يشغل باله في هذه الأيّام، ولكنّه لم يطلع عليه أحد حتى الآن.

سألت:

ـ ما هو؟

ـ يعتقد الرومي لو أنّ شمسًا تزوّج وأسّس أسرة فإنّ عداء أهل البلدة له سيخفّ قليلاً. وسيقلّ اللغط والقيل والقال، ولن يضطرّ شمس إلى الرحيل مجدّدًا.

توقّف قلبي عن الخفقان لحظة. شمس يتزوّج؟ لكن بمن؟

نظرت إليّ جوهر نظرة جانبيّة وقالت:

ـ إنّ الرومي يفكّر إن كنت ترغبين في الزواج من شمس.

صعقت، إذ لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي خطرت فيها فكرة الزواج ببالي. إنّني الآن في الخامسة عشرة، وأعرف أنّني بلغت سنّ الزواج، لكنّني أعرف أيضًا أنّ الفتيات اللواتي يتزوّجن يتغيّرن إلى ما لا نهاية. فثمّة نظرة جديدة تلوح في عيونهنّ، ويسلكن سلوكًا جديدًا إلى الحدّ الذي يدفع الناس إلى معاملتهنّ معاملة مختلفة وفي وسع الأطفال الصغار أنفسهم أن يميّزوا بين امرأة متزوّجة وأخرى غير متزوّجة.

ابتسمت جوهر ابتسامة رقيقة وأمسكت بيدي. كانت قد لاحظت أنّ قضيّة الزواج، وليس الزواج من شمس هي التي كانت تثير قلقي.

* * *

وفي عصر اليوم التالي ذهبت لرؤية الرومي، فوجدته مستغرقًا في قراءة كتاب تهافت التهافت(*).

قال في حبّ ومودّة:

ـ أخبريني يا كيميا، ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك؟

ـ عندما أتى والدي بي إليك، أخبرته بنفسك أنّ الفتاة لا يمكن أن تكون تلميذة جيّدة مثل الولد لأنّها لا بدّ أن تتزوّج وتربّي الأطفال. هل تذكر ذلك؟

أجاب الرومي وقد امتلأت عيناه البندقيّتان فضولاً:

ـ نعم أتذكّر ذلك.

ـ اليوم عاهدت نفسي على أن لا أتزوّج كي أبقى تلميذتك إلى الأبد.

ثم خفت صوتي فجأة تحت وطأة ما كنت خطّطت لقوله بعد ذلك:

ـ لكن ربّما كان ممكنًا الزواج وعدم الرحيل عن هذا البيت. أعني، إن تزوّجت من رجل يعيش هنا...

سأل الرومي:

ـ أتعنين أنّك ترغبين في الزواج من علاء الدين؟

ردّدت في هلع:

ـ علاء الدين؟

ما الذي جعله يظنّ أنّي أرغب في الزواج من علاء الدين؟ إنّه مثل أخي.

لا بدّ أنّ الرومي تنبّه لدهشتي، فقال:

ـ قبل أيّام جاءني علاء الدين وطلب منّي يدك.

شهقت، وكنت أدرك أنّ من غير اللائق أن تسأل الفتاة أسئلة كثيرة عن

(*) تهافت التهافت: كتاب لابن رشد، ردّ فيه على كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي الذي كان نقض فيه آراء فلاسفة اليونان وفلاسفة العرب الذين أخذوا عنهم كالفارابي وابن سينا. وقد أرجع خطأهم إلى عشرين مسألة، أهمّها: قدم العالم وحشر الأجساد ونظريّة السببيّة. تجدر الإشارة إلى أنّ لعلاء الدين الطوسي كتابًا بعنوان تهافت الفلاسفة على مثال كتاب الغزالي. (المترجم).

مثل هذه المواضيع، ولكنّني كنت متشوّقة لمعرفة ما هو أكثر من ذلك.

ـ وماذا قلت له أيّها المعلّم؟

ـ أخبرته أنّني لا بدّ أن أسألك رأيك أوّلاً.

فقلت بصوت متعثّر:

ـ أيّها المعلّم. . . لقد جئت لأخبرك أنّني أريد الزواج من شمس التبريزي.

رمقني الرومي بنظرة تنمّ عن عدم تصديق وقال:

ـ أأنت متأكّدة!

وقلت وفي أعماقي تتصارع الحاجة لقول ما هو أكثر مع الندم لأنّني تكلّمت أكثر ممّا ينبغي:

ـ قد يكون في ذلك نفع كبير من أوجه متعدّدة، وسوف يصبح شمس جزءًا من أسرتنا ولن يضطر إلى الرحيل من جديد.

سأل الرومي:

ـ أهذا هو السبب الذي يدفعك إلى الزواج منه؟ لمساعدته في البقاء هنا؟

قلت:

ـ لا، أعني، نعم، لكن ليس هذا هو السبب الوحيد. . . أعتقد أنّ شمسًا هو قدري.

هذا هو أقصى ما أستطيع الاعتراف به لأيّ شخص من أنّني أحبّ شمس التبريزي.

* * *

كانت كيرا هي أوّل من سمع بنبأ الزواج. فرحّبت به بابتسامة صغيرة وصمت مطبق، ولكن ما إن بقينا وحدنا في المنزل حتى راحت تطرح عليّ الأسئلة:

ـ أأنت متأكّدة أنّ هذه هي رغبتك؟ أتريدين الإقدام على ذلك لمساعدة الرومي؟ أنت ما زلت صغيرة السنّ، شابّة! ألا تظنّين أنّ عليك الزواج ممّن هو في مثل سنّك؟

قلت لها:

ـ يقول شمس إنّ الحدود كلّها وهميّة في حالة الحبّ.

تنهّدت كيرا بصوت عال وقالت وهي تحشر خصلة من شعرها الرمادي تحت وشاحها:

ـ أتمنّى يا طفلتي أن تكون الأمور بمثل هذه البساطة. إنّ شمسًا درويش جوّال، ورجل متمرّد، ومثله من الرجال لا يألفون الحياة المنزليّة، ولا يصلحون أزواجًا.

خلصت إلى القول مؤكّدة:

ـ لا بأس. يمكنه أن يتغيّر. سأمنحه من الحبّ والسعادة القدر الكبير الذي سيجعله يتغيّر، وسيتعلّم كي يصبح زوجًا صالحًا وأبًا نافعًا.

كان ذلك مسك الختام في حديثنا. ومهما رأت كيرا من تعابير كست وجهي، فإنّها لم تطرح أيّ اعتراض.

نمت نومًا هانئًا في تلك الليلة وشاعت فيّ البهجة والإصرار. ولم أعرف إلّا قليلاً أنّني كنت أرتكب أكثر الأخطاء التي ارتكبتها النساء على مرّ العصور شيوعًا وإيلامًا، وهي الاعتقاد اعتقادًا ساذجًا أنّ حبّهنّ يمكن أن يغيّر من الرجال الذين يغرمن بهم.

* * *

كيرا

قونية، أيّار ١٢٤٧

إنّ طرق موضوع عميق ودقيق مثل الحبّ أشبه بمحاولة القبض على ريح عاتية. يمكنك أن تحسّ بالأذى الذي تسبّبه الريح، ولكن ما من سبيل إلى تقليل سرعتها. وبعد مرور مدّة وجيزة، لم أطرح أيّ سؤال على كيميا لأنّني كنت مقتنعةً بأجوبتها بل لأنّني شاهدت في عينيها امرأة عاشقة. توقّفت عن طرح الأسئلة عن هذا الزواج، وقبلت به بوصفه واحدًا من تلك الأمور الغريبة في حياة ليست لي أيّ سيطرة عليها.

انقضى شهر رمضان انقضاء سريعًا وكان مملوءًا بالعمل والمشاغل حتى إنّني لم أجد الوقت الكافي لمناقشة هذه القضيّة من جديد. وصودف العيد في يوم الأحد. وبعد أربعة أيّام زوّجنا كيميا بشمس.

وفي المساء الذي سبق الزفاف حدث شيء غيّر من مزاجي برمّته. فقد كنت جالسة وحيدة في المطبخ، أمام لوح فرش عجين الخبز وشوبك العجين أعدّ أرغفة للضيوف. وعلى حين بغتة ومن دون أن أعرف ما كنت أفعل، بدأت أصنع شكلاً من الأشكال بكرة العجين بهيئة الأمّ مريم، أمّي مريم. واستخدمت السكّين لصنع ردائها الطويل ووجهها الهادئ المطمئن. وكنت منغمسة في عملي الانغماس كلّه حتى إنّني لم أتنبّه لوجود شخص ما يقف ورائي.

ـ ما الذي تصنعين يا كيرا؟

قفز فؤادي بين ضلوعي، ولمّا استدرت، شاهدت شمسًا يقف قرب الباب يراقبني بعينين فضوليّتين. فكّرت في أن أخفي قطعة العجين، ولكنّ الأوان كان قد فات، إذ كان شمس قد اقترب من الصينيّة وألقى نظرة إلى الشكل.

وسأل:

ـ أهذه مريم؟

ولمّا لم أجب عن سؤاله، التفت إليّ مشرق الملامح، منفرج الأسارير:

ـ إنّها جميلة. أتشتاقين إليها؟

قلت باقتضاب:

ـ لقد اعتنقت الإسلام منذ زمن بعيد، وأنا الآن امرأة مسلمة.

لكن شمس استرسل في الكلام كأنّه لم يسمعني:

ـ ربّما تفكّرين في نفسك عن السبب في عدم وجود شخصيّة نسائيّة مثل مريم في الدين الإسلامي. لكن هناك عائشة، على وجه التوكيد، وهناك فاطمة بلا أدنى ريب، ولكنّك قد تظنّين أنّ الأمر يختلف.

شعرت بعدم الارتياح، لا أعرف ما أقول.

وسأل شمس:

ـ هل لي أن أحكي لك حكاية؟

هذه هي الحكاية التي رواها لي:

(كان ثمّة أربعة مسافرين: يوناني وعربي وفارسي وتركي. ولدى وصولهم إحدى البلدات الصغيرة، قرّروا أن يتناولوا بعض الطعام. ولمّا لم يكن لديهم سوى مبلغ صغير من المال، فإنّه لم يكن أمامهم سوى خيار واحد. وقال كلّ واحد منهم أنّ لديه في ذهنه أعظم وجبة طعام في العالم. ولمّا سُئل كلّ واحد منهم عن ذلك الطعام، قال الفارسي: «انغور»، وقال اليوناني «ستافاليون» وطلب العربي «العنب» وطلب التركي «أوزوم». ولمّا لم يستطع كلّ واحد منهم أن يفهم لغة الآخر، بدأ الأربعة يتجادلون، وظلّوا يتخاصمون حتى ازدادوا استياءً وامتعاضًا بمرور الوقت إلى أن

قاطعهم صوفي كان يمرّ مصادفة من أمامهم. واشترى الصوفي بالمبلغ الذي جمعوه عنقود عنب، ثم وضع العنب في وعاء وضغط عليه بكلّ قوّته، وترك المسافرين الأربعة يشربون العصير ورمى بالقشور بعيدًا لأنّ المهمّ هو لبّ الفاكهة وليس مظهرها الخارجي).

قال شمس وابتسم لي ابتسامة حملت معها تلك الحماسة التي كان يصعب تجاهلها أو التأمّل فيها:

ـ النصارى واليهود والمسلمون يشبهون هؤلاء المسافرين. ففي حين يتخاصمون بشأن المظهر الخارجي، فإنّ الصوفي يسعى إلى الجوهر. إنّ ما أحاول قوله لك هو أنّه ليس من سبب أمامك يدفعك إلى الاشتياق إلى أمّك مريم، لأنّك لست مضطرة إلى التخلّي عنها وإهمالها في المقام الأوّل. فبوصفك امرأة مسلمة، يمكنك أن تشعري دومًا بأنّك متّصلة بها.

تلعثمت بالكلام:

ـ إنّني... لا أظنّ ذلك صحيحًا.

ـ لا أرى سببًا يحول دون ذلك. الأديان كالأنهار: كلّها تصبّ في بحر واحد، الأمّ مريم تمثّل الشفقة والرحمة والعطف والحبّ غير المشروط. وهي شخصيّة كونيّة. أمّا بوصفك امرأة مسلمة، فيمكنك أن تظلّي في حالة شوق إليها، وأن تسمّي ابنتك مريم.

قلت:

ـ ليست لديّ ابنة.

ـ ستكون لك ابنة.

ـ أتظنّ ذلك؟

ـ أعتقد ذلك.

شعرت بالحماسة لدى سماعي هذه الكلمات، ولكن ما هي إلّا برهة وجيزة حتى حلّ محلّها شعور آخر، شعور بالتضامن. فقد اشتركت أنا وشمس في لحظة واحدة غريبة من لحظات الهدوء والسكينة والانسجام وألقينا نظرة إلى شكل مريم الأمّ. فقد استشعر فؤادي محبّة كبيرة ومودّة

شديدة تجاه شمس وللمرّة الأولى منذ مجيئه إلى بيتنا، تمكّنت من أن أرى ما رآه الرومي فيه: رجلاً كبير القلب.

ولكن على الرّغم من ذلك، ساورتني الشكوك في أنّه ينفع زوجًا صالحًا لكيميا.

* * *

إيلّا

بوسطن، ٢٩ حزيران ٢٠٠٨

عندما وصلت إيلّا الفندق، كانت بالغة التوتّر، لا تقدر على التفكير تفكيرًا صائبًا. ثمّة طائفة من السيّاح اليابانيّين في الردهة بدوا جميعًا في السبعين من العمر، وبقصّة شعر متشابهة. اجتازت الردهة وتأمّلت اللوحات الفنّيّة المعلّقة على الجدران كي تتجنّب النظر إلى عيون الناس من حولها. لكن فضولها لم يستغرق وقتًا طويلاً كي يهزم خجلها. وفي اللحظة التي انزلقت نظرتها إلى مكان الاجتماع، شاهدته يتطلّع إليها.

كان يرتدي قميصًا بأزرار مثبّتة إلى الأسفل، وبنطالاً من القطن المتين الصنع، غامق اللون، لحيته لا يتجاوز عمرها أكثر من يومين جعلته يبدو، كما ظننت، جذّابًا. وكان شعره الأشعث الكستنائي ينسدل فوق عينيه الخضراوين ممّا أضفى عليه مسحة من الثقة والمشاكسة في آن واحد. وكان نحيل القامة، طويلاً، خفيفًا، رشيق الحركة، ويختلف اختلافًا شديدًا عن ديڤيد الذي كان يرتدي بذلات باهظة الثمن يصنعها له أحد الخيّاطين. كانت لهجته اسكتلنديّة، فوجدتها أخّاذة، ساحرة، وكان يبتسم ابتسامة طبيعيّة بكلّ يسر وسهولة، ويبدو سعيدًا حقًّا ومبتهجًا للقائهما. ولم تستطع إيلّا منع نفسها من التساؤل إن كان ثمّة أيّ مانع يحول دون تناولها فنجان قهوة وإيّاه.

وفي وقت لاحق، لن تستطيع أن تتذكّر أنّ فنجانًا واحدًا من القهوة

أضحى بضعة فناجين، أو أنّ الحديث اكتسب على نحو متزايد لمسة حميمة، أو أنّه في لحظة من اللحظات طبع قبلة على أطراف أصابع يدها، تمامًا مثلما لن تستطيع أن توضح السبب في عدم فعلها أيّ شيء لإيقافه. فبعد برهة من الزمان لم يعد ثمّة شيء يهمّ ما دام أنّه ظلّ مسترسلاً في حديثه، وظلّت هي تحدّق طويلاً إلى الغمّازتين على جانبي فمه، مفكّرة في نفسها عن طعم القبلة التي يمكن لها أن تطبعها عليها. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، وهي في فندق، رفقة رجل لا تعرف أيّ شيء عنه باستثناء بعض الرسائل والمكالمات الهاتفيّة المتبادلة ومخطوطة الرواية التي ألّفها.

وسألت إيلّا:

ـ إذًا جئت إلى هنا من أجل مجلّة سميثسونيان؟

أجاب عزيز:

ـ في الحقّ، جئت من أجلك أنت. فقد أردت رؤيتك بعد أن قرأت رسالتك.

ومع هذا فثمّة طرق ممكنة للخروج من هذا الطريق السريع جدًّا. فإلى لحظة ما، بقي ثمّة احتمال في التظاهر بأنّ كلّ شيء كان يسير سيرًا وديًّا ـ الرسائل المتبادلة والاتّصالات الهاتفيّة، وحتى النظرات الخاطفة. ربّما حدثت بعض المغازلات وشيء من العبث، لكن لا شيء أكثر من ذلك. كان في وسعها أن ترسم خطًّا، ولكنّه سألها:

ـ أتحبّين أن تأتي إلى غرفتي يا إيلّا؟

إن كانت هذه لعبة يلعبها كلاهما، فقد دخلت اللعبة الآن مرحلة خطيرة. فسؤاله أضفى قدرًا كبيرًا جدًّا من الواقعيّة كأنّ ثمّة غطاء رفع وبانت من تحته الحقيقة، الحقيقة العارية التي راحت تنظر إليها. شعرت إيلّا باضطراب في معدتها وعدم ارتياح أدركت أنّه ذعر وهلع، ولكنّها لم ترفض طلبه. فهذا هو أكثر القرارات اندفاعًا وتهوّرًا في حياتها، ولكنّها على الرّغم من ذلك شعرت في الوقت نفسه أنّ القرار قد اتّخذ بالإنابة عنها. وكلّ ما عليها فعله هو القبول به.

* * *

كانت الغرفة ٦٠٨ مطليّة بألوان بهيجة، بدرجات من الأحمر والرمادي والأسود والعسلي الغامق. كانت غرفة فسيحة ودافئة. وحاولت أن تتذكّر آخر مرّة نزلت في فندق ما. وقفزت إلى ذهنها رحلة إلى مونتريال رفقة زوجها وأولادها منذ زمن بعيد. أمّا بعد ذلك، فقد كانوا ينفقون أيّام عطلاتهم في بيتهم في رود إيلاند، إذ لم يكن لديها مبرّر يدفعها إلى البقاء في مكان تغيّر فيه المناشف كلّ يوم، ويحضر لها الآخرون طعام الفطور. المكوث في غرفة في فندق يشبه البقاء في بلد آخر. ولعلّ الأمر كان كذلك. واستطاعت منذ الآن أن تشعر بالحرّيّة القلقة التي يمكن للفرد أن يستمتع بها في مدينة يكون سكّانها غرباء كلّهم.

لكن ما إن دخلت الغرفة حتى عاد إليها توتّرها. فبصرف النظر عن أناقة المحتويات وحجم الغرفة الواسع، فإنّ السرير المزدوج الكبير كان في وسطها، وكان وقوفها إلى جانب السرير قد جعلها تشعر بالارتباك والذنب. وراحت تواجه أسئلة تلحّ عليها من الداخل، من دون أن تصل إلى نتيجة: هل تراهما سيمارسان الحبّ الآن؟ أينبغي لهما ذلك؟ وإذا ما فعلت ذلك، فكيف يمكنها أن تنظر في عينَيْ زوجها بعد الآن؟ لكن ديفيد لم يشعر بأي صعوبة عند النظر إليها نظرة مباشرة على الرّغم من مغامراته العاطفيّة. ثم ما الذي سيظنّه عزيز بجسدها؟ ماذا لو لم ترقه؟ ألا ينبغي لها التفكير في أطفالها في هذه اللحظة؟ أتراهم خلدوا إلى النوم أم ما زالوا يشاهدون التلفاز في هذه الساعة؟ لو علموا بما ستفعله الآن، فهل سيغفرون لها صنيعها؟

أدرك عزيز ترقّبها وقلقها. فأمسك بيدها، وسار بها نحو كرسي في ركن من أركان الغرفة بعيدًا عن السرير.

همس:

ـ اهدئي، فذهنك مزدحم بأشياء كثيرة، بأصوات غير قليلة.

وسمعت إيلّا نفسها وهي تردّد:

ـ أتمنّى لو أنّنا التقينا قبل الآن.

قال عزيز:

ـ ما من شيء هو قبل الآن أو بعد الآن، لأنّ كلّ شيء يحدث في الوقت المناسب.

ـ أتؤمن حقًّا بذلك؟

ابتسم ودفع خصلة من الشعر بعيدًا عن عينيه، ثم فتح حقيبة وأخرج منها قطعة السجّادة التي اشتراها من غواتيمالا وعلبة صغيرة تبيّن أنّها تحتوي على قلادة ذات كرات فيروزيّة ومرجانيّة، ودرويش راقص فضّي اللون.

سمحت له إيلّا أن يضع القلادة من حول رقبتها، وعندما لمست أصابعه بشرتها شعرت بدفئها. وسألت:

ـ أيمكنك أن تحبّني؟

ابتسم عزيز:

ـ إنّني أحبّك حقًّا.

ـ لكنّك لا تعرفني!

ـ لست مضطرًّا إلى أن أعرفك.

تنهّدت إيلّا.

ـ هذا جنون.

مدّ عزيز يده من خلفها وجذب الدبوس فانسدل شعرها إلى أسفل، وقادها برفق إلى السرير. ثم حرّك راحتي يديه من قدميها ومرّ بكاحليها حتى وصل إلى بطنها. وكانت شفتاه طوال هذا الوقت تردّد كلمات بدت أشبه بشيفرة سرّيّة موغلة في القدم. وفهمت كلّ شيء بغتة. كان منهمكًا في الدعاء، وكان يدلك كلّ جزء من أجزاء جسدها، مغمض العينين، يدعو لها. كانت لحظة روحيّة لم يسبق لها أن مرّت بها. وعلى الرّغم من أنّها كانت ما تزال مرتدية ملابسها، وكان هو أيضًا مرتديًا ملابسه، وما من شهوة تجمع بينهما، فقد شعرت بإثارة لم تشعر بها من قبل.

وعلى حين بغتة، بدأت راحة كفّيها ومرفقاها وكتفاها وكلّ جسدها

ينبض بطاقة غريبة، وشعرت برغبة عارمة تستحوذ عليها وكأنّها تطفو من فوق أمواج دافئة لا تستطيع عمل أيّ شيء إزاءها سوى الخضوع والاستسلام لها، والابتسام. وشعرت بحضوره الطاغي مثلما شعرت بحضورها هي أيضًا كأنّ الاثنين يغمرهما ضياء.

أغمضت هي الأخرى عينيها الآن، وانجرفت في تيّار نهر هائج دون أن تمسك أيّ شيء. ربّما ثمّة شلّال في نهاية التيّار، ولكن حتى لو تمكّنت من وقفه، فإنّها لم تكن متأكّدة أنّها تريد إيقافه.

شعرت إيلّا بالنار تتّقد بين ساقيها عندما وصلت يده إلى بطنها وبدأت ترسم دائرة من فوقها. شعرت أنّ جسدها بات يفتقر إلى الأمان تمامًا مثل خصريها وفخذيها ونهديها وكانت كلّها أبعد ما تكون عن المظهر المثالي الكامل بعد أن أنجبت ثلاثة أطفال وتقدّم بها العمر كلّ هذه السنين. لكنّ القلق انتابها مرّة وتلاشى مرّة أخرى. ساورها الإحساس بالجذل والحبور وبأنّها آمنة إلى حدّ كبير، فمرّت بحالة من السعادة ممّا جعلها تُدرك أنّ في إمكانها أنّ تحبّ هذا الرجل. في إمكانها أنّ تحبّه حبًّا جمًّا.

بمثل هذه المشاعر التي استبدّت بها، طوّقته بذراعها وجذبته نحوها وهي على أهبّة الاستعداد للذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك، ولكنّه فتح عينيه لحظتئذ وطبع قبلة على حافّة أنفها وانسحب بعيدًا عنها.

فسألته مندهشة لهشاشة صوتها وضعفه:

ـ ألا تريدني؟

ـ لا أريد أن افعل شيئًا قد يجعلك حزينة بعد ذلك.

أدركت إيلّا أنّ نصفها يريد أن يبكي والنصف الآخر مبتهج. وخامرها إحساس غريب بخفّتها، ممّا أدّى إلى تشوّشها وارتباكها، لكن، لدهشتها الكبيرة، عرفت أنّها لا تمانع في هذا التشوّش والارتباك.

في تمام الساعة الواحدة والنصف ما بعد منتصف الليل، فتحت إيلّا باب شقّتها في بوسطن، واستلقت على الأريكة الجلديّة لا ترغب في النوم

على السرير الرئيس ليس لأنّها كانت تعلم أنّ زوجها كان يضاجع نساء أخريات على ذلك السرير بل لأنّها شاءت أن تفعل ذلك ليس إلّا، وكأنّ هذه الشقّة لم تعد ملكها الخاصّ بعد اليوم شأنها شأن غرفة في فندق، كأنّها ضيف على هذا المكان، وإن نفسها الحقيقيّة تنتظر في مكان آخر.

* * *

شمس

قونية، أيّار ١٢٤٧

لا تبكي أيّتها العروس الحسناء
قولي وداعًا لأمّك ووداعًا لأبيك
ستسمعين الطيور تغرّد في الغد
وإن اختلف كلّ شيء

في ليلة زفافنا تسلّلت إلى فناء الدار وجلست هناك برهة وجيزة من الزمان أصغي لأغنية أناضوليّة قديمة تنبعث من المنزل وسط ضجيج أصوات أخرى كثيرة: ضحك وموسيقى وأقاويل. وعزفت النساء آلات موسيقيّة في الجناح الخاصّ بالنساء، فوقفت مفكّرًا ومنشدًا، مرتجفًا وشاعرًا بالخدر يدبّ في أوصالي في الوقت نفسه. فكّرت مليًا في كلمات الأغنية: ما السبب الذي يجعل النساء يغنّين أغاني حزينة على الدوام في ليالي الزفاف؟

الصوفيّون يقرنون الموت بالزفاف ويحتفلون باليوم الذي يحتضرون فيه على أنّه يوم لقائهم ربّهم. النساء أيضًا يربطن الزفاف بالموت وإن كانت الأسباب مختلفة اختلافًا شديدًا. فعلى الرّغم من الزواج زواجًا سعيدًا، فإنّ موجة من الحزن تخيّم عليهنّ، وفي كلّ حفلة من حفلات الزفاف، ثمّة حداد يُقام على العذراء التي ستتحوّل إلى زوجة ثم إلى أمّ.

بعد انصراف الضيوف، عدت إلى الدار وبدأت أفكّر في ركن هادئ من أركانه. ثم اتّجهت إلى الحجرة التي كانت كيميا تنتظرني فيها، فوجدتها جالسة على السرير مرتدية رداء أبيض مزخرفًا بخيوط ذهبيّة وشعرها في ضفائر متعدّدة، تزيّن كلّ ضفيرة مجموعة من الخرزات. كان يستحيل رؤية قسمات وجهها لأنّه كان مغطّى بقطعة سميكة من التول الأحمر. كانت الحجرة تخلو من الضياء باستثناء ذلك الضوء المتراقص المنبعث من شمعة على مقربة من النافذة. وكانت المرآة المعلّقة على الجدار مغطّاة بقطعة من قماش مخملي، كأنّ الحظّ السيّئ سيحيق بالعروس الشابّة إذا رأت صورتها منعكسة في المرآة في ليلة زفافها. وكانت ثمّة رمّانة وسكّين إلى جانب سريرنا كي نأكلها وننجب أولادًا بعدد الحبّات في داخلها.

كانت كيرا قد أخبرتني قبل الآن بالعادات المحلّيّة المتّبعة مذكّرةً إيّاي أن أُعطي العروس قلادة ونقودًا ذهبيّة عندما أزيح الخمار عن وجهها. ولكنّني لم أملك في حياتي كلّها نقودًا ذهبيّة، ولم أرغب في إلقاء التحيّة على عروسي بنقود اقترضتها من شخص آخر. لهذا عندما أزحت خمار كيميا، فإنّ كلّ ما فعلته هو أنّني قدّمت لها مشطًا مصنوعًا من عظم ظهر السلحفاة، وطبعت قبلة صغيرة على شفتيها، فابتسمت. وساورني لثانية إحساس بالخجل وكأنّني طفل ضائع.

قلت:

ـ أنت فاتنة الجمال.

فتورّد خدّاها حياء، ولكنّها انتصبت في جلستها، وبذلت أقصى ما في وسعها كي تبدو أكثر هدوءًا ونضوجًا من أيّ وقت مضى.

ثم أشارت إلى السجّادة الجميلة المفروشة على الأرض، والتي حاكتها بنفسها وفي عناية بالغة لتكون جزءًا من مهرها. ألوان تفيض حيويّة وفرحًا، متناقضة تناقضًا صارخًا. وما إن رأيتها حتى أدركت أنّ كلّ عقدة وكلّ صورة نقشت على السجادة إنّما كانت تخصّني. كانت كيميا تنسج أحلامها.

قبّلتها قبلة ثانية، فأرسلت حرارة شفتيها موجات من الرغبة سرت في جسدي برمّته. كانت تنبعث منها رائحة الياسمين والزهور البرّيّة. استلقيت

إلى جانبها وشممت رائحتها ولمست نهديها، فأحسست بهما صغيرين وقويين. كلّ ما أردته هو أن أتيه فيها. فمنحتني نفسها على النحو الذي يتفتّح فيه برعم زهرة للمطر.

وجذبت نفسي بغتة بعيدًا عنها وقلت:

ـ المعذرة يا كيميا. لا يمكنني الاستمرار في هذا.

رمقتني بنظرة، وكانت هادئة، حائرة، ونسيت حتى كيف تتنفّس. كانت خيبة الرجاء في عينيها أكبر من أن تحتملها. فوثبت واقفًا على قدمَيّ.

قلت:

ـ لا بدّ لي من الذهاب.

قالت كيميا بصوت غريب عنها:

ـ لا يمكنك الذهاب الآن. ما الذي سيقوله الأهالي إذا ما غادرت في هذه اللحظة. سيعرفون أنّ هذا الزواج لم يتمّ، وسيظنّون أنّني أنا السبب.

تمتمتُ مخاطبًا نفسي إلى حدّ ما لأنّني أدركت معنى كلامها:

ـ ماذا تعنين؟

أشاحت بنظرها جانبًا ونطقت بكلمات غير مفهومة قبل أن تسترسل في هدوء:

ـ سيظنّون أنّني لست عذراء، وعندئذ عليّ أن أعيش في خزي وعار.

شعرت بالدم يغلي في عروقي لأنّ المجتمع فرض مثل هذه القواعد السخيفة على الأفراد. إنّ قوانين الشرف لا تتّصل بالتناغم الذي أبدعه الله قدر ما تتّصل بالنظام الذي يريد البشر الحفاظ عليه.

اعترضت كيميا، ولكنّني كنت أعلم أنّ كيميا كانت على حقّ:

ـ كلام فارغ. على الناس أن يهتمّوا بشؤونهم.

وبحركة واحدة سريعة، أمسكت بالسكّين القريبة من الرمّانة، فشاهدت علامة تدلّ على الذعر وقد بانت على وجه كيميا، لتحلّ محلّها على أثر ذلك أمارات شخص ما أدرك مدى تعاسة الموقف الذي وضع فيه واضطر

إلى قبوله. وبلا تردّد جرحت راحة كفّي اليسرى، فبدأ الدم يقطر على ملاءة السرير تاركًا بقعًا قرمزيّة غامقة.

ـ حسبك أن تناوليهم هذه الملاءة، وسوف تغلق أفواههم، ويظلّ اسمك نقيًا ونظيفًا، على النحو الذي ينبغي أن يكون عليه.

توسّلت كيميا:

ـ انتظر أرجوك، لا تذهب!

ثم نهضت واقفة لا تدري ما تفعل، فكرّرت من جديد.

ـ إنّني زوجتك الآن.

أدركت لحظتئذ الخطأ الرهيب الذي ارتكبته بزواجي بها، واعتراني ألم شديد في رأسي وأنا أخرج من الحجرة وأتّجه نحو ظلمة الليل. رجل مثلي ما كان ينبغي له الزواج، فأنا لا أعرف كيف أؤدّي طقوس الزواج، وهذا ما رأيته بكلّ وضوح وجلاء. غير أنّ الذي زاد من حزني ومرارتي الثمن الذي دفعته لقاء هذه المعرفة.

استبدّت بي رغبة عارمة في الهروب من كلّ شيء، ليس من هذا المنزل وهذا الزواج وهذه البلدة فحسب، بل من هذا الجسد الذي مُنح لي. ومع هذا فإنّ فكرة رؤية الرومي في صباح اليوم المقبل أرغمتني على البقاء في هذا المكان، فأنا لا أستطيع هجره مرّة أخرى.

كنت في فخّ.

* * *

علاء الدين

قونية، أيّار ١٢٤٧

بعد أن اضطررت إلى اتّخاذ قرار كنت أعرف معرفة جيّدة أنّني سأندم عليه في وقت لاحق ندمًا شديدًا، التزمت جانب الصمت ولم أعترض صراحة على هذا الزواج. ولكن في اليوم الذي كانت ستتزوّج كيميا من شمس، استيقظت وقد دهمني ألم شديد لم يسبق لي أن عرفته. جلست في السرير لاهثًا لا أستطيع التنفّس كأنّني غريق ولكنّني بعد أن انزعجت من نفسي لاستغراقي في الشفقة على ذاتي صفعت وجهي مرّات ومرّات. وانطلقت تنهيدة من بين شفتيّ، فكان صوتها هو الذي جعلني أُدرك أنّني لم أعد ابن أبي بعد اليوم.

لم يكن لديّ أمّ، ولا أب. ولا أخ، ولا كيميا. كنت وحيدًا في هذا العالم، وتبخّر الشيء القليل المتبقّي من احترامي لأبي بين ليلة وضحاها. فكيميا أشبه بابنة من بناتي. وظننت أنّه اهتمّ بها ولكن يبدو أنّ الشخص الوحيد الذي كان يهتمّ به هو شمس التبريزي. كيف يسعه أن يزوّج كيميا من مثل هذا الرجل. يمكن لأيّ فرد أن يلاحظ أنّ شمسًا سيكون زوجًا بالغ السوء. وكلّما فكّرت في ذلك، اتّضح لي أكثر فأكثر أنّ أبي ضحّى بسعادة كيميا ــ وبسعادتي أيضًا، من أجل أنّ يجعل شمس آمنًا مطمئنًّا.

أنفقت النهار كلّه أكابد هذه الأفكار بينما كنت أراقب الاستعدادت. وزُيّن المنزل زينة رائعة ورشّ ماء في حجرة النوم التي سينام فيها العروسان

طردًا للأرواح الشرّيرة، ولكنّهم نسوا الشيطان الأكبر! كيف السبيل إلى اتّقاء شمس؟

وبحلول العصر، لم أعد أستطيع الاحتمال، واتّجهت نحو الباب مصمّمًا على ألّا أكون جزءًا من احتفال لا يعني لي إلّا العذاب المهين.

وجاءني صوت أخي من ورائي، عاليًا وحادًّا:

ـ انتظر يا علاء الدين! إلى أين أنت ذاهب؟

قلت من دون أن أنظر إليه:

ـ إنّني ذاهب لقضاء الليلة في بيت أرشد.

ـ هل جنّ جنونك؟ كيف لا يمكنك البقاء من أجل الزفاف؟ ولو سمع أبي بهذا التصرّف فسوف ينفطر فؤاده حزنًا وألمًا.

ساورني إحساس بهيجان معدتي وقلت:

ـ ماذا عن القلوب التي يفطرها أبي؟

ـ ما الذي تقوله؟

ـ ألا تفهم؟ لقد رتّب والدنا هذا الزواج ليدخل السرور في قلب شمس وليطمئن إلى أنّه لن يهرب من جديد! لقد قدّم له كيميا على صينيّة فضّة.

زمّ أخي شفتيه وبدا مستاء، وقال:

ـ أعرف ما الذي يدور في ذهنك من أفكار، ولكنّك مخطئ. أنت تعتقد أنّ هذا الزواج قد تمّ بالإكراه على حين أنّ كيميا هي التي أرادت أن تتزوّج من شمس.

قلت في حدّة ونزق:

ـ كأنّها تملك خيارًا في هذه القضيّة.

هتف أخي دهشًا، ورافعًا راحتي كفّيه نحو السماء كأنّه يستنجد بالله:

ـ آه يا الله! ألا تفهم؟ إنّها مغرمة بشمس!

فرقع صوتي كالثلج عندما يذوب:

ـ لا تقل هذا الكلام ثانية. هذا غير صحيح.

قال سلطان ولد:

ـ لا تدع مشاعرك تشوّش رؤيتك يا أخي. فأنت غيور، لكن حتى الغيرة يمكن أن تكون بنّاءة، نافعة لهدف أسمى. والإنكار نفسه يمكن أن يكون إيجابيًّا. تُفيد إحدى القواعد، وهي القاعدة الخامسة والثلاثون: (في هذا العالم، ليست الاختلافات أو العادات هي التي تأخذنا خطوة إلى الأمام، بل التناقضات الحادّة. وكلّ تناقضات هذا الكون كامنة في نفس كلّ واحد منّا. لهذا السبب، يحتاج المؤمن إلى لقاء غير المؤمن الموجود في أعماقه. وعلى من هو غير مؤمن أن يتعرّف إلى المؤمن الصامت في باطنه. وإلى أن يصل المرء يومًا ما إلى مرحلة النسيان الكامل، فإنّ الإيمان عمليّة تدريجيّة وتتطلّب ما يبدو نقيضها وهو اللاإيمان).

هذه هي القشّة الأخيرة في رأيي.

ـ أنظر يا هذا! أنا متخم حتى السأم من هذا الحديث الصوفي الشديد الحلاوة. يُضاف إلى هذا، لماذا يتعيّن عليّ أن أُصغي إليك؟ الغلطة غلطتك! كان ينبغي لك ترك شمس في دمشق. لماذا عدت به إلى هنا؟ وإذا ما زادت الأمور سوءًا، وأنا واثق أنّها ستزداد سوءًا، فأنت المسؤول وحدك.

قضم أخي دواخل فمه ورمقني بنظرة تنمّ عن ذعر، فأدركت لحظتئذ أنّه كان للمرّة الأولى في حياتنا يخشاني وأنّه خشي من الأشياء التي أقدر على فعلها. شعور رهيب ولكنّه يبعث على الاطمئنان على نحو غريب.

وفي طريقي إلى بيت أرشد، سلكت الشوارع الفرعيّة التي كانت تنبعث منها روائح عفنة وفاسدة كي لا يشاهدني أحد ما وأنا أبكي. ولم أستطع منع نفسي من التفكير بشيء واحد وهو أنّ شمسًا وكيميا ينامان على سرير واحد.

وأُصبت بالغثيان وأنا أفكر في شمس وهو يخلع عنها ثوب زفافها ويلمس بشرتها الحليبيّة بيديه الخشنتين القبيحتين. وانعقدت مصاريني ومعدتي.

عرفت أنّ خطأ قد جرى اجتيازه، وأنّ شخصًا ما لا بدّ من أن يفعل شيئًا ما.

* * *

كيميا

قونية، كانون الأوّل ١٢٤٧

عروس وعريس ـ هذا ما ينبغي أن نكون عليه. مرّت سبعة أشهر على زواجنا، وطوال هذه المدّة لم ينم بجانبي بوصفه زوجًا لي ولو مرّة واحدة. وبصرف النظر عن الجهد الذي بذلته كي أخفي الحقيقة عن الناس، فقد كنت أظنّ أنّهم يعرفونها. أخشى أحيانًا أن يكون خجلي واضحًا على وجهي. وكما هي الكتابة على الجبين، فإنّه كان أوّل شيء لاحظه الناظر إلى وجهي. وبينما أحدّث الجيران على الطريق أو أعمل في البستان أو أتعامل مع الباعة الجوّالين في السوق، فإنّ الأهالي، وحتى الغرباء، لا يحتاجون إلى أكثر من نظرة خاطفة كي يروا أنّني امرأة متزوّجة ولكنّني ما زلت عذراء.

ليست القضيّة هي أنّ شمسًا لم يأت إلى حجرتي، لأنّه كان يأتي حقًّا، ففي كلّ وقت كان يريد أن يزورني مساء تجده يستفسر منّي إن كانت الزيارة مناسبة. وفي كلّ مرّة كنت أجيب الإجابة نفسها:

ـ نعم. إنّها مناسبة، فأنت زوجي.

وهكذا أظلّ أنتظره طوال النهار في دهش وانفعال، مؤملة وداعية أن يتودّد إليّ زوجي في هذه المرّة، ولكنّه عندما يقرع الباب في نهاية المطاف أراه لا يريد أن يفعل شيئًا إلّا الجلوس والحديث. وكان يستمتع بالقراءة معي، وهكذا قرأنا مجنون ليلى وفرهاد وشيرين ويوسف وزليخا والوردة

والعندليب ـ وكلّها قصص عشّاق أحبّ أحدهم الآخر وسط ظروف غير مؤاتية. وعلى الرّغم من قوّة الشخصيّات الرئيسة وعزمها، فإنّني وجدت تلك القصص قابضة للصدر ومكدّرة. ربّما يرجع السبب إلى أنّني في أعماقي كنت أعرف أنّي لن أتذوّق الحبّ إلى هذه الدرجة.

وإذا لم ينشغل شمس بقراءة هذه القصص، فإنّه يتحدّث عن القواعد الأربعين لصوفيّي الإسلام الجوّالين ـ القواعد الأساسيّة للحبّ. وفي يوم ما، وضع رأسه في حضني وهو يشرح لي إحدى القواعد. وأغمض عينيه في بطء وخفت صوته حتى تحوّل همسًا واستسلم للنوم. وتخلّلت أصابعي شعره الطويل وقبّلت شفتاي جبينه، وبدا لي أنّ وقتًا طويلاً انقضى قبل أن يفتح عينيه، ويجذبني إليه ويقبّلني قبلة رقيقة. كانت أسعد لحظة مررنا بها معًا، ولكن لم يزد الأمر أكثر من ذلك. ما زال جسده حتى يومنا هذا قارّة مجهولة لي، تمامًا كما هو جسدي له.

في الأشهر السبعة الماضية، دلفت إلى حجرته بضع مرّات، ولكن في كلّ مرّة كنت أزوره فيها من دون سابق إنذار، كان فؤادي يتقلّص قلقًا لأنّني لا أعرف كيف سيستقبلني، إذ كان يستحيل توقّع طبع شمس ومزاجه، ففي بعض الأحيان تجده دافئًا، محبًّا فيجعلني أنسى كلّ أحزاني وهمومي، ولكنّه في أحيان أخرى يتحوّل نكدًا، رديء الطبع إلى أبعد الحدود. وذهب الأمر به في إحدى المرّات إلى أن صفق الباب في وجهي في قوّة وعنف وصرخ طالبًا منّي أن أتركه وحيدًا وشأنه. فتعلّمت ألّا أستاء أو أغتاظ منه تمامًا مثلما تعلّمت ألّا أزعجه عندما يكون مستغرقًا في تأمّل عميق.

تظاهرت على مدى أشهر طوال بعد الزواج بأنّني راضية مرضيّة، مع الآخرين ربّما أقلّ ممّا مع نفسي. وأجبرت نفسي على رؤية شمس لا بوصفه زوجًا لي بل بوصفه أيّ شيء آخر: صديقًا أو رفيقًا روحيًّا أو معلّمًا أو زميلاً أو حتى ابنًا. وفكّرت فيه حسب اليوم وحسب مزاجه، بوصفه هذا الشيء أو ذلك، فكنت أجعله يبدو في مخيّلتي بمظهر مختلف كلّ مرّة.

ونجح هذا الأمر مدّة من الزمن. وبدأت أنتظر موعد أحاديثنا وإن كنت لا أتوقّع الشيء الكثير. وسرّني كثيرًا أنّه كان يقدّر أفكاري حقّ تقديرها ويشجّعني على التفكير تفكيرًا يتّسم بالكثير من الإبداع. فتعلّمت منه

أشياء كثيرة وأدركت في الوقت المناسب أنّ بإمكاني أنا أيضًا أن أعلّمه بضعة أشياء مثل متعة الحياة الأسريّة التي لم يعرفها من قبل. وإلى يومنا هذا، أظنّني قادرة على أن أجعله يضحك كما لم يضحكه أحد غيري.

لكن هذا لم يكن كافيًا. فكلّ ما كنت أفعله، لم يحل بيني وبين التفكير أنّه لا يحبّني. لا ريب في أنّني أروقه، وأنّه يريد الخير لي، لكن هذا كلّه لا يدخل في نطاق الحبّ. لهذا كانت هذه الفكرة تثير هلعي، وتحطّمني في أعماقي، تنهش روحي وجسدي، حتى أصبحت منعزلة عن الناس من حولي، الأصدقاء والجيران على حدّ سواء. وفضّلت الآن المكوث في حجرتي أحدّث الموتى، فالموتى على العكس من الأحياء، لا يصدرون أحكامًا.

وباستثناء الأموات، فإنّ صديقتي الوحيدة كانت زهرة الصحراء.

ففي رغبتنا المشتركة في الابتعاد عن المجتمع والناس، أصبحنا صديقتين ودودتين، وقد أصبحت متصوّفة اليوم، وتحيا حياة منعزلة بعد أن تركت المبغى وراءها. وفي إحدى المرّات أخبرتها أنّني أحسدها على شجاعتها وإصرارها عندما بدأت الحياة من جديد.

وقد هزّت ساعتئذ رأسها وقالت:

ـ لكنّني لم أبدأ الحياة من جديد، كلّ ما فعلته هو أن أموت قبل أواني.

* * *

ذهبت اليوم لزيارة زهرة الصحراء لسبب مختلف تمامًا فقد وضعت نصب عينَيّ أن أحافظ على رباطة جأشي وأن أكلّمها كلامًا هادئًا، ولكن ما إن دلفت حجرتها حتى وجدت نفسي أجهش بالبكاء، وخنقتني العبرات.

فسألتني:

ـ هل أنت على ما يرام يا كيميا؟

اعترفت قائلة:

ـ لست على ما يرام، أظنّني بحاجة إلى مساعدتك. فقالت:

ـ مؤكّدًا. ما الذي يمكنني عمله من أجلك؟

أجبت متلعثمّة في بادئ الأمر، ولكنّني تمكّنت من إكمال كلامي:

ـ الأمر يخصّ شمسًا... إنّه لا يقترب منّي... أعني ليس على النحو المطلوب. أريد أن أجعل نفسي جذّابة له، وأريدك أن ترشديني إلى ذلك.

تنفّست زهرة الصحراء الصعداء وتنهّدت وقالت بصوت تشوبه مسحة من الوهن.

ـ لقد قطعت عهدًا على نفسي يا كيميا، وعلى الله، أن أبقى طاهرة وألّا أفكّر منذ ذلك اليوم بالطرق التي يمكن للمرأة أن تمنح الرجل اللذة.

فتوسّلت إليها:

ـ لكنّك ستنكثين بوعدك، وستساعدينني. إنّني بحاجة إلى أن أعرف كيف يمكنني أن أجعل من شمس سعيدًا.

قالت زهرة الصحراء وهي تخفض صوتها درجة كأنّها خائفة أن يسترق أحدهم السمع:

ـ إنّ شمسًا رجل متنوّر، ولا أظنّ أنّ هذا هو الأسلوب الصحيح للاقتراب منه.

قلت:

ـ ولكنّه رجل. صحيح؟ أليس الرجال أجمعين أبناء آدم، تربط بينهم رابطة الطبيعة البشريّة؟ وسواء أكان متنوّرًا أم غير متنوّر، فنحن لدينا أجسادنا، وحتى شمس لديه جسد. صحيح؟

ـ نعم، ولكن...

وهنا أمسكت زهرة الصحراء مسبحتها وراحت تسبّح ورأسها مائل استغراقًا في التفكير.

توسّلت إليها:

ـ أرجوك. أنت الوحيدة التي يمكنني أن أبوح لها بأسراري. لقد مرّت سبعة أشهر. أستيقظ كلّ صباح منقبضة الصدر وأخلد كلّ ليلة إلى النوم والدموع تترقرق في عينيّ. لا يمكنني الاستمرار على هذه الحال. إنّني أريد إغواء زوجي!

لم تتفوّه زهرة الصحراء بشيء، فما كان منّي إلّا أن خلعت وشاحي وأمسكت برأسها وأرغمتها على النظر إلى وجهي وقلت:

ـ أخبريني بالحقيقة. أأنا قبيحة الشكل؟

ـ لا على وجه التأكيد يا كيميا. فأنت شابّة حسناء.

فألححت في كلامي:

ـ ساعديني إذًا. علّميني ما السبيل إلى قلب الرجل.

قالت زهرة الصحراء على نحو ينذر بالشؤوم:

ـ السبيل إلى قلب الرجل يمكن أن يأخذ المرأة أحيانًا بعيدًا عن نفسها يا عزيزتي.

قلت:

ـ لا يهمّني. أنا على أهبّة الاستعداد للذهاب إلى أبعد حدّ ممكن.

* * *

زهرة الصحراء

قونية، كانون الأوّل ١٢٤٧

انفجرت باكية وراحت تتوسّل إليّ كي أساعدها، متورّمة الوجه، متنهّدة تنهّدًا سريعًا وشديدًا حتى أخبرتها في نهاية المطاف أنّني سأساعدها. ولكنّني أدركت في أعماقي وأنا أهدّئ من روعها أنّ القضيّة لا أمل فيها، وأدركت أيضًا أنّه ما كان ينبغي لي أن أرضخ لطلبها. ومع هذا، أتساءل في نفسي كيف أنّني لم أتوقّع حدوث هذه المأساة؟ ومزّقني الإحساس بالذنب وأنا أسأل نفسي مرّات ومرّات: كم كنت بالغة السذاجة فلم أدرك أنّ الأمور ستسير في مثل هذا المنعطف الرهيب؟

لكنّني لم أستطع بأيّ حال من الأحوال أن أردّ طلبها عندما جاءتني في ذلك اليوم تنشد مساعدتي باكية.

توسّلت إليّ قائلة معقودة اليدين في حضنها كأنّها فتاة رُبّيت كي تنشأ صالحة:

ـ علّميني من فضلك.

لم يكن ثمّة سبب يجعل صوتها مفعمًا بالأمل، لكنّه على الرّغم من ذلك كان مشحونًا بالأمل على أيّة حال. ما الضرر في ذلك؟ فكّرت، وقلبي يتمايل عطفًا عليها. يا الله، إنّها تريد إغواء زوجها، وليس شخصًا غريبًا! دافعها في ذلك واحد لا غير: الحبّ! كيف يمكن أن يؤدّي هذا إلى شيء غير صحيح؟ ربّما كانت مشبوبة العاطفة إلى أبعد الحدود، ولكن هذا

حلال. صحيح؟ عاطفة حلال!

راودني إحساس داخلي في وجود فخّ ما، لكن ما دام الله هو الذي صنعه، فإنّني لم أجد ضيرًا في دخوله. وهكذا قرّرت أن أساعد كيميا، تلك الفتاة القرويّة التي لا تفقه شيئًا عن مفهوم الجمال سوى وضع الحنّة في يديها.

علّمتها كيف تكون أكثر جاذبيّة وجمالاً، ووجدتها تلميذة مجتهدة، تتطلّع إلى المعرفة. وأوضحت لها كيف تستحمّ استحمامًا طويلاً في مياه معطّرة بالعطور، وتجعل بشرتها ناعمة بالزيوت والدهون المعبقة بالروائح، وأن تضع لها قناعًا على وجهها من الحليب والعسل. وأعطيتها خرزات كهرمانيّة تضعها في شعرها لتنبعث من رأسها رائحة عذبة فوّاحة ودائمة. وعلّمتها كيف تستخدم عطر الخزامى والبابونج والروزميري والصعتر والزنبق والعترة وزيت الزيتون فضلاً عن أنواع البخور التي يتعيّن عليها أن تشعلها ليلاً. وأوضحت لها كيف تبيّض أسنانها وتصبغ أظافرها ورجليها بالحنّة وكيف تستخدم الكحل لتجميل عينيها وحاجبيها وكيف تطلي شفتيها ووجنتيها باللون الأحمر وتجعل شعرها كثيفًا وحريريًّا ونهديها أكبر حجمًا وأكثر استدارة. وتوجّهنا معًا إلى أحد دكاكين السوق كنت أعرفه منذ زمن بعيد، واشترينا منه ثيابًا وملابس داخليّة حريريّة الصنع لم يسبق لها أن رأت مثلها أو لمستها من قبل.

ثم علّمتها كيف ترقص أمام الرجل وكيف تستخدم جسدها الذي منحها الله إيّاه. وبعد أسبوعين كاملين، باتت على أهبّة الاستعداد.

في عصر ذلك اليوم، أعدّت كيميا لشمس التبريزي على النحو الذي يعدّ فيه راعي الغنم حملاً وديعًا للذبح. وفي بادئ الأمر استحمّت بماء دافئ وفركت جسدها بقطع من قماش مشبعة بالصابون ودهنت شعرها بالزيوت. ثم ساعدتها في ارتداء نوع من الثياب لا ترتديها المرأة إلّا لزوجها، بل لا ترتديها حتى لزوجها إلّا مرّة أو مرّتين في حياتها. واخترت لها ثوبًا نسويًّا ضيّقًا بلون الكرز ورداء ورديًّا مزيّنًا بورود يراوح لونها بين البنفسجي الخفيف والأرجواني المعتدل، من النوع الذي يكشف نهديها. وأخيرًا، وضعنا كمّيّات كبيرة من مساحيق التجميل والتبرّج على وجهها،

فضلاً عن خيط من اللالئ على امتداد جبينها ممّا أضفى عليها لمسة بديعة وبدت غاية في الحسن والجمال حتى إنّني لم أتمكّن من أن أشخص بأنظاري بعيدًا عنها.

وعندما فرغنا من كلّ شيء، لم تبدو كيميا لي امرأة شابّة، خجولة وعديمة التجربة، بل كانت امرأة مشبوبة العاطفة توّاقة إلى الحبّ، امرأة على استعداد للإتيان بحركة جريئة من أجل الإنسان الذي أحبّت، ولدفع ثمن إن اقتضت الضرورة. وفيما كنت واقفة أتفحّصها، تذكّرت الآية التي أشارت إلى يوسف وزليخا في القرآن الكريم.

وكما هو شأن كيميا، فإنّ زليخا اشتدّت بها الرغبة نحو رجل لم يستجب لإغوائها. وعندما تجاذبت نساء المدينة الأحاديث في شأن زليخا على نحو خبيث، وجّهت زليخا لهنّ الدعوة لحضور مأدبة.

(فلّما سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ واعتدّت لهنّ متّكئًا وأتت كلّ واحدة سكّينًا وقالت اخرج فلمّا رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاشا لله ما هذا بشرًا إن هذا إلّا ملك كريم)(*).

من ذا الذي يمكنه أن يوجّه اللوم إلى زليخا لرغبتها في يوسف رغبة شديدة؟

* * *

وسألت كيميا في لهفة وقلق قبل أن ترتدي خمارها، وتستعدّ للخروج من الباب وتتّجه نحو الشارع.

ـ كيف أبدو؟

قلت:

ـ أنت غاية في الفتنة والجمال، وسيحبّك زوجك في هذه الليلة وكلّ ليلة.

احمرّ وجه كيميا خجلاً فضحكت وبعد هنيهة شاركتني في ضحكتي فأحسست بدفء ضحكتها وكأنّها أشعّة شمس. كنت أعني ما قلت بعد أن

(*) سورة يوسف (١٢ : ٣١) (المترجم).

شعرت بالثقة في قدرتها على أن تجذب شمسا إليها، على النحو الذي تجذب فيه زهرة مشبعة برحيق حلو المذاق نحلة ما. ومع هذا، فعندما التقت أعيننا قبل أن تفتح الباب، شاهدت مسحة من الشكّ تزحف إلى نظراتها. وعلى حين بغتة ساورني إحساس غريب وألم في معدتي كأنّه نذير بوقوع ما هو سيّئ.

لكنّني لم أوقفها، بل كان ينبغي لي أن أعرف ما هو أكثر، كان ينبغي لي أن أتوقّع ما سيحدث، لأنّني لن أغفر لنفسي ما حييت.

* * *

كيميا

قونية، كانون الأوّل ١٢٤٧

شمس التبريزي إنسان جريء وذكي ومفعم بالحيويّة والنشاط يعرف الشيء الكثير عن الحبّ، ولكن شيئًا واحد لم يكن على معرفة به: عذاب الحبّ الذي لا يعوّض.

عندما ألبستني زهرةُ الصحراء الثيابَ في المساء، كنت مفعمةً بحماسة وتهوّر لم يسبق لي أن عرفت أنّهما متغلغلان في أعماقي. وقد ارتبكت ارتباكًا شديدًا وإن تشجّعت على نحو لم أعرفه عندما لامس حفيف الثوب الحريري جسدي وانبعث عبق الروائح العطرة منّي. وبعد أن أصبحت في بيتي، لاحظت شكلي على المرآة، وأدركت أنّ جسدي ليس ممتلئًا ولا لبنيًّا، كما أنّ صدري لم يكن كبيرًا على النحو الذي كنت أهواه، ولكنّني على الرّغم من كلّ ذلك فكّرت أنّني أبدو جميلة.

انتظرت حتى وثقت أنّ كلّ من في المنزل خلد إلى النوم، ثم لففت رأسي بوشاح طويل وسميك وسرت على أطراف أصابعي نحو غرفة شمس.

وما إن فتح الباب حتى هبّ قائلاً:

ـ لم أكن أتوقّع مجيئك يا كيميا.

قلت بعد أن خطوت إلى داخل الحجرة دون أن أنتظره كي يدعوني إلى الدخول:

ـ أريد رؤيتك. هل يمكنك أن تغلق الباب من فضلك؟

بدا شمس حائرًا، ولكنّه فعل ما أمر به.

وعندما أصبحنا وحدنا في الحجرة، استغرقت بضع ثوان كي ألمّ أطراف شجاعتي، ووليّته ظهري، وتنفّست في عمق، وفي حركة سريعة، خلعت وشاحي وردائي. ومن فوري شعرت بثقل نظرات زوجي المندهشة على ظهري، من أعلى عنقي وحتى قدميّ. وحيثما وقعت نظراته، أحسست بالدفء ولكن ذلك الدفء، سواء أكان حقيقيًّا أم متخيّلاً في ذهني، سرعان ما حلّت محلّه برودة الصمت الذي خيّم على الحجرة. كان صدري يعلو ويهبط من شدّة التوجّس، فقد كنت واقفة أمام شمس عارية وجذّابة كما الحوريّات في الجنّة.

في ذلك الصمت الثقيل، وقفنا نصغي إلى الريح في الخارج، تزمجر وتهدر وتعوي في جميع أرجاء المدينة.

سألني ببرود:

ـ ما الذي تظنّين أنّك فاعلة؟

تطلّب منّي قدر من الجهد كي أستجمع قواي وأقول:

ـ أريدك.

دار شمس التبريزي نصف دائرة من حولي ووقف أمامي مباشرة مجبرًا إيّاي على النظر إلى عينيه. شعرت بركبتيّ تلتويان من تحتي ولكنّني لم أحرّك ساكنًا، بل على العكس من ذلك تقدّمت منه خطوة وضغطت بجسدي على جسده وملت نحوه إمالةً خفيفة مانحة إيّاه دفء جسد على النحو الذي علّمتني إيّاه زهرة الصحراء.

ربت بلطف على صدره وهمست ببضع كلمات حبّ رقيقة، وتنسّمت عطره وأنا أحرّك أصابعي على امتداد ظهره القوي النامي العضلات.

فما كان من شمس إلّا أن ابتعد كأنّه لمس مدفأة مستعرة:

ـ أتعتقدين أنّك تريدينني؟ أتظنّين هذا؟ إنّ كلّ ما تبغين هو إشباع الأنا الجريحة في داخلك.

طوّقته بذراعي وقبّلته قبلة عنيفة، ودفعت لساني في فمه، أضربه ضربًا

خفيفًا من الأمام ومن الخلف وأنا أتذكّر ما قالته لي زهرة الصحراء: «الرجال يحبّون أن يمصّوا ألسنة زوجاتهم يا كيميا. كلّهم سواسية».

كانت شفتا شمس بطعم التوت الأسود، عذبتين وحامضتين ولكن في اللحظة التي أحسست أنّ دوّامة من اللذة بدأت تخيّم عليّ وعلى شمس، وإذا به يوقفني ويدفعني بعيدًا عنه.

قال شمس:

خاب ظنّي فيك يا كيميا، والآن هلّا تفضّلت بالخروج من حجرتي!

وبقدر ما كانت كلماته فظّة وغليظة، فإنّ أيّة ذرّة من المشاعر لم تبد على وجهه.

لم أشعر بمثل هذه الإهانة والذلّ في حياتي. وانحنيت لأخذ ردائي ولكن يديَّ كانتا ترتجفان ارتجافًا عنيفًا لم أستطع معهما مسك الثوب الحريري الملمس. وعوضًا عن ذلك، أمسكت بوشاحي ولففته من حول جسدي. أجهشت بالبكاء وشهقت وهرعت نصف عارية خارج الحجرة وابتعدت عنه وعن هذا الحبّ الذي أدركت أنّه غير موجود إلّا في مخيّلتي.

* * *

ولم أشاهد شمسًا من بعد ذلك اليوم، فبعد ذلك اليوم لم أخرج من حجرتي وأنفقت جلّ وقتي مستلقية في فراشي لا أفتقر إلى الطاقة والحيويّة بقدر ما أفتقر إلى الإرادة للخروج. ومرّ أسبوع، وأسبوعان، ثم توقّفت عن عدّ الأيّام. واستهلكت كلّ قواي من جسدي وانزاحت عنّي شيئًا فشيئًا ونضبت، ولم يبق حيًّا سوى كفّي اللتين تذكّرتا ملمس يدي شمس ودفء جسده.

لم أعرف أنّ للموت رائحة، رائحة قويّة مثل زنجبيل مخلّل وشوك صنوبر مقطّع، مدبّب الرؤوس، مرّ الطعم، ولكن ليس سيّئًا بالضرورة. ولم أعرفه إلّا عندما راح ينبعث من حول حجرتي، فيغمرني مثل ضباب كثيف مشبع بالرطوبة. وبدأت حمّى عالية تعتريني جعلتني أنزلق إلى حالة الهذيان. وجاء الأهالي لزيارتي، الأصدقاء والجيران، وسهرت كيرا على أحد جانبي سريري متورّمة العينين، شاحبة كشحوب الموتى. ووقفت جوهر

على الجانب الآخر مبتسمة ابتسامتها الرقيقة كاشفة عن غمّازيتها.

قالت صفيّة:

ـ لعنة الله على ذلك المهرطق. لقد أُصيبت هذه الفتاة المسكينة بنوبة قلبيّة، وكلّ ذلك بسببه!

حاولت أن أتكلّم، ولكن صوتي لم يغادر حنجرتي.

قالت كيرا في محاولة لمساعدتها:

ـ كيف يمكنك التفوّه بمثل هذه الأقوال؟ أهو الله؟ كيف يمكنك أن تضفي مثل هذه القوى على بشر فانٍ؟

لكنّ أحدًا لم يصغ إلى كيرا، ولم أكن في حالة تتطلّب منّي أن أقنع أحدًا بأيّ شيء. لكن على أيّة حال، سرعان ما أدركت أنّني مهما قلت أو لم أقل، فالنتيجة واحدة. فالناس الذين لم يحبّوا شمسًا وجدوا فيه سببًا آخر في مرضي كي يزيدوا كراهيّتهم له. أمّا أنا فلم أستطع أن أكرهه حتى لو أردت ذلك.

ولم يمضِ وقت طويل حتى دخلت عالم اللاشيء والعدم، حيث انصهرت كلّ الألوان وتحوّلت إلى الأبيض، كما تحلّلت كلّ الأصوات وباتت لحنًا رتيبًا مستمرًّا. ولم أتمكّن من التعرّف على وجوه الناس بعد اليوم، ولم أستطع سماع الكلمات التي يتفوّهون بها اللّهم إلّا دندنة بعيدة في الخلف.

لا أدري إن كان شمس التبريزي قد جاء إلى حجرتي لزيارتي أم لا. ربّما لم يأت قطّ. أو لعلّه أراد رؤيتي لكنّ النساء الحاضرات في الحجرة لم يسمحن له بالدخول. أو لعلّه جاء في نهاية المطاف وجلس بجانب سريري وعزف لي على الناي ساعات طويلة وأمسك بيدي ودعا لروحي. كم أودّ أن أصدّق هذا كلّه.

ولكن لم يعد للأمر أيّة أهمّيّة بعد الآن، فأنا لست غاضبة ولا متكدّرة منه. وكيف يمكنني أن أغضب أو أتكدّر منه في حين أجدني طافية فوق جدول من اللاوعي الخالص؟

إنّ الله واسع الرحمة والعطف وعنده تفسير لكلّ شيء. ثمّة نظام كامل

من الحبّ وراء كلّ شيء. فبعد عشرة أيّام من زيارتي حجرة شمس متّشحة بثياب من حرير وتول معبق بالعطور، بعد عشرة أيّام دهمني المرض واندفعت إلى نهر من اللاوجود المحض. إنّني أسبح هناك راضية الفؤاد، شاعرة في نهاية الأمر أنّ هذا لا بدّ أن يكون أشبه بقراءة القرآن قراءة عميقة ـ نقطة في الأبديّة.

وكانت المياه الجارية هي التي نقلتني من الحياة إلى الموت.

* * *

إيلّا

بوسطن، ٣ تمّوز ٢٠٠٨

ظنّت إيلّا أنّ بوسطن لم تكن يومًا ما على ما هي عليه اليوم من نشاط وحيويّة. أتُراها لم تبصر جمال المدينة وبهاءها طوال هذا الوقت؟ أمضى عزيز خمسة أيّام في بوسطن، وكانت إيلّا تقود سيّارتها كلّ يوم من نورثهامبتون إلى بوسطن للقائه. كانا يتناولان غداء لذيذًا ومتواضعًا في مطعم ليتل إيتالي ويزوران متحف الفنون الجميلة ويتنزّهان طويلاً في حديقة بوسطن والواجهة المائيّة من المدينة فيراقبان الحيتان في الحوض المائي. تجاذبا أطراف الحديث مطوّلاً، وفي موضوعات متشعّبة كتشعّب غرابة الأكلات المحلّيّة وأساليب التأمّل المختلفة والفنّ البدائي والروايات القوطيّة ومراقبة الطيور والبستنة وزراعة أنواع مثالية من الطماطم وتفسير الأحلام، يقاطع أحدهما كلام الآخر أو يكمله. ولم تتذكّر إيلّا أنّها سبق أن تحدّثت مثل هذا الحديث المتواصل مع بشر.

وعندما كانا يخرجان إلى الشارع، فإنّهما يتنبّهان كي لا يلمس أحدهما الآخر، غير أنّ الأيّام أثبتت صعوبة الالتزام بذلك. وأضحت الهفوات الصغيرة مثيرة، وراحت إيلّا تتطلّع إلى لمسة من لمسات أيديهما. وتملّكتها شجاعة غريبة لم تألفها من قبل في المطاعم وفي الشوارع. فأمسكت بيد عزيز مقبّلة شفتيه، من دون أن تخشى نظرات الآخرين، وكأنّ جزءًا منها كان يتوق إلى من يتطلّع إليه. وعادا إلى الفندق مرّات ومرّات،

وفي كلّ مرّة، كادا أن يمارسا الحبّ ولكنّهما لم يفعلا شيئًا.

وفي صباح اليوم الذي كان مقرّرًا فيه رحيل عزيز إلى أمستردام، كان الاثنان في غرفته، حقيبته تقف بينهما كأنّها تذكّر على نحو خبيث لحظة الفراق المقبلة.

قالت إيلّا:

ـ ثمّة شيء أريد أن أخبرك به، وقد كنت أفكّر فيه منذ مدّة طويلة جدًّا.

رفع عزيز حاجبيه مقرًّا بالتحوّل المفاجئ في لهجة إيلّا. ثم قال في حذر:

ـ ثمّة شيء أريد أن أخبرك أنا به أيضًا...

ـ حسن، قل ما لديك أوّلاً.

ـ كلّا، قولي أنت ما لديك أوّلاً.

خفضت إيلّا من بصرها وهي ما تزال تبتسم نصف ابتسامتها المعهودة، وفكّرت في ما ينبغي لها أن تخبره به وكيف تخبره وأخيرًا راحت تتكلّم:

ـ قبل وصولك إلى بوسطن، خرجت أنا وديڤيد في مساء أحد الأيّام وتحدّثنا حديثًا طويلاً، وسألني عنك. الواضح أنّه قرأ رسائلك من دون علمي، وقد غضبت منه غضبًا شديدًا بسبب ذلك. ولكنّني لم أنكر الحقيقة. أعني الحقيقة عنّا.

وهنا رفعت إيلّا من بصرها متوجّسة لترى كيف سيكون ردّ فعل عزيز.

ـ باختصار، أخبرت زوجي أنّني مغرمة برجل آخر.

تناهت إليهما من الخارج أصوات صافرات سيّارات الإطفاء تخترق أصوات المدينة الاعتياديّة. فتشتّت انتباه إيلّا لحظة من الزمان، ولكنّها تمكّنت من أن تكمل كلامها بالقول:

ـ أعرف أنّ هذا يبدو الجنون بعينه، ولكنّني أفكّر فيه مرّات ومرّات بحرص وحذر. أريد الذهاب وإيّاك إلى أمستردام.

سار عزيز نحو النافذة وألقى نظرة إلى السيّارات المسرعة وإلى الحركة

الدائبة من تحت. ثمّة دخان كان ينبعث من أحد المباني على مسافة بعيدة ـ سحابة سوداء كثيفة تحوم في الجوّ. ودعا في صمت من أجل الناس الذين يسكنون في ذلك المبنى. ولمّا بدأ يتكلّم، بدا كلامه وكأنّه موجّه إلى المدينة برمّتها.

ـ كم أحبّ أن تصحبيني إلى أمستردام ولكنّني لا أستطيع أن أعدك بأيّ مستقبل فيها.

سألت إيلّا في عصبيّة:

ـ ماذا تعني؟

وهنا سار عزيز إلى الخلف وجلس إلى جانبها ووضع يده على يدها وربت عليها برفق وهو شارد البال ثم قال:

ـ عندما كتبت لي رسالتك الأولى، بدا ذلك في وقت غريب جدًّا في حياتي.

ـ أتعني أنّ ثمّة امرأة أخرى في حياتك؟

ابتسم عزيز ابتسامة باهتة سرعان ما تلاشت:

ـ لا يا عزيزتي، لا الأمر ليس على هذه الصورة. سبق أن كتبت لك عن المراحل الثلاث في حياتي. أتذكرين ذلك؟ تلك المراحل هي الحروف الثلاثة الأول من كلمة (صوفي). ولم تسأليني عن المرحلة الرابعة، وقد بذلت قصارى جهدي لأخبرك بها، أن أخبرك بصلتي بالحرف (ي). أترغبين في سماع القّصة الآن؟

قالت إيلّا وإن كانت تخشى أيّ شيء وكلّ شيء يمكن أن يقطع عليها هذه اللحظة:

- نعم.

* * *

في حجرة إحدى غرف الفندق، وفي ذلك النهار من شهر تمّوز، وقبل بضع ساعات من سفر عزيز عائدًا إلى أمستردام، أخبر إيلّا كيف أصبح صوفيًّا في العام ١٩٧٧ واتّخذ له اسمًا جديدًا، تمامًا مثلما اختار لنفسه قدرًا جديدًا، على حدّ تعبيره. ومنذ ذلك اليوم، ظلّ يطوف أرجاء العالم

بصفته مصوّرًا فوتوغرافيًّا محترفًا، وإن كان درويشًا جوّالاً في صميم فؤاده. واتّخذ له اصدقاء في ستّ قارّات، أصدقاء مقرّبين وجدوه فردًا من أفراد أسرهم. وعلى الرّغم من أنّه لم يتزوّج زواجًا ثانيًا، فقد تبنّى يتيمين من أيتام أوروبا الشرقيّة، ولم ينزع القلادة التي تمثّل شكل الشمس من رقبته كي تظلّ تذكّره بشمس التبريزي، وعاش حياته مسافرًا، يقرأ ويعلّم، سائرًا على خطى دراويش الصوفيّة ومطّلعًا على ما يدلّ على وجود الله في كلّ شيء وفي كلّ مكان.

ثم علم قبل عامين اثنين بمرضه.

بدا كلّ شيء بنتوء تحت إبطه، ويبدو أنّه تنبّه له في وقت متأخّر. واتّضح أنّ ذلك النتوء ليس سوى ورم خبيث وشكل مميت من أشكال سرطان الجلد. وقال الأطبّاء إنّ الأمر لا يبشّر بخير ولكن ينبغي لهم أنّ يجرّبوا عددًا من التحاليل قبل إعطائه تشخيصًا نهائيًّا أكثر دقّة وبعد مرور أسبوع عادوا حاملين خبرًا مزعجًا وهو أنّ الورم قد انتشر في أعضائه الداخليّة ودخل رئتيه.

في ذلك الوقت كان في سنّ الثانية والخمسين، وأخبره الأطبّاء أنّه لن يتمكّن من تجاوز سنّ الخامسة والخمسين.

حرّكت إيلّا شفتيها لتنطق بكلمة ما، ولكنّ الكلمات اختنقت في حنجرتها وجفّ ريقها، وانحدرت دمعتان أسفل خدّيها فعمدت إلى مسحهما من فورها.

استرسل عزيز في حديثه بنبرة قويّة وعاجلة، وقال إنّه بدأ على هذا النحو مرحلة جديدة من حياته، مرحلة أكثر خصبًا وعطاء من بعض الوجوه. فثمّة أماكن ما زال يرغب في مشاهدتها وكان أوّل شيء فعله هو العثور على وسيلة لزيارتها كلّها. فما كان منه إلّا أنّ أنشأ مؤسّسة صوفيّة في أمستردام ذات ارتباطات وصلات منتشرة في جميع بقاع العالم. ولَما كان عازف ناي هاويًا، فقد أقام حفلات رفقة عازفين صوفيّين في أندونيسيا وباكستان ومصر وأنتج ألبومًا غنائيًّا صحبة طائفة من الصوفيّين اليهود والمسلمين في قرطبة بإسبانيا، وعاد إلى المغرب وزار التكيّة التي يلتقي فيها صوفيّون حقيقيّون أوّل مرّة في حياته. كان المعلّم صمد قد قضى نحبه منذ زمن بعيد فما كان

من عزيز إلّا أن دعا وتأمّل بجانب قبره مفكّرًا في المسار الذي سلكته حياته.

وهنا غمز عزيز بعينه وأضاف:

ـ ثم عكفت على تأليف الرواية التي طالما أردت كتابتها ولكنّني بقيت أؤجّل تأليفها إلى ما لا نهاية بسبب من كسلي أو افتقاري إلى الشجاعة. أتدرين؟ إنّها من بين تلك الأشياء التي أردت إنجازها منذ أمد بعيد. وقد وضعت للرواية عنوان «تجديف عذب» وأرسلتها إلى دار نشر أميركيّة من دون أن أتوقّع الشيء الكثير، ولكنّني في الوقت نفسه راودني الإحساس بالانفتاح على كلّ الاحتمالات. وبعد مرور أسبوع واحد وصلتني رسالة مدهشة من امرأة غامضة في بوسطن.

لم تستطع إيلّا منع نفسها من الابتسام ابتسامة باهتة تنمّ عن مودّة واحترام، ابتسامة رقيقة موجعة.

وقال عزيز إنّه منذ تلك اللحظة لم تعد الأمور كما كانت من قبل، وتحوّل من رجل يستعدّ لمواجهة الموت إلى رجل عاشق في زمن غير متوقّع أبدًا، وعلى حين بغتة أدرك أنّ عليه أن يُحرّك الأشياء التي ظنّ منذ زمن بعيد أنّه وضعها في مكانها المناسب. الروحانيّة والحياة والأسرة والموت والإيمان والحبّ ـ وجد نفسه يُعيد التفكير في معانيها من جديد ولا يريد الموت.

وسمّى هذه المرحلة الجديدة والأخيرة من حياته مواجهة الحرف (ي) في كلمة «صوفي». وقال إنّ هذه المرحلة أثبتت أنّها أشدّ صعوبة من كلّ ما سبقها من مراحل لأنّها جاءت في وقت اعتقد أنّه تفوّق على معظم، إن لم يكن كلّ، الصراعات الداخليّة التي كانت تدور في أعماقه، في وقت ظنّ أنّه بات ناضجًا وراضيًا مرضيًّا من الناحية الروحيّة.

ـ الصوفيّة تعلّمك كيف تموتين قبل الموت. وقد مررت بهذه المراحل واحدة تلو الأخرى، وخطوة فخطوة. وفي حين بدأت أعتقد أنّني أكملت كلّ شيء، تظهر لي هذه المرأة من المجهول، فتكتب إليّ، وأردّ عليها. وبعد كلّ رسالة، كنت أنتظر جوابها محبوس الأنفاس، وغدت الكلمات أثمن من أيّ وقت مضى، وتحوّل العالم برمّته إلى شاشة بيضاء تنتظر من

يكتب عليها. أدرك أنّني أريد معرفة هذه المرأة، أحتاج إلى وقت أطول اقضيه وإيّاها، لكن على حين غرّة، لم تعد حياتي طويلة بما يكفي. وأدرك أنّني خائف من الموت، وأنّ جانبًا منّي على استعداد للتمرّد على ما كنت أقدّسه وأخضع له.

قالت إيلّا عندما تمكّنت من النطق أخيرًا:

ـ ولكن سيكون أمامنا الوقت. . .

قال عزيز مقاطعًا برقّة ولكن بثبات:

ـ يقول الأطبّاء إنّ أمامي ستّة عشر شهرًا. ربّما هم على خطأ، أو على صواب. لا يمكنني أن أعرف. وهكذا ترين يا إيلّا أنّ كلّ ما يمكنني أن أهبه لك هو اللحظة الراهنة. هذا كلّ ما أملك. لكنّ الحقيقة هي أنّ ما من أحد يملك أكثر من ذلك. كلّ ما هنالك أنّنا يروقنا أن نتظاهر بأنّنا نملك ما هو أكثر.

خفضت إيلّا بصرها ونظرت إلى قدميها، ثم مالت إلى الجانبين كأنّ جزءًا منها يوشك أن يسقط في حين يرفض الجزء الآخر. وبدأت تبكي.

ـ لا، أرجوك، أردت منك أن ترافقيني إلى أمستردام أكثر ممّا أردت أيّ شيء آخر. أردت أن أقول: لنسافر إلى جميع أنحاء العالم معًا، لنشاهد بقاعًا نائية، ونتعرّف إلى أُناس آخرين ولنتأمّل معًا في عجب ما خلقه الله.

قالت إيلّا متنشّقة الهواء كأنّها طفلة صغيرة أُعطيت دمية برّاقة الألوان أثناء بكائها بكاء شديدًا:

ـ هذا جميل.

بان الوجوم على وجه عزيز، وأشاح بنظرة بعيدًا عنها، إلى حيث النافذة.

ـ لكنّني كنت أخشى أن أطلب منك هذا المطلب. بل كنت أخشى حتى لمسك. كيف يمكنني أن أطلب منك أن ترافقيني وتهجري أسرتك في حين إنّني لا أملك مستقبلاً أمنحك إيّاه؟

قالت إيلّا منكمشة من هذا السؤال في خوف:

ـ لِمَ هذا التشاؤم. يمكنك أن تكافح هذا المرض. يمكنك أن تفعل

هذا من أجلي، من أجلنا.

أراد عزيز إجابة فسأل:

ـ لماذا يتعيّن علينا أن نكافح كلّ شيء على الدوام؟ إنّنا نكثر من الحديث عن مكافحة التضخّم، ومكافحة الإيدز ومكافحة السرطان ومكافحة الفساد ومكافحة الإرهاب وحتى مكافحة القليل من الزيادة في الوزن... أليس لدينا وسيلة أخرى نعالج بها الأشياء؟

قالت متذمرّة بصوت أجشّ وقد نفد صبرها، صوت شخص آخر أكبر سنًّا:

ـ لست صوفيّة.

في تلك اللحظة مرّت بخاطرها أفكار كثيرة: موت والدها والألم من فقدان شخص عزيز حدّ الانتحار وسنوات طويلة من الاستياء والندم التي أعقبت ذلك، والتغلغل في كلّ تفاصيل ذاكرة شخص ميت، وتساءلت في نفسها إن كانت الأشياء لتبدو مختلفة لو تغيّرت التفاصيل في مكان آخر.

ابتسم عزيز:

أعرف أنّك لست صوفيّة، وأنّك غير مضطرة لتكوني كذلك. حسبك أن تكوني مثل الرومي. هذا كلّ ما أطلبه منك.

سألت:

ـ ماذا تعني؟

ـ في وقت مضى سألتني إن كنت أنا شمس التبريزي. أتتذكّرين ذلك؟ قلت إنّني أذكّرك به. لا يمكنني أن أكون شمسًا وإن كنت سعيدًا لسماع ذلك. أعتقد أنّه يفوقني بمراحل كثيرة. ولكن في وسعك أن تكوني أنت الرومي إن سمحت للحبّ أن يهيمن عليك وأن يغيّرك، في البدء من خلال وجوده وبالتالي من خلال غيابه.

قالت إيلّا هذه المرّة:

ـ لست بشاعرة!

ـ لم يكن الرومي شاعرًا بدوره، ولكنّه تحوّل إلى شاعر.

هتفت إيلّا متقطّعة الأنفاس:

ـ ألا تفهم؟ لست سوى ربّة بيت يا الله، وأمّ لثلاثة أبناء؟

تمتم عزيز:

ـ إنّنا على ما نحن عليه كلّنا. ولكنّنا معرّضون إلى التغيير. إنّها رحلة من هنا إلى هناك. وفي وسعك أن تنجزي تلك الرحلة، وإذا ما كانت لديك شجاعة كافية وكنت أنا أيضًا شجاعًا بما يكفي، فيمكننا الذهاب معًا إلى قونية في نهاية المطاف، فأنا أريد أن أقضي نحبي في تلك المدينة.

شهقت إيلّا وقالت:

ـ كفّ عن مثل هذا الكلام!

راقبها عزيز برهة وجيزة ثم خفض بصره، وبانت على وجهه ملامح جديدة الآن، وباتت نبرته بعيدة كأنّه يبتعد في سرعة كبيرة، مثل ورقة يابسة تحت رحمة الريح.

وقال في بطء:

ـ أو عودي إلى البيت يا إيلّا، عودي إلى أبنائك وبيتك. أنت من يتّخذ القرار يا حبيبتي. ومهما كان خيارك، فسوف أحترم قرارك، وسأظلّ أحبّك إلى الأبد.

* * *

سليمان السكّير

قونية، آذار ١٢٤٨

دم وعرق ودموع. يظنّ الدخلاء أنّ السكارى قوم تنابل ليس لهم أيّ عمل آخر، ولا يعرفون إلّا معرفة قليلة أنّ شرب كمّيّات متزايدة من الخمرة في كلّ يوم يتطلّب جهدًا خارقًا. إنّنا نحمل عبء العالم على أكتافنا.

غلبني النعاس وأنا أضع رأسي على الطاولة بعد أن شعرت بالتعب والإرهاق ورداءة الطبع فحلمت حلمًا مزعجًا. ثمّة ثور أسود كبير الحجم، هائج هيجان نار جهنّم، يطاردني في شوارع غير مألوفة لي. وكنت أطلق ساقيّ للريح أمام الحيوان، لا أعرف ما الخطأ الذي ارتكبته، فهاج الحيوان وماج، ضاربًا منصّات الباعة ومحطّمًا بضاعتهم، مثيرًا بذلك غضب الباعة الجوّالين أجمعين في السوق. ومرقت في أحد الشوارع وأنا ما زلت أهرول مسرعًا فتبيّن لي أنّه شارع غير نافذ، ومنه اصطدمت ببيضة هائلة في حجمها، أكبر من منزل. وفجأة راحت البيضة تفقس وخرج منها أقبح فرخ طير مبلّلاً، كثير الضوضاء والضجيج. حاولت الخروج من الشارع ولكن أمّ الطائر ظهرت في السماء تحدّق إليّ من فوق كأنّني أنا المسؤول عن متابعة شكل صغيرها. وفي الوقت الذي بدأ فيه الطائر يهبط، منقاره المدبّب ومخالبه الحادّة موجّهة نحوي، استيقظت من نومي.

فتحت عينيّ وأدركت أنّني نمت من فوق الطاولة المجاورة للنافذة. وعلى الرّغم من أنّ مذاق فمي كان أشبه بمذاق المسامير الصدئة وإنّني كنت

أتحرّق من أجل شراب، شعرت بتعب شديد لا أقوى معه على الحركة. وهكذا بقيت مسندًا رأسي فوق الطاولة غارقًا أكثر فأكثر في سبات ومصغيًا للأصوات المألوفة في الخمّارة.

طرق سمعي جدل محتدم يرتفع وينخفض كأنّه طنين حشد من النحل، مصدره رجال جالسون من حول الطاولة المجاورة. وعلى الرّغم من أنّني فكّرت لحظتئذ في أن أدير رأسي لأتبيّن هويّتهم، فلم أحرّك ساكنًا. وعندئذ تناهت إلى مسمعي تلك الكلمة النذيرة بالشؤم: قتل. في بادئ الأمر طردت حديثهم من رأسي واعتبرته هذيان سكارى. فالمرء يسمع شتّى الأحاديث في أيّ خمّارة ويدرك في الوقت المناسب أنّه لا يتعيّن عليه أن يأخذ كلّ كلمة منطوقة على محمل الجدّ. لكن نبرتهم كان فيها من الخطورة وقوّة الإقناع ما دفعني إلى عدم التغاضي عنها، لهذا شنّفت أذنيّ وأصغيت في انتباه شديد. وتهدّل فكّي في عجب عندما تبيّن لي أنّهم جادّون في حديثهم. غير أنّ صدمتي ازدادت عندما عرفت من هو الشخص الذي كانوا يخطّطون لقتله: إنّه شمس التبريزي.

وما إن غادروا الطاولة حتى توقّفت عن التظاهر بالنوم ووثبت واقفًا على قدميّ.

صحت في ذعر:

ـ تعال هنا يا خريستوس! أسرع!

جاء خريستوس مهرولاً:

ـ ما خطبك في هذه المرّة؟ لَم أنت غاية في القلق؟

لكنّني لم أستطع إخباره، وأحسست فجأة أنّ كلّ الحاضرين موضع شكّ. لنفترض أنّ عددًا كبيرًا من الأهالي متورّط في هذه المؤامرة ضدّ شمس. ينبغي لي أن أبقى صامتًا، مفتوح العينين.

قلت:

ـ لا شيء! إنّني جائع لا أكثر. هلّا أتيتني بشيء من الشوربة. أرجو أن تضع فيها مقدارًا كبيرًا من الثوم، فأنا في حاجة إلى أن أصحو!

حدّق إليّ خريستوس بنظرة فضول، ولكنّه لم يسألني أيّ سؤال آخر

وهو المعتاد تقلّب مزاجي وطبعي. وجاءني بعد بضع دقائق بطاس من شوربة أمعاء الماعز، متبّلة وحارّة فالتهمتها على جناح السرعة فاحترق لساني. وبعد أن صحوت قليلاً، اندفعت إلى الشارع لكي أحذّر شمس التبريزي.

في البدء ذهبت إلى بيت الرومي، ولكنّني لم أجده، فاتّجهت إلى المسجد والمدرسة والمقهى والمخبز والحمّام... فتّشت في كلّ مكان، وفي كلّ مخزن وسرداب في شارع الحرفيّين. بل وفتّشت عنه في خيمة الغجريّة العجوز وسط الأطلال، إذ ربّما ذهب إلى تلك البقعة للتخلّص من سنّ يؤلمه أو من سحر استبدّ به. فتّشت عنه في جميع الأرجاء، وكان قلقي يزداد عليه بمرور الدقائق، وراح الخوف ينهشني. ماذا لو فات الأوان؟ ماذا لو كانوا قد قتلوه قبل الآن؟

بعد مرور ساعات، عدت إلى الخمّارة لا أدري أين أفتّش بعد الآن، مكتئبًا، منهوك القوى. وكما هو السحر، رأيته أمامي وجهًا لوجه على بعد بضع خطوات من مدخل الخمّارة.

قال لي مبتسمًا:

ـ أهلاً بك يا سليمان. تبدو منشغل البال.

هتفت متعجّبًا وأمسكت بذراعيه وعانقته:

ـ آه، يا الله! إنّك في قيد الحياة!

وعندما تمكّن من تخليص نفسه من بين ذراعيّ، حدّق إليّ وبدا مسرورًا، جذلاً، وقال:

ـ طبعًا أنا في قيد الحياة! أتراني أبدو لك مثل شبح من الأشباح؟

ابتسمت له، ولكن لمدّة قصيرة، فقد كان رأسي يؤلمني ألمًا شديدًا حتى إنّني لو كنت في وقت آخر لكرعت بضع زجاجات حتى الثمالة وبأسرع ما يمكن واستسلمت للنوم.

سألني شمس مرتابًا:

ـ ما الأمر يا صاحبي؟

ازدردت ريقي بصعوبة بالغة. ما الذي سيحدث لو لم يصدّقني إذا ما

أخبرته بشأن المؤامرة؟ ما الذي سيحدث لو ظنّ أنّي أهذي وأهلوس تحت أثر الخمرة؟ من يدري؟ ربّما كنت أهذي وأهلوس، فأنا غير متأكّد حتى من هذا الأمر.

قلت:

ـ إنّهم يخطّطون لاغتيالك. ليست لديّ أدنى فكرة عن هويّتهم، فأنا لم أشاهد وجوههم. أتدري، كنت قد استسلمت للنوم... ولكنّني لم أحلم بهذا الشيء، أعني أنّ حلمًا راودني حقًّا، ولكنّه ليس حلمًا كهذا الأمر. ولم أكن ثملاً. حسنًا، كنت قد احتسيت عددًا من الكؤوس، ولكنّني لم أكن...

وضع شمس يده فوق كتفي وقال:

ـ اهدأ يا صديقي. أفهم كلامك.

ـ صحيح؟

ـ نعم. والآن، عد إلى الخمّارة، ولا تقلق بشأني.

اعترضت قائلاً:

ـ كلّا، كلّا! لن أذهب إلى أيّ مكان، ولن تذهب أنت أيضًا. هؤلاء الناس خطرون، وينبغي لك أن تأخذ الحذر والحيطة. ولا يمكنك الرجوع إلى بيت الرومي، فذلك هو أوّل مكان سيفتّشون فيه عنك.

لبث شمس صامتًا متجاهلاً ذعري. قلت:

ـ اصغِ أيّها الدرويش. إنّ بيتي صغير وخانق إلى حدّ ما، ولكن إن كنت لا تمانع، فيمكنك البقاء وإيّاي أطول مدّة ترغب فيها.

تمتم شمس:

ـ شكرًا لاهتمامك، ولكن لا شيء يحدث بمنأى عن إرادة الله. إنّ إحدى القواعد تفيد: (إنّ هذا العالم قائم على مبدأ التبادليّة. فما من ذرّة من الحنان أو ذرّة من الشرّ بلا تبادل للأدوار أو تردّد في المواقع. فلا تهاب المؤامرات ولا الخديعة ولا حيل الآخرين. فإذا كاد أحدهم لغيره، فتذكّر أنّ الله خير الكائدين، ما من ورقة بذاتها تتحرّك إلّا بمعرفة الله. آمن بهذا إيمانًا تامًّا وبسيطًا. فكلّ ما يفعله الله، إنّما يفعله على نحو جميل).

بعد أن تفوّه شمس بمثل هذا الكلام غمز بعينه ولوّح لي مودّعًا، فراقبته وهو يشقّ طريقه مسرعًا وسط الشارع الموحل في متّجه منزل الرومي على الرّغم من كلّ تحذيراتي.

* * *

القاتل

قونية، آذار ١٢٤٨

أولاد زنا! أغبياء! أخبرتهم ألّا يأتوا معي، وشرحت لهم أنّني أعمل على الداوم منفردًا وأكره أن أرى زبائني يحشرون أنوفهم في قضاياي. ولكنّهم أصرّوا، معتقدين أنّهم لا بدّ أن يشاهدوا الدرويش ميتًا بأمّ أعينهم ما دام يتمتّع بقوى خارقة.

وفي نهاية المطاف أذعنت قائلاً:

ـ لا بأس، ولكن تأكّدوا من عدم اقترابكم منّي حتى ينتهي كلّ شيء.

فوافقوا. وهم ثلاثة الآن. اثنان عرفتهما في لقاء سابق وشخص ثالث جديد بدا شاحبًا ومتوتّرًا مثل الآخرين. كان الثلاثة يغطّون وجوههم بلثام أسود اللون وكأنّني مهتمّ بمعرفة هويّاتهم!

وبعد منتصف الليل، كنت خارج بيت الرومي، فقفزت من فوق السياج الحجري إلى فناء الدار واختبأت وراء إحدى الشجيرات. وأكّد لي زبائني أنّ شمس التبريزي اعتاد الاستغراق في التأمّل في فناء الدار كلّ ليلة، قبل الوضوء أو بعده، وأنّ كلّ ما ينبغي لي فعله هو الانتظار.

كانت ليلة اشتدّت فيها الرياح، باردة على نحو غير مألوف في مثل هذا الوقت من السنة. أحسست بالسيف ثقيلاً وباردًا في راحة يدي، وكانت الخرزتان المرجانيّتان اللتان تزيّنان قبضته خشنتي الملمس بين

أصابعي. وزيادة في اتّخاذ التدابير، فقد أحضرت معي خنجرًا صغيرًا في قرابه.

ثمّة هالة زرقاء شاحبة تلفّ القمر، وتناهت إليّ أصوات حيوانات ليليّة على مسافة بعيدة. وتنشّقت عبير الورود المنعش في الريح التي كانت تضرب الأشجار. الغريب أنّ الرائحة أثارت قلقي، فارتبكت. وحتى قبل وصولي المنزل، كنت في أفضل مزاج، أمّا الآن فقد انقلب مزاجي سيّئًا. وبينما أنا واقف في مكاني، تغمرني الروائح الطيّبة، لم أستطع منع نفسي من الإحساس بحافز قوي يدفعني إلى التخلّي عن الخطّة برمّتها ومغادرة هذا المكان الشجي في أسرع وقت.

لكنّني لبثت في مكاني وفاء لوعدي، لا أدري كم من الوقت مضى، وبدأت أجفاني تثقل، وظللت أتثاءب على الرّغم منّي ومع اشتداد هزيم الريح، ولسبب أجهله، راح عقلي يستذكر أحداثًا قاتمة مزعجة عن كلّ الرجال الذين قتلتهم. واعترتني الدهشة لما وجدتُ في نفسي من هواجس سيطرت عليّ. في الحقّ، لم أتوتّر عندما تذكّرت الماضي. ربّما كنت مستغرقًا في التفكير أو منطويًا على نفسي أو واجمًا بين حين آخر، ولكنّني لم أكن متوتّرًا قطّ.

دندنت ببضع أغان لتعزيز معنويّاتي، ولمّا لم أفلح في ذلك، ركّزت بصري في باب البيت الخلفي وهمست: (هيّا يا شمس، تعال ولا تجعلني أنتظر انتظارًا أطول ممّا ينبغي. أخرج إلى هذا الفناء).

لا صوت، لا حركة، لا شيء.

وعلى حين بغتة راحت السماء تمطر، واستطعت أن أشاهد من موقعي أسوار الفناء المائلة. وسرعان ما هطل المطر غزيرًا فتحوّلت الشوارع إلى أنهار وتبلّلت بللاً كاملاً.

وقلت:

ـ اللعنة! اللعنة! اللعنة!

فكّرت في التخلّي عن الفكرة في تلك الليلة عندما سمعتُ صوت حادّ من بين وقع حبّات المطر على الأسطح والطرقات. ثمّة شخص ما يحوم في فناء الدار.

كان الشخص شمس التبريزي، حاملاً مصباحًا زيتيًا في يده، ويتقدّم في اتّجاهي ولكنّه توقّف على بعد بضع خطوات من الشجيرة التي كنت متواريًا وراءها.

وسأل:

ـ يا لها من ليلة جميلة. صحيح؟

شهقت بعد أن عجزت عن احتواء تشوّشي وارتباكي. أهناك شخص آخر إلى جانبه، أم تراه كان يحدّث نفسه؟ أكان يدري أنّني هنا؟ أتُراه يعلم بوجودي؟ كانت الأسئلة تحتدم وتضطرم في دماغي.

ثم خامرني إحساس آخر. كيف يمكن للمصباح أن يبقى مشتعلاً وهو يحمله بيده على الرّغم من هزيم الريح والأمطار الغزيرة؟ وما إن مرّ بخاطري هذا السؤال حتى سرت قشعريرة في بدني.

وتذكّرت الإشاعات التي كانت تُحاك من حول شمس. فهو ماهر في السحر الأسود، كما يقول الأهالي، وفي إمكانه أن يحوّل أيّ شخص إلى حمار ينهق أو خفّاش أعمى بربط خيط صغير من رداء الشخص والتلفّظ بكلمات وتعاويذ شرّيرة. وعلى الرّغم من أنّني لم أصدّق مثل هذه التفاهات ولم أكن ناويًا تصديقها الآن، فإنّني لم أستطع البقاء ساكنًا في مكاني وكنت أرتعد أيضًا وأنا واقف أراقب شعلة مصباح شمس تومض من تحت المطر الغزير.

قال شمس وهو يضع المصباح على الأرض فأبعده عن ناظري:

ـ قبل سنين طويلة، كان لي معلّم في تبريز، وهو الذي علّمني أنّ لكلّ شيء وقتًا، وهذه هي إحدى القواعد الأخيرة.

أيّ قواعد يتحدّث عنها؟ أيّ كلام ملغّز هذا؟ عليّ أن أقرّر على جناح السرعة إن كان ينبغي لي أن أخرج من مخبأي أو الانتظار حتى يوليني ظهره ـ وهو ما لم يفعله. لو كان يعرف أنّي هنا فلا داعي للاختباء، وإذا لم يكن يعرف، فيتعيّن عليّ أن أحسب حسابًا صحيحًا متى يحين وقت خروجي إليه.

لكنّ اضطرابي ازداد أكثر من ذي قبل عندما لمحت أشباح ثلاثة أشخاص ينتظرون خارج سور الحديقة ويتحرّكون في قلق. لا بدّ أنّهم

يتساءلون عن السبب الذي منعني من التحرّك واغتيال الدرويش.

استرسل شمس في كلامه: إنّها القاعدة السابعة والثلاثون:

(إنّ الله صانع ساعات ذو مهارة كبيرة. وفي نظامه من الدقّة ما يجعل كلّ شيء على الكرة الأرضيّة يحدث في وقته المحدّد، لا دقيقة متأخّرًا ولا دقيقة مبكّرًا. والساعة تعمل عملاً دقيقًا مع كلّ شخص من دون استثناء، ولكلّ امرئ وقت للحبّ ووقت للموت).

في تلك اللحظة أدركت أنّه كان يكلّمني. كان يعلم بوجودي، يعلم به حتى قبل أن يخطو خطوته الأولى إلى فناء الدار. فبدأت دقّات قلبي تتسارع، وشعرت أنّ الهواء الذي يحيط بي من كلّ جانب قد تلاشى، ولم تعد ثمّة فائدة في الاختباء بعد الآن. وهكذا نهضت واقفًا ومشيت مبتعدًا عن الشجيرة. وتوقّفت الأمطار بالسرعة التي بدأت بها، واستقرّ صمت لفّ كلّ الأشياء. وقفنا وجهًا لوجه، القاتل والضحيّة، وعلى الرّغم من غرابة الموقف، بدا كلّ شيء طبيعيًا، آمنًا إلى حد كبير.

امتشقت سيفي ولوّحت به بكلّ ما أوتيت من قوّة لكنّ الدرويش تمكّن من تفادي الضربة بسرعة لم أتوقّعها من رجل في مثل حجمه. أوشكت أن أسدّد الضربة الثانية عندما بدت حركة عنيفة على حين بغتة في الظلمة الحالكة، وظهر للعيان ستّة رجال وهاجموا الدرويش بالهراوات والحربات. الواضح أنّ الشبّان الثلاثة أحضروا معهم أصدقاءهم، وكانت المعركة الدائرة رحاها الآن قد بلغت من العنف ما جعل الجميع يهوون على الأرض ويتقلّبون من فوقها، ويقفون على أقدامهم ليسقطوا من جديد وتتكسّر حرباتهم واحدة إثر الأخرى إلى قِطع صغيرة.

لبثت واقفًا أراقب المشهد في ذهول وغيظ، فانا لم يخدعني أحد من قبل ويجعلني أمثّل دور الشاهد على جريمة اغتيال قبضت ثمن تنفيذها مقدّمًا. غضبت غضبًا شديدًا من الرجال الثلاثة لغطرستهم وإهانتهم لي وإن كان في وسعي أن أدع الدرويش يذهب في سبيله بكلّ يسر وسهولة وأتفرّغ لمنازلتهم بدلاً من ذلك.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأ أحدهم يصرخ بصوت عال:

ـ النجدة! النجدة يا جاكال هيد! سوف يقتلنا.

وفي سرعة البرق رميت سيفي جانبًا وامتشقت خنجري من حزامي واندفعت إلى أمام، وطرحنا نحن السبعة الدرويشَ على الأرض، وبحركة سريعة واحدة سدّدت له طعنة في القلب، فندّت عنه حشرجة واحدة وتكسّر صوته ولم يتحرّك ثانية، بل لم يتنفّس.

رفعنا الجثّة معًا، وكانت خفيفة، ممّا يدعو إلى الاستغراب، ورميناها في البئر. تنشّقنا الهواء بصوت عال ثم تراجعنا كلّنا إلى الوراء وانتظرنا كي نسمع صوت الجثّة وهي تسقط في الماء.

ولكنّ الصوت لم يأت أبدًا.

قال أحد الرجال:

ـ ما الذي يجري بحقّ الجحيم؟ ألم يسقط في البئر؟

قال آخر:

ـ لقد سقط بطبيعة الحال. كيف يمكنه ألّا يسقط.

ساد الذعر، وكنت أنا مذعورًا أيضًا.

قال الرجل الثالث:

ـ ربّما علق جسده على كلاليب في الجدار.

كان هذا الرأي وجيهًا إذ لا بدّ من تفسير ما لتخفيف العبء الذي كانت تنوء به أكتافنا، وصدّقنا به على الرّغم من أنّنا كنّا نعلم جيّدًا أنّ جدران البئر خالية من الكلاليب.

لا أعلم كم من الوقت انتظرنا في ذلك المكان، متجنّبين النظر إلى عيون بعضنا إلى بعض. وانساب نسيم عليل في أرجاء الفناء وبعثر أوراق الصفصاف البنّيّة الرقيقة من حول أقدامنا. وفي السماء العالية من فوق رؤوسنا، راحت زرقة الصباح الغامقة تتحوّل إلى لون بنفسجي. كان يمكن لنا أن ننتظر حتى يتقدّم النهار لو لم يفتح باب البيت الخلفي ويخرج منه رجل، فعرفته من فوري. إنّه مولانا.

صاح بأعلى صوته، ثقيلاً مشحونًا بالقلق:

ـ أين أنت؟ أأنت هناك يا شمس؟

ما إن سمعنا اسمه حتى أطلقنا سيقاننا للريح. وقفز الرجال الستّة من

فوق أسوار الحديقة وتواروا تحت جنح الظلام. أمّا أنا فلبثت واقفًا في مكاني، أبحث عن خنجري، فوجدته تحت إحدى الشجيرات مغطّى بالوحل. أدركت أنّني يجب ألّا أضيّع الوقت بالمكوث هناك، وإن ثانية واحدة، ولكنّني لم أستطع مقاومة الإغراء بالنظر ورائي.

وعندما نظرت ورائي، شاهدت الرومي يتعثّر في سيره في الفناء، ويميل يسارًا في متّجه البئر وكأنّه ينقاد لحدس ما. وانحنى إلى أمام، وأمعن النظر إلى أسفل، وظلّ واقفًا على ذلك الحال لحظة واحدة، محاولاً أن يكيّف عينيه مع العتمة المنتشرة في باطن البئر. ثم انسحب إلى الوراء، وخرّ على ركبتيه، ولطم صدرة وأطلق صرخة مرعبة:

ـ قتلوه! قتلوا شمسًا!

قفزت من فوق السور تاركًا ورائي الخنجر ملطّخًا بدم الدرويش وركضت كما لم أركض من قبل.

* * *

إيلّا

نورثهامبتون، ١٢ آب ٢٠٠٨

يوم مشمس ومنعش من أيّام شهر آب الاعتياديّة. يوم كغيره من الأيّام. استيقظت إيلّا من نومها مبكّرًا في الصباح وأعدّت طعام الفطور لزوجها وأبنائها وراقبتهم وهم ينصرفون إلى العمل وإلى نوادي الشطرنج وكرة المضرب، ثم قفلت راجعة إلى مطبخها، وفتحت كتاب الطبخ واختارت منه وجبة اليوم:

شوربة السبانخ مع مهروس الفطر بالكريما.

رخويّات بحريّة بالمايونيز والخردل.

إسكالوب مسفع بصلصة الزبدة والطرخون.

سلطة اعتياديّة بالكرانبري.

رزّ وقرع مكسو بالغراتين،

فطيرة بعشبة الراوند وكريما الڤانيلّا.

استغرقت إيلّا عصر ذلك اليوم كلّه لإعداد الطعام، ولمّا فرغت أخرجت أفضل ما لديها من أطباق الخزف الصيني، ورتّبتها على المائدة، وأعدّت المناديل ونظّمت الزهور. وعمدت إلى توقيت الفرن مدّة أربعين دقيقة، كي تصبح طبقة الغراتين حارّة بحلول الساعة السابعة. كما هيّأت قطع الخبز المحمّص الصغيرة، وزيّنت السلطة على النحو الذي يحبّه آفي،

سلطة ثخينة ومدهنة. وخطر ببالها أن تشعل الشموع ولكنّها غيّرت رأيها عندما فكّرت من جديد، فالأفضل أن تترك الطاولة على هذا النحو. مثل صورة لا تشوبها شائبة. غير ملموسة. غير مؤثّرة.

ثم حملت حقيبتها التي كانت قد وضّبتها وغادرت المنزل. وبينما كانت خارجة، تمتمت بإحدى قواعد شمس: (لم يفت الأوان البتّة على طرح السؤال على النفس: أأنا مستعدّة لتغيير نمط الحياة التي أحياها؟ أأنا على استعداد للتغيير داخليًّا؟ حتى لو كان يوم واحد من حياتك يشبه سابقه من الأيّام، فالمؤكّد أنّ الأمر يبعث على الشفقة والرثاء. فعلى المرء أن يتجدّد ثانية وثالثة في كلّ لحظة وفي كلّ نَفَس يتنفّسه. ثمّة وسيلة واحدة للولادة في حياة جديدة: الموت قبل الموت).

* * *

علاء الدين

قونية، نيسان ١٢٤٨

تقلّبت في الرأي، وغيّرت من أفكاري بمرور كلّ دقيقة فيما يخصّ السلوك الذي ينبغي لي أن أسلكه إزاء الآخرين بعد وفاة شمس بثلاثة أسابيع، حتى استجمعت شجاعتي في نهاية المطاف وقرّرت أن أذهب لأكلّم والدي. وجدته في المكتبة، جالسًا وحده بالقرب من ضوء النار المنبعث من الموقد، ساكنًا سكون تمثال من المرمر، والظلال تزحف على وجهه.

سألت:

ـ هل لي أن أكلّمك يا أبتاه؟

رماني بنظرة ضبابيّة بطيئة كأنّه يسبح عائدًا إلى الشاطئ قادمًا من بحر مشحون بأحلام يقظة ولم يقل شيئًا.

ـ أعرف يا أبي أنّك تعتقد أنّ لي دورًا في موت شمس، ولكن دعني أؤكّد لك. . .

ورفع أبي إصبعه بغتة، مقاطعًا إيّاي، وقال:

ـ بيني وبينك يا ولدي جفّت الكلمات. ليس لديّ ما أسمعه منك وليس لديّ ما أقوله لك.

توسّلت إليه في صوت مرتعش:

ـ أرجوك، لا تقل هذا الكلام يا أبي. اسمح لي أن أشرح لك. أقسم بالله، لست أنا، أعرف الذين فعلوا تلك الفعلة، ولكنّني لست أنا.

قاطعني أبي ثانية، وقد نضب الحزن من وجهه وحلّ محلّه هدوء بارد، هدوء شخص قَبِل أخيرًا بالحقيقة الرهيبة:

ـ أنت تقول إنّك لست أنت يا بنيّ، لكن ثمّة دماء على حافّة ثيابك.

جفلت وتفحّصت حافّات ردائي. أيمكن أن يكون ذلك صحيحًا؟ أثمّة دم عليّ منذ ذلك المساء؟ ألقيت نظرة متمعّنة إلى ثوبي وإلى كمّيَّ ويديَّ وأظافر أصابعي. فبدت نظيفة كلّها. ولمّا رفعت رأسي ثانية، التقت عيناي عينيَ أبي وأدركت وقتئذ الفخّ الصغير الذي نصبه لي.

إذ إنّني في فحصي حافّة ثوبي بحثًا عن الدم في غفلة من أمري، أكون قد فضحت نفسي وكشفت سرّي.

صحيح. فقد انضممت إليهم في الخمّارة من مساء ذلك اليوم. وأنا الذي أخبرت القاتل إنّ شمسًا معتاد الاستغراق في تأمّلاته كلّ ليلة في فناء الدار. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، وعندما كان شمس يكلّم قاتله تحت المطر، كنت واحدًا من الرجال الستّة أسترق السمع بالقرب من سور الحديقة. وعندما قرّرنا أن نهجم لا محالة لأنّه لا سبيل أمامنا للتراجع وأنّ القاتل كان أبطأ ممّا توقّعنا، وأوضحت لهم الطريق المؤدّي إلى فناء دارنا. لكن هذا كلّ ما هنالك، وقد توقّفت عند تلك المرحلة، ولم أُشارك في المعركة، بل كان بيبرس هو المهاجم وقد ساعده أرشد وآخرون. وعندما استبدّ بهم الرعب، أنجز جاكال هيد بقيّة المهمّة.

عشت تلك اللحظة مرّات ومرّات بعد ذلك، وتذكّرتها مرارًا حتى صعب عليّ تحديد الدور الحقيقي من الدور الذي كان من نسيج خيالي. ورسمت مرّة أو مرّتين ذكرى شمس وهو يهرب من بين أيدينا ليلفّه ظلام الليل البهيم، فكانت الصور مفعمة بالحياة حتى كدت أصدّقها.

وعلى الرّغم من أنّه قضى نحبه، فثمّة آثار تدلّ عليه في كلّ حدب وصوب. الرقص والشعر والموسيقى، وظلّت كلّ الأشياء التي ظننت أنّها ستختفي باختفائه مزروعة بقوّة في حياتنا. فقد أصبح أبي شاعرًا، وكان

شمس على حقّ. فعندما تنكسر إحدى الجرّتين، تنكسر الجرّة الأخرى بدورها.

كان أبي رجلاً طيّبًا على الدوام، وكان يحبّ الناس من جميع المذاهب والأديان، ولم يكن رقيقًا مع المسلمين وحدهم بل مع النصارى واليهود وحتى مع الوثنيِّين. وبعد أن ظهر شمس في حياته، اتّسعت دائرة حبّه حتى شملت أكثر الساقطين في المجتمع ـ كالمومسات والسكارى والشحّاذين وحثالة المجتمع.

أعتقد أنّ في مقدوره أن يحبّ قتلة شمس أيضًا.

ولكن على الرّغم من كلّ ذلك، فثمّة شخص واحد لم يستطع أن يكنّ له الحبّ: ابنه.

* * *

سلطان ولد

قونية، أيلول ١٢٤٨

متسوّلون وسكارى ومومسات وأيتام ولصوص. . . وزّع كلّ ما لديه من ذهب وفضّة على المجرمين. تغيّر والدي كثيرًا ولم يعد كسابق عهده منذ تلك الليلة. يقول الناس إنّه فقد رشده حزنًا. ولمّا سُئِل عمّا يفعله، تجده يسرد قصّة امرئ القيس، ملك العرب، الذي كان محبوبًا وثريًّا ووسيمًا ولكنّه خرج في يوم ما على نحو غير متوقّع عن أسلوب حياته المثاليّة، فارتدى جبّة الدرويش وتخلّى عن كلّ ثروته، وهام على وجهه من مكان إلى آخر.

يقول أبي:

ـ هذا ما يفعله بك فقدانك محبوبك، إذ يحلّل ذاتك العظيمة إلى ذرّات تراب ويظهر لك ذاتك الأخرى التي هي ذات درويش. والآن، وبعد أن رحل شمس رحيلاً لا رجعة فيه، فإنّني راحل بدوري، ولم أعد بعد اليوم عالمًا ولا خطيبًا. إنّني رمز العدم، وهنا فنائي، من هنا بقائي.

في يوم من الأيّام، طرق بابنا تاجرٍ أحمر الشعر بدا من هيئته أسوأ كذّاب عرفته الأرض، وقال إنّه كان يعرف شمس التبريزي منذ سنوات عندما كان في بغداد. ثم خفض صوته حتى بات همسًا خافتًا وأقسم اليمين على أنّ شمسًا حيّ وعلى ما يرام وأنّه مختبئ ومستغرق في تأمّلاته في خلوة في الهند منتظرًا الوقت المناسب لكي يظهر من جديد.

وبينما كان يتفوّه بهذه العبارات، لم يبد على وجهه أيّ أثر للصدق، ولكن والدي انتابه الهذيان وسأل الرجل عمّا يطلب لقاء هذا النبأ المدهش. وبلا أدنى خجل أو حياء، قال التاجر إنّه كان منذ صغره يطمح إلى أن يصبح درويشًا ولكن بما أنّ الحياة سارت به في متّجه آخر فإنّه يودّ في أقل تقدير أن يحصل على قفطان عالم مشهور كشهرة الرومي. وعندما سمع أبي هذا الكلام، خلع قفطانه المخملي وسلّمه إليه بكلّ بساطة.

وما إن انصرف الرجل حتى قلت لأبي:

ـ لكن لماذا أعطيت ذلك الرجل قفطانك الثمين وأنت تعلم علم اليقين أنّه كذّاب؟

فقال أبي:

ـ أتظنّ أنّ القفطان ثمن غال دفعته للكذبة؟ لكن تخيّل يا بنيّ، لو كان صادقًا في كلامه وأنّ شمسًا على قيد الحياة حقًّا، لكنت دفعت حياتي ثمنًا لذلك!

* * *

الرومي

قونية، ٣١ تشرين الأوّل ١٢٦٠

على وجه العموم، وبمرور الزمن، يتحوّل الألم إلى نازلة، وتتحوّل النازلة إلى صمت ويتحوّل الصمت إلى توحّد هائل بلا قرار مثل المحيطات المظلمة. اليوم هي الذكرى السادسة عشرة لليوم الذي التقيت شمسًا أمام حانة باعة السكّر. وفي آخر يوم من تشرين الأوّل من كلّ سنة، أخلو بنفسي في خلوتي التي تثقل بمرور الأيّام. أقضي أربعة أيّام في خلوتي مفكّرًا في القواعد الأربعين. أتذكّر كلّ قاعدة وأراجعها، ولكن في أقصى أقاصي عقلي لا يوجد سوى شمس التبريزي متألّقًا.

تعتقد أنّك لا تستطيع العيش من بعد الآن. وتظنّ أنّ ضياء روحك قد انطفأ وأنّك ستلبث في الظلمة الظلماء إلى ما لا نهاية. ولكن عندما يغمرك مثل هذا الظلام الثقيل، حين تغمض عينيك في وجه العالم، تنفتح عين ثالثة في قلبك، وساعتئذ لا غير تدرك أنّ البصر ينازع المعرفة الباطنيّة. فما من عين تشاهد في حدّة ووضوح مثل عين الحبّ. وبعد النازلة يأتي فصل آخر، واد آخر، شخصك الآخر، وتبدأ برؤية الحبيب الذي لا يمكن العثور عليه في أيّ مكان، تبدأ برؤيته في كلّ مكان.

أنت تشاهده في قطرة ماء تسقط في محيط، في المدّ العالي الذي يعقب نموّ الهلال، أو في ريح الصباح التي تنشر عبيرها المنعش، تراه في الرموز الخاصّة بالضرب بالرمل، في الذرّات الصغيرة لصخرة تتألّق تحت

الشمس، في ابتسامة طفل وليد أو في نبض عرق من عروقك. كيف يمكنك أن تقول إنّ شمسًا قد رحل في حين أنّه في كلّ مكان وأنّه كلّ شيء؟

أنا في معيّة شمس كلّ يوم وكلّ دقيقة في ذلك الدوران البطيء من الحزن والشوق. صدري كهف يستريح فيه شمس. كما يردّد جبل صدى في أعماقه، فإنّني أحمل صوت شمس في باطني. ولم تعد فيّ ذرّة واحدة من ذلك العالم والخطيب الذي عرفني به الناس. لقد سلبني حبّي كلّ ذرّاتي وعاداتي، وملأني عوضًا عن ذلك بالشعر. وعلى الرّغم من أنّني أعرف أن لا وجود لأيّة كلمات يمكنها أن تعبّر عن رحلتي الداخليّة، فإنّي أؤمن بالكلمات. أنا إنسان مؤمن بالكلمات.

وقد ساعدني اثنان في أصعب أيّامي وهما ولدي الأكبر وولي اسمه صلاح الدين وكان يعمل في طرق الذهب. وعندما كنت أصغي إليه أثناء عمله في دكّانه الصغير يطرق رقائق الذهب طرقًا مذهلاً جاءني إيحاء غاية في الدهشة يتمثّل في وضع اللمسات الأخيرة على رقص الدرويش الدائري. وكان اللحن المنبعث من دكّان صلاح الدين أشبه بنبض الكون، الإيقاع الربّاني الذي تحدّث عنه شمس حديثًا طويلاً واهتمّ به الاهتمام كلّه.

وفي الموعد المناسب تزوّج ابني بفاطمة، ابنة صلاح الدين، وكانت بذكائها وحبّها للبحث والتحقيق تذكّرني بكيميا. فعلّمتها القرآن، وغدت عزيزة عليّ حتى إنّني كنت أُشير إليها على أنّها عيني اليمنى وأنّ شقيقتها هديّة عيني اليسرى. هذا ما أثبتته لي عزيزتي كيميا منذ زمن بعيد: إنّ البنات تلميذات جيّدات جودة التلاميذ، إن لم يكن أفضل منهم. ورتّبت جلسات رقص دائري للنساء ونصحت الأخوات الصوفيّات بالاستمرار في هذا النهج.

قبل أربعة أعوام بدأت إملاء المثنوي. وجاءني البيت الأوّل فجرًا من دون صلة بأيّ شيء عندما كنت أشاهد نور الشمس يحزّ الظلام. ومنذ ذلك الوقت بدأت القصائد تنهمر من بين شفتيّ وكأنّها تنطلق بقوّة ذاتيّة. ولم أكتب تلك القصائد بل كان صلاح الدين هو الذي كتب بواكيرها بجهد جهيد، وعمد ابني إلى نسخ كلّ واحدة منها. ويعود الفضل إليهما في بقاء تلك القصائد حيّة لأنّ الحقيقة هي أنّك لو طلبت منّي أن أردّد أيّ واحدة

منها اليوم فلا أظنّني بقادر على تحقيق ذلك. كانت الكلمات، نثرًا أو شعرًا، تأتيني بهيئة مجاميع لتغادرني بعد ذلك على حين بغتة مثل طيور مهاجرة. أنا لست سوى ماء تتوقّف عنده وتستريح وهي في طريقها إلى مياه أكثر دفئًا.

عندما أبدأ قصيدة، لا أعرف مسبقًا ماذا سأقول فيها. وقد تكون طويلة أو قصيرة، إذ إنّني لا أخطّط لها. وعندما تكتمل، أهدأ ثانية، وأعيش في صمت والصمت هو أحد التوقيعين اللذين أستخدمهما في غزليّاتي. أمّا الثاني فهو شمس التبريزي.

إنّ العالم يتغيّر ويتحرّك في سرعة لا نستطيع نحن البشر السيطرة عليها أو فهمها. ففي العام ١٢٥٨ سقطت بغداد بيد المغول، وعانت الهزيمة تلك المدينة التي تباهت بشجاعتها وبهائها وكانت مركز العالم. وفي العام نفسه توفي صلاح الدين، واحتفلت أنا ودراويش احتفالاً مهيبًا وسرنا في الشوارع نقرع الطبول ونعزف الناي، نرقص ونغنّي فرحين لأنّ تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يُدفن فيها وليّ من الأولياء.

وفي العام ١٢٦٠، جاء دور المغول لتلحق بهم الهزيمة على أيدي مماليك مصر، وأصبح منتصرو الأمس مهزومي اليوم. إنّ كلّ منتصر يميل إلى الاعتقاد أنّه سيظلّ ينتصر إلى ما لا نهاية. وكلّ مهزوم ميّال إلى الخوف من أنّه سيتلقّى الضربات إلى ما لا نهاية. لكنّ الجانبين مخطئان للسبب نفسه: فكلّ شيء يتغيّر إلّا وجه الله.

بعد وفاة صلاح الدين ساعدني في كتابة القصائد التلميذ حسام الذي نضج نضجًا سريعًا وعلى أكمل وجه على الدرب الرومي وأصبح يلقّب الآن بالاسم حسام شلبي. وكان كاتبي الذي أمليت عليه المثنوي برمّته. كان غاية في التواضع والكرم وإذا ما وجّه أحد الناس سؤالاً عن هويّته أو عن عمله، فإنّه يجيب بلا تردّد (أنا تابع متواضع من أتباع شمس التبريزي. هذا هو أنا).

ورويدًا رويدًا، يصبح الفرد في سنّ الأربعين والخمسين والستّين وعند

كلّ عقد جديد يشعر أنّه أكثر اكتمالاً. ينبغي لك أن تظلّ سائرًا وإن لم يكن ثمّة مكان كي تصل إليه. فالكون يدور دورانًا مستمرًا وعلى نحو ثابت، وكذلك الأرض والقمر، غير أنّ ما يدفع كلّ هذه الأشياء إلى الدوران ليس سوى سرّ من الأسرار يكمن فينا نحن البشر. وعلى أساس هذه المعرفة، سنشقّ نحن الدراويش طريقنا راقصين من خلال الحبّ وتحطّم القلب حتى وإن لم يفهم أحد ما نفعل. إنّنا نرقص جميعًا في وسط هدير أو حرب شاملة، لا يهمّ. وسنرقص في أحزاننا وآلامنا، في أفراحنا وابتهاجنا، وحيدين أو في جماعات، في بطء وفي سرعة كسريان الماء. سنرقص في دمائنا. ثمّة انسجام تامّ وتوازن دقيق في كلّ ما هو موجود وما كان موجودًا في الكون. النقاط تتغيّر باستمرار وتحلّ إحداها محلّ الأخرى، لكنّ الدائرة تظلّ بلا مساس. القاعدة التاسعة والثلاثون تقول: (في حين تتغيّر الأجزاء، يظلّ الكلّ على حاله دومًا. ومع رحيل كلّ لصّ عن هذا العالم، يولد لصّ جديد. ويحلّ محلّ كلّ رجل شريف يوافيه أجله شريف آخر. وعلى هذا الأساس، ما من شيء يظلّ على حاله فحسب، بل ما من شيء يتغيّر أصلاً. وبوفاة كلّ صوفي، يولد صوفي آخر في مكان آخر).

ديننا دين الحبّ. وكلّنا تربطنا سلسلة من القلوب. وإذا ما انفصمت عرى إحدى الحلقات، فإنّ حلقة أخرى تُضاف في مكان آخر. وإذا قضى نحبه من هو على درب شمس التبريزي، فإنّ شمسًا آخر سيظهر إلى الوجود، جديدًا وفي عصر مختلف وتحت اسم مختلف.

الأسماء تتغيّر، تأتي وتذهب، ولكنّ الجوهر يظلّ على حاله.

* * *

إيلّا

قونية، ٧ أيلول ٢٠٠٩

كانت نائمة على كرسي مصنوع من مادّة البلاستيك بالقرب من سريره عندما فتحت بغتة عينيها وأصاخت السمع لصوت غير متوقّع. شخص ما يتفوّه بكلمات غير مفهومة في الظلام. وأدركت أنّه الأذان قادمًا من الخارج. يوم جديد يوشك أن يبدأ، لكن شعورًا ساورها بأنّه سيكون أيضًا نهاية شيئًا ما.

أطرح السؤال على أيّ شخص سمع أذان الفجر أوّل مرّة في حياته وسيخبرك بالشيء نفسه. إنّه جميل وفخم وعميق ومحفوف بالأسرار، ولكن في الوقت عينه، ثمّة شيء خارق ينطوي عليه، شيء يكاد يكون غريبًا، شأنه شأن الحبّ تمامًا.

في هدأة الليل، استيقظت إيلّا على هذا الصوت فجأة. رمشت عيناها بضع مرّات في الظلمة حتى تمكّنت أخيرًا من الاستدلال على صوت رجولي يملأ الغرفة، قادمًا من النوافذ المشرّعة. واستغرقت دقيقة كاملة لكي تتذكّر أنها لم تعد في ماساشوسيتس، وأنّها ليست في البيت الفسيح المترامي الأطراف الذي عاشت فيه رفقة زوجها وأولادها الثلاثة. ذلك كلّه ينتمي إلى زمن آخر ـ زمن بعيد وغامض بدا لها كأنّه حكاية من حكايات الخيال، زمن لا يشبه ماضيها.

لا، إنّها ليست في ماساشوسيتس، بل في بقعة أخرى مختلفة تمامًا

من العالم، في مستشفى ببلدة قونية في تركيا. ولم يكن الرجل ذو الأنفاس العميقة التي تتناهى إليها الآن بوصفها مسحة من أذان الفجر، زوجها الذي عاشت وإيّاه عشرين سنة، بل هو العاشق الذي تخلّت من أجله عن زوجها في يوم مشمس من أيّام فصل الصيف الماضي.

وكان أصدقاؤها وجيرانها قد سألوها مرّات ومرّات:

ـ هل ستتخلّين عن زوجك من أجل رجل لا مستقبل له؟ وأطفالك؟ أتظنّين أنّهم سيغفرون لك صنيعك؟

هكذا بدأت إيلّا تفهم الوضع: إن كان ثمّة ما هو أسوأ في عيون المجتمع من امرأة تتخلّى عن زوجها من أجل رجل آخر، فهو امرأة تتخلّى عن مستقبلها من أجل لحظة راهنة.

أشعلت ضوء المصباح المنضدي وتفحّصت على نوره الكهرماني الخافت الغرفة كأنّما تريد أن تطمئنّ لعدم حدوث أيّ تغيير منذ أن استسلمت للنوم قبل بضع ساعات. كانت أصغر غرفة في مستشفى تراها في حياتها وإن لم تكن قد شاهدت عددًا كبيرًا من غرف المستشفيات في حياتها. كان السرير يشغل معظم أرض الغرفة، أمّا بقيّة الأشياء فقد وضعت حسب انسجامها مع السرير ـ خزانة خشبيّة ومنضدة قهوة مربّعة الشكل وكرسي إضافي ومزهريّة بلا ورود وصينيّة تحتوي على حبوب دوائيّة مختلفة الألوان وإلى جانبها الكتاب الذي كان يقرأه عزيز منذ بداية هذه الرحلة: أنا والرومي.

كانا قد وصلا قونية قبل أربعة أيّام، وأنفقا الأيّام الأولى في المدينة على نحو لا يختلف عن أيّ سائح ـ فزارا النصب التذكاريّة والمتاحف والمواقع الأثريّة، وملأ كلاهما معدتيهما بأطباق الطعام المحلّيّة، وسار كلّ شيء على ما يرام إلى يوم أمس، عندما انهار عزيز أثناء تناوله وجبة الغداء في أحد المطاعم، وسقط على الأرض ونُقل على وجه السرعة إلى أقرب مستشفى. ومنذ ذلك الوقت وهي جالسة تنتظر في هذا المكان إلى جانب سريره، تنتظر ولا تدري ماذا يمكنها أن تتوقّع، مؤملة على العكس من الأمل، وفي الوقت نفسه غاضبة لأنّها فقدت سريعًا الحبّ الذي أعطاها إيّاه الله في وقت متأخّر من حياتها.

وسألت إيلّا:

ـ أأنت نائم يا عزيزي؟

لم يكن قصدها إزعاجه، ولكنّها كانت بحاجة إليه وهو مستيقظ.

لم تندّ عنه أيّة إجابة سوى إيقاع نَفَسه.

وسألت هامسة ورافعة صوتها في الوقت نفسه:

ـ أأنت مستيقظ؟

ردّ عزيز ببطء:

ـ أنا مستيقظ الآن. ماذا هناك؟ ألم تتمكّني من النوم؟

قالت إيلّا:

ـ إنّها صلاة الفجر...

ثم أمسكت عن الكلام كأنّ ما قالته يفسّر كلّ شيء:

صحّته المتدهورة ومخاوفها المتزايدة من أن تفقده وحماقة الحبّ ـ قالت كلّ شيء بتلك الكلمات الثلاث.

اعتدل عزيز في نومه من دون أن تطرف عيناه، وبدا وجهه الوسيم ممتقعًا امتقاعًا يبعث على الحزن من تحت نور المصباح الضعيف والملاءات البيض المحيطة به، ولكن ثمّة شيئًا ينمّ عن القوّة فيه، شيئًا خالدًا.

تمتم:

ـ لصلاة الفجر خصوصيّة. أتعلمين أنّ صلاة الفجر هي الأكثر قدسيّة وأكثرها اختبارًا للمسلم من دون بقيّة الصلوات الخمس التي يفترض به أن يؤدّيها كلّ يوم؟

ـ وما سبب ذلك؟

ـ أعتقد لأنّها توقظنا من أحلامنا، ونحن لا نحبّ ذلك، بل نفضّل الاستمرار في النوم. لهذا ثمّة عبارة في أذان الفجر لا نجدها في أيّ أذان آخر: (الصلاة خير من النوم).

وفكّرت إيلّا: (لكن ربّما كان النوم أفضل لكلينا، هذا إن كان في وسعنا أن نستسلم للنوم معًا). كانت توّاقة إلى نوم سهل، لا يعكّر صفوه شيء، ولا

يقول سحرًا عن نوم الأميرة النائمة(*)، مائة سنة من الخدر لتخفيف الألم.

وبعد برهة قصيرة، انتهى الأذان، وتردّد صداه في موجات متلاحقة بعيدة، وما إن تلاشت الكلمات الأخيرة حتى أضحى العالم، يا للغرابة، آمنًا يلفّه صمت لا يحتمل. مرّ عام بأكمله على وجودهما معًا. سنة واحدة من الحبّ والوعي، وكان عزيز معظم الوقت على ما يرام ممّا دفعه إلى السفر رفقة إيلّا، غير أنّ صحّته تدهورت في الأسبوعين الأخيرين تدهورًا ملحوظًا.

راقبته إيلّا وهو يستسلم للنوم من جديد، هادئ الوجه، محبوبًا. احتشد ذهنها بأنواع القلق، وتنهّدت في عمق وخرجت من الغرفة، واجتازت ممرّات كانت جدرانها مطليّة كلّها بمختلف تدرّجات اللون الأخضر، ودخلت ردهات شاهدت فيها مرضى، كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساءً، البعض يتماثل للشفاء والبعض الآخر يقضي نحبه. حاولت ألّا تمانع في تحديق الأهالي المحبّ للاستطلاع، ولكن شعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين زادت من توهّجها برغم أنّها أجنبيّة، ولم تشعر من قبل أنّها بهذه الدرجة من الاغتراب في هذا المكان. على أيّة حال، لم تكن إيلّا قد سافرت كثيرًا.

بعد مرور بضع دقائق، كانت تجلس بالقرب من نافورة الماء في حديقة المستشفى الصغيرة والبهيجة. وفي منتصف النافورة تمثال لملاك صغير وفي قعرها بضع قطع نقود فضيّة برّاقة، تحمل كلّ قطعة منها رغبة سرّيّة لشخص ما. فتّشت في جيوبها علّها تعثر على قطعة نقد، ولكنّها لم

(*) الأميرة النائمة The Sleeping Beauty: حكاية خرافيّة للمؤلّف الفرنسي تشارلز بيرو (١٦٢٨ ـ ١٧٠٣) الذي يُقال إنّ ابنه الصغير الأميرة النائمة هو الذي كان يملي عليه الحكايات الخرافيّة التي اشتهر بها وترجمها إلى الإنكليزيّة روبيرت سامبر في ١٧٢٩. في حكاية الأميرة النائمة، تُدعى سبع جنّيّات لحضور حفل تعميد ابنة أحد الملوك، وأُغفل شأن جنّيّة عجوز فتأتي إلى الحفل من دون قناع. وتمنح الجنّيّات الستّ الأولى الطفلة كلّ ما يخطر على البال من جمال غير أنّ الجنّيّة العجوز تقول إنّها ستجرح نفسها بمغزل وتموت. أمّا الجنّيّة السابعة التي ظلّت عن عمد وراء الستار، فتصلح من شأن هذا المصير وتحوّل الموت إلى نوم مائة سنة ولن يوقظها منه إلّا بعد مجيء ابن الملك. وتضع الجنّيّة الجميع في القلعة ليناموا كي لا تستيقظ الأميرة وحدها. وفي الوقت المحدّد يأتي الأمير ويوقظ النائمين. (المترجم).

تجد شيئًا سوى ملاحظات دوّنتها بعجالة، ونصف قطعة من الشوكولا.
وعندما وقع بصرها على الحديقة، شاهدت أمامها عددًا قليلاً من الحصى، ملساء وسوداء ولامعة. فالتقطت واحدة منها وأغمضت عينيها ورمت بها إلى النافورة متمتمة بأمنية تدرك أنّها لن تتحقّق. وارتطمت الحصاة بسياج النافورة وسقطت جانبًا، في حضن الملاك الحجري.

وفكّرت: لو أنّ عزيز هنا، لرأى في ذلك علامة.

وعندما رجعت إلى المستشفى بعد مرور نصف ساعة، شاهدت طبيبًا وممرّضة شابّة تضع وشاحًا على رأسها في الغرفة، وملاءة السرير تغطّي رأس عزيز.

كان قد قضى نحبه.

* * *

ودُفن عزيز في قونية على خطى حبيبه الرومي.

واهتمّت إيلّا باتّخاذ جميع الترتيبات محاولة أن تخطّط أدقّ التفاصيل، ولكنّها توكّلت على الله أيضًا، مؤمنة بأنّه سوف يساعدها في الأمور التي لا تستطيع إنجازها. فهيّأت بادئ ذي بدء قطعة الأرض التي سيُدفن فيها ـ تحت شجرة مغنوليّة في مقبرة المسلمين القديمة. ثم عثرت على عازفين صوفيّين وافقوا على عزف الناي، وأرسلت رسالة إلكترونيّة إلى أصدقاء عزيز في كلّ مكان داعية إيّاهم لحضور تشييع الجنازة. ولفرحتها الشديدة، تمكّن عدد جيّد منهم من الحضور من مناطق نائية مثل كيب تاون وسان بطرسبرغ ومرشدي أباد وساو باولو. وكان من ضمنهم مصوّرون فوتوغرافيّون مثله، فضلاً عن علماء وصحافيّين وأدباء وراقصين ونحّاتين ورجال أعمال وفلّاحين وربّات بيوت وولدين تبنّاهما عزيز.

كان طقسًا احتفاليًا بهيجًا ودافئًا حضره أُناس من كلّ الأديان، احتفوا جميعًا بوفاته، كأنّهم كانوا يعلمون بأنّ هذا هو مراده. ولعب الأطفال بسعادة على هواهم. ووزّع شاعر مكسيكي نسخًا من ديوانه «خبز الأموات» ورشّ صديق اسكتلندي قديم من أصدقاء عزيز وريقات زهرة على كلّ فرد كأنّه يرشّ نثارًا، وكانت كلّ واحدة منها زاهية الألوان، شهادة على أنّ الموت ليس شيئًا ينبغي الخوف منه. وقال أحد أهالي المنطقة، وكان

مسلمًا عجوزًا محدودبًا ظلّ يراقب المشهد كلّه مكشّرًا عن أسنانه تكشيرة واسعة وبعينين تشبهان المثقاب، قال إنّ هذه الجنازة لا بدّ أنّها أكثر الجنائز التي شهدتها قونية جنونًا باستثناء جنازة مولانا قبل قرون من الزمان.

وبعد مرور يومين على الجنازة، طافت إيلّا وحيدة، أخيرًا، في أنحاء المدينة، ترقب الأسر تمرّ من أمامها والتجّار في دكاكينهم والباعة الجوّالين توّاقين إلى بيع سلعة من السلع أو أيّ شيء. وحدّق الأهالي إلى هذه المرأة الأميركيّة تسير بينهم متورّمة العينين من كثرة البكاء. غريبة غربة تامّة، غريبة غربة تامّة في كلّ مكان.

وعادت إلى الفندق، وقبل أن تغادرة وتتّجه نحو المطار، خلعت سترتها وارتدت بلوزة منفوشة بلون الخوخ، وفكّرت أنّه لون سهل ومعتدل أكثر ممّا ينبغي لامرأة تحاول ألّا تكون سهلة ومعتدلة. ثم اتّصلت بجانيت التي كانت الوحيدة من بين أبنائها الثلاثة التي ساندتها وأيّدتها في قرارها بالانصياع إلى قلبها. أمّا أورلي وآفي فظلّا مخاصمين إيّاها، لا يكلّمانها.

وسألت جانيت في صوت يشيع دفئًا:

ـ كيف حالك يا أمّاه؟

مالت إيلّا إلى أمام وابتسمت كأنّ ابنتها واقفة قبالتها تمامًا، ثم قالت في صوت خفيض لا يكاد يُسمع:

ـ مات عزيز.

ـ آه، يا أمّي. إنّني آسفة.

ساد صمت قصير انشغلت الاثنتان فيه بما يمكن أن تقوله كلّ واحدة منهما. وكانت جانيت هي التي كسرت حاجز الصمت بقولها.

ـ وهل سترجعين إلى البيت الآن يا أمّي؟

نقرت إيلّا على رأسها مفكّرة، فقد سمعت في السؤال سؤالاً آخر غير معلن. هل سترجع إلى نورثهامبتون وإلى زوجها وتوقف إجراءات الطلاق التي تحوّلت إلى متاهة من السخط والنقمة والاتّهامات المتبادلة؟ ما الذي ستفعله الآن؟ ليس لديها مال، ولا عمل، ولكن في إمكانها أن تلقي دروسًا خصوصيّة في اللغة الإنكليزيّة أو تشتغل لحساب إحدى المجلّات أو، من

يدري، ربّما تتحوّل إلى محرّرة جيّدة لأعمال روائيّة يومًا ما.

أغمضت إيلّا عينيها برهة وجيزة من الزمن وتنبّأت في نفسها تنبّؤًا ينمّ عن إيمان وثقة يبعثان على الحبور عمّا ستأتيها به الأيّام المقبلة. فهي لم يسبق لها أن كانت بمفردها كما هو حالها الآن، ولكنّها على الرّغم من ذلك، ويا للغرابة، لم تشعر بالوحدة.

قالت:

ـ اشتقت إليك يا حبيبتي، واشتقت إلى أخيك وإلى أختك أيضًا. هل ستأتين لزيارتي؟

ـ على وجه التأكيد يا أمّي، سأزورك، وسنزورك، لكن ماذا ستفعلين الآن. أأنت متأكّدة أنّك لا تريدين العودة؟

قالت إيلّا:

ـ إنّني ذاهبة إلى أمستردام. ثمّة شقق صغيرة جدًّا، غاية في الأناقة هناك، تطلّ على القناة، وفي إمكاني استئجار واحدة منها. إنّني سأضطر إلى تحسين وضعي بركوب الدرّاجة الهوائيّة. لا أدري... لن أضع أيّ خطط يا حبيبتي. بل سأحاول أن أعيش يوما بيوم. وسأرى ما الذي يمليه عليّ قلبي. وهذه هي إحدى القواعد. صحيح؟

ـ أيّ قواعد يا أمّي؟ ماذا تقولين؟

اقتربت إيلّا من النافذة ورفعت بصرها إلى سماء زرقاء مدهشة في كلّ الاتّجاهات. كانت تدور في سرعة غير مرئيّة خاصّة بها، متحلّلة إلى عدم مواجهة بذلك احتمالات لامتناهية، شأنها شأن درويش يرقص رقصة دائريّة.

قالت إيلّا في بطء: إنّها القاعدة الأربعون: (الحياة بلا حبّ تافهة، لا يؤبه بها. لا تسألي نفسك عن الحبّ الذي ينبغي لك البحث عنه، روحيًا أو ماديًّا، دنيويًا أو ربّانيًا، شرقيًا أو غربيًا... التقسيمات لا تؤدّي إلّا إلى تقسيمات أخرى. ليس للحبّ أسماء ولا تعريفات. هو ما هو، شفّاف وبسيط. الحبّ هو ماء الحياة، والعاشق روح النار!

والكون يصبح كونًا مغايرًا عندما تحبّ النار الماء).

* * *

ـ انتهت ـ

شكر وتقدير

تعني كلمة «دوست» التركيّة «صديق». إنّني مدينة بشكر وعرفان أكبر ممّا أستطيع التعبير عنه لأصدقاء في كلّ مكان ـ اسطنبول وأمستردام وبرلين ولندن. ثمّة عدد كبير من الأشخاص كانوا مصدر إلهامي في تأليف هذه الرواية بما قدّموه من قصص وصمت. وأنا غاية في الامتنان لمارلي روسوف الناشرة الأدبيّة التي كانت مؤمنة بي منذ اليوم الأوّل، ونظرت إليّ على الدوام بعينها الثالثة. أشكر العزيز ميشيل رادوليسكو لدعمه المتواصل وإيمانه اللذين لم ينقطعا قطّ، والذي كان حضوره كافيًا لي عندما كنت في مسيس الحاجة إلى المساعدة. وإنّني مدينة أيضًا لمحرّري پول سلوفاك على إسهاماته التي لا تُعدّ ولا تحصى وعلى حكمته الباطنيّة فضلاً عن اقتراحاته الجوهريّة عندما كانت المخطوطة تتنقّل بين اسطنبول ونيويورك.

كما أتقدّم بخالص شكري إلى الصوفيّين في جميع أرجاء العالم، الذين التقيتهم وما زال عليّ أن ألتقيهم، والذين ربّما يحملون أسماء وجوازات سفر مختلفة ولكنّهم يتمتّعون على الدوام بالقدرة المدهشة نفسها لرؤية الأشياء من وجهتي نظر اثنتين، وجهة نظرهم ووجهة نظر الآخر. شكرًا لك يا زينب ويا أمير وهاندي وبيضة لما قدّمتموه من وقت وصبر ومحبّة وإسهامات لا تُقدّر بثمن. كما أوجّه الشكر من صميم فؤادي لمرجان ديدي على كرم قلبه وصداقته الفريدة.

وأخيرًا، لأيّوب ولأطفالي، شكري لإظهارهم لي روحًا متنقّلة يمكنها أن تستقرّ في مكان واحد وأن تبقى برغم ذلك حرّة. إنّ هذا الكتاب مدين لكم بأكثر ممّا أستطيع التعبير عنه.

المؤلّفة

t.me/read4lead

t.me/read4lead

بلغت بطلةُ الرواية، إيلّا، الزوجةُ التعيسة، سنَّ الأربعين عندما قرأتْ روايةً تتناول حياةَ جلال الدين الروميّ ومعلِّمِه الدرويشِ الصوفيِّ شمس التبريز، فسحرتْها قواعدُ شمس التي تُضيء مفاهيمَ فلسفةٍ قديمة حول وحدة الشعوب والأديان، وحول شغف الشعر، وعمقِ الحبِّ المدفون في كلّ فرد منّا، فتُقلَب حياةُ "إيلّا" رأسًا على عقب...

أليف شافاك هي الروائيَّة الأكثرُ مبيعًا في تركيا. نالت جوائز أدبيَّة عالميَّة وتركيَّة عديدة. تُرجِمت أعمالها إلى معظم اللغات العالميَّة.

صدر لها عن دار الآداب:

"شرف" و"لقيطة إسطنبول" و"الفتى المتيَّم والمعلِّم" و"قصر الحلوى" و"حليب أسود" و"بنات حوّاء الثلاث".

http://www.elifshafak.com